تيسير الولي الحميد

لشرح كتاب التوحيد

لإمام الدعوة الشيخ المجدد

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان

التميمي رحمه الله

لأبي عائش محمد سميح فاضل الشيخ

حفظه الله

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل، ومَن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٢

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: ١

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧٠-٧١

أما بعد: -

فهذا تفريغٌ لشرحِ كتابٍ من كُتب التوحيد التي لا غنى لمن أراد الوقوف على حقيقة التوحيد وما يضاده عنها، ألا هو كتاب الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله "كتابُ التوحيد"، وقد جاء الشرح في ثلاثين محاضرة صوتية ألقيت بمسجد الرضوان بمدينة كرداسة. بمحافظة الجيزة بمصرنا الحبيبة حرسها الله وحماها من كل مكروه وسوء. ولا شك أن أمر التوحيد أمر عظيم:

فهو الذي من أجله أرسل الله تبارك وتعالى الرسل، وأنزل الكُتب، وخلق السماوات والأرض، وخلق الجنة والنار، وأنشأ سوق الجهاد، وجعل الناس فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

والتوحيد هو أول دعوة الأنبياء، فما من نبي يأتي قومه إلا ويقول لهم كما ذكر الله تبارك وتعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، قالها غير واحد من الأنبياء والمرسلين ممن قصَّ الله علينا قصصهم في كتابه الكريم.

حتى عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أول ما تكلم في المهد بعد أن اتُّهمت أمه، لم يقل هذه أمي، وليست بزانية، وإنما قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، فنطق أول ما نطق في مهده بكلمة التوحيد، وبيان عبوديته لله تعالى.

فما من نبي يأتي قومه إلا ويقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وذكر الله ذلك إجمالًا عن جميع الرسل، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ الزخرف:٤٥

وقد قال بعض العلماء في بيان فضل التوحيد: إن قاعدة الإسلام العظمى وحقيقته الكبرى التي لا يقبل الله غيرها إلا بها، ولا يرضى لعباده سواها، ولا طريق إليه إلا عن طريقها، وهي الفاتحة للسعادة وسبيل الهداية، وعنوان الفلاح، وهي العاصمة من الخلاف، وهي الأصل لكل خير ونعمة، وهي أول ما ندب الله الخلق إليه، وبشَّر به رُسل الله وأنبياؤه.

هذا الأمر الذي له كل هذه الصفات هو عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، توحيدًا في قصده، وفي خلقه، وأمره، وأسمائه، وصفاته تبارك وتعالى.

فقد قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷻ: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال الله ﷻ : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُلَّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ.

قال: وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ.

أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الدول والمجتمعات التي تقوم على التوحيد تجد عندها خير الدنيا عاجلًا وكذلك خير الآخرة في الآجل.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنك تجد ذلك كذلك في خاصة نفسك، فليس المؤمن الموحد المُفرِد ربَّه تبارك وتعالى بالعبادة كالمشرك، فلا شك أن المؤمن له أجر عظيم عند الله تبارك وتعالى، وله حياة طيبة عنده تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة.

ولذلك قال الله ﷻ في سورة النحل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

فقد قال ﷻ: فلنحيينه حياة طيبة، وأطلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه الحياة الطيبة تشمل حياة الدنيا، وكذلك حياة الآخرة.

فلـمَّا كان هذا شأن التوحيد، وكانت هذه آثاره الحميدة وخصاله الجليلة، كان الشيطان أسرع شيء إلى هدمه وتقويضه.

لـمَّا كانت هذه المزايا وهذه الفضائل لا تجدها إلا في توحيد الله تبارك وتعالى وفي إخلاص العبادة له: كان الشيطان أسرع شيء إلى هدمه وتقويضه، فلا يستوفي مضارته وتهوينه، ولا يزال يسعى إلى ذلك غُدوه ورواحه بكل طريق يأمل عائدته ويرجو فائدته، فإن أيس من الشرك الأكبر لم ييأس من شرك المقاصد والألفاظ:

إما أن يُدخِل في نيتك ما لا يرضي الله تبارك وتعالى، وإما أن يوقِعك في ألفاظ تكون من قبيل الشرك، وإذا لم يُفلِح توسَّل إليه بالبدع والخرافات في استخفاءٍ ماكر خبيث ووسوسة كذوب، كما تسري النار في الهشيم البالي.

وأنت ترى آثار ما يفعله هذا الشيطان في بني آدم، هذه الآثار التي تمكنت بها حلقات الشر والتأم بها الفساد، وعادت فئام من الأمة إلى الجاهلية الأولى.

وكل دعوة للإسلام لا تقوم على توحيد الله تبارك وتعالى فهي دعوة تائهة مخذولة.

ولذلك وفق الله أهل السُنَّة والجماعة الفرقة الناجية والطائفة المنصورة إلى نهج ما كان عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، بل ما كان عليه سائر الأنبياء والرُسل، ولذلك تجد أهل السُنَّة والجماعة في سلوكهم، ودروسهم، في معاملتهم للخلق: تجد كل ذلك قائمًا على أمرين عظيمين عليهما مدار الدين:

● أما الأمر الأول: فعلى إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى وعلى توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المعتقد وفي اللسان، أي في قول اللسان، وكذلك في أعمال الجوارح.

●وأما الأمر الثاني: فإنهم يعلمون أن الله تبارك وتعالى لا يقبل عبادة وإن كانت خالصة إلا بمتابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فتجد أهل السُنَّة والجماعة دائمًا في كل أمر وإن دقَّ يبحثون عن نهج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن فهم سلف هذه الأمة.

ولذلك تجدهم في عباداتهم موافقين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي أخلاقهم موافقين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تجدهم بفضل الله تعالى ثابتين ناجين من الفتن وإن عظمت، لماذا؟

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما مات إلا وقد بيَّن كل شيء يكمل به هذا الدين، كما أخبر الله تبارك وتعالى.

فمما بيَّنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأمر العظيم، أعني أمر التوحيد، وحضَّ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إنه في مرضه الذي مات فيه قال أكثر من مرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تتخذوا قبور أنبيائكم مساجد، ألا إني أنهاكم عن ذلك»**، وهو في سياق الموت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر بالتوحيد ليبين لنا أهمية هذا الأمر، وعند البخاري من حديث عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا:

"لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا."

ومن الكتب العظيمة التي وُضعت في هذا الشأن وفي هذا الباب هذا الكتاب العظيم الذي بين أيدينا، بل لا يكاد يوجد كتاب أُلِّف كهذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب عليه رحمة الله.

فهذا الكتاب فريد في بابه، أعني في باب توحيد الألوهية، فتراه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرر ذلك أعظم تقرير من ذكر الآيات والأحاديث، وآثار السلف الصالح، كما أنك تعجب كذلك من دقة تراجم أبواب هذا الكتاب.

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو كتاب التوحيد لم يؤلفه المؤلف هكذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ استرسالًا.

يعني ما جاء كلاماً على خاطره فكتبه ووضعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما الناظر في تراجم هذا الكتاب والناظر في الآيات التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك في عزوه لهذه الأحاديث يتبين له أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتقن تصنيف هذا الكتاب، وكان مؤيَّداً من الله تعالى.

حتى قال بعض علمائنا: لو قامت رسالة على فقه الإمام محمد بن عبد الوهاب في تراجمه لهذا الكتاب لكانت رسالة عظيمة، كما تكلموا عن تراجم البخاري في صحيحه، فقالوا: إن فقه البخاري يؤخذ من تراجمه.

وكذلك الناظر في تراجم هذا الكتاب أعني كتاب التوحيد يعلم عظيم ما كان عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الفقه ومن العناية بهذا الأمر الجليل.

فمن ذلك مثلًا:

أنك قد تجد بعض التراجم المتشابهة، فتظن أن المؤلف ما جاء بجديد، المراد بالترجمة عنوان الباب، فهو يذكر العنوان ثم بعد ذلك يذكر الآيات والأحاديث، هذا هو المقصود بالترجمة، ترجمة الباب يعني عنوان هذا الباب، والترجمة مردها في لغة العرب للتفسير والبيان.

فهناك بعض التراجم التي تنظر فيها تظن أنها تُشبه التي قبلها، وأن المؤلف ما جاء بجديد، فإذا نظرت فيما سرده من الأدلة علمت فقه هذا الإمام.

فمن ذلك على سبيل المثال: أنه ترجم مرتين بقوله: باب ما جاء في حماية النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك، ذكره في ترجمتين بنفس هذه المفردات.

فالناظر لأول مرة يظن أن الإمام ما جاء بجديد، لكنك لو نظرت في الأدلة كما قال علماؤنا: لوجدت أن الأدلة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ في الترجمة الأولى تتعلق بحماية النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للتوحيد من جهة الأفعال: كالصلاة إلى القبر وغير ذلك.

وإذا نظرت في الأدلة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ في الترجمة الثانية وجدت أنه ذكر أدلة تدل على حماية النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لجناب التوحيد من جهة الأقوال، فتجد أن هذه الأحاديث والأدلة التي ذكرها إنما هي فيما يخالف التوحيد وينافيه من جهة الأقوال.

فكان فقهه عظيمًا رَحِمَهُٱللَّهُ.

ومؤلف هذا الكتاب في ترجمةٍ وتعريفٍ مختصر به:

هو العلامة المجدد الإمام بحق، شيخ الإسلام: أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرَّف الوهيبي رَحِمَهُٱللَّهُ التميمي.

وُلد في العيينة سنة ألف ومائة وخمسة عشر من هجرة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ،ونشأ في أحضان أُسرة فاضلة وبين أبوين كريمين.

وهذا يبين لنا دور الوالدين في تربية الأولاد، والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد قال: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"** فهذا يبين الدور الخطير الذي يكون على عاتق الوالدين.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب وُلد لأبوين كريمين: فوالده الأدنى: الشيخ عبد الوهاب بن سليمان، من علماء نجد المعروفين، ومن قُضاة العيينة.

وجده كذلك من المشهورين بالفقه والفتوى، وكذلك عمه.

وأما والدته: فهي من أسرة كريمة أيضًا رحمها الله، وهذا مما هيأ له كما قلنا: البيئة الصالحة ودفعه إلى الإقبال على العلم مبكرًا.

أضف على ذلك: ما حباه الله تبارك وتعالى من الذكاء الوافر، والفَهم الثاقب، والقدرة على الحفظ، حتى حفظ القرآن دون العاشرة، ثم أخذ عن كثير من علماء بلده، ورحل إلى الحجاز وإلى البصرة وإلى الأحساء.

ومن العلماء الذين تتلمذ على أيديهم: والده، وكذلك الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف، والشيخ محمد حياة السندي، والشيخ المسند: عبد الله بن سالم البصري، وكذلك الشيخ عبد اللطيف الأحسائي.

وأما طلابه فهم كُثُر: من بينهم الإمام الذي نصر دعوة محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو عبد العزيز بن محمد بن سعود، وكذلك الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد، وأنجال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما مؤلفاته فكثيرة:

يكفي أن منها في التوحيد كتبًا هي أصول في هذا الباب: من ذلك: الأصول الثلاثة، والقواعد الأربعة، وكشف الشُبهات، والأصول الستة، وهذا الكتاب العظيم الذي معنا الذي لم يؤلَّف مثله في بابه، رحم الله المؤلف وغفر له.

وله كذلك: اختصارٌ لزاد المعاد، واختصارٌ لفتح الباري لم يُطبع، وله مختصر في السيرة، وله كتاب في فضائل الصلاة، وفي الاستنباط، وكذلك في مسائل الجاهلية، إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة.

مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أواخر سنة ألف ومائتين وستة من هجرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن إحدى وتسعين سنة، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله، نسأل الله تبارك وتعالى أن يطيل أعمارنا على بر وتقوى.

قضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه السنوات في ميدان العلم والجهاد والدعوة.

ودفن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمقبرة الدرعية، وقد كُتب في رثائه قصائد كثيرة تنضح بالحب والوفاء.

وأما عقيدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وثناء العلماء عليه:

فما كانت عقيدته إلا عقيدة السلف الصالح من هذه الأمة، وأنت ترى ذلك دائمًا في كل كتبه، فدائمًا يذكر الدليل من كتاب الله ومن سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك من فهم سلف هذه الأمة.

ومما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه كما في مقدمة الدرر السنية: قال: أُشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأُشهدكم أني أعتقد ما اعتقدته الفِرقة الناجية أهل السُنَّة والجماعة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر: قال: أُخبرك وهو يخاطب أحدهم مما كان يكتب إليهم بالرسائل وينصحهم: أخبرك أني ولله الحمد متَّبع ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين الله به: مذهب أهل السُنَّة والجماعة.

وقال في بيان مذهبه الذي يدعو إليه، قال: ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهبٍ صوفيٍّ أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أُعظِّمهم مثل ابن القيم والذهبي وابن كثير وغيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سُنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال عنه الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض حديثه عن بعض رسائله: قال: وهي رسائل جيدة، مشمولة بأدلة الكتاب والسنة، تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين للكتاب والسُنة.

وقال العلامة ابن بدران عنه: العالم الأثري، والإمام الكبير، محمد بن عبد الوهاب، رحل لطلب العلم، وأجازه محدِّثو العصر بكتب الحديث وغيرها، ولما امتلأ

وِطابه من الآثار وعلم السُنَّة وبرع في مذهب أحمد، أخذ ينصر الحق ويحارب البدعة ويقاوم ما أدخله الجاهلون في هذا الدين.

ظل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدعو إلى دين الله تبارك وتعالى، وإلى محاربة البدع والشركيات، حتى توفاه الله ﷻ، ورأى ثمرة دعوته في حياته من انحدار الشرك، ونُصرة هذه الدعوة العظيمة دعوة التوحيد على يده رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

الكتاب الذي سيكون معنا إن شاء الله، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل هو كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وهذا الدرس لن يكون بالبسط العظيم، ولا كذلك بالإخلال أو بالإيجاز المخل، وإنما سيكون درسًا متوسطًا.

والمقصود من كل ذلك: أن يقع النفع بالحق اعتقاداً وعملاً، فننتفع بهذا الكلام العظيم، وبهذه الآيات والأحاديث، وهذه التراجم التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد قيل: قليل يبقى فينفع خير من كثير يُلقى فيُرفع

فلو لم نذكر إلا كلامًا قليلًا حول هذه الآيات والأحاديث لكفت، ومع حفظ هذه الآيات والأحاديث يتم النفع إن شاء الله.

فهذا هو الطريق لمن أراد أن يتعلم:

عليه أن يحفظ، وأن يراجع، وأن يعلم الطريق الموصِّل إلى مطلوبه، فما من مطلوب إلا وله طريق يوصِّل إليه، ومن أخطأ الطريق كما قال السلف: ضل ولم ينل المقصود.

فهذا الباب باب التوحيد له طريق معروف.

فلو تكلمنا عن هذا الإمام العظيم في كتبه التي صنفها، فتجده رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يصنف هذه الكتب على درجة واحدة، وتجد من سمات كُتب هذا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها كتب يفهمها العامي كما يفهمها طالب العلم والعالم، وكلٌّ يستفيد منها.

فليست ككتب المتكلمين من أهل البدع والأهواء ورؤوس الفرق المجانبة لنهج أهل السنة والجماعة، فإنها لمَّا جانبت منهج أهل السنة في الاستدلال والاستنباط صعبت وعسر فهمها واشتملت على كثير من الإجمال والزيغ والضلال، وأما مؤلَفنا فإنك ما تجد كلامًا من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خلال هذا الكتاب إلا من خلال الفوائد التي استنبطها من هذه الآيات والأحاديث.

فإذا نظرت إلى ما ألفه تجده سهلًا ميسورًا، تستطيع أن تفهمه، مع أن كتبه ليست على درجة واحدة، بل سلك فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبيل التدرج، فمثلاً: الأصول الثلاثة، وهو كتاب مؤلف موجود للمبتدئين، يختلف عن ثلاثة الأصول:

فالأصول الثلاثة ليس كالثلاثة الأصول، وإنما الأصول الثلاثة كما يقول العلماء: ألفه للأطفال لكي يحفظوه ويفهموه، تجد فيه بعض الأسئلة التي توجد في كتاب ثلاثة الأصول، مَن ربك؟ ما دينك؟ ما حق الله تبارك وتعالى على الخلق؟ إلى غير ذلك.

ثم بعد ذلك ألف ثلاثة الأصول وهو هذا الكتاب الذي قرأناه كثيرًا، ثم القواعد الأربعة، ثم بعد ذلك أهل العلم يقولون بعد ذلك: الأصول الستة، ثم كتاب التوحيد وكشف الشُبهات، فتجد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألف ذلك على سبيل التدرج بطالب العالم لكي يصل في هذا الباب إلى مبتغاه.

فما من طريق كما قلنا إلا ولا بد أن تسلكه على هذه الجادة.

فسبيلنا إن شاء الله في هذا الكتاب، يكون كذلك:

أولًا: نقرأ الترجمة.

ثم بعد ذلك نقرأ الآيات والأحاديث التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم يتم التعليق على هذه الآيات وبيان مناسبة الترجمة، وعلاقتها بهذه الآيات والأحاديث، ثم بذكر بعض الفوائد المستنبطة من هذا الباب.

وتحفيزًا لحضور هذا الدرس وللإقبال عليه وللمذاكرة وللانتفاع به، أقول: إن شاء الله لعله قد تكون هناك إجازة عند الانتهاء من شرح هذا الكتاب المبارك.

ولكن على طالب العلم وعلى المستمع أن يُخلِّص نيته لله تبارك وتعالى عند حضور هذه الدروس، فلا ينوي فقط أن يُحصِّل هذه الفائدة الأخيرة التي ذكرناها، وإنما تكون النية الأولى ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى: بأن يرفع الجهل عن نفسه، وأن يتعلم، وأن يدعو إلى ما تعلَّمه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

نسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العُليا أن يتقبل منا ومنكم سائر أعمالنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(المتن)

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوحيد .

(الشرح)

بدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبسملة، اقتداءً بكتاب الله تبارك وتعالى وعملًا بسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العملية، فقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رسائله يبدأ بالبسملة، كما في كتابه لهرقل عظيم الروم، كما عند البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس، وكذلك سنته القولية كما قال لعلي رضي الله عنه في صلح الحديبة : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، والحديث عند مسلم وغيره.

والباء في بسم الله متعلقة بمحذوف، وهذا المحذوف الراجح فيه أنه فعل، وأنه متأخر، فيكون التقدير: بسم الله أُألف حال كوني مستعينًا بذكره تبارك وتعالى متبركًا به، فالباء قيل: إنها للمصاحبة، وقيل: إنها للاستعانة.

وإنما أُخِّر هذا المحذوف عن البسملة لدلالته على الاختصاص، وكذلك للتبرك باسم الله تبارك وتعالى.

بسم الله، والاسم قيل إنه مشتق من السمو، يعني الارتفاع، وقيل: هو مشتق من الوسم أي العلامة، لأن كل مَن سُمي بهذا الاسم نُوِّه باسمه ووُسِم به.

قال: بسم الله، وهذه اللفظة الله الذي هي الاسم الحسن، أصلها: الإله، ولكن كما قال جمهور العلماء: حُذفت الهمزة، وأُدغمت اللام في اللام فصارتا لامًا واحدة.

والصحيح أن هذا الاسم مشتق وليس بجامد، وهو مشتق من أله يأله فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المألوه أي المعبود بحق محبة وتعظيماً.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذين قالوا بالاشتقاق في أسماء الله تبارك وتعالى وقالوا إنها مشتقة من الصفات إنما أرادوا أنها تدل على صفة له تبارك وتعالى، فاسم الله

يدل على الإلهية، وكذلك العليم والقدير والسميع والبصير، فهذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب.

ثم قال: ونحن لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله.

فالصحيح في اسم الله تبارك وتعالى أنه مشتق كسائر الأسماء.

قال: بسم الله الرحمن، والرحمن دل على الصفة القائمة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالرحمن صفة ذات له تبارك وتعالى، والرحيم: صفة فعل له تبارك وتعالى.

فالرحمن أي ذو الرحمة الواسعة، ولذلك قُرن اسمه الرحمن مع أوسع مخلوقاته: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقُرنت بصفة العلم، فكما أنه لا يعزُب عن علمه شيء، وأنه وسع كل شيء علماً، فكذلك رحمته.

وأما الرحيم: فهو صفة فعل تتعلق بحكمته ومشيئته، فالرحيم أي ذو الرحمة الواصلة.

فالرحمن ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة، أي يوصِّلها لمن شاء من خلقه، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وكأن هذه الباء باء التعدية، أي هو الذي يوصِّل هذه الرحمة للمؤمنين وقتما شاء كيفما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

(المتن)

كتاب التوحيد.

(الشرح)

كتاب مصدر لكَتَب يكتب كتابًا وكَتْبًا، وهي مادة تدل على الجمع.

فالكتاب سُمي كتابًا لجمعه ما وُضع له، فهذا الكتاب إنما سُمي كتاب التوحيد لأنه جمع الآيات والأحاديث وأقوال السلف التي تدل على وجوب إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة، وكذلك الآيات والأحاديث التي تُحذِّر من الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر.

والتوحيد لغةً: مصدر من الفعل وحّد يوحد توحيدا، أي جعل الشيء واحداً، وهذا التوحيد لا يكون إلا بنفي وإثبات وهما ركنا كلمة التوحيد لا إله (نفي عام) وإلا الله (إثبات خاص) أي لا إله معبود بحق إلا الله.

وشرعاً: إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وبالتتبع والاستقراء لنصوص الوحي قسم العلماء التوحيد إلى قسمين:

- توحيد في المعرفة والإثبات، وهو الذي ينقسم إلى نوعين: إلى توحيد الربوبية، أي أن تُفرد الله تبارك وتعالى بأفعاله هو من الرزق والخلق والتدبير، وكذلك توحيد الأسماء والصفات: أن تُثبت لله ما أثبته لنفسه، وأن تنفي عنه ما نفاه عن نفسه، وعلى لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- والنوع الثاني: وهو توحيد الطلب والقصد، وهو أن توحِّد الله تبارك وتعالى بعبادتك أنت، فأنت الذي تدعو، وأنت الذي تخشى، وأنت الذي تذكر، وأنت الذي تذبح، وأنت الذي تنذر، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وهذا التوحيد بنوعيه هو ما جاءت به الرسل، فالرسل لم تأت بنوع واحد من أنواع التوحيد، وإنما جاءوا بهذين النوعين: بتوحيد الإثبات والمعرفة، وتوحيد القصد والطلب، والأخير هو الذي كانت فيه الخصومة بين أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم وأقوامهم كما سيأتي، وأما النوع الأول فمن أثبته لله تعالى لزمه إثبات الأخير له، ومن هنا كان الاحتجاج به على استحقاقه تعالى للعبودية دون من سواه كما قال تعالى ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ□ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة:٢١

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فالتوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده، بأن يشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وأن يعبد الله، لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله، وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات.

قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

فأخبر تبارك وتعالى عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فليس التوحيد مقصورًا على توحيد الربوبية، أي أن تعتقد أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق هذا العالم ودبَّر شأنه وأمره، وأن تُثبت لله ما أثبته لنفسه، وأن تنفي عنه ما نفاه عن نفسه فقط.

فإن المرء لو أقرَّ بهذه الأمور دون أن يشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أي لا معبود بحق إلا الله ما كان موحدًا، فلا بد أن يُقر بأن الله وحده هو المستحق للعبادة.

وهذه هي دعوة الأنبياء والرسل: قال الله تعالى على لسان كل نبي من الأنبياء، يأتي قومه يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فهذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما أراد من هذه التقدمة قبل أن ندخل في أبواب الكتاب أراد أن يبين وجوب التوحيد، بل كتابه كله قائم على ذلك: على بيان هذا الأمر، على بيان وجوب التوحيد، وبيان ما يضاده:

سواءً كان يضاده في أصله: وهو الشرك الأكبر.

أو ينافي كمال التوحيد الواجب: وهو الشرك الأصغر.

فالشرك الأصغر لا ينافي أصل التوحيد، وإنما ينافي كمال الإيمان الواجب، أي يقدح في إيمان العبد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

(الشرح)

فهذه الآية دالة على أن الله تبارك وتعالى وحده هو المستحق للعبادة، ودلالتها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالعبادة إذا أُطلقت في خطاب الشرع فالمراد بها التوحيد، أي أنك إذا وجدت في خطاب الشرع لفظة العبادة فالمراد التوحيد، فهذا هو معهود استعمال الشرع لهذه اللفظة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد.

فالآية تدل على أن الله وحده إنما خلق الإنس والجن للغاية، وهذه الغاية هي توحيده تبارك وتعالى، وإن كان الله خلقك لذلك فأنت مأمور به، والأمر للإيجاب، فيكون التوحيد واجبًا.

وأسلوب القصر. الوارد في الآية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ووسيلته النفي والاستثناء يبين الحكمة من خلق الجن والإنس، وهي حكمة شرعية دينية.

فالله تعالى فعل بهم الأول الذي هو الخلق ليفعلوا هم الثاني الذي هو العبادة.

فهو تبارك وتعالى خلقهم لعبادته، ثم قد يعبدونه وقد لا يعبدونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عذبه أشد العذاب، وهو سبحانه غني عن عباده غير محتاج إليهم؛ إذ هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

واللام في الجن والإنس للاستغراق، فلا يتخلف فرد من أفراد الإنس والجن عن الدخول تحت الغاية التي من أجلها خُلقوا، وقدم الجن على الإنس إما لسبق وجودهم، أو لبيان ما كان عليه المشركون من ضلال؛ فإنهم كانوا يعبدون الجن كما قال الله تعالى ﴿{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ سبأ: ٤٠

(المتن)

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾.

(الشرح)

يقول تعالى ذكره: ولقد بعثنا أيها الناس في كلّ أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة

﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يقول: وابعدوا من الشيطان، واحذروا أن يغويكم، ويصدْكم عن سبيل الله، فتضلوا." انتهى من جامع البيان للإمام الطبري رحمه الله.

هذه الآية كذلك تدل على وجوب التوحيد، ووجوب إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة وتدل كذلك على نبذ الشرك، وذلك من وجهين:

أما الوجه الأول: ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿ أَنِ اعبُــــدُوا الله ﴾، فهو أمر بالعبادة، فالبعث فيه معنى القول، فدعوة الأنبياء والمرسلين قائمة على الدعوة إلى التوحيد والأمر به.

وسبق أن قلنا: إن العبادة في خطاب الشرع ومعهود استعماله يقصد بها توحيد الإلهية.

فالتقدير: أن وحِّدوا الله، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا ﴾ [النحل: ٣٦]، ما مهمة هذا الرسول: أن وحِّدوا الله، أي أن أفرِدوه بالعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك في قوله: ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، هذا هو الوجه الثاني، فهو أمر بمباعدة عبادة غير الله تبارك وتعالى.

ولا تتحقق هذه المباعدة إلا بالتوحيد، فهذا يدل كذلك على وجوب التوحيد.

قال: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

ما الطاغوت؟

الطاغوت مشتق من الطغيان، والطغيان هو مجاوزة الحد، وقد حده ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدًا جامعًا مانعًا.

قال ابن القيم في بيان حدِّ الطاغوت: أنه: كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ، فكل شيء له حد معين، فإذا تجاوز العبد الحد من مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ؛ صار طاغوتاً.

والمعبود كالصنم، فيصير هذا الصنم طاغوتًا يُعبد من دون الله.

والمتبوع كالعالم: فإذا تجاوز العبد الحد في هذا العالم وجعل أقواله معصومة تُقبل بالإطلاق دون عرضها على الكتاب والسنة وإن خالفت الكتاب والسنة: فقد جعل هذا العالم طاغوتًا.

أو مطاعًا: كالأمير: كأن يأمر بغير ما جاء في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالله تبارك وتعالى في هذه الآية يقول: أنه بعث في كل طائفة وجماعة من الناس رسولًا بهذه الكلمة: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فاعبدوا الله وحده واجتنبوا ما سواه، وهذا معنى كلمة التوحيد:

لَا إِلَهَ إِلَّا الله أي لا معبود حق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي هي كقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فالعروة الوثقى هي شهادة التوحيد.

وهذه الآية التي معنا وهي قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾:

دلت على أن الحكمة من إرسال جميع الرسل هي عبادة الله تبارك وتعالى، وأن دين الأنبياء واحد وإن اختلفت شرائعهم، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح وغيره: قال: «الأنبياء كلهم بنو علَّات، دينهم واحد، وأمهاتهم شتَّى».

والعلَّة هي الضَّرة، والأب هو الأصل، فالأب قد يتزوج وتكون له أكثر من امرأة.

فالأنبياء بنو علَّات، أمهاتهم شتَّى، شرائعهم تختلف، وأبوهم واحد، وهو الدعوة إلى كلمة التوحيد، فهذه رسالة جميع الأنبياء.

(المتن)

وقوله: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

(الشرح)

فمعناها كما قال السلف في تفاسيرهم: أي وصَّى وأمر، فالقضاء هنا قضاء شرعي ديني، وليس قضاءً كونيًا قدريًا، فلو كان القضاء كونيًا قدريًا ما وجدنا إلا عابدًا لله تبارك وتعالى، وإنما القضاء هنا قضاء شرعي ديني، وابن عربي الصوفي النكرة يجعل القضاء الوارد في الآية كونياً قدرياً يستدل بها على أن الله ما حكم بشيء إلا وقع، ومعنى هذا عنده أن كل معبود في الأرض إنما هو الله، وما عبد الإنسان شيئاً حجراً أو غيره إلا عبد الله، فيقول في كتابه فصوص الحكم الذي حوى كفريات عجز يد التأويل عن إيجاد مخرج لها: فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء"

فمعنى الآية على الفهم الصحيح: أي وصَّى ربك تبارك وتعالى وأمر أمرًا شرعيًا، بم وصَّى؟

أن نعبده وحده دون مَن سواه، وهذا معنى كلمة التوحيد.

وهذه الآية والتي بعدها وهي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ﴾، بينتا الأساس الذي قام عليه أمر التوحيد وهو اجتماع النفي والإثبات.

فالنفي المحض ليس توحيدًا: فلو قلنا: لا إله لهذا الكون، ونفينا نفيًا محضًا لا إثبات فيه، هل هذا توحيد؟ هذا توحيد الجهمية المعطِّلة الذين ينفون الصفات عن الله تبارك وتعالى، ومن ثم ينفون ذاته ويعبدون العدم.

فالنفي المحض ليس توحيدًا، كما أن الإثبات بدون نفي ليس توحيدًا، لماذا؟ لأنه لا يمنع الشراكة، فلو قلنا: الله إله: فهذا لا يمنع أن يكون غيره إلهًا، ولكن لو قلنا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، لو قلنا: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾، لو قلنا كما قال

الله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، فهذا هو التوحيد الذي يتضمن هذين الأصلين؛ النفي والإثبات، أو التخلية والتحلية.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طريق الهجرتين يسميه التسبيح والتحميد، فالتسبيح هو التنزيه، والتحميد هو إثبات الكمالات لله تبارك وتعالى.

لمَّا تكلم في هذا الباب في باب الأسماء والصفات وجاء بكلام بديع، تكلم بهذين اللفظين: فسمى النفي تسبيحًا، وسمى الإثبات تحميدًا أي إثبات الكمال لله تبارك وتعالى.

وكذلك التصفية والتربية في جانب السلوك، وفي متابعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إثبات السُنَّة ونفي البدعة، كذلك في باب الأسماء والصفات، وفي توحيد الإلهية، في سائر الأمور يقوم على هذين الأمرين، فالدين كله يقوم على النفي والإثبات.

قال: ﴿وبالوالدينِ إحسانًا﴾، فهذا مما وصَّى وأمر به الله تبارك وتعالى، وإتباع الأمر بعبادته بالأمر بالإحسان للوالدين يدل على عظيم حق الوالدين.

وهناك أحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأمر ببر الوالدين:

ومنها: ما رواه عنه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رِضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين**»، رواه الترمذي، و صححه الألباني.

وكذلك قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رغم أنف رجل أدرك أبويه أو أحدهما ولم يُغفر له**»، فدعا أمين السماء جبريل عليه السلام، وأمَّن على ذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمين الأرض، فهو دعاء حريٌّ أن يفر المرء منه فراره من الأسد.

(المتن)

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾.

(الشرح)

هذه آية عظيمة، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: قل لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرَّموا ما رزقهم الله ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿تَعَالَوْا﴾ أَيْ: هَلُمُّوا وَأَقْبِلُوا: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: أَقُصُّ عَلَيْكُمْ وَأُخْبِرُكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا لَا تَخَرُّصًا، وَلَا ظَنًّا، بَلْ وَحْيًا مِنْهُ وأمرًا من عنده: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَوْصَاكُمْ ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

أي أن تقدير الآية: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ووصاكم به أي مما تلاه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليهم ووصاهم به، ألا يشركوا بالله شيئًا.

ولذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾، فهذا معنى الآية.

فمعناها: حرم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به تبارك وتعالى.

فالشرك بالله تبارك وتعالى محرم، والمحرم ممنوع مطلوبٌ تركُه على سبيل الجزم، وفاعله آثم، بل ذنبه عظيم. إن مات على هذا الشرك فهو من المخلَّدين في النار عياذًا بالله.

والشرك: جعل ما لله لغير الله تبارك وتعالى، وإذا كان الشرك محرم بنص هذه الآية فإن اجتناب هذا المحرم لن يكون إلا بالتزام ضده الذي هو التوحيد، فيكون التوحيد واجبًا مأمورًا به من هذه الجهة، أي من جهة ما لا يتم ترك المحرم إلا بفعله ففعله واجب، لأن البراءة من الشرك لا تكون إلا بالتزام التوحيد.

قال ابن مسعود: مَن أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التي عليها خاتمه فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣].

هل وصَّى النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشيء غير القرآن؟

الذي نعلمه: أن الذي وصى به النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو القرآن، خاصة أن الوصية موضوعها عظيم.

فالعلماء قالوا في معنى الوصية: قالوا: الوصية اسم موضوع في الشرع واللسان لِمَا عَظُم قدره من المأمورات.

فإذا ذُكرت الوصية فالمذكور معها مأمور به على وجه التعظيم.

إذًا فما معنى قول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: مَن أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟

أي مَن أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كُتبت وخُتم عليها فلم تُغيَّر ولم تُبدل، فهي كالوصية التي كتبها النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهذه المذكورات في هذه الآية لم تُغير ولم تُبدل ولم تُنسَخ. إذًا هي من الآيات المحكمات.

والنبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما قلنا: لم يوصِ إلا بكتاب الله تبارك وتعالى، وكذلك بسنته.

(المتن)

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي: **«يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟»**، فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»**، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: **«لا تبشرهم فيتكلوا»**، أخرجاه في الصحيحين.

(الشرح)

النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما يحكي معاذًا ﷺ في هذا الحديث سأل سؤالًا للتشويق ولجذب الانتباه، وهذا أسلوب نبوي في تعليم الخلق. قال لمعاذ، وكان كثيرًا ما يوصي معاذ بن جبل رضي الله عنه، ومعاذ بن جبل له من المكانة بين الصحابة وكذلك عند رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما له:

فهو أعلم هذه الأمة بالحلال والحرام، ويقدم العلماء يوم القيامة بخطوة، كما صح عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد أوصاه كثيرًا، وهذه الوصايا منها ما هو صحيح ومنها ما هو حسن ومنها ما هو ضعيف:

فمن ضمن هذه الوصايا ما قاله النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هٰهنا، وكان قد أردفه على حماره، وهذا فيه تواضع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنه كان يركب الحمار، وكان يُردِف خلفه:

قال: **«يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟»**، قال: فقلت: الله ورسوله أعلم.

وقوله النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أتدري ما حق الله على العباد؟»**: فيه وجوب هذا الأمر، لماذا؟ لأن هذه اللفظة (حق) تدل على الإيجاب.

ثم بيَّن له النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حق الله وحق العباد: فحق الله أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا:

فإذا نظرت في هذه الجملة وجدت كذلك أن التوحيد يقوم على أمرين: على التسبيح والتحميد، على النفي والإثبات، فلا يكفي أحدهما دون الآخر.

وأما حق العباد على الله: فإن أحدًا لا يوجِب شيئًا على الله تبارك وتعالى، فالله ﷻ ليس كالمخلوقين، فالمخلوق يوجِب الحق على مخلوق مثله، وأما الله تبارك وتعالى فهو الذي جعل ذلك منه تفضلًا.

فمعنى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»، أي أن هذا الأمر متحقق لا محالة، لأن الله تبارك وتعالى وعدهم بذلك الجزاء من أجل توحيدهم والله تعالى لا يُخلف وعده، فأهل التوحيد خاصة لهم من الجزاء العظيم عند الله تبارك وتعالى ما ليس لغيرهم، كما سيرد في الأبواب ما يرد من فضل التوحيد وتكفيره للذنوب وغير ذلك.

فالله تبارك وتعالى جعل هذا الحق على نفسه، وهو الذي وعد به، والله ﷻ إذا وعد فإنه لا يخلف وعده، ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهل هذا الاستحقاق استحقاق وجوب؟ أم أنه استحقاق إنعام وفضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

استحقاق إنعام منه وفضل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، وليس هو استحقاق مقابلة، فإن لم يُعذِّب الله تعالى الموحِّد فليس ذلك مقابلة لِمَا قام به من العبادة، وإنما هو فضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلن يدخل أحدٌ جنة الرحمن إلا برحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لن يُدخله عمله، وإن كان العمل سببًا في دخول الجنة، ولكن الجنة ليست بمقابل لهذا العمل.

فقال: فليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوقِ.

قوله صلى الله عليه وسلم: فإن حق الله على العباد. كلمة حق كما سبق فيها وجوب التوحيد،إ الحق ما لزم ووجب، وكذلك (على) التي تدل على الظهور فيها

وجوب التوحيد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وكان يكفي أن يقول: أن يعبدوه، لأن العبادة تتضمن ترك الشرك، وإنما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك تأكيدًا على هذا الأمر: أنه لا عبادة ومعها شرك بالله تبارك وتعالى.

قال: «**وحق العباد على الله أن لا يُعذِّب مَن لا يشرك به شيئًا**»:

قال الحافظ ابن حجر: اقتصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفي الإشراك، مع أن الأصل أن يقول: وحق العباد على الله أن لا يُعذِّب مَن وحَّده ولم يشرك به شيئًا، وأطاع نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصدَّق الخبر ونفَّذ الأمر: فهذا هو مقتضى الرسالة.

بينما في هذا الحديث قال: «**وحق العباد على الله أن لا يُعذب مَن لا يشرك به شيئًا**»، ولم يذكر شيئًا آخر، لماذا؟

قال الحافظ ابن حجر: وإنما اقتصر على نفي الإشراك لأن ذلك يستدعي التوحيد بالاقتضاء، فنفي الإشراك مما يقتضي ويستلزم ويتضمن إثبات التوحيد لله تبارك وتعالى، قال: ويستدعي إثبات الرسالة، فإنك لن تعلم ذلك إلا عن طريق الوحي.

قال: ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ مَن كذَّب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كذَّب الله، ومن كذَّب الله فهو مشرك.

قال: وهو مثل قول القائل: ومَن توضأ صحت صلاته، أي مع سائر الشروط.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(المتن)

فيه مسائل:

(الشرح)

أي في هذا الباب فوائد ومسائل.

والذي ينظر في هذه المسائل يعلم عِظم فقه هذا الإمام، ويعلم قدرته العظيمة على استنباط الفوائد مما يذكره من الآيات والأحاديث، حتى إنك أحيانًا قد تتأمل قليلًا لتنظر من أين جاء المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الفائدة.

فمن هذه المسائل التي هي مذكورة في هذه الآيات والحديث الذي ذكره قال:

(المتن)

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

(الشرح)

ما الحكمة؟ عرَّفها ابن القيم في المدارج بقوله: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

فالحكمة من خلق الجن والإنس عبادة الله تبارك وتعالى وحده، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال بعض السلف في تفسيرهم: إلا ليوحدون.

(المتن)

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

(الشرح)

كانت الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم في توحيد الإلهية، ولذلك تجد مناظراتهم ومجادلاتهم لأقوامهم ومَن ترأَّس أقوامهم لا تكون إلا في هذا الباب.

وإذا أردت شاهدًا من ذلك فانظر إلى إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ناظر قومه في ماذا؟ في توحيد الله تبارك وتعالى، ناظر النمرود في ماذا؟ في توحيد الله تبارك وتعالى، ناظر أباه في ماذا؟ في توحيد الله تبارك وتعالى.

موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لـمَّا ناظر فرعون وجادله: ناظره في توحيد الله تبارك وتعالى.

محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك.

فما وجدنا واحدًا من أنبياء الله ورسله ولا من تبعهم من أقوامهم جعل أساس الرسالة النزاع على الحاكمية، كما يقول خلوف من مبتدعة هذ الزمان كالمودودي وخلفه سيد قطب، ثم فرقة الإخوان والتي فرَّخت سائر الفرق المبتدعة ، فجعلوا أساس الرسالة ما سموه بتوحيد الحاكمية، وأهملوا التحذير من الشرك الذي لا شك فيه، فتجد من دعاتهم قبورية يدعون لتوحيد الحاكمية!!

وأنت إذا نظرت إلى حال الأنبياء وجدتهم لا يعبؤون بذلك، وإنما همهم أن يردوا الناس إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وإلا فموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد أن أغرق الله فرعون ماذا صنع؟

هل عاد بقومه ليجلس مكانه على هذا الكرسي؟ ما عاد بقومه، وإنما أخذهم لعبادة الله تبارك وتعالى وجاوز بهم البحر.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قالوا له –إن صح ذلك-: إن كنت تريد مُلكًا ملَّكناك، فلو كان هذا من أساسيات وأصول دعوة الرسل وإرسال الرسل لبادر لذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتخلف عن واجب.

فقال هٰهنا: إن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه.

(المتن)

الثالثة: أن من لم يأت به.

(الشرح)

أي بالتوحيد.

(المتن)

لم يعبد الله، ففيه معنى قول: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

(الشرح)

لماذا؟ لأن عبادتهم قائمة على الشرك، ولذلك قال لهم النبي ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

(المتن)

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمَّت كل أمة.

(الشرح)

فما من أمة إلا وأرسل الله تبارك وتعالى إليها رسولا، وهذه أخذها من قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكل من ألفاظ العموم.

وهذا لا منافاة بينه وبين قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]:

لأنه قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذه رسالة جميع الأنبياء.

وفي الآية الثانية قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] لأننا قلنا: إن الاختلاف والتنوع واقع في الشرائع، أما أصل الدين فهو واحد، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

ولذلك ما من نبي يأتي قومه إلا ويدعوهم إلى الإسلام:

موسى يقول لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول كذلك، الحواريون يقولون كذلك: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

ما من نبي إلا ويدعو قومه إلى الإسلام بمعناه العام الذي هو الاستسلام والخضوع لله تبارك وتعالى، حتى جاء نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعا إلى الإسلام الخاص وهو الذي ينبغي أن يلتزمه العبد.

(المتن)

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة.

(الشرح)

وفي بعض النُسخ: المسألة العظيمة.

(المتن)

وهي أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عُبِد من دون الله.

(الشرح)

وقد ذكرنا حده على لسان ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(المتن)

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف.

(الشرح)

ومعنى قوله: محكمات: أي التي لم تُنسخ، فهذه الآيات التي في آخر سورة الأنعام هذه الآيات لم تُنسخ، فهي ثابتة في اللفظ والحكم لم يُرفع لا حكمها ولا لفظها، ولم يخلها تخصيص أو تقييد كذلك، والنسخ في عُرف السلف أعم منه عند المتأخرين.

(المتن)

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف.

(الشرح)

قوله: عند السلف، من أين أخذها؟ من كون قائلها ابن مسعود رضي الله عنه.

(المتن)

وفيها عشر مسائل، أي في آيات سورة الأنعام الثلاثة، أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾، وختمها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾.

(الشرح)

بدأها الله تبارك وتعالى بالنهي عن الشرك، فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، وختمها ببيان جزاء المشرك، فقال: ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾، عياذًا بالله، وهذا فيه بيان أن الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك لابد أن تكون في المبدأ والمنتهي، وأن تأخذ جل اهتمام الداعي إلى الله على بصيرة جعلنا الله وإياكم منهم.

(المتن)

ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، فكل ما جاء من قِبل الوحي فهو عظيم شريف.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾.

(الشرح)

فبدأها الله ﷻ بأعظم الحقوق، وهو حقه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في أن يُعبد، وكل الحقوق التي ذكرها بعده لا تنفع إلا بناءً على تحقيقه لهذا الحق وهو عبادة الله تبارك وتعالى.

ولهذا لمَّا سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن عبد الله بن جُدعان، وكان ممن يقري الضيف ويصل الرحم، وكانت له الكثير من كرائم الأخلاق، ومع ذلك قالت: هل نفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، أي لم يكن موحدًا لله تبارك وتعالى، فما عمله من عمل صار هباءً منثورًا.

(المتن)

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته.

(الشرح)

وذكرنا معنى الوصية.

(المتن)

الثالثة عشرة: معرفة حق الله تعالى علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

(الشرح)

ما هذه المسألة؟

حق الله على العباد؟ أم حق العباد على الله؟ حق العباد على الله أي البُشرى، لأن معاذًا رضي الله عنه لمَّا قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: أفلا أُبشر الناس؟ نهاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولذلك جاء في الحديث أن معاذًا إنما أخبر بها في آخر حياته تأثُّمًا، أي خشية أن يدخل فيمن يكتم العلم.

وهذا لا ينفي أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد بشَّر أقوامًا بالجنة، لمَّا قال لأبي هريرة: «خذ نعلي هاتين، وبشر مَن خلف هذا الحائط بالجنة»، أو كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فبشرهم بالجنة.

وإنما هذا فيمن قد يتكل على هذه البشرى ويأمن مكر الله تبارك وتعالى.

(المتن)

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

(الشرح)

فقيَّده المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ بالمصلحة، لا على إطلاقه:

ففي بعض الأحوال قد يكتم المرء العلم، وعن بعض الأشخاص قد يكتم المرء العلم، لماذا؟ لأنه يعلم أنه إن ذكر له هذا الباب وهذا العلم قد يتسبَّب في فتنته.

وكذلك في حالٍ من الأحوال يذكر بعض العلم ويكتم بعضه، لماذا؟ وما ذاك إلا للمصلحة.

فليس كل ما يُعلم يُقال.

(المتن)

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

(الشرح)

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: وهذه من أعظم الفوائد، استحباب بشارة المسلم بما يسره: أن المسلم دائمًا يُدخِل على أخيه الفرح والسرور، ويبشره بما يُصلِح حاله في الدنيا، وبما يكون له من عاقبة الخير عند الله تبارك وتعالى.

(المتن)

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

(الشرح)

لأن ذلك يسبِّب مفسدة عظيمة: وهي الأمن من مكر الله، كما قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(المتن)

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

(الشرح)

وهذا إنما يكون في الشرعيات لا في القدريات الكونيات.

يعني إن سُئلت عن مسألة في الشرع فقل: الله ورسوله أعلم إن كنت لا تعلمها، سُئلت عن حكم الوتر؟ سُئلت عن حكم قراءة الفاتحة في الصلاة؟ سُئلت عن مسألة من مسائل المواريث، فلك أن تقول: الله ورسوله أعلم، لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإن كان قد مات فهو أعلم الخلق بالشرعيات صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وأما الكونيات القدريات فهذه لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى.

يعني لو قيل لك مثلًا: ما مساحة هذا المسجد؟ تقول: الله أعلم، أم: الله ورسوله أعلم؟ تقول: الله أعلم، لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا علم له بهذه الأمور، قد مات رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

أما مسألة شرعية فيجوز أن تقول: الله ورسوله أعلم، لإقرار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والنبي لا يُقر على منكر.

ولذلك يسمع المرء يقول: ما شاء الله وشئت، فيُنكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهنا يسمع معاذًا يقول: الله ورسوله أعلم، فيقره رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصَّ معاذًا بهذه المسألة، وهذا يدل على فضل معاذ ومكانته عند رسول الله، وأنه على الرغم من صغر سنه على دين عظيم، وعلى تقوى وعلم رضي الله عنه.

(المتن)

الحادية والعشرون: تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

(الشرح)

وذلك يُقيد بألا يَشُق على الدابة، فإن شق فلا يجوز.

(المتن)

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل رضي الله عنه .

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

(الشرح)

وهذا المسألة هي حق الله تبارك وتعالى على عباده.

فالمصنف بهذه المقدمة بيَّن أن إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة واجب على جميع الخلق.

(المتن)

باب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

(الشرح)

أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان فضل التوحيد وما يُكفِّر من الذنوب.

واختلف العلماء في ما، في قوله: وما يُكفِّر من الذنوب:

فمنهم من قال: إن ما هاهنا موصولة، فيكون الباب: باب فضل التوحيد والذي يُكفِّر من الذنوب.

ومنهم من قال: إن ما هنا حرفية مصدرية، فيكون تقدير الكلام: باب فضل التوحيد وتكفيره من الذنوب.

ومال بعض أهل العلم إلى ترجيح القول الثاني، أي باب فضل التوحيد وتكفيره للذنوب، لماذا؟

لأن الأول: وهو قولنا: والذي يكفِّره من الذنوب يوهم أن بعض الذنوب لا يُكفِّرها التوحيد.

أما لو قلنا: باب التوحيد وتكفيره للذنوب: فهذا لا يستثني ذنبًا إلا ويكفِّره التوحيد.

ومنهم من قال: بل الأول هو الأرجح؛ لدخول مِن هذه التي لا تصلح مع ما المصدرية، وإنما يقال: فضل التوحيد والذي يكفِّره من الذنوب، ولا يقال: فضل التوحيد وتكفيره من الذنوب.

عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما قلنا هذا الباب لبيان فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أنه ليس بواجب، فيقال: فضل صلاة الجماعة، ومع ذلك صلاة الجماعة واجبة.

والمقصود بالتوحيد في الترجمة توحيد العبادة، وهو توحيد الإلهية، وهو الذي من أجله عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكتاب.

وقوله: وما يُكفِّر من الذنوب، من باب عطف الخاص على العام.

فقولنا: باب فضل التوحيد هذا عام، ويندرج تحته بعض أفراده وهو أنه يُكفِّر الذنوب.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

(الشرح)

هذه الآية أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين من خلالها فضل التوحيد: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنعام: ٨٢]: أي وحَّدوا ربهم تبارك وتعالى وآمنوا به ولم يلبسوا ولم يخلطوا هذا الإيمان بظُلم، والمقصود بالظُلم هاهنا كما ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود: الشرك الأكبر.

فإن الصحابة لمَّا نزلت هذه الآية ذهبوا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ ولأنهم عرب أقحاح نظروا إلى سياق هذه الآية، فوجدوا أن كلمة ظُلم نكرة في سياق النفي فتعم كل ظلم، ولو كان الحال كذلك فلن يسلم أحد.

فبيَّن لهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الظُلم الوارد في هذه الآية إنما يراد به الشرك كما قال الله تبارك وتعالى على لسان لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الشاهد: أن الله تبارك وتعالى بيَّن في هذه الآية أن الموحدين الذين لم يخلطوا إيمانهم وتوحيدهم بشركٍ بالله تبارك وتعالى هؤلاء لهم الأمن في الدنيا والآخرة. قال ابن كثير رحمه الله: أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا هُمُ الْآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ولذلك قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وأطلقها، لهم الأمن المطلق، ولهم الهداية التامة، ولذا قال: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والظلم الذي يقع فيه المرء ثلاثة أنواع:

أما النوع الأول: فهو الشرك، كما جاء في هذه الآية.

وأما النوع الثاني: فهو ظلم العبد نفسه: بارتكاب الموبقات المعاصي.

وأما النوع الثالث: فهو ظلم العبد غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام على هذه الأنواع الثلاث، قال: فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة الشرك وظلم العباد وظلمه بنفسه بما دون الشرك: كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق: بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة يومًا ما.

أي إن هذه الكلمة العظيمة أعني كلمة التوحيد لا بد أن تنفع صاحبها يومًا ما وأن تُخرجه من النار، وأن يدخل بسببها الجنة، كما سيرد في الأدلة التي بعد ذلك.

وليس معنى قولنا: إن الذين آمنوا ووحَّدوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن: ليس معنى ذلك أن المعاصي والكبائر لا تؤثر في توحيد العبد، بل إنها تؤثِّر في توحيد العبد أعظم تأثير، ويكفي أن الإنسان قد يدخل النار بسببها إن لم يعفو الله تبارك وتعالى عنه:

فإنه إن لقي الله تبارك وتعالى بذنوبه مصرًا عليها ولم يتب منها كان في مشيئته: إن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه:

فمع أنه موحِّد بالله تبارك وتعالى ولكن لم يكن معه التوحيد المطلق الذي يحجزه ويمنعه عن ارتكاب هذه المعاصي، ولكن بسبب وقوعه في هذه المعاصي استحق دخول النار:

فهذا يعني أن المعاصي والكبائر لها ضرر عظيم وتأثير عظيم على الإنسان:

فبقدر بُعد الإنسان وسلامته من هذه الأنواع الثلاثة من الظلم: من الشرك، وظلمه لنفسه، وظلمه للعباد يكون قريبًا من الأمن التام ومن الاهتداء التام.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا، لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

(المتن)

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

(الشرح)

هذا هو الحديث الأول الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن هذه الأدلة الخمسة التي ذكرها في هذا الباب للتدليل على فضل التوحيد.

وهذا الحديث حديث عظيم جدًا، قال عنه النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد.

فإن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع فيه ما يخرج به المرء من ملل الكفر على اختلاف عقائدها وتباعدها، فاقتصر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الأحرف على ما يباين جميعها، فهذا حديث عظيم جليل القدر يقول فيه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»**.

أي من تكلم بهذه الكلمة: عارفًا معناها، عاملًا بمقتضاها، باطنًا وظاهرًا:

فلا بد من هذه الشروط: لا بد أن يكون المرء عارفًا لمعنى هذه الكلمة، والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيعقد بابًا خاصًا لبيان معنى كلمة التوحيد.

لا بد أن يكون عارفًا معناها، عاملًا بمقتضاها، باطنًا وظاهرًا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، فهذه الآية نزلت في مكة أم في المدينة: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]؟ نزلت في المدينة، أي بعد هجرته بمدة صلى الله عليه وسلم، فمعنى ذلك أن الأنبياء يحتاجون أحيانًا للتنبيه على جلالة عظمة هذه الكلمة.

فالله تعالى يقول لنبيه لمحمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أعلم الخلق بربه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، سيرد في الحديث بعد ذلك: أن الله تبارك وتعالى يبين لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فضل هذه الكلمة.

فإن كان ذلك في الأنبياء فمن كان دونهم من باب أولى، حتى لا يقولن أحد: إننا فهمنا التوحيد، ولا حاجة لنا في هذه الدروس، انظر يرعاك الله! بعد هجرته لربه يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

فهذا فيه اشتراط العلم لمعنى هذه الكلمة.

وقال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، فهذا كذلك المقصود (بالحق) في هذه الآية أي بكلمة التوحيد.

فمعنى الشهادة كما قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح.

فهذه الكلمة لا بد فيها من هذه الأمور: أن تنطقها، وأن تعترف بها بلسانك، وأن تعتقدها بقلبك، وأن تعمل بها بجوارحك.

فقال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، فمَن شرطية: فلا بد من لتحقق المشروط من تحقيق الشرط. ما المشروط؟

أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، قال: **«من شهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله»**: أي لا معبود بحق إلا الله، **«وحده لا شريك له»**: قوله: وحده إثبات وتأكيد لألوهيته تبارك وتعالى، وقوله: لا شريك له: تأكيد لنفي الأنداد والآلهة الباطلة.

«وأن محمدًا عبده ورسوله» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فلا يتم إيمان العبد إلا بالجمع بين هذين الأمرين: بين الشهادة بالتوحيد لله تبارك وتعالى وبالرسالة لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: **«من شهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله»**، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث بين وصفين عظيمين له، وهما: العبودية والرسالة، قال: **«وأن محمدًا عبده ورسوله»**.

لماذا جمع بين العبودية والرسالة؟

جمع بين العبودية والرسالة دفعًا للإفراط والتفريط في حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر مثلنا إلا أنه يوحَى إليه، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وبعض الناس غلا في جانب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونسي أنه عبد، فقال فيه من القصائد وخلع عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفات الألوهية مما لا ينبغي إلا لله تبارك وتعالى.

البوصيري يقول في بُردته:

يا أكرم الخلق مالي مَن ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العَمم

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها   ومن علومك علمَ اللوح والقلم

هذا يقوله في حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من جود النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقول هذا: الدنيا وضرتها، ما ضرة الدنيا؟ ما مقابل الدنيا؟ الآخرة.

ومن علومك، (من للتبعيض)، ومن علوم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم اللوح والقلم، فماذا ترك هذا لله تبارك وتعالى؟

ولذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن شهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه»**، فعلمنا لماذا قال عبده، دفعًا للإفراط في حق النبي والغلو في حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ورسوله: دفعًا للتفريط في حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاتباع في هذا الدين وترك شريعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حاز على العبودية الخاصة والرسالة الخاصة: فهو أعظم العابدين، وخير الرسل أجمعين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: **«وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»**.

أي لا بد أن يشهد المرء كذلك أن عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدُ الله، وهذا فيه رد على النصارى الذين يؤلِّهون عيسى فيقولون: إنه هو الله، أو ابن الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، إلى غير ذلك مما ردَّ الله تبارك وتعالى عليهم في كتابه وكذلك رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في المهد يقول: إني عبد الله، ولـمَّا يُسأل يوم القيامة يقول: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

فجاء بهذا الوصف: وأن عيسى عبد الله ردًا على النصارى، ورسوله ردًا على اليهود.

فجاء برسوله ردًا على اليهود الذين اتهموا أم عيسى في عِرضها، وقالوا: إنه ابن زنى، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

قال: **«وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته»**: وهذا مما يستدل به النصارى على ألوهية المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

يقولون: عندكم في القرآن وكذلك في السُنَّة أن عيسى كلمة الله، ونحن نعلم أن كلام الله غير مخلوق، لأن كلام الله صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان عيسى كلمة الله فهو غير مخلوق.

فيقال لهم كما قال علماء المسلمين كالإمام الدارمي في نقضه، وشيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه: معنى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وكلمته»**: أي أن عيسى كان بالكلمة ولم يكن هو الكلمة.

فهذه الكلمة كما يقول ابن عثيمين: ليست على حقيقتها، قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وكلمته»: ليست على حقيقتها، فليس عيسى جزءًا أو بعضً من الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته، وإنما كان بالكلمة.

ما الكلمة؟ كُن فكان، ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

قال: «وكلمته»: وبعض الناس يُخطئ في قول كُن فكان، يقول: أمره تعالى بين الكاف والنون، هذا خطأ، وإنما أمر الله تبارك وتعالى بعد الكاف والنون، لأن بين الكاف والنون لم تكتمل الكلمة، والله تبارك وتعالى يدبِّر أمر عباده بقوله: كُن، فيقع المقدور بعد قوله: كُن، فأمره بعد الكاف والنون وليس بين الكاف والنون.

قال: «وكلمته ألقاها إلى مريم»: لمَّا أرسل الله تبارك وتعالى جبريل إلى مريم فنفخ في درعها، فكان عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال: «وروح منه»: وهذا أيضًا مما يستدل به النصارى على أن ألوهية المسيح عليه السلام، لأنه قال منه.

فيقال أولاً: الروح هٰهنا بمعنى الخلق، أي أن عيسى خَلْقٌ من خَلْقِ الله تبارك وتعالى.

وثانياً: «وروح منه»، والإشكال في هذه الكلمة، في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «منه»: من هاهنا ليست للتبعيض، وإنما هي للابتداء، أي أن بداية خلق عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت بقول الله تبارك وتعالى: كُن، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

هل نجد لذلك شاهدًا في كتاب الله عَجَّلَ ؟

نعم، نجد لذلك شاهدًا في كتاب الله عَجَّلَ، ودائمًا يقال لهؤلاء من اليهود والنصارى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح في الرد على مَن بدَّل دين المسيح: إنك إذا استدللت بآية في كتاب الله فيلزمك أن تُقر بكل ما جاء في الكتاب فترد ما تشابه منه إلى محكمه، وإلا فلا يحل لك الاستدلال ب÷ز

أنتم أيها النصارى تقولون: إن قوله منه يقتضي التبعيض، نقول: وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فهل كل ما في السماوات وما في الأرض هو جزء أو بعض من الله تبارك وتعالى؟ أم أن المقصود خلق من خلقه؟

الثاني لا شك هو الصحيح، فكما أن السماوات والأرض خلق من خلق الله تبارك وتعالى على مقتضى هذه الآية، فكذلك كان عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال: **«وروح منه، والجنة حق»**، أي وشهد أن الجنة حق، فالجنة موجودة الآن، رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخلها، وجاء في القرآن أنها أُعدت للمتقين.

«والنار حق»، كذلك النار موجودة الآن، ورآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يرى منظرًا أبشع ولا أفظع منها، نسأل الله العافية.

كم هذه الأمور؟ هذه الأمور الخمسة مَن شهد بها إقرارًا بلسانه، واعتقادًا بقلبه، وتصديقًا بجوارحه، ما الجزاء، وما جواب الشرط؟ قال: **«أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»**.

قال الحافظ ابن حجر في معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»**: أي من صلاح أو فساد.

هو يريد أن يقول: إن كلمة التوحيد ستُنجِي صاحبها، ولكن هذه النجاة قد تكون ابتداءً فلا يدخل النار أبدًا، أو قد تكون باعتبار المآل، أي لا بد أن يخرج من النار يومًا ما ليدخل الجنة.

فقال معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«على ما كان من العمل»**: أي من صلاح أو فساد.

قال: لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، هذا هو المعنى الأول.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ: أَيْ يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِ كُلٍّ مِنْهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ، أي أن أهل الجنة ليسوا على درجة واحدة، وإنما يتفاضلون في ذلك، فيُدخلهم الله تبارك وتعالى على حسب أعمالهم، فدخول الجنة برحمة الله تبارك وتعالى.

أما التفاضل في الدرجات في الجنة فهو بحسب العمل.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أدخله الله الجنة»**: يُفهم منه أن إدخال التوحيد أهله الجنة نوعان:

أما النوع الأول: فهو إدخال في الحال، وهو للموحد الذي غلبت حسناته سيئاته يوم القيامة، أو حصل له من فضل الله إذا تساوت الحسنات والسيئات أو رجحت سيئاته لكن غفر الله له، فهذا إدخال في الحال، لا يُعذبه الله تبارك وتعالى، وإنما يُدخله ابتداءً.

والنوع الثاني: إدخال في المآل، وهو حظ الموحد المرتكب لذنوب استحق عليها دخول النار، فإذا دخلها أخرجه توحيده، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: لمَّا يقول الله تبارك وتعالى: **«أخرجوا من النار مَن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»**، إلى آخر الحديث.

فقوله: من إيمان أي من توحيد وعمل صالح، فهذا يدل على أن أهل التوحيد لا بد أن يخرجوا من النار يومًا ما.

فالتوحيد يُدخِل أهله في الحال أو في المآل، فهذه الكلمة لا بد أن تنفع صاحبها يومًا ما.

ولذلك لما سأل أبو ذر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عمل يُدخله الجنة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رضي الله عنه: **«إذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة»**، فقال

أبو ذر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله لَا إِلَهَ إِلَّا الله من الحسنات؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هي أحسن الحسنات**».

قال: «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»، أخرجاه، يعني البخاري ومسلم.

(المتن)

ولهما في حديث عتبان: «**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**».

(الشرح)

فهذا فيه كما قلنا: أن هذه الكلمة لا يكفي فيها النُطق، وإلا لنجا المنافقون، فإنهم كانوا ينطقون بهذه الكلمة، ولكن لا بد من ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى، أي لا بد من الإخلاص.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث عتبان:

في هذا الحديث ونحوه أنها أي كلمة التوحيد فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة بقوله: خالصًا من قلبه، وهذا معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يبتغي بها وجه الله**»، أي لا بد أن يقولها خالصًا من قلبه.

قال: فإن حقيقة التوحيد- استمع لهذا الكلام الطيب من هذا العالم الجليل- يقول: فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة.

لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك، فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، فهذا يدل على فضل هذه الكلمة.

فبهذا القيد ينال المرء فضلها: أن يبتغي بقولها وجه الله تبارك وتعالى.

وقول النبي ﷺ: «**فإن الله حرَّم على النارِ**»: فيه بيان فضل التوحيد كذلك، وهذا الباب معقود لبيان ذلك الفضل.

ففيه أن التوحيد يُحرِّم صاحبه على النار، وهذا التحريم كذلك نوعان:

أما النوع الأول: فهو تحريم دخول، فالتوحيد يحرِّم دخول النار على أهله، ولكن هذا لمن كمَّل توحيده، فمن كان له التوحيد المطلق فله الأمن المطلق، كما ورد في آية الأنعام.

والنوع الثاني: تحريم خلود، فالتوحيد يُحرِّم الخلود على صاحبه في النار كي لا يتساوى مع أهل النار الذين هم أهلها، وهذا من تمام عدله وفضله سبحانه.

ولذلك هناك نار العُصاة ونار أصحاب النار الذين هم أهلها، وليست هذه النار كتلك، فنار العصاة هي نار عصاة الموحدين.

(المتن)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**قال موسى: يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله**»، رواه ابن حبان، والحاكم وصححه.

(الشرح)

وهذا الحديث مما اختلف فيه أهل العلم تصحيحاً وتضعيفاً:

فممن صححه: ابن حبان والحاكم والذهبي والحافظ ابن حجر.

ومن آخر مَن ضعَّفه: الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهنا يرد سؤال، لأن بعض من يُظهر انتسابه للسلف لمَّا سُئل: لماذا لا تدرِّسون كُتب الاعتقاد؟ قيل لبعضهم: على طول سنواتكم في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ما علمنا أن واحدًا منكم شرح كتب السلف في الاعتقاد؟

فكان جوابه: أن هذه الكتب مشحونة بالأحاديث الضعيفة.

والجواب بهذه الصورة باطل بلا شك، إنما أراد أن يفر من جواب السؤال فطعن في سلف الأمة المتقدمين، لأن العالم لَا يكون عالمًا إلا إذا درس هذه الكتب وعلَّمها للناس، هذه الكتب تحوي اعتقاد الأنبياء والرسل.

فيقال: صحيحٌ أن بعض هذه الكتب موجود فيها بعض الأحاديث الضعيفة، مع كون أصحابها من أئمة الحديث، فلماذا يُورِدون مثل هذه الأحاديث في هذه الكُتب؟

هذا عليه ستة أجوبة، وليس جوابًا واحدًا:

▪ أما الجواب الأول: فإنها قد تكون صحيحة عنده، لم يطَّلع على علة ضعف هذا الحديث، فالإمام عنده أن هذا الحديث صحيح ، سواه صح عنده بذاته أو بشواهده، وخير مثال على ذلك الاختلاف الواقع في الحديث السابق.

▪ و الثاني: أن الحديث وإن كان ضعيفًا فإنه مندرج تحت ترجمة متفق على صحتها بالنصوص الأخرى والإجماع، فلو نظرنا إلى هذا الحديث وإن كان ضعيفًا فهو مندرج تحت ترجمة اتفق على على معناها الكتاب والسُنة والإجماع، أليس للتوحيد فضل؟ أليس هو يُكفِّر الذنب؟ بلى.

فحتى ولو كانت ضعيفة فقد جيء بها للاعتضاد لا للاعتماد،

▪ أما الثالث: فإنها مذكور من باب الاعتضاد لا الاعتماد لتأكيد المعنى الوارد في الآيات والأحاديث الأخرى.

ما الذي يريده المصنف من إيراد هذا الحديث؟ هل يريد الحوار الذي دار بين موسى وربه؟ ما يريد هذا الحوار، ولكن يريد جملة من هذا الحديث تواترت النصوص على صحة معناها، ما هذه الجملة؟ فضل لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وأنها ترجح بجميع المخلوقات، وهذه صحت فيها الأحاديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على البكرى لمَّا شنَّع عليه لاستدلاله بحديث (إنه لا يستغاث بي) : والجواب عن هذا الكلام -مع ما فيه من الجهل والإلحاد والشرك في الدين والافتراء على الله والرسول وعباده المؤمنين- أن يقال: هذا الخبر لم يذكر للاعتماد عليه، بل ذكر في ضمن غيره ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسنة، كما أنه إذا ذكر حكم بدليل معلوم ذُكِرَ ما يوافقه من الآثار والمراسيل وأقوال العلماء وغير ذلك من الاعتضاد والمعاونة، لا لأن الواحد من ذلك يعتمد عليه في حكم شرعي.

ولهذا كان العلماء متفقين على جواز الاعتضاد والترجيح بما لا يصلح أن يكون هو العمدة؛ من الأخبار التي تُكلم في بعض رواتها لسوء حفظ أو نحو ذلك، وبآثار الصحابة والتابعين، بل بأقوال المشايخ والإسرائيليات والمنامات مما يصلح للاعتضاد، فما يصلح للاعتضاد نوع وما يصلح للاعتماد نوع.

- الرابع: أنها صحيحة من جهة المعنى وإن لم تكن صحيحة من جهة السند.
- الخامس: أن علماء الاعتقاد ربما ذكروا الحديث الضعيف إذا كان أصله ثابتا؛ وهذا لأنه أصرح في تعيين المراد. قاله شيخنا العصيمي.
- الأمر السادس: أنهم يذكرونها غالبًا بالأسانيد، خاصة في كتب اعتقاد المتقدمين، يذكرون هذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة بالأسانيد، أو يعزونها إلى مصادرها لتبحث أنت، والعلماء يقولون: مَن أسند فقد أحال على غيره، فلا لوم عليه في ذلك، وهذا أضعف الأجوبة الستة.

إذًا لم يُخطئ الأئمة في إيراد مثل هذه الأحاديث في كُتب الاعتقاد، لماذا؟ لأنها بهذه الضوابط التي ذكرناها.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قال موسى: يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله»**، وهذا فيه أن أفضل الذكر وأفضل الدعاء: لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له»**، فأفضل الدعاء قول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

هل هي دعاء؟ أنت تقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله: أي لا معبود حق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأين الدعاء؟

هذا دعاء عبادة، من باب الثناء على الله تبارك وتعالى، ودعاء العبادة يتضمن دعاء المسألة.

كحديث الكرب، حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ

كله ثناء وذكر لله تبارك وتعالى، ومع ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عنه إنه دعاء.

يقول أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤك إن شيمتك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرء يومًا   كفاه من تعرضه الثناءُ

لو فهمت هذا البيت الأخير ستفهم المسألة: هناك إنسان عندما تذهب له، بمجرد أن تثني عليه يفهم حاجتك وإن لم تذكر حاجتك، يقول:

إذا أثنى عليك المرء يومًا   كفاه من تعرضه الثناء

يكفي أنه يتعرض لهذا الثناء، فبمجرد تعرضه لهذا الثناء يُلبي حاجتك، ولله المثل الأعلى؛ فأنت كذلك بذكرك لله تبارك وتعالى وإن لم تسأل حاجتك يلبي ربنا تبارك وتعالى حاجتك، فهو الذي يعلم السر وأخفى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**قال: قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا**»، ولا يُفهم من هذا أن موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يستهين بهذا الذكر، لمَّا قال: كل عبادك يقولون ذلك، وإنما أراد موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ شيئًا يختص به، أراد ذكرًا ودعاءً يختص به، فنبهه الله تبارك وتعالى على فضل هذه الكلمة.

«**قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري**»، يعني الملائكة، «**والأرضين السبع في كفة، ولا إله الله في كفة، مالت بهن لا إله الله**»، فالتوحيد يرجح بجميع المخلوقات لثقله.

وكذلك صح عند أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن نوحًا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال لابنه عند موته: آمرك ب لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وُضعت في كِفة ولا إله إلا الله في كِفة، رجحت بهن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كُن حلقة مبهة، أي لا انفتاح فيه، لقصمتهن لَا إِلَهَ إِلَّا الله**»، أو كما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فهذا يبين لنا فضل هذه الكلمة.

قال:

(المتن)

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«قال الله تعالى: يا ابن آدم؛ لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

(الشرح)

وقُراب الأرض أي مِلؤها، القراب ملئ الشيء أو ما يقارب ملئه.

ويجوز فيه الضم والكسر، يقال: قُراب وقِراب، وهذا الحديث فيه أن من فضل التوحيد تكفير الذنوب، فموطن الشاهد: أن الله تبارك وتعالى قال: **«لأتيتك بقرابها مغفرة»**، ولكن ذلك موقوف على شرط مذكور في الحديث: وهو شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، إذ قال تعالى : **«لا تشرك بي شيئًا»**.

و(شيئًا) نكرة في سياق النفي فتعم كل شرك، ولذلك قال العلماء: إن هذا الشرط ثقيل، ينبغي على المرء أن يجتهد في تحصيله، في أقواله، في اعتقاده، في أعمال الجوارح، ينبغي أن يسعى لتحصين نفسه بالتوحيد، وفي البُعد عن الشرك بالله تبارك وتعالى.

وهذا هو القلب السليم الذي قال الله تبارك وتعالى فيه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فقال: **«لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

هذه خمسة أدلة ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب:

ثم قال:

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله تبارك وتعالى.

(الشرح)

وهذا يتضح من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أدخله الله الجنة»، فالموحد لا بد أن يدخل الجنة يومًا ما، لأن كلمة التوحيد كما قلنا: أفضل الحسنات.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الكلمة العظيمة.: لا بد أن تنفع صاحبها يومًا من الدهر.

وهذا يبين لنا الفضل العظيم الذي امتن الله تبارك وتعالى به علينا: أن نكون مسلمين موحدين لله تبارك وتعالى، فهذا ليس محض ذكاءٍ منك ولا فطنة، وليس إرثًا عن آبائك وأجدادك، وإنما هو اصطفاء من الله تبارك وتعالى.

فكم من الناس بلغ الذروة في العلم المادي ومع ذلك يسجد للبقر والشجر والحجر، ويقول إن الله ثالث ثلاثة، وأنت قد لا تبلغ معشار ما بلغوا إليه أو وصلوا إليه في هذا العلم، ومع ذلك وفقك الله تبارك وتعالى لتوحيده.

فاحمدوا الله تبارك وتعالى على ذلك.

(المتن)

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله تعالى.

(الشرح)

فهو يُكفِّر الذنوب، ويمنع الخلود في النار، ويُدخل الجنة، ويرفع الدرجات، إلى غير ذلك.

(المتن)

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال الله في الحديث القدسي: «لأتيتك بقرابها مغفرة»، فالإنسان قد تغلبه نفسه أحيانًا، «كل بني آدم خطَّاء»، فليس هو بمعصوم من

الزلل، قد تغلبه ذنوبه ونفسه أحيانًا، لكنه يكون مخلصًا في عبادته، وفي طاعته لله تبارك وتعالى، فحسنة التوحيد تُكفِّر هذه الخطايا العظيمة.

وإذا أردت شاهدًا من ذلك: فانظر إلى حديث صاحب البطاقة، الذي تُنشر له هذه السجلات من الذنوب والمعاصي، وتوضع هذه البطاقة التي فيها كلمة التوحيد والتي قالها مخلصًا من قلبه، وتوضع هذه السجلات في كِفة فتطيش هذه السجلات.

يقول ابن القيم في كلام ما معناه: فكم من قائل لهذه الكلمة وكم من صورة تُشابه هذه الصورة، فالصورة واحدة، وما بين الصورتين كما بين السماء والأرض.

(المتن)

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام.

(الشرح)

وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

(المتن)

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه -أي بين حديث عبادة وبين حديث عتبان- وما بعده تبين لك معنى قول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

(الشرح)

لأنه قال في حديث عتبان: «يبتغي بها وجه الله»، وبيَّن في حديث عُبادة: أنه لا بد من هذه الأمور الخمسة التي ذكرها، فلا شك أن ذلك يحمله على العمل، وعلى ألا يقتصر على التصديق أو النطق بهذه الكلمة، فهذا فيه رد على المرجئة الذين يقولون: أن الإيمان يكفي فيه التصديق.

ومنهم من يقول: ومعه النطق باللسان دون أعمال القلوب والجوارح.

(المتن)

ولذلك تبين لك خطأ المغرورين.

(الشرح)

أي المكتفين بالنُّطق بهذه الكلمة.

(المتن)

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

(الشرح)

قال: «يبتغي بها وجه الله»، فلا يكفي مجرد القول.

(المتن)

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

(الشرح)

من أين أخذها؟ من حديث موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وذكرنا شاهدًا من القرآن: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فإن كان الأنبياء كذلك، فمَن دون الأنبياء من باب أولى: يحتاج إلى أن يجلس، وإلى أن يتعلم، وإلى أن يُكرِّر ذلك، وأن يحفظه.

(المتن)

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه.

(الشرح)

قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الفائدة: فالبلاء من القائل لا من القول، البلاء من القائل ممن قالها، لا من القول، ففضل القول ثابت في نفسه، وإنما البلاء من القائل، قال: لاختلال شرط أو وجود مانع.

وأما القول نفسه فراجح بالمخلوقات، قلت: ولذلك نقل الحافظ في الفتح عن ابن بطال عن أحد العلماء أنه قال: هذا الفضل يعني رجحان لَا إِلَهَ إِلَّا الله بالمخلوقات، قال: هذا الفضل إنما هو لأهل الفضل في الدين، والطهارة من الجرائم

العظام، وليس من أصر على شهواته وانتهك دين الله وحرماته بلاحقٍ بالأفاضل المطهرين.

فلمن يكون هذا الرجحان؟ لأهل الفضل وأهل التوحيد التام.

(المتن)

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

(الشرح)

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فالمثلية هنا في العدد.

(المتن)

الحادية عشرة: أن لهن عمارًا.

(الشرح)

مَن عُمَّار السماوات؟ الملائكة، قال: «وعامرهن غيري»، لأن الله تبارك وتعالى فوق السماوات، لا تُقله السماوات، أما هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

(المتن)

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافًا للأشعرية.

(الشرح)

من أين أخذه؟

الوجه، قال: «يبتغي بها وجه الله»، الكلام، كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مع موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فهذا فيه رد على الأشاعرة، فيه رد على المعتزلة، وغيرها من فرق الجهمية المعطلة، ففي الحديث إثبات صفة الكلام والوجه.

(المتن)

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس.

(الشرح)

حديث أنس قال: **«لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

(المتن)

عرفت أن قوله في حديث عتبان: **«فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»**، أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

(الشرح)

فتحقيق هذه الكلمة لن يكون إلا بترك الشرك.

(المتن)

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام عبداه ورسولاه.

(الشرح)

وهذا خطأ في النُسخة التي بين أيديكم، خطأ مطبعي.

الصحيح: عبديه ورسوليه، لماذا؟ لأن كون مصدر عامل لأنه مضاف، تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام عبديه ورسوليه.

إذا تأملنا وجدنا أن الله تبارك وتعالى جمع بينهما في وصفين في العبودية والرسالة.

بالنسبة لهذه الأمة ردًا للإفراط والتفريط، وبالنسبة لعيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ردًا على النصارى، فعيسى مثل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العبودية.

(المتن)

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

(الشرح)

فعيسى كان بالكلمة، أما محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخُلِق من ماء أبيه.

(المتن)

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه.

(الشرح)

هل قلنا: منه هنا تبعيض؟ لا، ابتداء، ومعنى روحًا منه أي خلقًا من خلقه.

(المتن)

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

(الشرح)

لأن الإيمان بها يكون سببًا في دخول الجنة والنجاة من النار.

(المتن)

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

(الشرح)

وهذا أخذه من حديث موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: السماوات والأرض في كِفة، ولا إله إلا الله في كِفة، فالميزان له كِفتان ولسان، وهذا مما أجمع عليه العلماء.

(المتن)

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

(الشرح)

قال: «يبتغي بها وجه الله»، فالله تبارك وتعالى له وجه، وأعظم النعيم في الجنة هو النظر إلى وجه الله ورؤية وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وصفة الوجه له تبارك وتعالى صفة ذاتية خبرية، ما معنى صفة خبرية؟ أي سمعية، لا تُثبت إلا عن طريق السمع، قال الله، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إثبات العين لله: صفة خبرية، اليد لله تبارك وتعالى خبرية، القدم لله تبارك وتعالى صفة خبرية.

ما معنى خبرية؟ أي موقوفة على السمع على الخبر الصادق عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ذاتية، ما معنى ذاتية؟ أي أنها لا تنفك عنه تبارك وتعالى، فهناك صفات لله خاضعة للمشيئة وللأسباب كالصفات الفعلية: الغضب، فالله تبارك وتعالى يغضب لسبب ولمشيئته تبارك وتعالى.

أما صفة الوجه فهي صفة خبرية ذاتية لَا مدخل للعقل فيها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(المتن)

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

(الشرح)

وهذا الباب ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الباب الذي مضى، والذي عنون له بقوله: باب فضل التوحيد وما يُكفِّر من الذنوب.

وهذا الفضل المذكور في هذه الترجمة أعني في ترجمة الباب الثاني الذي معنا اليوم هي من جملة فضل التوحيد، فإن من جملة فضل التوحيد أنه يُدخل الجنة بغير حساب.

ولكن لماذا أخَّره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استقلالًا بعد الباب السابق؟

قال العلماء: إنما أفرده بذلك تعظيمًا لهذا الفضل العظيم، وهو أنه مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير عذاب ولا حساب.

وتحقيق التوحيد الذي ذكره في هذه الترجمة يكون برسوخه وثبوته في قلب العبد المؤمن.

وهذا لا يكون إلا بالسلامة مما ينافيه، أن يسلم المرء من كل ما ينافي التوحيد، والذي ينافي التوحيد ثلاثة أمور هي: الشرك والبدعة والمعصية.

فأما الشرك: فإنه ينافي التوحيد بالكلية، الذي يُشرك بالله تبارك وتعالى ليس بموحد.

وأما البدعة: فإنها تنافي كماله الواجب، أي إن المرء الذي يقع في البدعة لم يُحصِّل الكمال الواجب الذي ينجو به من النار، فهو مستحق للعذاب.

وأما المعصية: فهي تقدح في التوحيد وتُنقِص ثوابه.

فهذه الأمور الثلاثة مَن تخلَّص منها؛ الشرك والبدعة والمعصية كان من المحققين للتوحيد، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وقوله: مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب: فيه أن الناس في تحقيق التوحيد على درجتين:

درجة الفرض: أي أنه لا يجوز لأي أحد أن يتخلف عن هذه الدرجة، بل لا بد أن يكون متصفًا بها، وجماع هذه الدرجة: أن يسلم المرء من هذه الأمور القادحة الثلاث.

فواجب على كل مسلم أن يسلم من هذه الأمور الثلاثة: من الشرك، ومن البدعة، وكذلك من المعصية.

وهناك درجة نافلة مستحبة، وهذه الدرجة جماعها كما قال العلماء: امتلاء القلب بالإقبال على الله تعالى والأُنس به، والانخلاع من كل ما سواه، وهذه أمر يتفاوت فيه الناس تفاوتًا عظيمًا.

وقوله: مَن حقق التوحيد: مَن هنا شرطية، دخل الجنة بغير حساب.

والمصنف كما قلنا: إنما يستنبط عنوان الترجمة من هذه الأدلة التي يذكرها، وهذا حال أهل السُنَّة والجماعة خاصة: أنهم يستدلون ثم بعد ذلك يعتقدون، ينظرون في الأدلة التي تَرِد عليهم ثم يعتقدون.

فاعتقاد المصنف كما هو اعتقاد أهل السُنَّة والجماعة أن مَن حقق التوحيد فقد وعده الله وعدًا لا يتخلف: أن يُدخله الله الجنة بغير حساب.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت هذه الترجمة ثلاثة أدلة: ذكر آيتين وحديثًا :

أما الدليل الأول:

(المتن)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

(الشرح)

هذه الآية ذكرها الله تبارك وتعالى ثناءً على عبدٍ من عباده ورسولٍ من رُسله وهو الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والله تعالى كما يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أثنى على عبد من عباده في كتابه فهذا الثناء يستوجب منا أمرين:

أما الأمر الأول: فهو محبة هذا الذي أثنى عليه، أن نُحب هذا الشخص الذي أثنى الله تبارك وتعالى عليه، لا نُبغضه ولا نكرهه، وإنما نُحب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وأما الأمر الثاني: فهو أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه، لأن هذه الصفات هي محل الثناء، وبسببها نال هذا الثناء، عسى أن يصيبنا شيء مما أصاب من أثنى عليه سبحانه وتعالى.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، فوصف الله ﷻ إبراهيم في هذه الآية بصفات أربعة:

أما الصفة الأولى: أنه كان أمة، قال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، أي كان قدوة وإمامًا ومعلمًا للخير، هذا معنى أمة.

فكلمة أمة من الألفاظ المشتركة في لغة العرب، ومن معانيها أنه كان إمامًا، وكان معلمًا للخير، كما قال السلف في تفاسيرهم.

وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين بهما تُنال الإمامة في الدين.

ووصفه الله ﷻ بالأمة ولم يصفه في هذه الآية بالإمامة، وفرق بين أن يوصف بالأمة وأن يوصف بالإمامة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ووصف إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنه أمة أولى من وصفه بأنه إمام، قال: لأن فيه زيادة معنى، لفظ الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال في العلم والعمل، وبقي فيها فردًا وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره.

ولذلك صح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن زيد بن عمرو بن نفيل، أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال عنه: **«أنه يُبعث يوم القيامة أمة وحده»**، لماذا؟ لأنه جمع كثيرًا من خصال الخير التي تفرقت في غيره.

وهنا وصف إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنه أمة، يعني كان إمامًا يُقتدى به.

قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، والقنوت: هو دوام الطاعة، كل لفظ ورد في الشرع من هذه المادة: قانتًا، قنت، قنوتًا: فالمراد بها المداومة على الطاعة.

فإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان مداومًا على طاعة ربه تبارك وتعالى.

حنيفًا: والحنيف هو المقبل على الله تبارك وتعالى المائل عن الشرك قصداً.

وأصله كلمة الحنيف في لغة العرب: هو الشخص الذي مالت مقدمة قدميه إلى الأخرى، بعض الناس عندما تنظر إليه وهو يسير تجد أطراف الأصابع قد مالت إلى أختها، فهذا يسمى حنيفًا، مالت إحدى القدمين إلى الأخرى من الأمام.

فإبراهيم مال عن الشرك قصداً وأقبل إلى الله تبارك وتعالى بالتوحيد.

قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، فوُصف بأنه ما كان من المشركين، وذلك لصحة إخلاصه وكمال صدقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وبُعده عن الشرك.

فقد فارق إبراهيم المشركين بالقلب واللسان والجوارح، ولذلك أنكر على قومه عبادة غير الله تبارك وتعالى، هذا باللسان.

وكسَّر الأصنام بيده، واعتزلهم قلبًا وعبادة وعبد الله تبارك وتعالى وحده، وهذا هو تحقيق التوحيد.

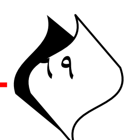
ولذلك ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية تحت هذه الترجمة.

قال عن إبراهيم: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وأل إذا دخلت على اسم مشتق، والمشركين اسم فاعل مشتق، أل إذا دخلت على المشتق فهي بمعنى الذي، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١]، أي الذين آمنوا، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يك من المشركين، فأل هاهنا بمعنى الذي.

وقد درسنا في الأصول أن الأسماء الموصولة تفيد العموم، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يك من المشركين لا شركًا أكبر ولا شركًا أصغر، ولذلك حقق كمال التوحيد.

فالمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند إيراده لهذه الآيات تحت هذه الترجمة ينظر في كل هذه الأمور، ولذلك رزقه الله تبارك وتعالى فقهًا عجيبًا في هذا الكتاب، فهو لم يتخير هذه الآيات هكذا، وإنما نظر في معانيها وفي كلام السلف حتى استقام عنده هذا الاختيار، وهذا يدل على دقة فهمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فموضع الدلالة في هذه الآية أين؟ في هذه الصفات الأربعة التي هي محل الثناء على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنه لم يكن من المشركين، وبضدها تتميز الأشياء، فإذا لم يكن من المشركين لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر فهو ممن حققوا التوحيد أصلَه وكمالَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومن هنا وصفه ربنا تعالى بقوله ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم ، وأمته من بعده باتباع ملة إبراهيم الحنيفية، وما نُسبت



إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا لتحقيقه إياها على أكمل وجه . قال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(المتن)

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

(الشرح)

هذه الآية ذكرها الله تبارك وتعالى في مدح أولئك المؤمنين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦١].

فهذه الآية مذكورة في ضمن آيات أثنى الله تبارك وتعالى بها على عباده المؤمنين، فيقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾، والخشية هي الخوف عن علم، هذا الفرق بين الخشية والخوف.

الخشية هي خوف يصاحبها علم.

يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

فالله تبارك وتعالى أثنى عليهم بعدم شركهم في الربوبية، لأن الآية لم تقل: والذين هم بإلهم لا يشركون، وإنما قالت: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ما معنى أنهم لا يُشركون في الربوبية؟ أنهم لم يصرفوا شيئًا من فعل الله تبارك وتعالى لغيره، فما صرفوا تدبيرًا ولا مُلكًا ولا خلقًا ولا نفعًا ولا ضَرًا لغير الله تبارك وتعالى.

إذًا هم حققوا توحيد الله في ربوبيته، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، ولذلك ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية في هذا الباب.

ثم قال الله تبارك وتعالى ليبين جزائهم:

﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وأعظم الخيرات توحيد الله تبارك وتعالى: كانوا يسارعون في هذه الخيرات، فإذا كان هذا الموحد سابقًا في توحيد الله تبارك وتعالى في العاجل فلا بد أن يكون سابقًا في الآجِل، فهم السابقون كذلك في المآلات، وأعظم السبق دخول الجنة.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا منهم، وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها ما يبين حال هؤلاء، فقد قالت: قلت يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال لا يا بنت أبي بكر أو يا بنت الصديق ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو يخاف أن لا يتقبل منه . " حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه، ولاشك أن سبب هذا الحال تحقيقهم التوحيد.

(المتن)

عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت، قال سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.: فما صنعت؟

قلت: ارتقيت قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حُمَة، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكنْ حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عُرِضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي،

فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه فأخبروه، فقال: **«هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**، فقام عُكَّاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أنت منهم»**، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: **«سبقك بها عكاشة»**.

(الشرح)

هذا الحديث فيه أن تابعيين من أجلة التابعين خاضا في أمر ما:

خلاصة هذا الأمر: أن سعيد بن جبير سأل عمَّن رأى الكوكب:

والكوكب هو النَّجم.

الذي انقضَّ البارحة أي سقط الليلة الماضية.

والبارحة: هي أقرب ليلة مضت.

فقال: حصين بن عبد الرحمن: أنا رأيته، ثم لـمَّا ظن أن بعضهم قد يعتقد أنه كان في صلاة، قال إخلاصًا لله تبارك وتعالى وبيانًا لِـمَا كان عليه من حال، قال: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت، وهذا يدل على أن هذه اللدغة كانت شديدة فلم تُنمه.

ثم دار بينهم هذا الحوار.

لـمَّا قال له: ولكني لُدغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت، ما معنى ارتقيت؟ أي طلبت الرقية، فهي بمعنى استرقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ يعني ما حملك على طلب الرقية؟ وهذا فيه طلب الحُجة، خاصة في الأمور الدينية، فإذا سمعت شيئاً

خلاف ما عرفته فعليك أن تطلب الحُجة على ذلك من الكتاب والسُنة، لأن هذا هو الذي تعبَّدنا الله تبارك وتعالى به، لم يتعبدنا بأهواء ولا آراء الرجال.

قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حُمة.

والحُمة: هي كل ذات سُم يلدغ، وهذا الحديث ثابت عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لا رُقية إلا من عين أو حُمة»**، وهذا فيه كما قال الخطَّابي: أي لا رقية أنفع من هذه الرقية التي تكون بسبب العين أو الحُمة، وهذا ثابت في سُنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأقره كما في حديث أبي سعيد الخدري، لـمَّا مر على قوم لُدِغ سيدهم، فأبوا أن يضيِّفوهم، ثم بعد ذلك ما كان منهم إلا أن سألوا عن راقٍ، فقام أبو سعيد، فقرأ عليه سورة الفاتحة، فشفاه الله تبارك وتعالى، فأقره النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على هذه الرقية.

فهذا فيه أن الرقية مشروعة، وأنها تنفع بشروطها:

فمن هذه الشروط: أن تكون بألفاظ مفهومة معلومة.

وأن تكون بما لا يخالف الكتاب والسُنة.

وأن يعتقد المرء أنها سبب، لا أنها تؤثر بذاتها، فهذا فيه إثبات الأسباب، والأخذ بها، وأن هذا لا ينافي التوكل.

فقال: **«لا رُقية إلا من عين أو حُمة»**، أي أن الرقية في مثل هذين الأمرين تنفع جدًا.

والعين هي أن يصاب المرء بعين عائنٍ، أن ينظر المرء إليه حسداً له.

والإنسان إذا رأى ما يعجبه لا ينبغي أن يبادر إلى بيان إعجابه بذلك، لأن بعض الناس قد لا يقصد الحسد ومع ذلك يقع منه الحسد، وقد يقع منه الحسد في ولده أو في ماله وهو لا يشعر بذلك، فإذا رأيت ما يُعجبك فماذا تفعل؟

المشهور عند كثير من الناس أنهم يقولون: ما شاء الله، وهذا غير صحيح، يقولون: ما شاء الله، انظر إلى هذا؟ وهذا غير صحيح.

إنما الثابت في سُنة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن تُبرِّك أي أن تقول: تبارك الله.

أما ما شاء الله فهي إثبات قدرة الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، قيل هذا القدر من الآية: لبيان أن الأمر كله بيد الله تبارك وتعالى، وأنه لا حول ولا قوة له إلا بالله، فلا ينبغي له أن يغتر بماله ولا بجنته.

فلا ينبغي لإنسان إذا رأى شيئًا يعجبه أن يقول: ما شاء الله، ولكن قل: تبارك الله.

بعض الناس إذا بنى بيتًا يكتب: ما شاء الله، يكتب: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، وهذا غير صحيح، إنما الصحيح: أن تُبرِّك كما قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كما في حديث سهل بن حنيف، قال له النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«هلَّا برَّك أحدكم إذا رأى شيئًا يعجبه»**.

في الآية لم يقع منه الحسد لماله وإنما سبب الآية وسياق الآية كما نعلم في صاحبين أحدهما مؤمن موحد بالله تبارك وتعالى، والآخَر كافر بالله تبارك وتعالى، ولذلك كان الفصل بينهما في آخر هذه القصة، لأنه اغتر بجنته واغتر بماله وظن أنه سيكون له ما هو أفضل من ذلك إذا مات.

فالثابت والله أعلم أن يقول المرء إذا كان في نفسه أو لغيره أن يقول: تبارك الله، أو بارك الله في ذلك، ومن أهل العلم من أجاز ذلك فيما تملك استدلالا بآية الكهف، وجعل التبريك في حق غيرك.

ما معنى يبرِّك؟ أن يقول: تبارك الله، أو اللَّهم بارك.

فقال: «**لا رقية إلا من عين أو حُمة**»، فقال سعيد: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن.

وهذا ليس فيه إنكارٌ على حصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما هذا فيه ثناء على حصين، لأنه لمَّا سأله عن الدليل ذكر له هذا الدليل الذي بمقتضاه طلب الرقية.

قال: ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**عُرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط**»، وهذا العرض قيل إنه كان في المنام، وقيل إنه يكون يوم القيامة.

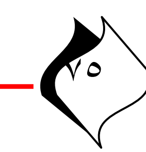
ولكن عبَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمُضي باعتبار تحققه.

وقيل: إنه كان ليلة الإسراء والمعراج، إلى غير ذلك من الأقوال.

الشاهد: أنه قال: «**عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط**»، والرهط من ثلاثة إلى تسعة، والنبي ومعه الرجل والرجلان».

وهذا فيه عدم الاغترار بالكثرة، وفيه الرد على مَن احتج بها، فهذا النبي يأتي يوم القيامة ومعه الرجل أو الرجلان، فالواو هنا بمعنى أو، كما قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأنه لو كانت الواو هذه تفيد الجمع والاشتراك لقال: ورأيت النبي ومعه الثلاثة، وإنما قال: ورأيت النبي ومعه الرجل والرجلان، يعني أو الرجلان، وفيه كذلك أن الأنبياء مكلفون بالبلاغ والدعوة إلى ما أوحي إليهم به، خلافاً لمن قصر ذلك على الرسل.

«**ورأيت النبي وليس معه أحد**»، قال: «**إذ رفع لي**»، أي بينما أنا كذلك: «**إذ رُفع لي سواد عظيم**»، والسواد هو مَن شَخَص من بعيد ولم تتحقق صورته، «**فظننت أنهم أمتي**»، وهذا من محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته وشفقته عليهم، «**فقيل لي: هذا موسى وقومه**»، وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.



قال: «**فنظرت**»، أي نظر مرة أخرى، «**فإذا سواد عظيم**»، يعني أعظم من السواد الأول، فأمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر بكثير من أمة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

«**فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»، لماذا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟ لأنهم حققوا التوحيد.

بل ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رواية أنه قال: «**ويدخل الجنة مع هؤلاء من أمتك سبعون ألفًا**».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين صفة هؤلاء، وهي أن وجوههم تُضيء إضاءة القمر ليلة البدر جعلنا الله وإياكم منهم وفي زمرتهم.

وروى الإمام أحمد والبيهقي في حديث أبي هريرة: قال: «**فاستزدت ربي**»: أي طلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزيادة من ربه، «**فزادني مع كل ألفٍ سبعين ألفًا**»، قال الحافظ ابن حجر: وسنده جيد.

فهذا فيه أن الذين يدخلون الجنة من أمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير حساب كثير، لأن الله تبارك وتعالى زاده مع كل ألف سبعين ألفًا.

قال: «**هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»، وهذا هو الشاهد.

قال: ثم نهض: يعني النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، والناس هنا من العام الذي أُريد به الخصوص، فلم يخض كل الناس في هذا الأمر، وإنما الذي خاض مَن حضر وسمع كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فخاض الناس في أولئك، لماذا خاض الصحابة في هذه الأمور؟ ونحن نعلم ما كان عليه الصحابة من كمال العلم والعمل؟

إنما خاض الصحابة لأمرين:

أم الأمر الأول: فللوصول للحقيقة علماً، ليزدادوا علمًا، ويعلموا السبب الذي به نالوا هذه المنزلة العالية؛ أنهم يدخلون الجنة بغير حساب، وخاضوا كذلك ليصلوا إلى الحقيقة من جهة العمل، وذلك بالاجتهاد المبني على ما علموه لتحصيل هذه المنزلة.

فأصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يتعلمون آية ولا حديثًا عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَإلا ويعملون به، بل يشتد غضبهم جدًا إذا رأوا مَن يخالف حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وما حدث من عمر رضي الله عنه مع ابنه مشهور، وما حدث من عبد الله بن مُغفَّل مع قريب له كذلك.

فهذه وقائع أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أنهم كانوا يتعلمون ويعملون، لماذا خاضوا هاهنا؟ ليتعلموا وليعملوا وليسلكوا السبيل الذي عن طريقه ينالوا هذه المنزلة، فهذا خوض ممدوحٌ مثمر.

قال: فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَفأخبروه، فقال: «**هم الذين لا يسترقون**»، أي لا يطلبون الرُقية، «**ولا يكتوون**»، أي لا يطلبون الكي، «**ولا يتطيرون**»، أي لا يتشاءمون، «**وعلى ربهم يتوكلون**».

فذكر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صفات هؤلاء:

أول صفة: أنهم لا يسترقون، وفي لفظ عند مسلم: «**ولا يرقون**»، هل هناك فرق بين اللفظتين في المعنى؟

اللفظة الأولى: قال: «**لا يسترقون**»، ما معنى يسترقون؟ أي لا يطلبون الرُقية، فالسين والتاء للطلب.

أما "لا يرقون": أي لا يباشرون الرقية، سواءً كانت الرُقية لأنفسهم أو لغيرهم.

هذه اللفظة "لا يرقون" شاذة، وغلط من الراوي لماذا؟

لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقى وأذن في الرُقية، ورُقي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال شيخ الإسلام عن هذه اللفظة: ولا يرقون، قال: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يرقون، وإنما قال وقد سُئل عن الرُقى، قال: **«مَن استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»**، وقال: **«لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركًا»**.

وأيضًا: رقى جبريل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورقى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه

قال: والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعطٍ متلفت إلى غير الله بقلبه، والراقي مُحسن.

فالذي يسترقي أي يطلب الرقية هذا سائل، وهذا ملتفت بقلبه لغير الله تبارك وتعالى.

وهذا ينافي ما ذكره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا اللفظة الثابتة: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ولا يسترقون»**، قال: **«ولا يكتوون»**: أي ولا يطلبون الكي.

وهناك أحاديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها: أنه كوى أو اكتوى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

ورخص في ذلك، ومنها أنه لم يحبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها: أنه نهى عن ذلك.

وخلُص ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في زاد المعاد: أن الكي جائز، وليس بمستحب ولا حرام.

قال: **«ولا يتطيرون»**، قلنا: أي لا يتشاءمون بالطير.

قال: **«وعلى ربهم يتوكلون»**.

هذه الأشياء التي ذكرها: يسترقون، يكتوون، يتطيرون، هل مَن اتصف بها يكون مذمومًا أم فاته الكمال؟ هذا فيه تفصيل.

أما من اتصف بقوله : يسترقون، و يكتوون، فقد فاته الكمال ولم يلحقه الذم إذ لم يقع في محذور شرعي.

وأما التشاؤم فهو محرم في دين الله تبارك وتعالى.

ثم ذكر الأصل الجامع لكل هذه الأمور، قال: «وعلى ربهم يتوكلون»، فكأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصَّل ثم أجمل، فبيَّن الأصل الجامع لكل ذلك أنهم يتوكلون على الله تبارك وتعالى بقلوبهم.

ولذا قال صاحب فتح المجيد في قوله: «وعلى ربهم يتوكلون»، قال: ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال، وهو التوكل على الله تبارك وتعالى، وصدق الالتجاء إليه والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يُثمر كل مقام شريف من المحبة والرجاء والخوف والرضا به ربًا وإلهًا، والرضا بقضائه تبارك وتعالى.

هنا مسألتان:

أما المسألة الأولى: هل التداوي يدخل في هذه الأمور؟

يعني طلب الدواء والاستشفاء يدخل في هذه الأمور وهل ينافي الكمال أم لا الكمال؟

من العلماء مَن قال: إنه ينافي الكمال، لماذا؟ لأن الذي يسترقي أو يكتوي إنما فعل ذلك من أجل التداوي، فكذلك من تداوى بالذهاب إلى طبيب أو أخذ العلاج فإنه يدخل في ذلك، فقال: فاته الكمال .

ومن العلماء من قال وهذا هو القول الراجح: إنه لا يدخل في هذا الصنف، يعني لا يُقاس الدواء على طلب الرقية ولا طلب الكي، لماذا؟

قالوا: لأن هذين الأمرين بالذات أي طلب الرقية والكي يتعلق فيهما قلب المرء جدًا بغير الله، ولذلك نجد الإنسانَ المسحور أو الذي أصابه مس قلبُه في الغالب لا يتعلق بالله تبارك وتعالى، إنما يتعلق بالراقي الذي سيقرأ عليه.

وكذلك في الكي.

وأما التداوي بغير الكي والرقية فقد حثَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، فقال: **«تداووا عباد الله، فإن الله لم يُنزل داءً إلا وأنزل له دواء»**.

وبيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضل العسل، وكذلك كتاب ربنا تبارك وتعالى، وبيَّن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضل حبة البركة، وغير ذلك من الأمور التي هي من باب التداوي.

فالتداوي لا ينافي الكمال، لا ينافي كمال التوحيد، وإنما الذي ينافي كمال التوحيد هو أن تطلب الرقية أو أن تطلب الكي.

مسألة ثالثة: لو عرض عليك إنسان أن يرقيك أو أن يقرأ علك، هل هذا ينافي كمال التوحيد؟ لو أنك استجبت له هل هذا ينافي كمال التوحيد؟

أقول: لو منعته فقد خالفت السُنَّة، فعائشة رقت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يمنعها، وجبريل رقى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يمنعه، فإذا رأى إنسان من حالك أنك بحاجة إلى رُقية، وقال لك مثلًا: تعال لأرقيك، فلا تمنعه، وإلا خالفت السُنَّة.

قال: **«وعلى ربهم يتوكلون»**، وسيأتي بابٌ منفصل في التوكل على الله تعالى.

فقام عُكَّاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أنت منهم»**.

وفي رواية للبخاري قال: **«اللَّهم اجعله منهم»**، فراوية البخاري تدل على أن قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أنت منهم»**، هو خبر بمعنى الدعاء.

ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: **«سبقك بها عكاشة»**.

لماذا لم يدع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الرجل كما دعا لعكاشة؟

وذلك والله أعلم أن عُكَّاشة رضي الله عنه قد حصَّل من الخصال والصفات الحميدة التي لم تكن عند هذا الرجل، فهذا من حُسن بيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورده على الناس، فلما قال الرجل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادع الله أن يجعلني منهم، لم يقل له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت لست منهم، وإنما قال: **«سبقك بها عُكَّاشة»**، وهذا من باب التعريض.

عرَّض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يلقها هكذا، لماذا؟ لأنه لم تكن به الخصال التي كانت في عكاشة.

أو قيل: إن هذا الرجل كان من المنافقين، فلم يكن يستحق أن يكون في هذه المنزلة التي سبق إليها عكاشة بن محصن.

أو قيل: لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما قال له: **«سبقك بها عكاشة»**، سدًا لهذا الباب، لأنه لو دعا لهذا الرجل لقام ثالث، وهكذا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سبقك بها عكاشة»**.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

(الشرح)

فالناس ليسوا على درجة واحدة في التوحيد:

فمنهم من حقق كماله الواجب، ومنهم من حقق كماله المستحب، ومنهم من قَصُر عن المرتبتين.

(المتن)

الثانية: ما معنى تحقيقه.

(الشرح)

أن يخلِّصه من كل شائبة من الشوائب التي تقدح فيه، وهي ثلاثة: الشرك والبدعة والمعصية.

أما الشرك: فإنه ينافي أصله.

وأما البدعة: فإنها تقدح في كماله الواجب.

وأما المعصية: فإنها تُنقص ثوابه.

(المتن)

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

(الشرح)

قال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩]، وقوله: سادات الأولياء: هذا من باب إضافة الصفة للموصوف، فالذي يوصَف بالسيادة هم الأولياء.

لماذا أثنى الله تبارك وتعالى عليهم؟ لأنهم خلَّصوا أنفسهم من الشرك بنوعيه، ولذلك جاء بصلة الموصول والتي هي مع اسمها في قوة المشتق، فصار ذلك صفةً لازمةً لهم.

(المتن)

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

(الشرح)

أي ترك الاسترقاء فهو تركٌ لطلبها لا لفعلها.

فالترك المقصود هاهنا ترك الطلب لا ترك الفعل، فكما سبق أن ذلك ثابت من فعل النبي وإقراره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل على الله تبارك وتعالى.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

(الشرح)

ولذلك سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن هم؟ أي مَن هؤلاء يا رسول الله لكي نعمل عملهم؟

(المتن)

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

(الشرح)

كيف بالكمية؟ **«ثم عُرض لي سواد عظيم»**، فهذا يدل على عِظم أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددًا يوم القيامة.

الكيفية: أن لهم من الصفات ما ليس لغيرهم، فمعهم أي مع أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن لا يطلب الرقية ولا الكي.

(المتن)

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام.

(الشرح)

وفائدة العرض: تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن في الحديث: **«عُرض النبي ومعه الرجل والرجلان»**، فهذه تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يصيبه من الأذى وامتناع بعض المشركين عن الإيمان به، فيأتي يوم القيامة النبي ومعه الرجل، لم يؤمن به إلا رجل أو رجلان أو لم يؤمن به أحد.

فهذه تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الفائدة الثانية من هذا العرض: فهي بيان فضيلته وشرفه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أن يأتي هذا العدد الغفير من أتباعه يوم القيامة بهذه الصفات العظيمة التي لم تكن في أمة كأمة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

(الشرح)

فكل أمة يوم القيامة تُحشر مع نبيها، وكل أمة يوم القيامة لها حوض خاص بها.

(المتن)

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء، فلا تستوحش الطريق يا عبد الله.

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده يوم القيامة.

(المتن)

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

(الشرح)

ألا يغتر المرء بالكثرة، وهذا له بابان:

أما الباب الأول: فهو كثرة الهالكين، فالمرء إذا رأى كثرة الهالكين فما ينبغي عليه أن يستوحش.

وأما الثاني: فلا يغتر بكثرة السالكين عن الحق، لأن هذا قد يصيبه بالعُجب، ونحن نعلم ما حصل لأصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في غزوة حنين: ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾ [التوبة: ٢٥].

قال: ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزُهد في القلة، فقلة السالكين كذلك ما ينبغي أن تكون سبباً في استيحاش الطريق.

(المتن)

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع.

(الشرح)

وهذه الجملة من قول التابعي "قد أحسن من انتهى إلى ما قد سمع" صارت الآن مثلًا.

فإذا ذكر لك المرء دليلًا على ما يقوم به، تقول له: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع.

(المتن)

ولكن كذا وكذا، فَعُلِم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

(الشرح)

أي أن حديث حُصين لا يخالف حديث سعيد بن جبير.

كيف لا يخالفه؟ لأن حديث حصين يُثبت مشروعية الرقية، وحديث سعيد بن جبير يبين أن طلب الرقية ينافي كمال التوحيد المستحب وليس الواجب، فلا تنافي ولا تعارض بين الحديثين.

(المتن)

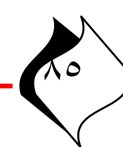
الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «**أنت منهم**»، عَلَمٌ من أعلام النبوة.

(الشرح)

عَلم من أعلام النبوة: إن قلنا إنها جملة خبرية فهذا إخبار من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣، ٤].

كيف مات عُكاشة بن محصن؟



مات شهيدًا في حروب الردة، فمات على الإسلام ولم يرتد، قال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنت منهم»، ومات على الإسلام، فهذا عَلم من أعلام النبوة إن قلنا إنها جملة خبرية.

أمَّا إن قلنا إنها جملة إنشائية: اللَّهم اجعله منهم، يدعو له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نقول: استجاب الله لدعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومات عُكاشة على الإسلام، سواءً قلنا هذا أو ذاك فهذا عَلَم من أعلام النبوة.

(المتن)

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

(الشرح)

والمعاريض كما قال صاحب اللسان: هي التورية بالشيء عن الشيء.

يعني قد تستخدم اللفظ الذي يحمل المعنى البعيد ومن يسمعك يظن أنك تريد المعنى القريب.

كما حُكي عن الإمام أحمد أن رجلًا اختبأ عنده يومًا ما، فلما جاء طالبه وطرق الباب قال: هل عندكم فلان؟ فرد أحمد من خلف الباب وقال: فلان ليس هاهنا وأشار إلى كفه.

فالذي يسمع يظن أنه ليس هاهنا أي ليس في البيت، والإمام أحمد إنما أراد المعنى البعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فاستعمال المعاريض فيه مندوحة عن الكذب، يعني الإنسان أحيانًا أقول: من باب الضرورة قد يستعمل المعاريض ليخرج من الكذب، لا أن يستعمل المعاريض على الدوام للتلبيس على الناس.

لأن بعض الناس للأسف الشديد عندما يعلم بأن هناك رُخصة يمكن أن يترخَّص بها فتصير عنده هذه الرخصة هي الأصل عنده، كلامه كله معاريض.

أنت قلت كذا، يقول: أنا لم أقصد كذا وإنما أقصد المعنى الثاني، أنت قلت كذا، وقد يحلف على هذا الأمر، يُستحلف، والحلف إنما يكون على نية المستحلف.

فالمعاريض إنما تُستعمل عند الضرورة فقط، ففي المعاريض كما قلن مندوحة عن الكذب، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سبقك بها عكاشة»**.

(المتن)

الثانية والعشرون: حُسن خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

لأنه رد هذا الرجل بطريقة ليست فيها كراهة ولا غضاضة، إنما بحسن تعليمه وأدبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبحسن خلقه.

وبهذا نكون قد انتهينا من هذا الباب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

(السؤال): هل من الصحابة مَن لا يدخل الجنة ابتداءً؟

(الجواب): أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم في الجنة كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الذي لا يدخل الجنة ابتداءً ويكون في المشية مَن؟ الذي مات على كبيرة من الكبائر مصرًا عليها ولم يتب منها، وهذا لا نعلمه عن أحدٍ من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما الواحد منهم إن وقعت منه بعض الزلات كان يسارع للتوبة والمغفرة وإقامة الحد عليه.

ومَن أراد أن يعلم مدى إيمان أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلينظر إلى توبة ماعز الأسلمي، بل وتوبة الغامدية، هذه المرأة صاحبة القصة العجيبة في أنها كانت تذهب

للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويردها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تضع حملها، فتذهب فيردها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تُرضع طفلها، ثم تذهب وتعود للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي ثابتة على إيمانها لا تتردد.

فأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم في الجنة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يحشرنا معهم ومع نبينا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(المتن)

باب الخوف من الشرك

(الشرح)

هذا من حُسن تصنيف المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن حُسن ترتيبه لهذا الكتاب.

فإنه لمَّا بدأ كتابه ببيان وجوب التوحيد وأهميته، ثنَّى ببيان فضل التوحيد وما يُكفِّره من الذنوب، ثم ذكر بعد ذلك الجزاء العظيم لمن حقق التوحيد، وهو أنه يدخل الجنة بغير حساب.

فأردف هذه الأبواب السابقة بهذا الباب، وهو باب الخوف من الشرك.

وإنما أردف بهذا الباب: لأن المرء قد يظن أنه قد حقق التوحيد، وهو لم يحققه، فأراد بهذا الباب أن يُبعِد النفوس عن الشرك كله بتخويفها منه وتحذيرها.

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾.

(الشرح)

بيَّن في هذه الآية أن الله تبارك وتعالى لا يغفر الإشراك به، وإن كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يغفر ذلك فهو حري أن يُخاف منه، ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾.

فقوله: أن يُشركَ فِعل مضارع مقرون بأن المصدرية، وأنْ وما بعدها في تأويل مصدر، وهذا المصدر نكرة، فهو في سياق النفي فيعم.

فالله تبارك وتعالى لا يغفر إشراكًا به، ولذلك قال بعض العلماء: أن الشرك الأصغر كذلك يدخل في عموم هذه الآية.

فمعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لا يغفر شركًا أكبر ولا شركًا أصغر.

ومقصود ذلك: أن كل ما هو دون الشرك أي ما هو أقل من الشرك فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء الله عذَّبه بقدر ذنبه، ثم أدخله الجنة.

أما الشرك الأصغر أو الأكبر فهذا لا يدخل تحت المشيئة ولا بُد أن يُعذَّب صاحبه.

ولذلك ساق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية لكي نخاف الشرك بنوعيه: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾.

ومن أهل العلم مَن قال: إن هذه الآية تختص بالشرك الأكبر.

ولكنْ، كيف وجَّهوا هذا العموم الذي أشرنا إليه ؟

قالوا: علينا أن ننظر إلى معهود استعمال القرآن، وهذه قاعدة مهمة جدًا: أن المفسر إذا أراد أن يفسِّر لا بد أن ينظر إلى معهود استعمال القرآن، ما المعهود في القرآن عند استعمال هذه اللفظة أو هذا التركيب؟

ما المعنى الذي يطَّرد دائمًا ذكره في القرآن عند استعمال هذه اللفظة أو هذا التركيب؟

فقالوا: لو نظرنا إلى هذا التركيب وإلى معهود استعمال القرآن لهذا التركيب (أن يُشرك به) لوجدنا أنه يرجع إلى الشرك الأكبر لا إلى الشرك الأصغر.

فهذه الآية من العام الذي أُريد به الخصوص، أنىَّ لهم ذلك؟

قالوا: لأننا وجدنا في كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

مَن يُشرِك هذه كذلك شرطية، وجاءت يُشرِك كذلك في سياق الشرط فتعُم، ولكن المقصود في هذه الآية إنما هو الشرك الأكبر لا الشرك الأصغر، لأن الذي يخلَّد في النار ولا يخرج منها هو مَن وقع في الشرك الأكبر دون الشرك الأصغر.

وكذلك قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

مَن يُشرِك بالله، من المقصود به في هذه الآية؟ كذلك يُقصد به المشرك شركًا أكبر.

وكذلك قول الله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ [النساء: ١١٦ - ١١٨].

فسياق الآية كذلك في الشرك الأكبر، وقالوا: حتى لو كانت الآية صيغتها صيغة عامة، إلا أنها هاهنا عام يراد به الخصوص، ولاشك أن هذا القول من جهة إعمال قواعد أصول الفقه مع النظر إلى معهود استعمال القرآن أقوى.

وسواءً قلنا هذا أو ذاك أو رجحنا هذا أو ذاك فالآية إنما سيقت للتحذير والتخويف من الشرك.

فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

والمراد بقوله: ما دون ذلك كما يقول ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي ما هو أقل من ذلك، وليس المراد: ما هو سوى ذلك.

أي: أن الله تبارك وتعالى لا يغفر الشرك، وإنما يغفر ما هو أقل من الشرك، وليس المراد أنه يغفر ما سوى الشرك، لماذا؟ لأن المرء لو مات جاحدًا أو معرضًا أو مُكذِّبًا ولم يمت مشركًا، لم يقع في الشرك، ومع ذلك لا يغفر الله تعالى له.

إذًا معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، أي ما هو أقل من ذلك.

وعلى مقتضى هذه الآية فالشرك نوعان:

أما النوع الأول فهو الشرك الأكبر وهو: جعل شيء من العبادة لغير الله يزول به أصل الإيمان.

أن يجعل المرء شيئًا من العبادة، والأصل في العبادة أنها لله تبارك وتعالى، أن يجعل هذه العبادة لغير الله، هذا الجعل يترتب عليه أن يزول أصل الإيمان، فهذا الشرك الأكبر.

والنوع الثاني: الشرك الأصغر، وهو جعل شيء من العبادة لغير الله يزول معه كمال الإيمان الواجب.

فالشرك الأصغر لا يزول معه أصل الإيمان، وإنما ينقص كمال الإيمان الواجب عنده فيستحق الذم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، فيه رد على الخوارج، وعلى المعتزلة:

لأن الخوارج والمعتزلة يقولون: أن الله تبارك وتعالى لا يغفر لصاحب الكبيرة، فإن مات على ذلك فهو خالدٌ مخلَّد في النار،ثم هذه الآية باعتبار المآل، أي لو مات على ذلك، وأما لو تاب من شركه قبل موته، فالله يغفر الذنوب جميعاً، الشرك وما دونه.

(المتن)

وقال الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ .

(الشرح)

هذه الآية ساقها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك ليحذِّرنا وليخوفنا الشرك.

أين الدلالة في هذه الآية؟

الدلالة: أن الذي دعا بذلك هو خليل الرحمن، فإن كان خليل الرحمن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وُصف بأنه حقق التوحيد وكمَّله، فقال الله ﷻ عنه: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم: ٣٧]، وقال كما في الدرس السابق: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

إن كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الذي كسَّر الأصنام بيده، وهو الذي ناظر قومه، وهو الذي أتاه ربه رُشده من قبل: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وأراه ربُّه تعالى ملكوت السموات والأرض فكان من الموقنين.

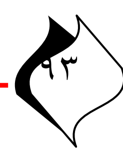
إن كان إبراهيم بهذه الأوصاف العظيمة ومع ذلك يخشى الشرك ويقول: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ .

يقول: اجنبني: أي اجعلني وبَنيَّ في جانبٍ والأصنام والشرك في جانب آخر.

فإن كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول كذلك، فنقول كما قال إبراهيم التيمي: فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

إن كان إبراهيم يقول ذلك فمن دونه من باب أولى أن يخشى الشرك، وألا يطمئن إلى ما معه، وأن يسأل الله تبارك وتعالى الثبات على ما مَنَّ عليه به.

فقال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾، أي اجعلني في جانب، وعبادة الأصنام في جانب آخر، فهي أدل على المراد من (أبعدني عن عبادة الأصنام)



(المتن)

وفي حديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسُئل عنه؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرياء».

(الشرح)

وهذا الحديث جوَّد إسناده الألباني في الصحيحة كما في الحاشية عندكم.

وهذا فيه شفقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الأمة، فهو يخاطب الصحابة، والصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل الناس إيمانًا بعد الأنبياء والرُسل، فهم خير الناس بعد الأنبياء والرسل، ربَّاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغوا الذروة في الإيمان، ومع ذلك يقول لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخوف ما أخاف عليكم».

فإن كان الصحابة كذلك يخاف عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن دونهم من باب أولى.

يقول: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، إذًا هذه التسمية تسمية شرعية لا اصطلاحية.

تقسيم الشرك إلى أصغر وأكبر هذا تقسيم شرعي، فسُئل عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «الرياء».

وهو مصدر راء يرائي رياءً، وهو مشتق من الرؤية، أي أن يرى المرء عمله وأن يعبد الله تبارك وتعالى ليراه الناس، فيمدحوه على عبادته، هذا هو الرياء.

فإن كان الرياء في أصل العبادة أي ما قام بهذه العبادة إلا من أجل أن يراه الناس فلا شك أن هذه العبادة حابطة وباطلة، ولا تُقبل من صاحبها.

وإن كان في أثناء العبادة فدفع هذا الرياء عن خاطره فلا يضره، وقد يُثاب على ذلك.

إنسان يصلي، أخلص لله تبارك وتعالى، وفي أثناء الصلاة طرأ على ذهنه أن هناك مَن يراقبه وينظر إليه، فزيَّنت له نفسه أن يُحسن صلاته: فطرد ذلك، واستمر في إخلاصه وعبادته لله تبارك وتعالى: هذا لا يضره.

كيف يطرده؟ إما أن يستغفر الله تبارك وتعالى، وإما أن يتفل عن يساره كما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن هذا قد يكون مدخلًا من مداخل الشيطان، فيتفل عن يساره ويستغفر الله تبارك وتعالى.

فإن كان في أثناء العبادة وطرده صرفه هذا: فهذا لا يضره.

وإن استرسل معه فالجمهور على أنه يثاب على قدر ما كان مخلصًا فيه لله تبارك وتعالى.

وأما ما راءى الناس فيه: فهذا لا يثاب عليه.

فقال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر».

وفي بعض الأحاديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن علاج ذلك، فإن المرء قد يقع في الشرك دون أن يدري، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قل: اللَّهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لِمَا لا أعلم».

فالمرء دائمًا يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لِمَا لا أعلم»، فهذا إن شاء الله يُكفِّر هذا الرياء إن طرأ على ذهن الإنسان وهو لا يدري.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض الأحاديث واصفًا هذا الرياء وهذا الشرك الأصغر أنه أخفى من دبيب النمل، هل يستطيع الواحد منا أن يسمع دبيب النمل؟

فالرياء والشرك الأصغر يدخل القلوب بطريقة هي أخفى من دبيب النمل عياذًا بالله.

ولذلك الإنسان قد تتحول عليه نيته في المجلس الواحد أكثر من مرة: مرة يكون مخلصًا، ومرة عياذًا بالله مرائيًا، يبتغي كذا من الناس، والمرة الثالثة يبتغي أمرًا ثالثًا، وهكذا تتقلب عليه نيته، فعلَّمنا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ماذا نقول؟

نقول: **«اللّٰهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لِمَا لا أعلم»**.

وأعوذ: أي ألتجيء إليك وأعتصم بك في دفع ما يضر، وأما ألوذ فمعناها ألتجيء إليك في جلبِ ما يَسُر، كما قال أبو الطيب:

يا مَن ألوذ به فيما أؤمله ❊ ومَن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبرُ الناسُ عظماً أنت كاسرُه ❊ ولا يهيضون عظماً أنت جابره.

(المتن)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار»**، رواه البخاري.

(الشرح)

ودلالة هذا الحديث على هذه الترجمة: أن ما كان موجِبًا لدخول النار وجب الخوف منه وخشيته.

ولذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«من مات وهو يدعو»**، ولا شك أن الدعاء عبادة عظيمة.

فمن مات وهو يدعو غير الله سواءً كان دعاء مسألة أو دعاء عبادة، يُثني على مقبور، يخلع على مخلوق من الصفات ما لا ينبغي إلا لله تبارك وتعالى، يدعوه من دون الله، يذبح له، ينذر له.

فالذي يموت على تلك الحال قال عنه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«دخل النار»**، وهذا لا يدخل الجنة أبدًا، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

قال: «دخل النار»، فدخول النار نوعان، كما أن دخول الجنة نوعان، ذكرنا قبل ذلك: دخول في الحال ودخول في المآل.

فالذين ترجح حسناتهم على سيئاتهم يدخلون الجنة في الحال، والذي ترجح سيئاتهم على حسناتهم ولا يغفر الله تبارك وتعالى لهم، وهم من الموحدين: يدخلون الجنة في المآل.

كذلك دخول النار على نوعين:

دخول تأقيت، ودخول تأبيد.

النوع الأول: دخول تأقيت، وهذا في الشرك الأصغر أم في الشرك الأكبر؟ هذا في الشرك الأصغر على القول بأنه لا يدخل تحت المشيئة، فصاحبه لا بد أن يدخل النار وأن يُطهَّر، ولكن هذا الدخول هل هو دخول أبدي؟ لا وإنما هو دخول مؤقت على قدر ذنبه، ثم بعد ذلك يخرج صاحبه بعد أن يُنقَّى ليدخل الجنة.

والنوع الثاني: دخول تأبيد وهذا للمشرك بالله شركًا أكبر عياذًا بالله.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار»، وهذا يبين لنا كما يقول في الفائدة السادسة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قُرب الجنة والنار، أن الجنة والنار قريبتان، فبمجرد أن يموت المرء يرى نعيمه أو عذابه، كما بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا يجب على المرء أن يخشى الشرك، وأن يبتعد عنه في الاعتقاد وفي الذِكر، وفي عمل الجوارح، في كل عبادة يعبد بها الله تبارك وتعالى.

(المتن)

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار».

(الشرح)

«مَن لقي الله لا يشرك به شيئًا»: هذه جملة حالية، أي حال كونه لا يُشرك بالله شيئًا، فهذا جزاؤه أن يدخل الجنة، فقوله كذلك: «لا يشرك به شيئًا»: نكرة في سياق النفي، فيعم كل شرك.

فالذي يحقق هذا الأمر حقق التوحيد الذي يستوجب دخول الجنة فضلاً من الله تعالى.

«ومن لقيه يشرك به شيئًا»: أي حال كونه يشرك به شيئًا، «دخل النار».

فهذه الآيات والأحاديث التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما ساقها من باب التحذير والتخويف من الشرك، فالمرء لا ينبغي له أن يطمئن إلى نفسه، ولكن يلجأ إلى الله تبارك وتعالى دائمًا بالدعاء أن يُجنِّبه الشرك الأكبر والأصغر.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

(الشرح)

وعرفنا ضابط الشرك الأصغر، أن لا يزول معه أصل الإيمان، إنما يقدح في كمال الإيمان الواجب.

(المتن)

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

(الشرح)

لماذا؟ قلنا: لأن الرياء لا يشعر به العبد، فهو أخفى من دبيب النمل، فالمرء قد يُعجب بعبادته ويحب المدح على ذلك دون أن يشعر.

ولذلك قال النبي ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم»، ولا شك أن أصحاب النبي ﷺ هم سادات الصالحين، ومع ذلك يقول لهم النبي ﷺ هذا الكلام، وهذا فيه حُسن اعتقاد المصنف رحمه الله وطيب ثراه في الصحابة كافة رضي الله عنهم وأرضاهم

(المتن)

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد على عمل متقارب في الصورة.

(الشرح)

لأن النبي ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار».

وقال في الحديث الذي بعده: «مَن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار».

فقد يكون العمل متقاربًا في الصورة، هذا يصلي وهذا يصلي، هذا يذبح وهذا يذبح، الصورة واحدة، ولكن النية والقصد هو الذي جعل هذا توحيدًا وجعل هذا شركًا عياذًا بالله.

(المتن)

السابعة: أنه من لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

(الشرح)

من أين جاء بقوله ولو كان من أعبد الناس؟

من الآيات والأحاديث التي سيقت مساق العموم، فيندرج تحتها كل أحد، فلو كان من أعبد الناس وأشرك بالله تبارك وتعالى دخل النار عياذًا بالله.

(المتن)

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

(الشرح)

وإنما سماها عظيمة كما قلنا لأنه إن كان الخليل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يسأل ذلك فمن دونه من باب أولى، ما ينبغي لنا أن نطمئن على أنفسنا.

(المتن)

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقول إبراهيم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾.

العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري.

(الشرح)

أي هذا الحديث فيه تفسير لَا إِلَهَ إِلَّا الله، قال في الحاشية: يعني أن معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله: هو ترك الشرك وإفراد الله بالعبادة كما أفاده البخاري بالتبويب وبالحديث الذي أورده، فالتوحيد لا يكون توحيدًا إلا بأمرين:

بإفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة، وترك الشرك ونفيه.

ولذلك قال الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وما من نبي يأتي قومه إلا ويقول لهم: اعبدوا الله، فاعبدوا الله هذا إثبات، ولا تُشركوا به شيئًا هذا هو النفي، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

التوحيد لا يقوم إلا هذين الركنين: على التحميد والتسبيح، على الإثبات والنفي.

أردف -وهذا من حُسن ترتيبه رَحِمَهُٱللَّهُ- الباب السابق بهذا الباب ثم أردف ذلك بباب الدعاء إلى شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

ليبين لنا وجوب الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وإلى توحيده ﷻ، وأشار بقوله إلى شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله: أن المقدَّم في الدعوة في التوحيد هو الدعوة إلى توحيد العبادة، فهذه هي وظيفة الأنبياء والرسل.

فالأنبياء والرسل وإن كانوا يأتون لينبِّهوا على توحيد الربوبية وعلى توحيد الأسماء والصفات، ولكن الخصومة الكبرى والعداء الشديد إنما كان في إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة.

ولذلك لمَّا جاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال المشركون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، ماذا يريدون بهذا القول؟ ينكرون على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره إياهم بإفراد أفعالهم الذين يتقرَّبون بها إلى الله تعالى إفراد هذه العبادة لله تبارك وتعالى.

فما قال هاهنا في هذا التبويب باب الدعاء إلى التوحيد، وإنما قال: باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، لأمرين:

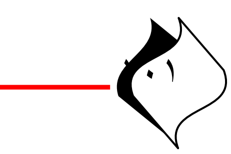
أما الأمر الأول: ليبين أن هذا هو الأساس في دعوة الرسل، أنهم يدعون إلى توحيد العبادة.

وأما الأمر الثاني: فلذلك ليوافق لفظ الحديث، لأن الحديث: «ليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، وهذا من فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فأراد أن ينبه على هذا الأمر، أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك، عرف التوحيد وفضله وأهميته وخاف الشرك، كل ذلك في الأبواب السابقة، من عرف ذلك فلا ينبغي له أن يقتصر على نفسه، وإنما يجب عليه أن يعمل بذلك، ثم إذا علم وعمل بذلك وجب عليه أن يدعو إليه، حتى يكون من ورثة الأنبياء كما يقول صاحب فتح المجيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فذلك أحب أهل الأرض إلى الله تعالى، كما قال الحسن البصري.

فأحب أهل الأرض إلى الله تبارك وتعالى: الذين يدعون إلى الله وإلى توحيده، فهذا حبيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جعلنا الله وإياكم منهم.



ما يجدر بك أن تقعد عن الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ولكن اِلحقْ بهذا الركب الذين هم ورثة الأنبياء فهم أحب أهل الأرض إلى الله تبارك وتعالى.

(المتن)

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقوله الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

(الشرح)

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، الياء هذه، مَن المعنيُّ بها؟ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا كان هذا سبيل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسبيله كما علمنا الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، فالداعي إلى التوحيد من بعده مقتدٍ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا وجه الدلالة من هذه الآية: أنه إن قال النبي: هذه سبيلي، فيا من تقول: إنك متَّبع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسبيله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، فكن كنبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ما البصيرة؟ البصيرة هي المعرفة التي يميِّز المرء بها بين الحق والباطل، وأي بصيرة أعظم من التوحيد؟ الموحِّد دائمًا يميز بين الحق والباطل.

﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فسواءً كان معنى الآية: قل هذه سبيلي أدعو على بصيرة أنا ومن تبعني من الصحب الكرام رضي الله عنهم ، أو كان المراد أدعو على بصيرة ومن تبعني ينبغي أن يدعو على بصيرة كذلك ، أي سواءً كان ذلك مدحاً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أو مدحاً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحثًا لمن كان بعده أن يقتدوا بهدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالمهم أن الدعوة على بصيرة أي الدعوة على توحيد الله تبارك وتعالى.

فهذه الدعوة التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآية إنما جاءت في مقام المدح، وعلة مدحها أنها قامت على بصيرة، ولا بصيرة أعلى من الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى.

وكل دعوة خلت من الدعوة إلى توحيد الله فهي دعوة لا بصيرة فيها، هي دعوة مطموسة.

كل جماعة وكل فِرقة لا تجعل أُسها الأول وهمها الأول الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى فدعوتها دعوة مطموسة مخذولة.

ولذلك لو نظرت في حال الجماعات والفِرق في هذه الأيام لوجدت خير شاهدٍ على ذلك.

فهذه الجماعات الموجودة الآن كجماعة الإخوان المسلمين وجماعة التبليغ والجهاد وداعش والقاعدة والنُصرة وكل هذه الجماعات لم تسلك سبيل النبي ﷺ.

والشيخ الفوزان حفظه الله له كلمة ماتعة في تقدمته لكتاب: **منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله**، يبين الخلل الذي وقع فيه هؤلاء، يقول بعد أن تكلم عن حديث الباب وهو قول النبي ﷺ: **«إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»**.

يقول: وإن أية دعوة لا تقوم على هذه الأُسس ويكون منهجها قائم على منهج الرسل فإنها ستبوء بالخيبة وتضمحل وتكون تعبًا بلا فائدة.

وخير دليل على ذلك: تلك الجماعات المعاصرة التي اختطت لنفسها منهجًا للدعوة يختلف عن منهج الرسل، فقد أغفلت هذه الجماعات إلا ما قل منها جانب العقيدة، وصارت تدعو إلى إصلاح أمور جانبية، فجماعة تدعو إلى إصلاح الحكم والسياسة وتطالب بإقامة الحدود وتطبيق الشريعة في الحكم بين الناس.

وهذا جانب مهم، لكنه ليس الأهم، إذ كيف يطالَب بتطبيق حكم الله على السارق والزاني قبل أن يُطالب بتطبيق حكم الله على المشرك، ولذلك تجد هذه الجماعة فيها الصوفي والمشرك، والذي يذبح للقبور، والذي يتوسل إلى الله تبارك وتعالى بهذه الوسائل الشركية يدخل في هذه الجماعة.

بل تجد فيها النصراني، وقد يتبوأ منصبًا عندهم كبيرًا، لماذا؟

لأنهم جعلوا جُلَّ همهم في أن يدعو إلى إصلاح الحكم والسياسة، وتركوا الأمر الأهم الذي بيَّنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول الشيخ: كيف يطالِب هؤلاء بتطبيق حكم الله بين المتخاصمين في الشاة والبعير قبل أن يطالبوا بتطبيق حكم الله على عُبَّاد الأوثان والقبور، وعلى الذين يُلحدون في أسماء الله وصفاته، فيُعطِّلونها عن مدلولاتها ويحرِّكون كلماتها، فهؤلاء أشد جُرمًا أم الذين يزنون ويشربون الخمر ويسرقون؟

يقول: وكذلك من الجماعات جماعة تنتمي إلى الدعوة لكنها تسير على منهج آخر يختلف أيضًا عن منهج الرُسل، فلا يُعيرون العقيدة أهمية، وإنما تهتم بجانب التعبد وممارسة بعض الأذكار على نهج الصوفية- يقصد جماعة التبليغ-

ثم قال بعد ذلك: وهذه كلها طرق مبتدعة تبدأ من حيث انتهت دعوة الرسل، وهذه الجماعات بمثابة من يعالج جسدًا مقطوع الرأس.

لأن العقيدة من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وهؤلاء يريدون قيام دولة إسلامية قبل تطهير البلاد من العقائد الوثنية المتمثلة بعبادة الموتى والتعلق بالأضرحة بما لا يختلف عن عبادة اللات والعُزى ومناة الثالثة الأخرى، بل تزيد عليها أنهم يحاولون محالًا.

ثم إننا نرى هذه الجماعات المنتسبة إلى الدعوة مختلفة فيما بينها، فكل جماعة تختط لنفسها خُطة غير خُطة الجماعة الأخرى، وتنتهج غير منهجها، وهذه نتيجة حتمية لمخالفة منهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فأتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه السبيل الواحد لا يختلفون، وإنما يختلف من خالف هذا السبيل.

فقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي على توحيد لله تبارك وتعالى.

(المتن)

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لمَّا بعث معاذاً إلى اليمن.

(الشرح)

وكان بعث معاذ في السنة العاشرة قبل حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومعاذ من سادات الصحابة، ومن أجلة العلماء، يقدُم العلماء يوم القيامة بركوة، أي بخطوة، ﷺ، وهو أعلم أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحلال والحرام كما سبق.

مات ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره، ومع ذلك يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه هذا الكلام.

(المتن)

أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا بعث معاذاً إلى اليمن قال له: **«إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»**.

(الشرح)

وهذا فيه أن على المرء أن يستعد لدعوته بالعلم والتقوى.

يقول: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»، خاصة إذا كان هذا المدعو من أصحاب الشُبهات، كأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

بعض الإخوة يُقحِمون أنفسهم في أمور تعود على الدعوة بالوبال، يريد أن ينصر الدعوة فيهدمها، لماذا؟ لأنه يدخل في مجال لا يصلح هو فيه، ليس عنده علم لا بالحق ولا بالشُبهة التي ستثار فيستطيع أن يردها .

(المتن)

يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله».

(الشرح)

أو: «فليقل أولُ»، على أن أول اسم يكن، أو أولَ على أنها خبرها مقدم.

والأولى: أن يقال: أولَ، لماذا؟ لأن هذا خلاف الأصل، الأصل أن يأتي بعد يكن اسمها، فإذا سمعت النصب بعد يكن هذا يثير الذِهن فيجعل المرء ينتبه.

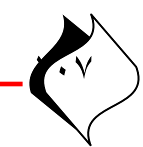
«ليكن أول ما تدعوهم إليه: شهاد أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله».

(المتن)

وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه.

(الشرح)

فهذا الحديث فيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أن أهم شيء في الدعوة هو أن يبدأ المرء دعوته بتوحيد الله تبارك وتعالى، لذلك قال: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة



أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، وهـذا فيـه تفسـير كلمـة التوحيـد، وهـي لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وسـيأتي في الباب القادم معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

ولذلك قال في رواية أخرى: **«أن يوحدوا الله»**، قال: **«فإن هم أطاعوك لذلك»**، فثنَّى بـالأعمال بعـد التوحيـد لبيـان أن هـذه الأعـمال لا تصـح بـدون التوحيـد، فهـذه الأعمال التي ذُكرت بعد الشهادة لا تصح بدون التوحيد، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

فكانوا يُنفقون ولا يقبل الله تبارك وتعالى منهم، لماذا؟ بسبب كفرهم، فإذا كان الأصل مفقودًا فما بُني عليه فهو باطل، لا يُقبل.

ولذلك قال: **«فإن هم أطاعوك»**، ومع ذلك فهم مخاطَبون بفروع الشريعة، ما معنى أنهم يخاطبون بفروع الشريعة؟

أي أنهم يُطلب منهم الأصل والفرع، ولكن لا يقبل منهم هذا الفرع من صلاة وزكاة وصيام وحج وغير ذلك إلا إن أتوا بالأصل، كما أن المرء يطالَب بالصلاة وهي فرض عليه، ولا يستطيع أن يصلي ولا تُقبل منه الصلاة إلا إذا جاء بشرطها الذي هي الطهارة.

فهؤلاء مطالبون بالفرع والأصل فإن لم يأتوا بالفرع والأصل عُذِّبوا يوم القيامة على الفرع والأصل، فيُعذبون يوم القيامة على كفرهم بالله تبارك وتعالى وعلى تركهم العبادات.

قال الله ﷻ عن سؤال المؤمنين للكفار في نار جهنم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٦].

هذا كُفر، ومع ذلك ضُمَّ إليه أنهم لم يكونوا من المصلين، وأنهم لم يكونوا يُطعِمون المسكين، وهذه من الفروع التي لا تصح إلا بالأصل، ومع ذلك عُذِّبوا على الأصل والفرع.

قال: «**فإنهم هم أطاعوك**»: فأردف بالأعمال التي لا تصح إلا بعد التوحيد.

قال: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**».

وهذا يبين لنا أهمية الصلاة، وأنها أهم فرض بعد الشهادتين، ولذلك ثنَّى بها، قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم**».

يعني لا تأخذ الكريمة من أموالهم، وهي السائمة من الإبل، إلا إن طابت نفسه بذلك، فهو إن طابت نفسه بهذا المال الكريم فأخرجَه عن طيب نفس فهذا لا بأس، ولكن على عامل الزكاة أن يأخذ المتوسطة من الإبل.

قال: «**واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»، ولم يذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصوم والحج في ذلك:

قال بعض أهل العلم: لأن ذلك كان قبل فرض الصوم والحج، وهذا ضعيف كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، لأنه أرسل معاذًا في السنة العاشرة.

والصحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخاطب كل إنسان بما يناسب مقامه، فأظهر الشعائر والعبادات هما الصلاة والزكاة، فهاتان العبادتان يجمعان بين حق الله وحق المخلوق:

فالصلاة حق الله تبارك وتعالى، والزكاة فيها حق كبير للمخلوق، مع أنها كذلك حق لله تبارك وتعالى.

كما أن الصلاة والزكاة من العبادات الظاهرة التي تبين عن إيمان العبد والتزامه بالإسلام، أما الحج فقد يكون عبادة مخصوصة، ليس فرضًا على كل أحد، وإنما هو بشروط معينة.

(المتن)

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر.

(الشرح)

وهذا كان في السنة السابعة من الهجرة.

(المتن)

قال: **«لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»**، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أين علي بن أبي طالب؟»** فقيل: هو يشتكي عينيه.

(الشرح)

قد كان علي رضي الله عنه أرمد العينين.

(المتن)

فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خير لك من حمر النعم»**.

(الشرح)

هذا الحديث واضح الدلالة في الدعوة إلى التوحيد، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«ثم ادعهم إلى الإسلام»**، وحقيقة الإسلام: الاستسلام إلى الله تبارك وتعالى

بالتوحيد والانقياد له كذلك، والإقرار للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة والبراءة من الشرك وأهله.

فقال: «ثم ادعهم»، وهذا أمر من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأصل في الأمر أنه للوجوب، فوافَق الحديثُ ترجمة الباب.

قال: «ثم ادعهم إلى الإسلام»، وإذا أُفرد الإسلام فإنه يدخل فيه كل شرائع الدين.

أما إذا قُرن مع الإيمان فالمقصود بالإيمان الأعمال الباطنة، وبالإسلام الأعمال الظاهرة.

فلمَّا قال: «ثم ادعهم إلى الإسلام»: دل ذلك على الدعاء إلى الإسلام الذي هو بمعنى الاستسلام لله تبارك وتعالى ظاهرًا وباطنًا.

قال: «لأعطين الراية غدًا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»:

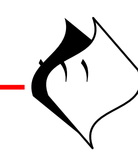
وهذا فيه إثبات المحبة لله تبارك وتعالى، إثبات أن الله يُحِب، وهذا من الصفات الخبرية الفعلية، وأهل التعطيل لا يثبتون مثل هذه الصفات، لا يثبتون الصفات الفعلية لله تبارك وتعالى.

يقولون: إن إثباتها يستلزم مشابهة الخالق للمخلوق، كيف؟

يقولون: لأن المحبة تعني الميل للمحبوب، وهذا الميل نقص، ونحن ننزِّه الله تبارك وتعالى عن النقص.

لماذا لا تُثبتون الغضب؟ يقولون: لأن الغضب يعني غليان القلب، وهذا نقص، ونحن ننزِّه الله تبارك وتعالى عن النقص، فيؤِّلون هذه الصفات:

فمنهم مَن يردها ابتداءً، ومنهم مَن يؤلِّها لا يجسر على ردها لورودها في القرآن، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فلا يجسرون على ردها وإنما يؤولونها، يقولون:



محبة الله للعبد إرادة ثوابه: أنه يريد أن يثيبه، وغضبه من عبده: إرادة الانتقام منه.

فيقال لهم: الإرادة ميل وأنتم تثبتونها لله تعالى!، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، فيقولون: لا، ولكن إرادة الله ليست كإرادة المخلوق، فيقال لهم: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخَر.

طالما أنكم تثبتون بعض الصفات وتقولون: إن الخالق لا يُشبه المخلوق في ذلك، فكذلك القول في سائر الصفات، فالباب واحد.

فهذا الحديث فيه إثبات المحبة لله تبارك وتعالى.

قال: **«يفتح الله على يديه»**، وهذا الحديث كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنهاج: هو أصح حديث في فضائل علي رضي الله عنه، ولا يعني قول النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **(رجلًا يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله)** أن هذه المنقبة ليست لغير علي، فهي لأبي بكر الصديق، ولعمر ولعثمان من باب أولى، فهم أفضل من علي بإجماع المسلمين، رضي الله عن الصحابة أجمعين.

فبات الناس يدوكون، أي يخوضون، ما إعراب يدوكون؟ جملة فعلية في محل نصب خبر بات، وهي من أخوات كان.

يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، وهذا فيه حرص أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الخير، لأن النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«يحبه الله ورسوله»**.

فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أين علي بن أبي طالب؟»**، وهذا فيه إثبات القدر، لماذا؟

لأن الصحابة غدوا مبكرين إلى النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينالوا هذه المنزلة، وما نالوا هذه المنزلة وعلي كان أرمل، ولم يسع إليها فنالها، فكل شيء بقدر الله تبارك وتعالى.

وهذا من فوائد الشيخ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا يدل على حُسن فقهه وعلى سعة علمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فقيل: هو يشتكي عينيه، وفي بعض الروايات: أنه كان أرمض العين، فأرسلوا إليه، فأُتي به فبصق في عينيه، ودعا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبرأ كأن لم يكن به وجع، وهذا من علامات النبوة.

قال: فأعطاه الراية فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم»**، وقوله: على رِسلك أي برفق من غير عجلة ولا طيش.

«ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»، الضمير يعود على ماذا؟ إلى الإسلام، قال: **«ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»**، وأعظم حق لله في الإسلام هو توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالدعوة إليه من أوجب الواجبات.

قال: **«فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خير لك من حمر النعم»**.

حُمْر وليست حُمُر، لأن حُمُر جمع حِمار، أما النَّعم الحُمْر فهي خير نوق العرب، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«خير لك من حُمر النعم»**.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من ذرات الآخرة خير من الدنيا بأسرها وأمثالها.

يعني قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لأن يهدي الله بك رجلًا»**: في الجزاء خير لك من حُمر النعم.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه صلى الله عليه وسلم.

الثانية: التنبيه على الإخلاص.

(الشرح)

وهي مأخوذة من قوله تعالى: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨].

(المتن)

لأن بعض من إلى الحق قد يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

(الشرح)

قال العثيمين: لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة، فيكون العلم بذلك بالبصيرة في الدعوة، أن تكون عالمًا بما تدعو، وبحال المدعو، وإلى ما تدعو، هذه البصيرة كلها من الفرائض، فيكون العلم بذلك فريضة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(المتن)

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: كونه تنزيهًا لله تعالى عن المسبة.

(الشرح)

لأنه قال: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي أُنزِّه الله تبارك وتعالى عن كل عيب ونقص.

(المتن)

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله.

(الشرح)

لأنه قال: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، لست من المشركين قولًا وفعلًا واعتقادًا.

(المتن)

السادسة: وهي من أهمها - إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

(الشرح)

لأنه قال: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولهذا لا يجوز للمسلم كما يقول الشيخ العثيمين في شرح رياض الصالحين: لا يجوز لمسلم أن يقيم بين المشركين إلا بشروط، هذه الشروط من ضمنها: الضرورة لذلك، أن يكون مضطرًا لذلك:

لتحصيل علمٍ ما لا يوجد مثلًا في بلاد المسلمين ويحتاجه المسلمون، أو للاستشفاء، أو لغير ذلك مما هو من الضروريات.

كذلك: أن يكون معه العلم الكافي والتقوى لدفع الشُبهات والشهوات، فبالعلم يدفع الشُبهات، وبالتقوى يدفع الشهوات.

(المتن)

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

(الشرح)

فالتوحيد أول واجب على العبيد.

(المتن)

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة.

(الشرح)

قلنا: لأنه هو الأصل، فإن لم يصح الأصل لم صح الفرع، وقد سبق التدليل على ذلك.

(المتن)

التاسعة: أن معنى: أن يوحدوا الله، معنى شهادة: أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

(الشرح)

ولذلك نبَّه معاذ بن جبل ﵁ على ذلك.

(المتن)

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

(الشرح)

وهذا واضح من الحديث.

(المتن)

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

(الشرح)

وهذا ردَّدنا فيه في أثناء الحديث عن حال كثير من الجماعات في هذه الأيام.

(المتن)

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم».

(المتن)

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

(الشرح)

لأنه قال: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرد على فقرائهم».

وكذلك علَّم معاذاً رضي الله عنه ماذا يقول إذا أتى هؤلاء.

(المتن)

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

(الشرح)

فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو كان المظلوم كافرًا، فإن الله يستجيب دعوته، فهذا ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك ثابت في القرآن أن المشرك أحيانًا قد تُستجاب دعوته، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

(المتن)

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد: ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

(الشرح)

علي رضي الله عنه وهو من سادات الأولياء، ومع ذلك أُصيب في عينيه رضي الله عنه.

وكذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحدى الغزوات أصيب فكُسرت رباعيته، ودخل المغفر في وجنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسال الدم منه، وأصيب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحدى الغزوات، أصيب في أصبعه فكان يقول كما في صحيح مسلم: «هل أنتِ إلا أُصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيتِ».

كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

الحق منصور وممتحن فلا تعجب فهذه سُنة الرحمن

فأهل الحق دائمًا يُبتَلون، ويصابون في ذات الله تعالى، وهذا دليل على توحيدهم.

(المتن)

التاسعة عشرة: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأعطين الراية»، إلخ، عَلَمٌ من أعلام النبوة.

العشرون: تَفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا.

(الشرح)

لأن عين علي ﷺ برأت.

(المتن)

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.

(الشرح)

وشاهدُ ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الحديث: «يفتح الله على يديه»، فبشَّرهم بالفتح، ومع ذلك الصحابة ينشغلون بهذه المنقبة، مَن هذا الذي يحبه الله ورسوله؟ ينشغلون بهذه المنقبة عن هذه البشارة العظيمة.

(المتن)

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.

(الشرح)

وهذه فائدة جليلة جدًا من الإمام المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ.

(المتن)

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رِسلك».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

(الشرح)

وهذا واجب فيمن لم تبلغهم الدعوة، فمن لم تبلغهم دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُقاتَلون، وإنما يُدعون أولًا، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، والآيات في ذلك والأحاديث كثيرة.

فهذا واجب إن كان لقوم لم تبلغهم دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما إن كان في أناس بلغتهم دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا جائز أن يُبلَّغوا قبل أن يقاتَلوا.

(المتن)

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يده رجل واحد.

(الشرح)

وهذا يحمل المرء على الجِد في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، لماذا لا تأتي بشخص جديد كل يوم خميس وأنت قادمٌ إلى هذا الدرس؟

قل له: تعال معي ولن تخسر شيئًا.

واللهِ هذا الذي تأتي به قد يثبت على حضور الدرس وقد تنقطع أنت، ويجري عليك عمله وأجره بسبب إتيانك به.

فالإنسان لا يكسل، «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النَّعم»، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أسأل الله أن يغفر لنا تقصيرنا.

(المتن)

الثلاثون: الحلف على الفتيا.

(الشرح)

كما حلف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث فقال: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا».

ففيه مشروعية الحلف على الأمر المهم، وكذلك لدفع التُهمة.

(المتن)

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

(الشرح)

ذِكر الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب عقيب الأبواب السابقة يدل دلالة قاطعة على أن المصنف رتَّب كتابه هذا ترتيبًا مقصودًا؛ فإنه في الأبواب السابقة تكلم عن وجوب التوحيد، وعن فضله، وعن الدعوة إليه، فكأن النفس تطلعت لمعرفة ماهية هذا التوحيد الذي بوَّب له هذه الأبواب، فكان عقد هذا الباب.

فعقد هذا الباب ليبين ذلك، فقال: **باب تفسير التوحيد.**

والتفسير لغة معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فَسَرت الثمرةُ قشرَها.

وأما التوحيد فتفسيره ما عطفه عليه.

فالتوحيد هو شهادة أن لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله، فهذا من باب عطف المترادفات.

فالمقصود هاهنا: توحيد العبادة كما مضى.

وهذه الكلمة العظيمة لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله التي من أجلها عقد هذا الباب هي أعظم كلمة قالها المكلف، وهي الكلمة التي من أجلها خلق الله السماوات والأرض، وخلق الله الجنة والنار، وجعل الله الناس فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

وهي التي ما تعبَّد الله تبارك وتعالى المتعبدين بمثلها، وما خلقهم إلا لتحقيقها وامتثالها.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال السلف: أي إلا ليوحدون، أي إلا ليشهدوا بهذه الكلمة العظيمة.

قال: تفسير التوحيد وشهادة أن لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله.

والشهادة إما أن تكون شهادة بصر وحضور، وإما أن تكون شهادة علم، فأنت إذا ذهبت مثلًا إلى المحكمة لتشهد أنت تشهد على شيء رأيته وأبصرته وحضرته، فهذه تسمى بشهادة البصر والحضور.

وإما أن تكون شهادة علم ويقين، وهي المقصودة هاهنا، فشهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله أي أن تشهد شهادة علمية ينعقد عليها قلبك ويجزم بها ألا يستحق العبادة أحدٌ إلا الله تبارك وتعالى.

وهذه الكلمة وهي لَا إِلَهَ إِلَّا الله اشتملت على ألفاظ أربعة، وبما أن هذا الباب ما عُقد إلا لتفسير هذه الكلمة فلا بد من الوقوف معها قبل الولوج إلى الأدلة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

اشتملت على: لا، إله، إلا، الله.

فـ(لا) تسمى في لغة العرب بلا النافية للجنس، وسميت بذلك لأنها تنفي جنس الخبر عن الاسم.

فلو قلت: لا رجل في الدار، أي لا رجل موجود في الدار، فأنت تنفي جنس وجود الرجال في هذه الدار.

فإذا قلت: لا إله حق إلا الله، فأنت تنفي جنس الألوهية الحقة عن غير الله تبارك وتعالى.

وإذا جاء معها إلا فتصير: لا.....إلا، والنفي والاستثناء يفيدان معنىً زائدًا، ما هذا المعنى؟ الحصر والقصر، فليس هناك إله حق إلا الله تبارك وتعالى.

وأما (إِلَهَ) فإله على وزن فِعال، بمعنى مفعول، وهو المعبود، فلا إله أي لا معبود بحق إلا الله تبارك وتعالى.

ومما يدل على أن فِعال هاهنا بمعنى مفعول أي معبود: ما جاء في قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وهي غير متواترة في قول الملأ لفرعون: أتذر موسى وقومه ليفسدوا

في الأرض ويـذرك وإلهتَـك، عنـدنا في قراءتنـا: ﴿وَيَـذَرَكَ وَآلِهَتَـكَ﴾ [الأعـراف: ١٢٧]، في قراءة ابن عباس وهي ليست متواترة: وإلهتك، ما المقصود بالإلهة؟ أي العبادة.

فإن فرعون كما يقال كان يُعبَد ولا يَعبد، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

فلا إله أي لا معبود.

و (إلا الله) أين الخبر؟ لا النافية للجنس، اسمها: إله، خبرها: محذوف، وخبر لا النافية للجنس يكثر حذفه للعلم به كما قال ابن مالك في ألفيته:

وشاع في ذا الباب إسـقاط الخبر *** إذا المـراد مع سقوطه ظهر

ما خبر الاسم؟

هذا مما اختلف فيه الناس:

فمن المتكلمين مَن قدَّره بموجود، فصارت هذه الكلمة: لا إله موجود إلا الله.

ومنهم مَن قدَّره: بقادر على الاختراع، لا إله قادر إلا الله، والتفسير الأول باطل، لماذا؟

لأننا لو فسرناها بلا إله موجود إلا الله: فهذا ينافيه الواقع، فهناك الكثير من الآلهة الموجودة الباطلة التي تُعبد من دون الله تبارك وتعالى، إذاً هذه الكلمة ما أفادت الحصر المقصود.

ولذلك قال المشركون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، فلو قدَّرناها بموجود فهذا ليس مرادًا من دعوة الأنبياء والرُسل، وهذا مما نحا إليه أهل الاتحاد والوجود.

أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود يقدِّرون الخبر هكذا: لا إله موجود إلا الله، فيعبدون كل مخلوقٍ ويقولون: إنه صورة الله، عياذًا بالله.

فكل كلام في هذا الكون هو كلام الله تبارك وتعالى، وكل مخلوق في هذا الكون هو صورة من الله تبارك وتعالى، تعالى الله عمَّا يقولون علوًا كبيرًا.

ولذلك ابن عربي يقول: الرب عبدٌ والعبد ربٌ *** يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبدٌ فذاك ربٌ   أو قلت رب فذاك عبد أنَّى يُعرف

فالعبد عنده إله يُعبد، والرب عنده إله يُعبد، لماذا؟ لأنهم فسروا هذه الكلمة لَا إِلَهَ إِلَّا الله أي لا إله موجود إلا الله، وهذا تفسير باطل.

والتفسير الثاني وعليه كذلك بعض المتكلمين: لا إله قادرٌ إلا الله، وهذا تفسير أيضًا باطل.

لماذا؟ لأن هذه الكلمة لو كان تفسيرها كذلك لَمَا قاتل الأنبياء والرسل المشركون ،ولأقروا بدعوتهم، لأن المشركين كانوا يقرون أن القادر الخالق الرازق المدبر هو الله تبارك وتعالى، ولذلك في أكثر من آية يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

فالله تبارك وتعالى أثبت أنهم ينسبون هذه الأمور له تبارك وتعالى، ينسبون القدرة والخلق والرزق له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فتفسير هذه الكلمة لَا إِلَهَ إِلَّا الله أي لا إله قادرٌ إلا الله، فهذا كذلك تفسير لا يصح.

وأما التفسير الصحيح فهو تقدير الخبر بحق، لا إله حق إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله تبارك وتعالى.

فهذا هو معنى كلمة التوحيد.

ولذلك فهم المشركون معنى هذه الكلمة وما تقتضيه؛ لأنهم كانوا عربًا يعرفون لغة العرب، فأبوا أن ينطقوا بها، لأنهم يعلمون أنهم لو نطقوا بها فلا بد أن يعملوا بها، فكان أبو جهل يعلم معنى هذه الكلمة، ويعلم ما يترتب على النطق بها، ولذلك أبى أن يقولها.

وكثير من الناس في هذه الأيام ينطقون بهذه الكلمة بلسانهم وينقضونها بفعالهم وأقوالهم، يعبدون القبور ويطوفون حولها، ويذبحون لها، وينذرون لها، ويخالفون هذه الكلمة بفعالهم وأقوالهم ومعتقداتهم.

ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كشف الشبهات: فبئس قومٌ أبو جهل أعلم بها منهم أي: بـ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله.

وعلة ذلك أنهم يقولون: لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله، ويظنون أنهم حققوا معناها، ثم بعد ذلك يقعون فيما يخالفها، وأبو جهل أبى أن يقولها، لأنه كان يعلم ما يترتب على النطق بها.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان هذه الترجمة خمسة أدلة:

الدليل الأول: قال:

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾.

(الشرح)

وهذا الآية كما قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد: لا يتبين معناها إلا بذكر الآية قبلها.

قال الله ﷻ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

يقول الله ﷻ : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الإسراء: ٥٦]، والذين من ألفاظ العموم، فهذه الآية تشمل كل مدعوٍّ يُدعى من دون الله تبارك وتعالى من الأنداد.

فهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله حالهم كما وصفت الآية: ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، فلا يكشفون الضر كليةً، ولا يحولونه إلى أمر آخر أخف. هذا إن كان المعبود والمدعو صنماً.

وأما إن كان من الصالحين ممن نزلت فيهم هذه الآية ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فهذه الآية كما قال السلف: نزلت في أقوام كانوا يعبدون المسيح والملائكة وعزيرًا.

فهؤلاء المعبودون ما أشركوا بالله تبارك وتعالى، وما طلبوا من الناس أن يعبدوهم، لأنهم إما أنهم مجبولون على الطاعة كالملائكة، وإما أنهم أنبياء الله ورسله كعزير وكذلك المسيح، فهؤلاء يعبدون الله تبارك وتعالى، ويتبرؤون من عابديهم يوم القيامة.

فهؤلاء الأنبياء والملائكة المقربون الذين تدعونهم وتعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يدعون الله تبارك وتعالى ويبتغون إليه الوسيلة ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فلماذا تدعونهم وهم يتقرَّبون إلى الله تبارك وتعالى ويصرفون العبادة له؟ فهذا مما يناقض شهادة التوحيد، ولهذا جاء بهذه الآية.

فإذا كان هذا في دعاء الصالحين والأولياء سماه الله شركًا، فمَن كان دونهم من باب أولى.

فالذي يدعو مقبورًا ليس بولي ولا صالح ولا نبي ولا رسول، هذا من باب أولى ينبغي له أن يترك هذه العبادة وأن يصرف عبادته لله تبارك وتعالى، لأن الله نعى على من يصرف العبادة لخيرة خلقه، فمن دونهم من باب أولى.

(المتن)

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

(الشرح)

وجه الدلالة في هذه الآية: أن الآية جاءت فيها براءة وإثبات، جاء فيها نفي وإثبات، وكلمة التوحيد لَا إِلَهَ إِلَّا الله تشتمل على ركنين أساسيين، وهما: النفي والإثبات، لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

كذلك قال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦]، فهذا هو النفي والبراءة.

ثم أثبت وقال: ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٧]، فالنفي والإثبات الذي في الآية يساوي كلمة التوحيد التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة.

ولذلك قال: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [الزخرف: ٢٨]، ففسر: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، بقوله: كلمة، وكلمة التوحيد هي لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

إذًا لا تتم كلمة التوحيد نُطقًا واعتقادًا وعملًا إلا بهذين الركنين:

أولًا: البراءة ممن يُعبد من دون الله تبارك وتعالى، ومن عبادتهم.

ثم بعد ذلك: إثبات العبادة لله تبارك وتعالى.

وهذه الآية هي نفسها في معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فالعروة الوثقى كما فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح هي الإسلام، كما في حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه في الصحيح.

والإسلام هو الاستسلام لله تبارك وتعالى بالتوحيد، والتوحيد نفي العبودية عن كل إله وإثباتها لله تبارك وتعالى.

قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، ولم يقل إلا الله، وذلك لسببين كما قال الشيخ ابن عثيمين.

أما السبب الأول: فللإشارة إلى العلة في إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة.

الربوبية: أن الله ﷻ هو الذي يَخلُق، وهذا معنى الفطر أي الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها

فالسبب الأول: للإشارة إلى العلة في إفراد الله بالعبادة، قال: ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: ٢٧]، والاسم الموصول وما بعده في قوة المشتق، ما معنى هذه القاعدة؟

الاسم الموصول الذي هو الذي، وصلة الموصول الذي هو فطرني، في قوة المشتق، الاسم المشتق، وهذا الاسم المشتق قد يكون اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، فهذا يسمى بالمشتق.

فالاسم الموصول وما بعده في قوة المشتق، يعني تستطيع أن تضع مكان هذا الاسم الموصول وما بعده مشتقًا، فكأن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: إنني براء مما

تعبدونَ، إلا فاطري، أي لا أبرأ من فاطر السماوات والأرض، وهو الذي فطر الخلق أي خلقهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن كانت هذه صفته الملازمة له استحق أن يُعبد دون من سواه.

فأشار إلى العلة الأولى التي من أجلها صرف العبادة لله تبارك وتعالى.

وأما السبب الثاني: فللإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، لماذا لا تُعبد؟ لأنها لم تفطرهم، الذي فطرهم وخلقهم هو الله تبارك وتعالى المستحق للعبادة.

قال العثيمين: وهذا من بلاغة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

(المتن)

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

(الشرح)

هذه الآية فيها نعي على اليهود والنصارى فيما وقعوا فيه من شرك الطاعة، ويفسر ذلك ما جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه لمَّا قال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد أن قرأ عليه هذه الآية، قال: يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم، فقال: **«أليسوا يحلون ما أحلوا ويحرمون ما حرموا؟»**، أي في معصية الله تبارك وتعالى؟ **«فتلك عبادتهم إياهم»**.

فالشرك الذي نعى الله تبارك وتعالى عليه وذمه في هذه الآية ليس شرك العبادة، وإنما هو شرك الطاعة، ولذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**.

وقال: **«إنما الطاعة في المعروف»**.

وهذه الآية تدل على الترجمة من جهة أن تفسير لَا إِلَهَ إِلَّا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، وهذا من مقتضيات لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

فيا من نطقت بهذه الكلمة يلزمك أن تكون طاعتك لله تبارك وتعالى وحده كما هو واضح بيِّنٌ من هذه الآية، فلا يُطاع شيخ ولا عالم ولا حبر ولا راهب في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما حرَّم.

والحبر هو العالم من اليهود وغيرهم، ولذلك يقال عن عبد الله بن عباس أنه حبر هذه الأمة، وبحر هذه الأمة، والحبر والبحر إنما يقال لكثرة العلم، فيقال: حَبْر وحِبر، بالفتح والكسر.

وأما الرُهبان: فهم العُبَّاد من النصارى.

فلا يطاع راهب ولا حبر ولا صالح في معصية الله تبارك وتعالى، ولم نقل ولا نبي ولا رسول: لأن النبي والرسول لا يأمران بمعصية الله تبارك وتعالى.

ومَن فعل ذلك أي أطاع الأمراء والعلماء والأحبار والعبَّاد في غير طاعة الله تبارك وتعالى فقد وقع في الشرك، وهذا الشرك له تفصيل سيأتي في بابه، قد عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا خاصًا في طاعة العلماء والأمراء.

فالله تبارك وتعالى نعى على هؤلاء وذمهم لأنهم أطاعوهم في معصية الله تبارك وتعالى، ولذلك قال: ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فنزَّه تبارك وتعالى نفسه عن هذا الشرك الذي هو شرك الطاعة، وإذا كان شرك الطاعة كذلك فشرك العبادة من باب أولى.

وتفسير لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله كما قلنا: أن تجعل طاعتك وعبادتك لله تبارك وتعالى.

(المتن)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

(الشرح)

قال هنا: ومن الناس، ومِن هنا تبعيضية، أي بعض الناس يتخذ من دون الله أندادًا.

والنِّد هو النظير والشبيه، اتخذوهم أندادًا في المحبة والعبادة، ما اتخذوهم أندادًا في الخلق والتدبير، يعني ما صرفوا لهم الخلق والرزق والتدبير، لأنهم يعلمون أن الذي يخلق ويرزق ويدبِّر هو الله تبارك وتعالى.

وإنما كانت الندية في المحبة، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، والكاف هاهنا تحتمل معنيين جاء في تفسير السلف:

فإما أنهم يحبون أصنامهم كمحبة المؤمنين لله، فأنت تحب ربك تبارك وتعالى، تحب ربك حبًا شديدًا، والمشرك يحب معبوده الذي يعبده من دون الله كمحبتك لربك، وهذا فيه أنهم لم يحبوا الله تبارك وتعالى مطلقًا، وإنما صرفوا المحبة كلها لغير الله، فهذا المعنى الأول.

أو المعنى الثاني: أنهم يحبون الله تبارك وتعالى، ويحبون مع محبتهم الله تبارك وتعالى الأصنام، فهم يجعلون المحبة بين الله تبارك وتعالى وبين هؤلاء المعبودين، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

أي يحبون أصنامهم كمحبتهم لله تبارك وتعالى، وهذا فيه شرك، لأنهم أشركوا في المحبة بين الله تبارك وتعالى وبين مَن يعبدونهم.

ولذلك جاء في سورة الشعراء قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٨، ٩٩].

يقولون لمعبوديهم الذين كانوا يعبدونهم إذا اجتمعوا بهم في النار ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧]، يعترفون بألسنتهم أنهم كانوا في ضلال مبين، ولكن ولات ساعة مندم نسأل الله العافية.

ما سبب الضلال؟ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٨]، هل سووا بينهم وبين الله تبارك وتعالى في الخلق؟ في الرزق؟ في التدبير؟ أبدًا، وإنما سووا بينهم وبين الله تبارك وتعالى في المحبة، في الخوف، في الرجاء، فكانوا يخافون الله ويخافون هؤلاء.

بل منهم مَن يخاف هؤلاء أعظم من خوفه من الله تبارك وتعالى، وهذا موجود للأسف عند بعض الناس.

لو قيل له على أمر ما: احلف على هذا الأمر بالله، يُطلب منه أن يُقسم على هذا الأمر بالله أنه لم يفعله، قد يُقسم، وهو يعلم أنه كاذب.

لو قيل له: عليك أن تُقسم بروح فلان أو برأس فلان ممن يعظِّمهم كالبدوي والحسين وغير ذلك، يخاف ويخشى ويمتنع عن القسم، فكان خوفه ورجائه ومحبته في قلبه عياذًا بالله أعظم من خوفه ومحبته ورجائه لله تبارك وتعالى.

وهذا من الشرك، ولا إله إلا الله تقتضي أن تصرف المحبة لله تبارك وتعالى.

قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فلا إله إلا الله تقتضي أن تكون محبتك لله تبارك وتعالى، أن تحب الله وفي الله، فإنه كما سيأتي أن المحبة أنواع:

منها ما هو مباح، ومنها ما هو عبادة، ومنها ما هو شرك.

(المتن)

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل»**.

(الشرح)

بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: أنه لا يكفي مجرد التلفظ بهذه الكلمة، بل لا بد من التبرؤ بالقلب، وباللسان، وبالجوارح من كل ما يُعبد من دون الله تبارك وتعالى، لا بد من البراءة من العبادة الشركية حتى يصح الإيمان.

وهذا يبين لنا ضلال كلام كثير من الناس الآن مما يُعرَض على عقول الناس من تصحيح دين اليهود والنصارى في القنوات الفضائية، ومواقع التواصل، وبعض الناس قد يقتنع بكلامهم هؤلاء الضُّلال.

فأنت تجد الآن في هذه القنوات الخبيثة من يقول: إن النصارى سيدخلون الجنة لو ماتوا على ذلك، على هذا المعتقد الذي هو معتقد شركي، وإن اليهود كذلك لأنهم أهل كتاب يدخلون الجنة، والجنة ليست حكرًا على المسلمين وحدهم من أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!

هناك أبواق تنادي بهذا الكلام، وهذا ضلال مبين وتكذيب لكتاب الله تبارك وتعالى، لأن دعوة جميع الأنبياء والرسل: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

والله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، أي في النار عياذاً بالله.

وهذا الوصف وهو في الآخرة من الخاسرين لا يكون إلا في أصحاب النار الذين هم أهلها، فهذا يبين لنا ضلال هؤلاء.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه -قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة، ثم لا يؤمن بي، إلا كان من أصحاب النار».

وإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

فهذه الكلمة لا بد فيها من تحقق هذين الركنين: النفي والإثبات، التسبيح والتحميد، كما سماهما ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حرم ماله ودمه؛ لأنه صار مسلمًا، فلا يجوز لك أن تستحل دمه، إلا بما جاء به الشرع، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث»، فقيدها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن مسألة الدماء مسألة عظيمة، فالمسلم له حُرمة، بل حرمته أعظم عند الله من حُرمة بيته المعظم.

ولذلك قال: حرم ماله ودمه، ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أغار على قوم فسمع الأذان أمسك، لأن هذا علامة على إسلام هؤلاء.

قال: «وحسابه على الله»

أي ليس لنا إلا الظاهر، فإنه إن قال لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله وكفر بما يُعبد من دون الله: فهذا حرم ماله ودمه، وحسابه على الله إن كان صادقًا فله الجنة، وإن قالها بلسانه دون قلبه فهو من المنافقين، ولم نؤمر بأن نفتش عمَّا في القلوب، فهذا حسابه على الله وليس لنا إلا الظاهر.

فهذه الأدلة التي ذكرها رَحِمَهُ اللَّهُ كلها ترجع إلى معنىً واحد: وهو أن كلمة التوحيد لا تقوم إلا على هذين الركنين، وهما النفي والإثبات:

فمن نفى فقط كان معطِّلًا جاحدًا مُلحدًا، لم يُثبِت إلهًا لهذا الكون يستحق العبادة.

مَن أثبت فقط لم يمنع ذلك التشريك، فكل إله يُعبد يدخل في هذه الكلمة.

(المتن)

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبيَّنَها بأمور واضحة.

(الشرح)

قال: فيه أكبر المسائل وأهمها: وفي بعض النسخ: قال: فيه مسائل، الأولى.

ولم يذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ غير هذه المسألة، يعني في هذا الباب لم يذكر إلا مسألة واحدة، مع أنه في بعض النُسخ الخطية قال: فيه مسائل.

قال بعض شيوخنا: وإنما لم يذكر إلا مسألة واحدة لأمرين:

أما الأمر الأول: لجلالة هذه المسألة، فاكتفى بذكرها.

فهي مسألة عظيمة، ولذلك قال بعد أن ذكر ما وضحه في هذه المسألة قال: فيا لها من مسألة ما أجلها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحُجة ما أقطعها للمنازع.

فذكر مسألة واحدة لجلالتها.

وأما الأمر الثاني: فقد يقال: إنه ما ذكر إلا مسألة واحدة لأنه ترك باقي المسائل ليستنبطها القارئ، وهذا من حُسن تصنيفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ففي كل باب لا يذكر لك المسائل المستنبطة والمستفادة من هذا الباب كلها، قد يتركك أحيانًا لتستنبط أنت بعض هذه المسائل، ليكون لك دُربة في ذلك.

قال: فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وتفسير التوحيد هو تفسير الشهادة.

قال:

(المتن)

وبيَّنَها بأمور واضحة منها: آية الإسراء، بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون

الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

(الشرح)

الله تبارك وتعالى ما ذم المشركين لأنهم نسبوا لمعبوديهم الرزق الخلق التدبير لا، وإنما ذمهم لأنهم يدعونهم، والدعاء رأس العبادة ، يجعلونهم وسائط بينهم وبين الله تعالى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

وأنت لو كلمت أحد هؤلاء الذين يشدون الرحال لهذه المقابر يقول: ما نعبدهم. يقول: نحن نعلم أن الذي يخلق ويرزق، ويدبر هو الله تبارك وتعالى، لكنَّ هؤلاء المقبورين أناس أطهار، ونحن قد تلطخنا بالمعاصي والذنوب، فنجعل هؤلاء واسطة بيننا وبين الله تبارك وتعالى.

ما الفرق بين هؤلاء وبين المشركين الذين جاء إليهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]؟

وهؤلاء المذكورون في آية الإسراء كذلك هم الملائكة وعزير والمسيح. هؤلاء ما كانوا يُنسب لهم الخلق والرزق والتدبير، وإنما كانوا يُدعون من دون الله تبارك وتعالى، ومع ذلك سمى الله عابديهم مشركين، ولذلك قال المصنف: ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

(المتن)

ومنها: آية براءة، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وبيَّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه.

(الشرح)

أي تفسير الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]

(المتن)

طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعائهم إياهم.

(الشرح)

فإنهم لم يدعوهم، وإنما أطاعوهم في معصية الله تبارك وتعالى، فسُمي ذلك شركًا.

ولذلك قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فالذي يطيع العلماء والأمراء والأحبار والرُهبان في التحليل والتحريم مع علمه بذلك هذا مشرك، وقد بيَن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن طاعة الأمراء والعلماء على قسمين:

أما القسم الأول: فأن يعلم هذا المطيع الذي يطيعهم في معصية الله أنهم بدَّلوا دين الله، يعلم أنه بدَّل دين الله فيتبعه على ذلك معتقدًا التحليل والتحريم لهم، وصحة ما فعلوه، أو جوازه.

فإن قال هذا العالم: هذا دين الله وهو ليس بدين الله وتابعه على ذلك وهو يعلم فهذا مشرك شركًا أكبر.

ولذلك قال الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأما الأمر الثاني: أن تكون المتابعة من غير اعتقاد التحليل والتحريم لهم، كما يفعل المسلم في المعاصي.

فلو ذهب إلى عالم وأفتاه بغير الشرع، وهو يعلم أن هذه الفتوى تخالف الشرع، ففعل ما تقتضيه هذه الفتوى، وهو في قرارة نفسه يعلم أنه عاصٍ لله تبارك وتعالى، فهذا ليس بمشرك، وإنما هو مرتكب لكبيرة من الكبائر، ولكن لا يصل إلى الشرك.

وبذلك فصَّل العلماء في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله، وكذلك في سائر المعاصي:

فالمرء إذا وقع في المعصية وهو يعتقد حرمتها، فقد وقع في كبيرة من الكبائر، ولو اعتقد حل تلك المعصية وإن لم يفعلها: فقد كفر بالله تبارك وتعالى.

(المتن)

ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.

(الشرح)

كما مضى: التوحيد لا بد فيه من هذين الأمرين: من النفي والإثبات.

(المتن)

فاستثنى الخليل ﷺ من المعبودين ربه، وذكر أن البراءة والموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(الشرح)

ذكر المفسرون من السلف ومن جاء بعدهم أن هذه الكلمة الباقية هي: لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

(المتن)

ومنها: آية البقرة: في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبًا عظيمًا.

(الشرح)

فهم يحبون الله حبًا عظيمًا ويحبون أصنامهم.

(المتن)

ولم يُدخلهم في الإسلام.

(الشرح)

لأنهم ما أخلصوا محبة الله تبارك وتعالى، وإنما أشركوا في ذلك، فهذا لم يُدخِلهم في الإسلام.

(المتن)

فكيف بمن أحب النِد أكبر من حب الله؟! فكيف لمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!.

(الشرح)

قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف بمن يحب معبوده الولي ولا يحب الله؟ فهذا أقبح وأعظم، فتجد بعضهم يُصدِّق لو حُلف له بغير الله، يعني تقول: والله ما فعلته، يقول: لا والله لا أُصدِّقك، احلف بالشيخ فلان، فإذا حلفت له بهذا الشيخ يقول: خلاص صدَّقتك، هذا موجود عند بعض الناس.

قال: بل تجد بعضهم يجعل زيارة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من زيارة البيت، وهذا موجود عند بعض الناس، أين أنتم ذاهبون؟ ذاهبون لنزور النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تجد هذه النية أصل نيته عند خروجه من بيته للحج أو العمرة أن يزور قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فتجد عند هؤلاء للأسف محبة وتعظيمًا لقبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أعظم من محبتهم وزيارتهم لبيت الله الحرام، مع أننا ما أحببنا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وما عظَّمناه لذاته، ما عظمناه لأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وإنما عظَّمناه لأنه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فما عظَّمناه إلا من أجل الرسالة، وما ترتب عليها من جميل الخصال والفضائل له صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

قال: فالمحبة شأنها عظيم، بل إنك لا تتحرك أبدًا إلا بالمحبة في كل أمورك، قال: حتى في الطعام والشراب.

أنت لا تتحرك لتناول طعام ما أو شراب إلا إذا كنت تحب هذا الطعام والشراب، أما بخلاف ذلك فلا تتناوله ولا تُقدِم عليه.

سؤال: أين ذلك من محبة الرجل لزوجه؟ هل هي محبة شركية؟ لا ليست بمحبة شركية، لماذا؟

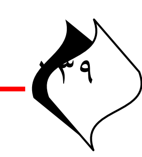
لأن العلماء قسَّموا المحبة إلى أنواع ثلاثة:

النوع الأول: محبة الله تبارك وتعالى، ومحبة لله.

أن تحب الله وحده، وأن تحب لله، فهذا أعظم عُرى الإيمان وأوثقها كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أوثق عُرى الإيمان أن تُحب لله، وأن تُبغِض لله، وأن تُعطي لله، وأن تمنع لله.

ثم قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في آخر الحديث: **«فمن فعل ذلك فقد استكمل عُرى الإيمان»**، أو كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فمحبة الله والمحبة في الله هذه عبادة مطلوبة شرعاً، ولذلك بيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جزاءها، وأن مَن يحب المرء لم يحبه إلا لله فهو في ظل عرش الله تبارك وتعالى يوم لا ظل إلا ظله.



نسأل الله تبارك وتعالى أن يجمعنا على محبته، وعلى متابعة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يقبضنا على الإسلام والسُّنَّة.

والنوع الثاني: محبة طبيعية، يعني مما يوافق الطبع والجِبلة، كمحبة الرجل لزوجه، فهذه ليست بمحبة شركية، ولا تنافي التوحيد، إلا إذا صدَّت هذه المحبة عن واجب فتصير محرمة، لأنها جاوزت الحد.

إنسان أحب امرأته أو أحب شخصًا محبة شديدة، فصار يطيعه في معصية الله، يريد أن يخرج إلى صلاة الجماعة، تقول له زوجه: تخرج وتتركني؟ فمن شدة الحب يجلس في بيته، فهذه منعته عن أداء واجب، فهذه محبة محرمة وإن لم تكن محبة شركية.

والنوع الثالث: وهي محبة شركية، وهي المحبة مع الله وهي التي نزلت فيها هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

(المتن)

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: **«من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»**، وهذا من أعظم ما يبيِّن معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال.

(الشرح)

مجرد التلفظ.

(المتن)

بل ولا معرفة معناها مع لفظها.

(الشرح)

فتكون اثنان.

(المتن)

بل ولا الإقرار بذلك.

(الشرح)

أي فقط.

(المتن)

بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له.

(الشرح)

أربعة.

(المتن)

بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله.

(الشرح)

فلا بد أن يُكفر بما يُعبد من دون الله.

يعني إنسان يقول: أنا أعبد الله وحده، أقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، لا أعبد أحدًا غيره، ومع ذلك يقول: اليهود والنصارى من أهل الجنة، ويصحِّح عبادتهم، هو لا يشرك في عبادته، وإنما يصحح عبادتهم، فهذا ما كفر بما يُعبد من دون الله، فلا بد من هذه الخمس، حتى يكون المرء عاملًا بهذه الكلمة العظيمة.

ولذلك قال:

(المتن)

بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه.

(الشرح)

فيُدعى أولًا، وتقام عليه الحُجة ليفهمها ويعمل بها، ثم بعد ذلك يُقتل، كما قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لذلك، والأمر قطعاً راجع للقاضي وولي الأمر لا لآحاد الناس.

فهذا الذي يعبد غير الله تبارك وتعالى أو يصحح دين هؤلاء لعل عنده جهلًا بسبب علماء السوء، أو بسبب نشأته في بيئة لم يتعلم فيها التوحيد الصحيح، فهذا يبيَّن له ويُدعى إلى دين الله تبارك وتعالى وإلى التوحيد الذي جاء به الأنبياء والرُسل، فإن أصر على ذلك قتله ولي الأمر.

وبهذا يتبين لنا معنى هذه الكلمة العظيمة كلمة التوحيد لَا إِلَهَ إِلَّا الله، ولا شك أنها لا تنفع إلا بشطرها الثاني وهو محمد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ومَن أراد أن يتوسّع في معرفة مفهوم هذه الكلمة فعليه أن يقرأ هذا الكتاب من أوله إلى آخره.

فهذا الكتاب كله وُضع لبيان معنى هذه الكلمة.

كذلك هناك رسالة نفيسة جدًا للحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ وهي رسالة في تحقيق معنى كلمة الإخلاص، وهي موجودة في مجموع رسائله، في هذه الرسالة يبين معنى هذه الكلمة، ويبين شروطها، وفي هذه الرسالة مواضع من كلام الحافظ ابن رجب رحمه الله تبين لنا غلط مَن وصف الشيخ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ بالإرجاء، لأنه قال: إن العمل شرط كمال.

تجد الحافظ ابن رجب في هذه الرسالة كثيرًا ما يقول: وشرط دخول الجنة كذا: ألا تُشرك بالله تبارك وتعالى.

بل تجد هذا في كلام النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يقول الصحابي: فاشترط عليَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كذا.

فلو كان الشرط المقصود به هاهنا ما هو خارج الماهية وخارج مسمى الإيمان فقد اتهمت كل هؤلاء بأنهم مرجئة.

هي رسالة نفيسة موجودة في مجموع رسائل الحافظ ابن حجر، فأوصي نفسي- وإياكم

باب:
من الشرك لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ له ترتيب مقصود في كتابه، ولذلك مَن شَرَحَ هذا الكتاب تعرَّض لهذا الترتيب.

فمما قاله الشُراح: أنه بعد أن بدأ المصنف في تفسير التوحيد وبيان فضله وأجره العظيم، وبيان وجوب الخوف مما يضاده إجمالاً، أردف ذلك بذكر ما يضاده تفصيلاً من أنواع الشرك الأصغر والأكبر فبضدها تتميز الأشياء، ومن لم يعرف الشرك لم يعرف التوحيد.

ولذلك جاء عن عمر أن مما ينقض الإسلام أن ينشأ الرجل في الإسلام ولا يعرف الجاهلية.

وكما قال الشيخ السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالخلق، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والجِد في الأمور النافعة المُرقِّية للعقول المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها، دينها ودنيويها.

فالمصنف في هذا الباب يبدأ في بيان ما يضاد التوحيد وهو الشرك، وبدأ بالشرك الأصغر، وترقى بعد ذلك من الأدنى إلى الأعلى.

يبدأ في بيان الشرك الأصغر أولًا، ثم بعد ذلك يعرِّج على الشرك الأكبر، لأن الشُبهة في الشرك الأصغر أضعف، كلُبس الحلقة والخيط، فتستطيع أن تُقنِع مَن تلبَّس بذلك أن هذا مما يُخالف التوحيد.

أما الشرك الأكبر من التعلق بالقبور والصالحين فهذا يحتاج منك جِد واجتهاد، ولذلك أخَّره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(المتن)

باب من الشرك لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.

(الشرح)

هذا الباب فيه: أن لابس هذه الأشياء كالحلقة أو الخيط أو التميمة أو الخرزة أو الودعة أو الحظاظة أو غير ذلك على نوعين:

إما أن يكون قد لبسها من أجل الرفع، ولذلك قال: لرفع البلاء، فهذا يلبسها من أجل الرفع بعد نزول هذا البلاء.

وإما أن يلبسها من أجل الدفع، لمنع نزول البلاء.

وكلا الحالين من الشرك الأصغر.

وسبب كونه شركًا: أن فاعل ذلك اعتقد السببية فيما ليس سببًا شرعيًا ولا قدريًا، فهو يعتقد أن هذه الحلقة أو أن هذا الخيط أو أن هذه التميمة أو غير ذلك مما يلبسه يعتقد فيه أنه سبب، وليس بسبب لا من جهة الشرع ولا من جهة القدر.

ومن ثَمَّ تعلق بما لا حقيقة له.

والأسباب التي جعلها الله تبارك وتعالى جائزة لنا على نوعين:

أما السبب الأول: فهو سبب كوني قدري، كالتجربة وعادة الناس.

إنسان شرب دواءً فشفاه الله تبارك وتعالى، إذًا هذا الدواء سبب في الشفاء، هذا ليس من جهة الشرع، ولكنه من جهة التجريب والعادة، فتناول ذلك لا ينافي التوحيد، فهذا سبب مشروع.

والنوع الثاني: وهو سبب شرعي، أي دل الكتاب والسُنَّة على أنه سبب، كشُرب العسل مثلًا، وقراءة القرآن للرُقية وغير ذلك، فهذه أسباب شرعية أثبتها الشرع.

وكل ذلك يجري تحت قدر الله تبارك وتعالى.

فالمرء قد يأخذ بهذه الأسباب ومع ذلك لا يتحقق المطلوب، فهي لا تؤثر بنفسها، وإنما الذي جعلها سببًا وتجري على مقتضى قدره وإرادته هو الله تبارك وتعالى.

فمن اتخذ سببًا ليس شرعيًا ولا قدريًا من أجل الدفع أو الرفع فهو واقع في الشرك.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

(الشرح)

هذا هو الدليل الأول الذي ذكره تحت هذه الترجمة:

وقبله قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

فذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية تحت هذه الترجمة، ونحن نعلم أن كل آية يذكرها المصنف لا بد أن تكون لها علاقة بالترجمة تدلل عليها.

وهذه الآية فيها أكثر من دلالة:

منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ [الزمر: ٣٨]، فالاستفهام هاهنا استفهامٌ استنكاري.

وفيه استبعاد حصول ذلك بالتعلق بهذه الأصنام؛ فإن المشركين جعلوا التعلق بها سببًا ولم يجعله الله تبارك وتعالى سببًا، وإنما كان تعلقهم به من باب الشرك.

فهذه الأصنام التي تُدعى من دون الله تبارك وتعالى والتي كان المشركون يتخذونها لتكون لهم زُلفى وقُربى إلى الله ﷻ ليست بأسباب شرعية ولا وسائط ليجعلها المرء بينه وبين الله تبارك وتعالى.

وهذه الآية واردة في الشرك الأكبر، ومع ذلك استدل بها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تقرير الشرك الأصغر، لأن هذه طريقة أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سيرد أنهم يستدلون بالآيات التي وردت في الشرك الأكبر في التدليل كذلك على الشرك الأصغر، لأن الشرك الأصغر والأكبر كلاهما يتضمنان جعل شيء من حق الله لغير الله، ولذلك دخل الشرك الأكبر والشرك الأصغر في مضمون هذه الآية.

هذه هي الدلالة الأولى.

والدلالة الثانية في آخر الآية قوله: ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، فالله تبارك وتعالى هو الكافي، وهو الحسيب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهو الذي يُلجأ إليه ويرغب إليه العبد، والحَسب والرغبة والخشية والإنابة: كل ذلك لا يجوز صرفه إلا لله تبارك وتعالى.

ولذلك لا تجد الحَسْبَ في كتاب الله ﷻ إلا مضافاً لله ﷻ:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٥٩]، لم يقل الله ﷻ: وقالوا حسبنا الله ورسوله، ولكن لمَّا ذكر الإتيان ذكر تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم لمَّا ذكر الحسب بعد ذلك أفرده لله تبارك وتعالى، وكذلك الرغبة لله وحده.

فهذه الآية فيها: أن التوكل والكفاية من الله تبارك وتعالى، فلا ينفع لُبس الحلقة ولا الخيط ولا غير ذلك في رفع البلاء أو دفعه.

(المتن)

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا في يده حلقة من صُفر، فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة، فقال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبدًا»، رواه أحمد بسند لا بأس به.

(الشرح)

هذا الحديث مما اختلف فيه أهل العلم في تصحيحه وتضعيفه، وحسَّن إسناده البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصباح الزجاجة.

ومن أهل العلم مَن ضعفه، ونحن تكلمنا قبل ذلك عن منهج أهل السُنَّة في إيراد مثل هذه الأحاديث الضعيفة في كتب الاعتقاد.

قلنا: أنها واردة تحت ترجمة صحيحة وجيء بها للاعتضاد لا للاعتماد أو قد تكون صحيحة عند المؤلف، أو هي صحيحة من جهة المعنى، إذًا هي تدخل تحت أصلٍ كلي، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرناها، فلا يُعاب على المصنف إذا أورد حديثًا ضعيفًا، فهذه طريقة الأئمة.

في هذا الحديث أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رأى رجلًا في يده حلقة من صُفر، والحَلْقة هي كل شيء استدار من نُحاس أو غيره.

ومن صُفر أي من نُحاس أصفر، فقال: «ما هذه؟»، إما أن يكون السؤال من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سؤال استفسار وإما أن يكون سؤال إنكار، فقال: من الواهنة، ومِن هاهنا سببية، أي أن هذا الرجل إنما لبسها بسبب الواهنة، فما الواهنة؟

هي عِرق يضرب اليد أو المنكب أو العضد، فظن هذا الرجل أنه بلُبسه هذه الحَلْقة أنها ترفع ذلك، فماذا قال له النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ؟ فقال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبدًا».

فقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «انزعها»، بهذا الأسلوب من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: يدل على أن هذا الفعل محرم.

وعند أحمد: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال له: «انبذها»، وهذا أشد وأبلغ.

قال: «فإنها لا تزيدك إلا وهنًا»، وهذه معاملة بنقيض قصده، فإنه لمَّا لبسها من أجل القوة ومن أجل دفع هذا البلاء بيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنها لا تزيده إلا وهنًا.

وهكذا الشرك، سواءً كان شركًا أصغر أو أكبر، فإن المتعلق به لا يزداد إلا وهنًا.

ولذلك قال الله تبارك وتعالى عن أُناس التجئوا إلى الجن ليعوذوا بهم، ماذا قال؟ ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]، فعاملهم الله تبارك وتعالى بنقيض قصدهم.

ثم قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «فإنك إن مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، فقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ما أفلحت أبدًا»: فيه أن هذا الفعل محرم، بل فيه أن هذا الفعل شرك، لأن الفلاح هو الفوز، بل هو أعظم الفوز.

وسبب نفي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذا الفلاح هو تعليقه لهذه الحلقة، ونفي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الفلاح عن الرجل يحتمل أمرين:

إما أن يكون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نفى الفلاح: أي نفى امتناع حصول الفلاح مع وجود هذه التعاليق، فيمتنع مطلقًا أن يحصل الفلاح في الآخرة إن مات على ذلك مع وجود هذه التعاليق، وبالتالي هذا حُكْمٌ عليه بالخلود في النار.

وإما أنه تبعيد لحصول هذا الفلاح لهذا الرجل.

والمراد إذا قلنا أن الباب عُقد من أجل الشرك الأصغر، فقد علمنا أن الشرك الأصغر لا يُخلِّد صاحبه في النار، ولكن لا بد أن يخرج من النار إن دخل يومًا ما.

ولذلك استظهر العلماء أن المراد الثاني، أي المعنى الثاني، أي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد بذلك التخويف والزجر، لمَّا قال له: «ما أفلحت أبدًا»، أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التخويف والزجر، لأن المفعول هاهنا شرك أصغر.

فالأول امتناع حصوله يعني حصول الفلاح مع وجود تلك التعاليق.

والثاني: إبعاد حصوله.

(المتن)

وله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعًا.

(الشرح)

أي من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

«من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له».

(الشرح)

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا على فاعل هذه الأشياء، قال: **«مَن تعلق تميمة»**، وسيأتي في الباب الذي بعد ذلك تعليق تميمة.

قال: **«من تعلق تميمة»**: أي علَّقها حقيقة أو حكمًا:

أما حقيقة كأن يلبسها.

وأما حكمًا: فكأن يضعها تحت الوسادة، فهذا في حكم مَن علَّقها، لأن العلة واحدة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن تعلق تميمة فلا أتم الله له»**: أي لا أتم الله له قصده:

إن كان يقصد بهذه التميمة التي علقها أن يدفع البلاء، أو أن يرفعه فقد دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاملة له كذلك بنقيض قصده.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن أنشد الضالة في المسجد، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قولوا له: لا ردها الله لك»، فقد حض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن ندعوا أن يعامله الله تبارك وتعالى بنقيض قصده.

وقد يكون هذا إخباراً: أي ينفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتم الله له هذا الأمر، لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكله إلى هذه التميمة، ومَن تركه الله ﷻ ووكله إلى ما تعلق به من الشرك فقد هلك، فسواءً دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أخبر أن الله لا يتم له فهذا كله مما يفيد أن ذلك الفعل محرم، وأنه لا يجوز.

قال: «ومن تعلق ودعة»: ما الودعة؟ شيء يجلب من البحر كالأصداف، ويُعلق على الأطفال من أجل العين.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»: هذا أيضًا دعاءً من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي لا جعله الله ﷻ في دعة وسكون، بل حرَّك عليه كل مؤذٍ، فهذا أيضًا يعامَل بنقيض قصده.

فدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأولى والثانية يبين أن هذا الفعل محرم، وأنه لا يجوز، وأنه من الشرك؛ لأن القلب تعلق بغير الله تبارك وتعالى وتعلق بأسباب لا هي أسباب شرعية ولا قدرية.

(المتن)

وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك».

(الشرح)

والمقصود هاهنا في قول المصنف: وفي رواية، أي في حديث آخر، فهذا حديث مستقل وليس رواية أخرى لهذا الحديث.

قال: «من تعلق تميمة فقد أشرك»: وإنما كان شركًا من جهة تعلق القلب بغير الله تبارك وتعالى في جلب نفع أو دفع ضر.

(المتن)

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

(الشرح)

فالخيط إن لبسه المرء من أجل العلاج كأن يكون خيطًا من صوف فلبسه من أجل التدفئة مثلًا: فهذا لا حرج فيه، لأن هذا من الأسباب القدرية.

وأما إن لبسه من أجل رفع البلاء أو دفعه، وهذا الخيط له أشكال عديدة في هذه الأيام كالحظاظة مثلًا، فهي تشبه هذا الخيط.

فإن لبسه من أجل أن يجعله سببًا قدريًا أو سببًا شرعيًا في دفع البلاء فهذا من الشرك.

ولهذا قال في هذا الأثر أنه رجلًا في يده خيط من الحمى، فمِن هاهنا سببية وتعليلية، أي من أجل التبرد للحمى أو للشفاء منها.

فأنكر عليه حذيفة ﷺ بيده، بل قطع ذلك بيده ﷺ، وهذا فيه إنكار المنكر لمن يستطيع ذلك باليد، ما لم يترتب على ذلك منكر أعظم منه.

ثم تلا حذيفة ﷺ هذه الآية مصدِّقًا لهذا الحال، قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، فهذا الذي يفعل ذلك له نصيب من هذه الآية.

فالمرء قد يجتمع فيه إيمان وشرك، شرك أصغر يجتمع مع الإيمان، فهذا مؤمن بالله تبارك وتعالى ومع ذلك أشرك في اتخاذ ما ليس بسبب ليجعله سببًا قدريًا.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

(الشرح)

أي لمثل هذه العلة التي ذُكرت.

(المتن)

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، ففيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

(الشرح)

فالشرك الأصغر أكبر وأعظم عند الله من الزنا ومن السرقة ومن قتل النفس، ومما يؤسف له أن يستهين به كثير من الناس، مع كونه من أكبر الكبائر، وهو أعظم من الكبائر.

ولذلك لم يختلف أهل العلم أن مرتكب الكبيرة يدخل تحت مشيئة الله، واختلفوا في مرتكب الشرك الأصغر، هل يدخل تحت المشيئة أم لا بد أن يُعذَّب؟

ولذلك قال: فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

فجاء عن ابن مسعود ﵁ أنه قال: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا.

تأمل هذا الأثر، يقول ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا، هذا يمين غموس، لأن أحلف بالله كاذبًا هذا أحب إلي من أن أحلف بغيره، بأن يحلف بالبدوي أو الحُسين أو غير ذلك صادقًا.

لماذا؟ لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة، فإنه لو حلف بالله كاذبًا فهي يمين غموس، وهي كبيرة من الكبائر، وأما لو حلف بغير الله فهذا شرك، والشرك لا شك أنه أعظم من الكبائر.

ولذلك قال: فيه شاهد لكلام الصحابة، لعله يعني قول ابن مسعود ﵁ أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، والله أعلم.

(المتن)

الثالثة: أنه لم يُعذر بالجهالة.

(الشرح)

هذا الصحابي لم يعذره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجهالة، قال: «إنك لو مت على ذلك ما أفلحت أبدًا».

وتوجيه ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يستفصل عن حاله، فلم يقل له: هل أنت جاهل بهذا الحكم أم لا؟ لماذا؟ لأن هذه المسألة كانت مشتهرة بين الصحابة، ولذلك بيَّن له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الحكم.

وهذا لا يعني أن المرء لا يُعذر بالجهل أبدًا، ولذلك قال الشيخ ابن عثيمين في شرح هذه المسألة عند قول المصنف: أنه لم يُعذر بالجهالة، قال: هذا فيه نظر، وهذا يبين أن كل إنسان يؤخذ منه ويُرد، إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمثل هذا الإطلاق من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قد يوهِم أن الشيخ لا يعذر بالجهل، ويقول: أنه لا عُذر بالجهل في مسائل التوحيد، ، وهذا قد وقع بالفعل من بعض مَن قرأ لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وهذا ليس بصحيح.

فالشيخ له كلام كثير يعذر فيه بالجهل، تجده منثورًا في الدرر السنة، ولذلك قال الشيخ ابن عثيمين: هذا الكلام على إطلاقه فيه نظر، كلام الشيخ ابن عبد الوهاب على إطلاقه فيه نظر، لماذا؟

لأن المرء قد يُعذر بجهله وقد لا يُعذر.

متى يعذر المرء بجهله؟ إن لم يفرَّط ولم يقصَّر في طلب الحق، استفرغ الوسع في طلب الحق فهذا يعذر بجهله: فلا يُبدع ولا يكفر حتى تقام عليه الحجة.

أما إن فرَّط فقيل له: هذه المسألة فيها قول آخر أو عليها دليل، فقال: دعك من هذا، سأتَّبع فلانًا أو أتَّبع آخر: فهذا لا يُعذر بجهله.

(المتن)

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة.

(الشرح)

ما المقصود بالعاجلة؟ يعني الدنيا.

(المتن)

بل تضر، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تزيدك إلا وهنًا»**.

(الشرح)

فالذي يفعل مثل هذه الأمور ويشعر ببعض الراحة يقال له: هذا من تلبيس الشيطان.

(المتن)

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

(الشرح)

يعني من أجل دفع الحمى هو من هذا الباب.

(المتن)

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة، أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له، أي لا ترك الله له.

(المتن)

باب ما جاء في الرقي والتمائم.

إذا تأملت في ترجمة المؤلف للباب تجد أنه لم يقطع بكون ذلك شركاً.

وفي الباب الأول قال: بابٌ من الشرك لُبس الحلقة والخيط ونحوهما، أما في هذا الباب فقال: باب ما جاء في الرُقى والتمائم، وذلك لتفصيل سيأتي.

وَقَصَدَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا الباب بيان حكم الرقى والتمائم.

والفرق بين الرقى والتمائم:

أن الرقى جمع رُقية وهي عُوذة ملفوظة، والعُوذة اسم لما تطلب الحماية به، وأصله من الاستعاذة والالتجاء والاعتصام.

فالرقية عُوذة ملفوظة، أي تكون كلامًا.

وأما التمائم فجمع تميمة وهي عوذة معلقة، سواءً كان هذا التعليق حقيقة أو حكمًا، وقد سبق بيان معنى كونها حقيقة أو حكماً.

(المتن)

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت.

(الشرح)

والدلالة في هذا الحديث في قوله: إلا قُطعت، فأمْرُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقطعها دليلٌ على حرمتها، وكانت العرب تفعل ذلك من أجل دفع العين، فكانت تُقلِّد البعير: أي تجعل في عُنقه القلادة من الوتر، وتر القوس بعد أن يبلى يُعلقونه في رقبة البعير لدفع العين، فأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقطعه، وقوله: قلادة نكرة في سياق

النهي فتعم كل ما قُلِّد به البعير وما كان في معناه من أجل هذا الغرض، فمثله من يُعلق شيئاً في سيارته من أجل دفع العين عنها.

(المتن)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«إن الرقى والتمائم والتولة شرك»**، رواه أحمد وأبو داود.

(الشرح)

أما الرُقى والتمائم فقد مضى تعريفها.

وأما التِّولة فهي كما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شيء يصنعونه، وهذا منقول عن ابن مسعود ﷺ أنه لمَّا سُئل عن التولة؟ فقال: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

فالتولة ما يُصنع من السحر صرفًا أو عطفًا، أي ليعطف المرأة على الرجل أو الرجل على المرأة أو الزوجة على الزوجة أو ليصرفها عنه.

وهذه لا تجوز إجماعًا كما نقل ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد، أن التولة لا تجوز إجماعًا، فليس فيها خلاف، لأنها من السحر.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: **«إن الرقى والتمائم والتولة شرك»**.

فالشاهد في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **شرك**، حكمًا على هذه المذكورات التي ذكرها.

وهذا الإطلاق من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو باعتبار المعروف المعهود عند أهل الجاهلية.

فلمَّا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن الرقى»**، فأل ليست للاستغراق والجنس، وإنما هي للعهد، فهو عام أُريد به الخصوص.

فهذا الإطلاق من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعتبار المعهود المستعمل عند أهل الجاهلية.

وأما باعتبار الحقيقة: أي حقيقة هذه الثلاثة المذكورة فهي تنقسم إلى ما هو شرك، وقد سبق نقل الإجماع على أن التولة شرك، واما الرقى فمنها ما هو مشروع، ومنها الشركي.

فأما الشركي فهو ما اشتمل على الشرك: فهذا ممنوع.

وأما المشروع الجائز: فهو الخالي من الشرك، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث عوف بن مالك لمَّا ذكر له أنهم كانوا يرقون في الجاهلية، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اعرضوا عليَّ رُقاكم، لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركًا»**.

إذًا المذكورات منها ما هو شركي ومنها ما هو جائز مشروع، ومنها ما هو محرم، وهذا النوع الثالث.

النوع الأول: ما هو شرك فقط وهي التولة.

النوع الثاني: منها ما هو شرك ومنها ما هو مشروع جائز وهي الرقى.

النوع الثالث: منها ما هو شرك ومنها ما هو محرم لا يجوز على القول الراجح، وهي التمائم.

فإن اشتملت على الشرك كانت شركاً غير جائز، وإن لم تشتمل فهذا مما اختلف فيه السلف؛ فالتميمة المعلقة إن كان فيها ألفاظ شركية، وفيها ما لا يُفهم: فهذا شرك لا يجوز.

إن كانت لا تشتمل إلا على آية أو حديث: فهذه ليست شركًا، ولكن هل يجوز أن تُعلَّق؟ هل يجوز للإنسان أن يعلقها في صدره أو على الحائط أو غير ذلك؟

هذا مما اختلف فيه السلف، فمنهم من أجازه، وهذا منقول عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، وكذلك عن عائشة رضي الله عنه.

ومنهم من منعه، وهذا قول أكثر الصحابة.

قالوا: إن هذه التمائم حتى ولو لم تشتمل على شرك فلا يجوز تعليقها، وذلك:

أولًا: أنه وإن كان المعلق سببًا شرعيا لدفع البلاء ورفعه كالقرآن والسُنة، لكن اتخاذ السبب الشرعي وقع على صورة غير مشروعة.

ثانيًا: أن ذلك يُمنع سدًا للذريعة، لأنه لا يؤمن مع مرور الأيام أن يتعلق القلب بصورة هذه التميمة، وليس بما ورد فيها من كلام الله تبارك وتعالى وجعله سببًا.

ومثل ذلك ما ذكرناه في مسألة استعانة المعالجين في هذه الأيام بالجن، يقول بعضهم: إنه قد أعانه الله تبارك وتعالى على الجني حتى أسلم، فقال له: أسلم تسلم يؤتك الله.. إلى غير ذلك، وهذا الجني أطاعه، ثم بعد ذلك سخره لخدمة المسلمين، فهذا لا يجوز، لأن هذا مما خص الله به تبارك وتعالى سليمان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وإذا كان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لم يأذن لنفسه بذلك، لمَّا أمسك هذا الشيطان الذي قطع عليه صلاته وهمَّ أن يربطه في سارية المسجد ليلعب به الصبيان، ثم تذكر دعوة سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٧]، فسخَّر الله له الشياطين ولم يجعلها لأحد من بعده.

فإن لم يرض النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لنفسه بذلك، فكيف لمن هو بعد النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وبمن هو دون النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يرضى لنفسه بذلك؟

والجهة الثانية: أن هذا عالم غيبي.

يقول الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نحن في عالم الإنس نعامل الشخص سنين ونتكلم معه، ثم بعد ذلك نكتشف أنه كذَّاب، وهو أمامنا، فما بالك بهذا العالم الغيبي بمجرد أن يقول لك: أنه أسلم، تُصدِّق؟

وثالثاً -وهذا واقع ومشاهدٌ حقيقةً-: أن هذا المعالج مع مرور الأيام وإن كان في بدأ الأمر يتعلق قلبه بالله تبارك وتعالى، إلا أنه بعد ذلك يكون كل توكله واعتماده على هذا الجني، وكذلك المعالَج.

تجد بعض المعالجِين لا يبحثون إلا عمَن معه قرين قد سخَّره، فهذا كله من الشرك.

فحتى هذه التمائم وإن كانت لا تحتوي على محذور، فهي بابٌ لهذا المحذور.

ومما يُرجح منع تعليق التمائم أيضاً: أن هذا قد يؤدي إلى الانتهاك، لأن هذه التميمة فيها آية أو حديث، فمعلقها قد ينام عليها، وقد تقع منه، قد يصيبها النجاسة خاصة إذا عُلِّقت في صدر الصغار أو غير ذلك، فهذا امتهان لكلام الله تبارك وتعالى.

فالراجح أن التمائم وإن كانت خالية من الشرك فإن تعليقها لا يجوز.

الناس الآن لا تكتفي بتعليق التمائم، ربما تُعلق صورة الشيخ فلان أو الشيخ علان في البيت عياذًا بالله، تجمع محاذير فوق المحاذير، فكل هذا لا يجوز، وهو ذريعة للشرك الذي نهى عنه الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: **«من تعلق شيئًا وُكِل إليه»**، رواه أحمد والترمذي.

(الشرح)

وهذا فيه وعيد شديد، فمن تعلق بغير الله تبارك وتعالى وُكل إليه، ومن وُكِل لغير الله هلك، فالتعاليق محرمة لأنها تؤدي إلى الهلاك، وإن لم يكن اجتناب هذا الهلاك إلا باجتنابها صار اجتنابها واجبًا، لأنه ما لا يتم ترك المحرم إلا بتركه فتركه واجب.

(المتن)

التمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلّق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف.

(الشرح)

مما استدل به المرخصون: عموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولكن هذا العموم مقيَّد، بما ورد في سُنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونحن نعلم أن السلف إذا اختلفوا في مسألة فعندنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].

فدليل الثاني أقوى وأرجح وهو دليل المنع.

ولكن هذه المسألة لا يترتب عليها هجر، ولكن يوضِّح الأمر برفق.

(المتن)

وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

والرقى: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة.

(الشرح)

وقد مضى حديث الرهط، وحديث الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

(المتن)

والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يُحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى أحمد عن رويفع ﷺ قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يا رويفع لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترًا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدًا بريء منه»**.

(الشرح)

هذا الحديث صححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيح سنن أبي داوود.

وهذا الحديث من أعلام النبوة، لأن هذا الصحابي الجليل قد عُمِّر ﷺ.

قال: **«فأخبر الناس أن مَن عقد لحيته»**، وهذا محمول على أن أهل الجاهلية كانوا يفعلونه، أو أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن ذلك سيكون من بعده.

قيل: إنهم كانوا يفعلون ذلك في الحرب تقليدًا للعجم تكبرًا وعُجبًا، فنهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن ذلك.

وقيل: إن ذلك يُفعل معالجة للشعر ليتعقَّد ويتجعَّد، فيصير على هيئة وصورة تُشبه شعر النساء، وهذا من فعل التخنيث والتشبه.

وقيل: إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نهى عن عقده في الصلاة، كما رجح ذلك ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: لأن بعض الروايات جاءت مقيدة أن من عقد لحيته في الصلاة.

ولا بأس أن يُحمل على كل ذلك.

فمن عقد لحيته في الصلاة أو عقدها في الحرب، أو عقدها تشبهًا بالنساء، يناله هذا الوعيد.

قال: **«أو تقلد وَتَرًا»**: وهذا موضع الشاهد، أي جعل الوَتَر قِلادة.

«أو استنجى برجيع دابة»: والرجيع هو روث الدابة والعذرة.

«أو عظم»، فقد نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن الاستنجاء بالرجيع والعظم، لأنه طعام وزاد إخواننا من الجن.

قال: «**فإن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريئ منه**»: فبراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فاعل ذلك دالة على حرمة ذلك الفعل، بل تدل على أن حرمته شديدة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن من عقد لحيته أو تقلَّد وترًا**»، وعند النسائي وصححه الألباني: «**أو تقلد وترًا يريد تميمة**»، يعني فعل ذلك من أجل التميمة، ولعل ذلك أوضح.

قال: «**فإن محمدًا بريئ منه**»: فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبرأ من الشخص ومن الفعل.

ولذلك الصحابة كان يبرؤون من الفاعل نفسه:

ابن عمر لَمَّا حُكي له: ما ظهر من نفي القدر على يد الجعد بن درهم، ماذا قال ابن عمر؟ قال: فإذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريئ منهم.

(المتن)

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه، قال: «**من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة**»، رواه وكيع.

(الشرح)

وهذا من المرسل، لكن الشاهد فيه: أن مَن فعل ذلك وأنكر المنكر بيده كان جزاؤه كمن أعتق رقبة، لأن الجزاء من جنس العمل، هذا قيَّد رقبته بالشرك، وبجعل ما لم يثبت شرعاً ولا قدراً سبباً في دفع بلاء أو رفعه، فجازى الله تبارك وتعالى من فعل ذلك كمن أعتق رقبة، وهذا جزاء عظيم.

(المتن)

وله عن إبراهيم.

(الشرح)

يعني النخعي.

(المتن)

قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن.

(الشرح)

الصحابي الذي نُقل عنه أنه منع كل التمائم هو ابن مسعود رضي الله عنه.

فلذا قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانوا، فيقصد بذلك أصحاب ابن مسعود وتلاميذه ، من أمثال مسروق وعلقمة والأسود بن يزيد، فإن هؤلاء أشياخ إبراهيم، وهذا مما نص عليه أهل العلم: أن إبراهيم إذا قال: كانوا يكرهون كذا، يعني أصحاب ابن مسعود.

وقوله: يكرهون لا يقصد به الكراهة التنزيهية التي يثاب تاركها ولا يُعاقَب فاعلها، فإن الكراهة في عُرف السلف يُقصد بها التحريم، ذكر ذلك ابن تيمية وابن القيم والشاطبي رحمهم الله، وغيرهم من أهل العلم.

فقال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن: فهذا فيه أن التمائم بكل صورها لا تجوز.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقي والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

(الشرح)

قوله: من غير استثناء: قلنا: هذا باعتبار العُرف المعهود عند أهل الجاهلية، وإلا فالرُقى والتمائم فيها تفصيل.

الرقى منها ما هو مشروع ومنها ما هو محذور.

والتمائم قلنا: من أهل العلم من السلف مَن أجازها إن لم يكن فيها شرك.

فقوله: من غير استثناء: هذا باعتبار العُرف المعهود عند أهل الجاهلية.

(المتن)

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

(الشرح)

إذًا هذا مما استثناه من المسألة السابقة، فإن رقى إنسان نفسه أو غيره بالكلام الحق، والكلام الحق فيه ضابطان:

أما الضابط الأول: أن تكون بالأسماء والصفات، أو بالأدعية المأثورة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بكل دعاءٍ لا يخالف الشرع، وإن كان المأثور أولى.

والضابط الثاني: أن تكون بالكلام العربي المفهوم لا المجهول، لأنك تجد بعض الراقين يبدأ الرُقية بكلام مفهوم معلوم، ثم بعد ذلك يتمتم بكلام لا تفهمه، يذكر كلمة تعرفها، وكلمة أخرى أوعشرات الكلمات التي لا تفهمها.

فالأصل في الرقية: أن تكون بالكلام العربي، إلا لمن عجز عن ذلك.

فلو كان هناك إنسان مسلم في أمريكا، ولا يستطيع أن يرقي بالكلام العربي، يحفظ آية ويريد أن يدعو، فإن دعا وهو يرقي بلغته هو بكلام غير محذور: فهذا جائز.

أما ما عدا الضرورة: فالأصل أن يستعمل اللغة العربية.

إذًا الأمر الأول: أن تكون بالمشروع لا الممنوع.

الأمر الثاني: أن تكون باللغة العربية.

الأمر الثالث: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تبارك وتعالى، لأنه قد يرقي ولا تؤثر الرقية، فالأمر كله يرجع إلى تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ.

إذًا في هذا الباب والباب الذي قبله بيّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بعضًا من أمور الشرك الأصغر.

(المتن)

باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما.

(الشرح)

هذا الباب عقده المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لبيان بعض أنواع الشرك التي وقع فيها المشركون، فحذَر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منها أمته، وأخبر أنها ستقع كونًا وقدرًا فيها.

فقال: **باب مَن تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما.**

ومَن هاهنا اسم شرط، والجواب محذوف، وتقديره: فقد أشرك بالله، فمن تبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما مما سيأتي فهذا أشرك بالله تبارك وتعالى.

وقد تكون مَن هاهنا موصولة، أي بمعنى الذي، فيكون الباب: باب بيان حكم الذي يتبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما وما يترتب على ذلك من الوعيد والعقوبة.

والتبرك مصدر تبرَّكَ يتبركُ تبرُّكا والمراد طلب البركة كما يقول العثيمين رحمه الله ، واصل البركة في اللغة العربية الثبوت والدوام ، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

- أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم، مثل القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمماً كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

- أن يكون بأمر حسي معلوم، مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه، فهذا الرجل يتبرك بعمله ودعوته إلى الخير، فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيراً كثيراً.

وقال أسيد بن حضير: (ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر) ، فإن الله يجري على يد بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر.

والمراد في هذا الباب من التمس بركةً من غير محلها، كالتماس البركة من الحجر والشجر والصنم، إذ البركة من الله تعالى، ولا يلتمسها العبد إلا منه سبحانه على الوجه الشرعي، وإلا كانت شركاً.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾.

(الشرح)

قال: الآياتِ، على النصب بالكسر لأنه جمعٌ مختومٌ بألف وتاء، أي اتُل الآيات أو أكمل الآيات.

فقال في هذه الآيات: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، فخص ثلاثة من الأصنام التي كانت تُعبد في الجاهلية.

وإنما خص هذه الأصنام لأنها أعظم أصنام العرب، وإلا فهناك غيرها من الأصنام كانت تُعبد.

قال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾ [النجم: ١٩]، واللات يُقرأ بالتخفيف وبالتشديد.

فإن قيل: اللات بالتخفيف فهو مؤنث من الاسم الحسن الله، فكان المشركون يشتقون من أسماء الله تبارك وتعالى أسماءً للملائكة، فاللات من اسم الله، والعُزى من العزيز، ومناة من المنَّان.

فلو قلنا اللات بالتخفيف فهو مشتق من اسم الله.

وإن قلنا اللاتّ بتشديد التاء فقد كان رجلًا من أهل الجاهلية كان يلِتُّ السويق، وهو نوع من الطعام، ويقوم على خدمة الحجيج، فلما مات عبدوه من دون الله تبارك وتعالى.

والعُزَّى مؤنث العزيز، وكانت قريش تعظمه جدًا، ولذلك في يوم أُحد قال أبو سفيان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه مع الصحابة: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا تجيبوه؟»، فقالوا: يا رسول الله ماذا نقول؟ قال: «قولوا: الله أعز وأجل».

وأما مناة: فكان بين مكة والمدينة، وكان لأهل المدينة، وكانوا يُهلون بالحج من عنده.

فهذه كانت أعظم أصنام المشركين، ولذلك ذكرها الله تبارك وتعالى.

فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، يعني يذم الله تبارك وتعالى فعلهم وينعي عليهم، هل هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله تبارك وتعالى تنفع وتضر؟ هل تجلب لكم البركة ؟

ثم نعى الله تبارك وتعالى عليهم أمرًا آخر، فقال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، يعني هذه قسمة ظالمة جائرة.

وجيء بهذه اللفظة في هذا المكان كما يقول علماء البلاغة لأمرين:

أما الأمر الأول: لتوافق النظم، لأن الله قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ [النجم: ١٩ - ٢١]، فجيء بهذه الكلمة: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢٢]، لتناسب نظم القرآن وفواصل الآي كما يقول عبد القاهر الجرجاني في إعجاز القرآن رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكذلك لأن هذه الكلمة تدل على شدة الظلم والجور الذي وقع من المشركين، ففيها معنى زائد على كلمة ما قد يرادفها ككلمة (ظالمة) أو (جائرة).

ثم بيَّن الله تبارك وتعالى في هذه الآيات أن هذه الأسماء التي جعلتموها لهذه الأصنام ما هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ليس لكم بها عند الله تبارك وتعالى سلطان ولا حُجة.

فقال: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم: ٢٣]، والسلطان كما قال السلف إذا ذُكر في القرآن غالبًا فالمقصود به الحُجة والعلم.

فبيَّن الله تعالى أن فساد حُجتهم يرجع إلى أمرين:

أما الأمر الأول: فهو فساد العلم.

وأما الأمر الثاني: ففساد الإرادة.

أما فساد العلم: فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [النجم: ٢٣]، فما يتَّبعون علمًا جازمًا من الله تبارك وتعالى ولا يتبعون برهانًا ولا حُجة، وإنما علمهم علم فاسد.

وأما الأمر الثاني: فقد قال: ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣]، وهذا هو فساد الإرادة.

والأمراض ترجع إلى هذين الأمرين، أمراض القلوب ترجع إلى هذين الأمرين:

إما أن يكون المرض بسبب فساد العلم، فينتج عنه الشُبهات.

وإما أن يكون المرض راجعًا إلى فساد الإرادة واتِّباع الهوى، فينتج عنه الشهوات.

فأمراض القلوب على نوعين: إما أن يكون مرض شُبهة، وهذا يرجع إلى فساد العلم.

وإما أن يكون مرض شهوة: فهذا يرجع إلى فساد الإرادة.

فهؤلاء ما أوقعهم في ذلك إلا اجتماع هذين الأمرين: أن علمهم فاسد فليس عندهم علم صحيح، لا من كتاب الله ولا من سُنة نبي من الأنبياء.

الأمر الثاني كذلك: فساد إرادتهم وميلهم الباطل، وما تهواه أنفسهم.

ثم بيَّن الله تبارك وتعالى الطريق الصحيح بعد أن عاب عليهم، قال: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣]، أي أن الله تبارك وتعالى أرسل لهم نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعلم النافع والعمل الصالح، بالهُدى ودين الحق.

(المتن)

عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سِدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الله أكبر! إنها السُنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾**»، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»، رواه الترمذي وصححه.

(الشرح)

أبو واقدٍ الليثي الصحابي الجليل رضي الله عنه يقول: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنين، وهذا كان بعد فتح مكة.

قال: ونحن حدثاء عهد بكفر، أي هؤلاء الذين أسلموا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فتح مكة كانوا حُدثاء عهد بكفر، يعني ما تركوا الشرك إلا منذ قليل.

والصحابي إنما يقول ذلك: اعتذارًا لِمَا وقع منهم، ليبين أن هذا ما وقع منهم على سبيل التعمد والقصد، وإنما لِمَا جهلوه، وبسبب أنهم كانوا حديثي عهد بكفر، فإيمانهم ليس كإيمان من أسلم قبل الفتح وقاتل، وكلاً وعد الله الحسنى.

قال: وللمشركين سِدرة يعكفون عندها، والسِدرة هي الشجرة العظيمة، يعكفون عندها: أي يطيلون المُكث عندها، ومنه الاعتكاف في المسجد، فالاعتكاف في المسجد يُقصَد به طول المكث في المسجد، ويصاحب ذلك النية.

فكان للمشركين سدرة يطيلون المُكث عندها وينوطون بها أسلحتهم، أي يُعلِّقون بها أسلحتهم التماسًا للبركة.

فمعنى ينوطون بها أي يُعلِّقون.

ومن هنا سميت العلة في باب القياس مناط الحكم، لماذا سمية العلة مناط الحكم؟ لأن الحكم يُعلَّق بها وجودًا وعدمًا، إن وُجِدت العلة وُجِد الحكم، إن وُجد الإسكار وُجد التحريم، إن لم يوجَد الإسكار انتفى التحريم، فالعلة هي مناط الحكم، يعني ما يُعلَّق به الحكم.

فهذه الشجرة العظيمة كانت لقريش، وكانوا يُعلِّقون عليها أسلحتهم التماسًا للبركة.

هذه الشجرة كان يقال لها: ذات أنواط، لكثرة ما كان يُعلَّق بها.

قال: فمررنا بسدرة، فكأن هؤلاء تذكروا هذه الشجرة التي كانت للمشركين، فطلبوا من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، ظنوا أن ذلك يقربهم من الله تبارك وتعالى.

فهم رضي الله عنهم ما أرادوا الشرك صراحة، وما أرادوا التماس البركة من غير الله صراحة، ولكن ظنوا أن هذا الأمر يقربهم من الله تبارك وتعالى.

والذي يدل على ذلك أنهم ما فعلوا ذلك ابتداءً، وإنما طلبوا ذلك من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليكون عبادة، ظنوا أن هذا سيكون عبادة لله تبارك وتعالى.

ومع ذلك انظر إلى شدة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليهم وتغليظه عليهم من أجل هذا الذي طلبوه.

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«الله أكبر»**، وهذا إنما يقال للتعجب ولاستعظام الأمر، فالمرء إذا تعجَّب من أمر حسن قال: الله أكبر، وكذلك إذا تعجب من أمر مذموم لشدته قال: الله أكبر.

فقال: **«الله أكبر»**، أي أكبر من أن يُشرَك به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ومن أن تُلتَمس البركة من غيره.

«إنها السُنن»، السُنن بمعنى الُطرق المسلوكة، ثم بيَّن هذه السُنن.

قال: **«قلتم والذي نفسي بيده»**، وهذا فيه إثبات اليد لله تبارك وتعالى، فالله تبارك وتعالى له يدان حقيقيتان، تليقان به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولا نقول كما تقول المعطِّلة من الجهمية كالأشاعرة والمعتزلة وأضرابهم: أن اليد بمعنى القدرة أو النعمة، ولكن نقول: أن لله تبارك وتعالى يدين، كما قال: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال: **«والذي نفسي بيده»**، وهو الذي يدبر أمر الخلائق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهو الذي يحي ويميت، **«قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾»**.

ما هو وجه الشَّبه بين ما قالوه، وما قاله بنو إسرائيل؟

قال العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: وإنما ذكر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذلك وشبَّه قولهم بقول بني إسرائيل بجامع أن كلًا طلب ما يُجعل له لكي يألهه ويعبده من دون الله.

لأن هؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها.

ونحن قلنا: إن هدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهدي الصحابة من بعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم أحيانًا يذكرون الآيات التي وردت في الشرك الأكبر يستدلون بها على الشرك الأصغر، بجامع الاشتراك في جعل شيء مما هو لله لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فتغير الاسم لا يُغيِّر الحقيقة، هؤلاء طلبوا إلهًا، وأولئك طلبوا شجرة، فهذا التغير في الاسم لا يُغير الحقيقة، لأن الأمر واحد.

ولذلك قال في الترجمة: مَن تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما، فكل ما يُتبرك به مما لم يجعل الله فيه البركة فإنه يدخل تحت هذا الباب من الشرك.

لماذا ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآية؟ تحذيراً من مجرد المشابهة.

الصحابي قال: وللمشركين سِدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم.

وهذا الصحابي الجليل لمَّا قال: وينوطون بها أسلحتهم إنما أراد أن يبين سبب ذلك، وإلا مجرد تعليق الأسلحة في هذه الشجرة دون التماس البركة هذا لا شيء فيه.

ولذلك لا يُتصور أن الصحابي إنما طلب مجرد تعليق الأسياف في الشجرة، فالأشجار كثيرة، علِّق الأسياف على أي شجرة، ولن يُنكر عليك أحد.

وإنما قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فهذا يدل على أنهم طلبوا العلة التي عند المشركين، ولذلك أنكر عليهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «**إنها السُنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾**»، أي تجهلون عظمة الله تعالى وما يستحقه من الإفراد في العبادة والربوبية.

أما من جهة الربوبية فإن البركة من الله تبارك وتعالى، البركة فِعل الله، هذا من جهة الربوبية.

أما من جهة العبودية أو الإلهية التي هي فعل العبد: فالتماس البركة هي فعل العبد، لا يلتمسه إلا من الله.

ولذلك أنكر عليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعظيمًا لِمَا طلبوه مما فيه هضم للربوبية وتنقص في الألوهية.

ثم قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لتركبن سنن من كان قبلكم»**.

وفي الصحيح قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لتتبعن سَنن من كان قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضَب لدخلتموه»**، الثابت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**، أما خرب فإنها لم تذكر، وإنما يذكرها أهل اللغة في مسألة العطف بالمجاورة.

هل يجوز العطف بالمجاورة أو لا يجوز؟ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«حتى لو دخلوا جحر»**.

ما إعراب كلمة جحر؟ منصوبة، ضبٍ مضاف إليه.

الخِرب الضب أو الجحر؟ الجحر هو الخرب، فالمفترض أن يقال: حتى لو دخلوا جحر ضب خربًا، نعتًا للجحر.

ومع ذلك قال: حتى لو دخلوا جحر ضبٍ خربٍ، عطف جُرَّت للمجاورة.

إنما الثابت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«حتى لو دخلوا جحر ضب»**.

وإنما ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصه لشدة ضيقه ومع ذلك فإنهم لاقتفائهم آثارهم واتباعهم مناهجهم لو دخلوا في مثل ذلك الضيق الرديء لوافقوهم، فهذا فيه دليل على شدة ما يقع في هذه الأمة من المتابعة، حتى في أمور لا يتصور المرء أن يتابع فيها الأمم السابقة؛ إذ جحر الضب يُضرب به المثل في الضيق والتعاريج وهو كناية عن تمام المتابعة وفيه تمثيل بالمستحيل.

ومع ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**.

قال: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»، لو قلنا: سُنن فهي جمع سُنة، يعني طُرق.

ولو قلنا: سَنن: فالسَنن هي الطريقة.

قال: رواه الترمذي وصححه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

(الشرح)

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يتبركوا بالشجرة لا أن يعبدوها، فما طلبوا عبادتها، وإنما أرادوا مجرد التبرك، وهذا من الشرك الأصغر.

(المتن)

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

(الشرح)

فهم لم يفعلوا ذلك، لأنهم اقتصروا على طلب ذلك من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يُعلِّقوا أسيافهم، بل طلبوا ذلك من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يقرهم على ذلك.

(المتن)

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

(الشرح)

ولذلك طلبوا ذلك من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا فيه أن النية الصالحة لا تُصلح العمل الفاسد.

لأن العمل لا بد للقبول فيه لا بد من وجود شرطين.

أما الشرط الأول: فهو الإخلاص.

والشرط الثاني: هو المتابعة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فظنوا أن ذلك مما يحبه الله تبارك وتعالى، قلنا: ولذلك طلبوه من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتكون عبادة.

(المتن)

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

(الشرح)

إذا كان الصحابة الكرام الذين بلغوا المنزلة العُليا في العبادة، ومعهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا كانوا جهلوا هذا الأمر فغيرهم أولى بالجهل.

ما معنى ذلك؟

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما أراد بذلك أن يبين عدم الاغترار بعمل المرء، لأنه قد يكون جاهلًا.

بعض الناس يظن العصمة في الأفراد، فهذا صحابي ومع ذلك وقع في الخطأ وجهل هذه المسألة، فغير الصحابي من باب أولى، فما ينبغي أن يُتابَع المرء مطلقًا إلا على مقتضى الدليل، لا يتابَع شيخ ولا عالم ولا أحد من الناس إلا على مقتضى الدليل، لماذا؟

لأنه قد يكون جاهلًا بحكم هذه المسألة، وما من أحد إلا وتعزب عنه سُنة من سُنن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

السادسة: أن لهم من الحسنات.

(الشرح)

الضمير يعود على مَن؟ يعني الصحابة رضي الله عنهم.

(المتن)

أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

(الشرح)

وهذا فيه عدل أهل السُنَّة ووسطية أهل السُنَّة، فهم وسط بين الخوارج والرافضة:

الرافضة: تنقَّصوا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفَّروهم، واتهموهم بالردة بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغلوا في أُناس من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعلي وفاطمة والحسن والحسين وآل البيت، حتى رفعوهم إلى: لا أقول إلى منزلة النبوة، بل وصلوا ببعضهم إلى منزلة الألوهية.

وعلى الجانب الآخر الخوارج: الذين جفوا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتنقَّصوهم وكفَّروهم.

فأهل السُنَّة وسط بين هؤلاء وأولئك، فيقولون: إن الصحابة وإن أخطأوا فلهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، فلو أنفق أحدنا بل من المتأخرين من الصحابة مثل أُحد ذهبًا: ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه.

ففي المسألة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك أنكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم.

وأنت الآن إذا أنكرت على قول عالمٍ من العلماء أو على متعصب من المتعصبة لأحد الأشياخ: يقيم الدنيا ولا يُقعِدها.

نقول: هؤلاء الصحابة، ومع ذلك أنكر عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان الصحابة يُنكِر بعضهم على بعضٍ، متى؟ إذا خالفوا الدليل.

فإذا كان الصحابة كذلك فلماذا لا يتصور ذلك فيمن هو دون أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الفتنة التي عشناها ونعيشها الآن كشفت عن كثير من هؤلاء المتعصبة، مهما جئت له بكل دليل قاطعٍ على الحق في هذه المسألة، فشيخي قال، لا يقبل منك هذا الحق إلا إذا خرج شيخه وقال: الحق في هذه المسألة كذا وكذا، عند ذلك يقول: سمعنا وأطعنا، نسأل الله العافية.

(المتن)

السابعة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»، فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

(الشرح)

شدَّد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم بهذه الثلاث التي ذكرها.

(المتن)

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طِلبتهم كطِلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا ﴾.

(الشرح)

ووجه الشَّبه: أن في الطِلبتين منافاة للتوحيد، ولذلك قال: قلتم كما قالت بنو إسرائيل.

(المتن)

التاسعة: أن نفي هذا معنى لا إله إلا الله، مع دقته وخفائه على أولئك.

(الشرح)

يعني نفي البركة عن غير الله تبارك وتعالى، أن تُلتمس من غير الله هذا من معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

قال: وهذا مع دقته وخفائه على أولئك، يعني أن نفي هذا من معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله: من دقته وخفائه، فهذه الكلمة العظيمة لها حقوق كثيرة ينبغي أن تُعلم وأن تُدرس، هناك دقائق ينبغي للمسلم أن يبحث عنها، والمرء إذا تبحَّر في هذا الباب وزاده الله تبارك وتعالى علمًا في هذا الباب، أعني باب التوحيد وباب العقيدة يقف على دقائق قد لا يقف عليها غيره.

فتجده أرقَّ الناس قلبًا، وأعبد الناس لربه تبارك وتعالى العلماء بربهم تعالى، من صح توحيدهم، وصحت عقيدتهم؛ لأن ذلك يصل بصاحبه إلى كمال التوحيد،

يُكمِل التوحيد الواجب منه والمستحب، فيقول: هذا من دقائق معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله: أن البركة لا تُطلب إلا من الله تعالى.

(المتن)

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا.

(الشرح)

لأن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما طلبوا عبادتها، وإنما طلبوا التبرك بها.

فالشرك الأصغر لا يُخرج صاحبه من الملة.

(المتن)

الثانية عشرة: قولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

(الشرح)

يعني أن غيرهم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يطلب ذلك، فما طلب ذلك أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، ما طلبوا ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإنما قول الصحابي رضي الله عنه: ونحن حُدثاء عهد بكفر: فيه أن غيرهم لم يطلب هذا الأمر.

(المتن)

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافًا لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

(الشرح)

والذرائع: جمع ذريعة.

والذريعة هي الطريقة والوسيلة الموصّلة إلى الشيء، فذات أنواط ستكون وسيلة إلى الشرك الأكبر، وإن طلبوا الأمر ابتداءً من أجل التبرك الذي هو الشرك الأصغر، فأغلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الباب.

ولذلك جاء عن عمر ﷺ أنه علم أن بعض الناس كانوا يذهبون عند شجرة السمرة، التي بايع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بيعة الرضوان عندها، فقطعها عمر ﷺ.

قال: سد الذرائع، فأنكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم ذلك سدًا للذرائع، لأن الشيطان قد يتدرج بالمرء فيبدأ بمثل هذه الأمور، ثم بعد ذلك يوقِعه في الشرك الأكبر عياذًا بالله.

(المتن)

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية، لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنها السنن»**.

(الشرح)

وهذا القول من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل هو من باب التقرير أم من باب التحذير؟

يعني هل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرهم على ذلك؟ أم يحذرهم؟

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مثل هذه الصيغ يُحذِّر أصحابه ويُحذِّر الأمة من بعده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن تقع في مثل هذه الأمور.

يعني لمَّا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لتتبعن سَنن من كان قبلكم»**، لا يعني ذلك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقر هذا الاتِّباع الباطل، وإنما يذم ذلك ويُحذِّر الأمة منه.

ولمَّا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فِرقة»**، لم يقل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك إقرارًا ومدحًا لهذا الافتراق، لأن الافتراق في الشرع مذموم، وإنما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك من باب التحذير.

ولذلك بيَّن في آخر الحديث أن فِرقة واحدة هي الناجية.

ولـمَّا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرى والحرير والمعازف»**، إلى غير ذلك، ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك كذلك من باب الإقرار، وإنما قاله من باب التحذير.

فهذه قاعدة كلية: **أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يُخبر بأمور تقع من بعده ولا يريد إقرارًا بذلك، وإنما يريد التحذير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

فنحن نتعامل مع هذا الأمر من وجهتين:

أما الوِجهة الأولى: فهذا لا بد أن يقع كونًا وقدرًا، فننظر من هذا الباب أي من باب القضاء والقدر، فنؤمن بذلك، وهو من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الوجهة الثانية فمن باب الشرع، وهو أن نحذر مثل هذه الأمور ونحذِّر منها.

(المتن)

الثامنة عشرة: أن هذا عَلم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.

(الشرح)

فهذا واقع في الأمة، وهذا مشاهَد، الشرك وقع في أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته، ومن أراد أن يعلم ذلك في مصر عندنا فليذهب إلى البدوي والحسين والسيدة ولا حصر لهم، بل نحن الأشهر في العالم العربي في هذا الباب، نسأل الله العافية.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرد الناس إلى كمال توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

(الشرح)

إما أن يريد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ذم مقصود لمن وقع فيه من أمة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن وقع فيه من أمة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو مذموم لأنه شابه بذلك اليهود والنصارى.

وإما أن يكون مراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن ذلك لا بد أن تقع منه خصلة في أمة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما من خصلة وقع فيها اليهود والنصارى إلا ولا بد أن تقع فيها هذه الأمة، لا أعني كل الأمة، بل أفراد من هذه الأمة.

(المتن)

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر.

(الشرح)

يقصد بالأمر هاهنا التوقيف: أنه متقرر عندهم: عند مَن؟ الصحابة، من أين جاء بذلك؟ أنهم قالوا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله اجعل لنا، فطلبوا ذلك من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من دقيق فقه واستنباط هذا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(المتن)

فصار فيه التنبيه على مسائل القبر.

(الشرح)

يعني هذا الحديث فيه التنبيه على مسائل القبر الثلاث.

(المتن)

أما: من ربك؟ فواضح.

(الشرح)

واضح من جهة ماذا؟ إثبات الربوبية، لأن البركة من الله، والبركة فِعل الله تبارك وتعالى، فهذا فيه إثبات الربوبية.

(المتن)

وأما: من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في هذا الحديث: «لتركبن سَنن»، وقد وقع ما أخبر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وأما: ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا ﴾.

(الشرح)

لأن فِعل العبد هذا هو توحيد الألوهية، أن يوحِّد الله تبارك وتعالى بعبادته، فقولهم: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا ﴾، لما وقع موقع الذم دل ذلك على نقيضه، أن توحيد الألوهية يراد به إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة.

(المتن)

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤمَن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

(الشرح)

فالإنسان إذا انتقل من باطل لا يؤمَن أن ينزع إلى هذا الباطل يومًا ما.

وهذه كلمة عظيمة:

لو كان الإنسان مع فرقة من الفِرق الضالة، كالخوارج مثلًا وتركهم، فهذا فضل الله تبارك وتعالى، ومع ذلك لا تأمنن عليه أن ينزع إليهم يومًا ما أو إلى خصلة من خصالهم.

وهذا قد رأيناه:

بعض هؤلاء الذين خرجوا من السجون، بعد مدة يقولون: إنهم تابوا وأنابوا إلى الله ﷻ وأقلعوا عن هذا الفعل، فإذا وقعت أحداث تؤيد فكرهم عادوا إلى ما كانوا عليه.

كأصحاب هذه المراجعات من الجماعة الإسلامية، وضعوا تراجعات، كتبوا خمسة كتب تراجعات عن أفكارهم، وإذا فتحت هذه الكتب تجد تقرير عقيدة أهل السُنَّة والجماعة، ومع ذلك لمَّا وقعت الأحداث ظهر ما عندهم.

ولذلك من فقه السلف أن المبتدع إن أقلع عن بدعته فإنه لا بد أن يُترك سنة، لا يؤخذ منه علم، ولا يُقبل منه كلام، لا يعامَل كعالم ولا كطالب علم، لأن الشُبهة قد تكون عالقة في قلبه، ينزع إليها مرة ما يلبِّس الحق بالباطل.

فقال: إن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤمَن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

بقيت مسألتان:

أما المسألة الأولى: فهي في هذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

هذه الآية ذكر المفسرون عندها قصة تُعرف بقصة الغرانيق، وهذه القصة مفادها:

أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا قرأ هذه الآيات، قال بعد أن قرأ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، قال: تلك الغرانيق العُلا وإن شفاعتهن لتُرتجى.

فلما قرأ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، سجد وسجد معه المشركون، فهذه قصة باطلة؛ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدح هذه الأصنام بعد أن قرأها وقال: إن شفاعتها لتُرتجى، هذه قصة باطلة، وهي المعروفة في كُتب التفسير بقصة الغرانيق..

لماذا هي باطلة؟

رد الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المصنف الذي هو نصب المجانيق، والمجانيق جمع منجنيق، فهو رحمه الله لم ينصب منجنيقًا واحدًا، وإنما نصب مجانيق عدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، فرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مَن قال بثبوت هذه القصة وقوّاها كالحافظ ابن حجر، وكذلك ابن كثير رد عليها من عشرة أوجه قوية، كل وجه منها أقوى من الآخَر.

فمن ضمن هذه الأوجه قال: أن هذا الذي قاله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذه القصة المزعومة لا يتصور من عالم من العلماء.

يعني كيف يخلط النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التوحيد بالشرك؟

يقول: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٢]، هذا توحيد، ثم بعد ذلك يقول: وإن شفاعتهن لترُتجى، قال: هذا لا يتصور من عالم بتوحيد الله تبارك وتعالى، فكيف يتصور ذلك من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ وكيف لم يُفرِّق بين التوحيد وبين الشرك؟

وكذلك أن الله تبارك وتعالى قد عصم رسوله من الكُفر، وأمنه من الشرك، واستقر ذلك في دين المسلمين، بل عصم الله تبارك وتعالى رسوله من أن يقع في الكبيرة، بل من أن يقع في الصغائر التي فيها خِسة.

ولذلك لـمّا قال الصحابة للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يا رسول الله هلّا أومأت إلينا؟ فقال: «ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين»، وهذه صغيرة من الصغائر، ولكنها

تقدح في جناب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يتصور أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقع في الشرك؟

ذكر عشرة أوجه عظيمة.

هنا إشكال:

إذا قلنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل ذلك، فقد ثبت أن المشركين سجدوا لمَّا قرأ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة النجم، وهذا ثابت في الصحيح. فلماذا سجدوا؟

أجاب الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: وليس لأحد أن يقول: إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم، وإلا لَمَا سجدوا: لأننا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة.

لِمَا فيها من قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٤]، إلى آخر الآيات، فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم.

ولعلهم لم يسمعوا قبل ذلك مثلها منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قائم بين يدي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مقام خطير وجمع كثير.

ولذلك لمَّا استشعروا وخافوا هذا الأمر سجدوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ومثل ذلك ما وقع في سورة حم السجدة، مما ذكره السيوطي في أول الإتقان: أن عتبة بن ربيعة لمَّا سمع قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، أمسك على فم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وناشده الرحم، واعتذر لقومه حتى ظنوا به أنه صبأ.

فقد يكون المشركون سجدوا بسبب ما أصابهم مما جاء في هذه السورة.

قال: ويمكن أن يقال: إن سجودهم كان لاستشعار مدح آلهتهم، ولا يلزم بذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدحهم.

يعني هم استشعروا ذلك، ولا يلزم من ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدحهم.

إذًا لا تناقض بين نفينا لصحة هذه القصة وبين سجود المشركين مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا قلنا: أن البركة لا تُلتمس إلا من الله تبارك وتعالى، وأن هذه الأشجار والأحجار لا بركة لها، فهذا لا يعني أننا ننفي البركة، فالبركة من الله تبارك وتعالى.

ومع ذلك فقد جعل الله ﷻ لأمكنة وأزمنة ومخلوقات البركة، جعل فيها البركة، ولكن البركة ليست في ذاتها.

مثال البركة في الأمكنة: كبيت الله الحرام، وحول بيت المقدس، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء: ١].

يقول الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: ومعنى كون الأرض مباركة أن يكون فيها الخير الكثير الملازم بها، فليس معنى ذلك أن يتمسَّح المرء بأرضها، أو أن يتمسح بحيطانها.

يعني بيت الله الحرام مبارك أم ليس بمبارك؟ مبارك، ومع ذلك لا يجوز لك أن تتمسح به إلا بما بيَّنه الشرع: كالحجر الأسود، وكالركن اليماني، والتمسح بهذه الأمور لا يعني أن البركة فيها بذاتها.

ولذلك عمر رضي الله عنه لـمَّا سجد على الحجر وقبَّله قال: إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولكني رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك ففعلتُ.

الزمان كذلك له بركة، شهر رمضان له بركة، البركة أن العبادة في هذا الشهر ليست كغيرها من الشهور، فهناك أيام مباركة.

هناك بركة منوطة ببني آدم، فالأنبياء لهم بركة ذاتية، ولذلك أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يتبركون بعرقه وبشعره، وإذا توضأ اقتتلوا على وضوئه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس هذا لأحد من الصحابة، لأن كثيرًا من المتأخرين سحب ذلك إلى أولياء الله الصالحين.

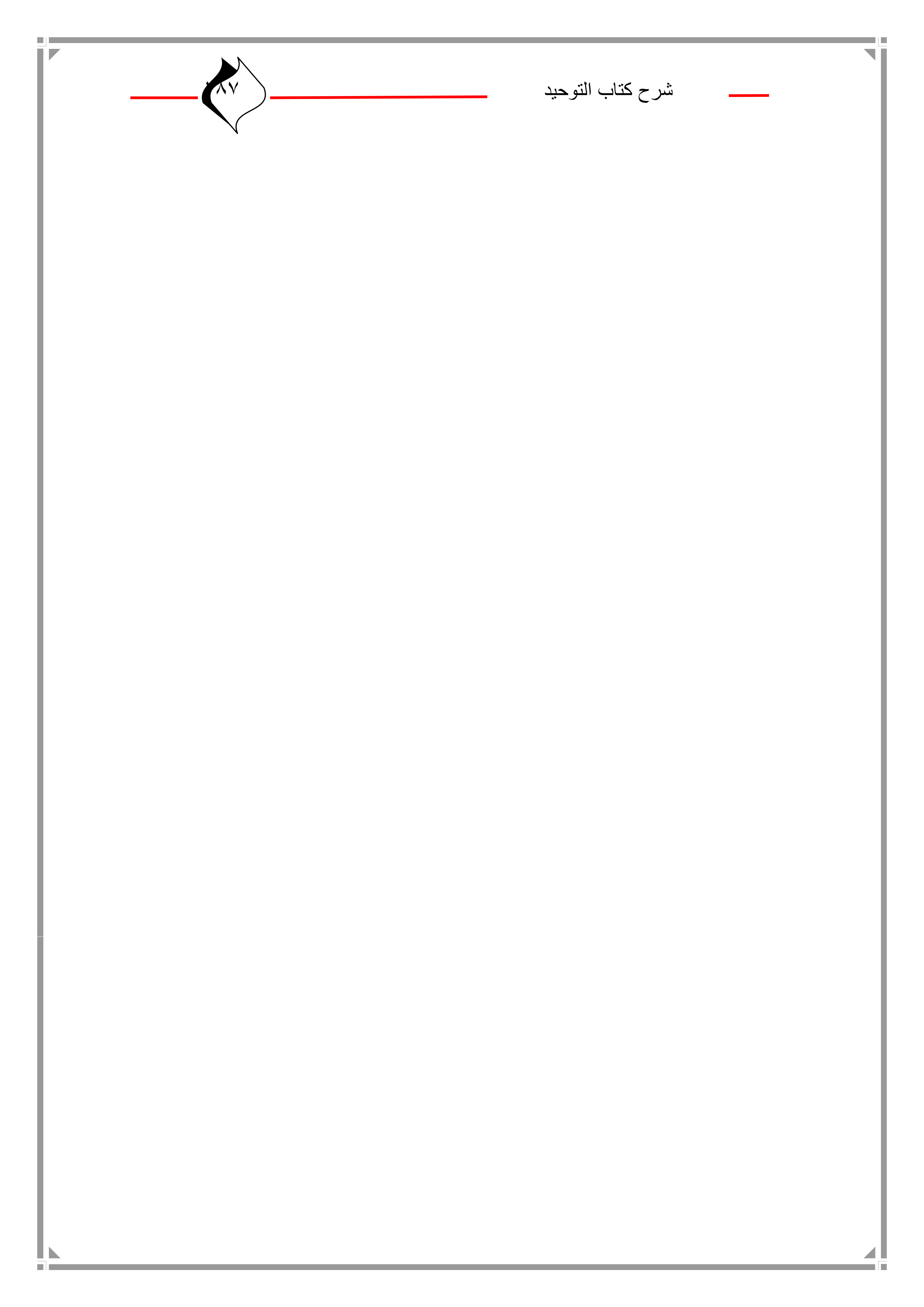
فالنووي عفا الله عنه وغفر له، وغيره كثير من المتأخرين سحب ذلك إلى الأولياء والصالحين، فقالوا: إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له بركة لما معه من العلم والفضل فكذلك أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن دُونَهم من الأولياء والصالحين، فجعلوا الناس يلتمسون البركة من أولئك.

وهذا لا يصح، ولذلك ما وجدنا واحدًا من السلف الصالح التمس البركة من واحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإنما بركة الصحابة كبركة غيرهم من المسلمين، فالمسلم له بركة، وبركة المسلم فيما معه من العلم والعمل.

ولذلك قال بعض السلف عن محمد بن المنكدر فيما أذكر: والله إني لأظن أن الله يحفظ قرية فلان بوجود محمد بن المنكدر فيها، بسبب ما معه من العلم والعمل والفضل، لا أن البركة ذاتية فيه فيُلتَمس البركة ويتمسح به إلى غير ذلك.

فكل مسلم معه بركة بقدر ما معه من العلم والفضل، ولكن لا يتمسح بهم ولا يتبرك بريقهم ولا بذواتهم، فهذا لا يجوز وهذا من الشرك عياذًا بالله، نسأل الله



باب ما جاء في الذبح لغير الله.

أي ما جاء في الذبح لغير الله من الوعيد، وأنه شرك أكبر ينقل عن الملة، لأن الذبح من أفضل العبادات المالية، فهو عبادة، وصرف هذه العبادة لغير الله تبارك وتعالى شرك أكبر.

وقيل: إن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يجزم بالحكم في هذه الترجمة لأن مسألة الذبح فيها تفصيل:

فمن الناس مَن يذبح لغير الله: وهذا شرك.

ومنهم من يذبح إكرامًا وضيافة للغير: وهذا ليس بشرك.

وقيل: إن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يجزم في الترجمة تركًا لطالب العلم أن يستنبط ذلك وأن يُعمِل عقله من خلال ما سيورده من النصوص.

(المتن)

باب ما جاء في الذبح لغير الله.

(الشرح)

أي من أجل غير الله، فاللام هاهنا تعليلية.

والذبح يرجع إلى أمرين:

أولًا: إلى التسمية، وإلى القصد.

فيُنظر لحكم هذا الذبح في أمرين:

إلى التسمية على الذبح، وإلى ما أراد من هذا الذبح.

ومن ثَمَّ يكون الذبح على أقسام أربعة:

- القسم الأول: أن يذبح بسم الله ولله، فيقول: بسم الله، وينوي بهذا الذبح التقرب والتعظيمَ لله تبارك وتعالى، وهذا هو التوحيد.

أن يذبح بسم الله، وأن يقصد بهذا الذبح وجه ربه تبارك وتعالى، هذا هو التوحيد.

▪ والقسم الثاني: عكس هذا القسم، وهو أن يذبح بسم غير الله لغير الله، وهذا اشتمل على نوعين من الشرك:

كأن يقول مثلًا: بسم البدوي، ويريد بذلك أن يتقرب للبدوي أو للحسين، أو بسم المسيح، ويريد أن يتقرب بذلك للمسيح:

فهذا أشرك في الربوبية وأشرك في الإلهية: أن يذبح بغير اسم الله ولغير الله.

أما الربوبية: فإن الذي يُستعاذ به إنما هو الله تبارك وتعالى، والذي يُستعان به إنما هو الله تبارك وتعالى، والتسمية استعانة، فهي استعانة بغير الله.

وأما الإلهية: فلأنه صرف ذلك لغير الله، والذبح فِعل العبد، فإن صرف العبد فعله الذي هو العبادة لغير الله فقد أشرك في الإلهية.

▪ والقسم الثالث: أن يذبح بسم الله لغير الله.

يعني يأتي بالذبيحة عند قبر البدوي، وعند الذبح يقول: بسم الله، وما أراد بذلك إلا أن يتقرب بها إلى البدوي: فهذا شرك في العبادة.

▪ والقسم الرابع: هو أن يذبح بسم غير الله لله، وهذا نادر، ومع ذلك لو وقع فإنه يكون شركًا في الربوبية.

يعني إنسان يقول: بسم البدوي عند قبر البدوي، فإن قيل له: إن هذا شرك، يقول: إنما أردت الذبح لله تبارك وتعالى، فهذا شرك في الربوبية.

فالقسم الذي هو التوحيد: أن يذبح المرء بسم الله ولله تبارك وتعالى.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

(الشرح)

ولا شك أن هذه الآية واضحة الدلالة على مقصود الترجمة، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فأكَّد ذلك بقوله إنَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]:

فالصلاة معروفة.

والنُسك: هو الذبح، كما قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما.

والمحيا: هو ما يحيا عليه المرء من عبادة ربه.

والمات: هو تصرف الله تبارك وتعالى في حال العبد، فجمع في هذه الآية بين توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية.

قال: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فكل هذه الأمور إنما هي من أجل الله تبارك وتعالى.

فاللام في قوله لله للاستحقاق.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وهذه جملة حالية، أي لله رب العالمين حال كونه لا شريك له، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، يعني من هذه الأمة.

فالأنبياء هم أول المسلمين في أممهم، وهذا يدل على أن دعوتهم واحدة، وهي الاستسلام لله تبارك وتعالى. "فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الْأَنْبِيَاءِ: ٢٥]، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يُونُسَ: ٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ

إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [الْبَقَرَةِ: ١٣٠ -١٣٢]، وَقَالَ يُوسُفُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يُوسُفَ: ١٠١]، وَقَالَ مُوسَى {يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يُونُسَ: ٨٤ -٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ [بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} (٣) الْآيَةَ [الْمَائِدَةِ: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [الْمَائِدَةِ:

فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رُسُلَهُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ بِحَسَبِ شَرَائِعِهِمِ الْخَاصَّةِ الَّتِي يَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا، إِلَى أَنْ نُسِخَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي لَا تُنْسَخُ أَبَدَ الآبدين." ا.هـ كلام ابن كثير رحمه الله.

(المتن)

وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾.

(الشرح)

فجمع كذلك بين الصلاة والنحر، فصلِ لربك: أي لا تصل لغيره.

وانحر لربك كذلك، فصل لربك وانحر لربك.

وبمفهوم المخالفة أنه لا يجوز أن يُنحَر لغير الله تبارك وتعالى، ففيه أن الصلاة والنحر مما ينبغي فيهما الإخلاص كسائر العبادات، لأن الصلاة والنحر عبادة،

والعبادة كما عرَّفها شيخ الإسلام: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

فصل لربك وانحر لربك: والفاء هاهنا للسببية، ذُكرت بعد نعمة أنعمها الله تبارك وتعالى على نبيه، ما هذه النعمة؟

أن أعطاه الله تبارك وتعالى الكوثر، وهو هذا النهر العظيم والخير الكثير، فأمره الله تبارك وتعالى أن يُخلِص الصلاة وأن يُخلص النحر له.

والصلاة والنحر من أجل العبادات الظاهرة، ولذلك كثيرًا ما يُقرَن بينهما.

(المتن)

عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات.

(الشرح)

والمقصود بالكلمة هنا الجملة، لا اللفظة المفردة.

(المتن)

قال: **«لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن ووالديه، لعن الله من آوى محدثًا، لعن الله من غير منار الأرض»**، رواه مسلم.

(الشرح)

قال: **«لعن الله من ذبح لغير الله»**: وهذا هو موضع الشاهد لهذه الترجمة، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.

وهذا يدل على أن الذبح لغير الله كبيرة من الكبائر، بل هو شرك بالله العظيم.

«لعن الله مَن لعن والديه»: إما أن يلعن والديه مباشرة، وإما أن يتسبب في لعنهما، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا سُئل عن ذلك؟ قال: **«يسُب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»**.

فالمرء قد يتسبب في لعن والديه، والعلماء من هذا الحديث وغيره أخذوا قاعدة، هذه القاعدة مفادها: أن المتسبب كالمباشر.

فهذا لم يباشِر لعن والديه، وإنما تسبب في ذلك، فكان كمن باشر اللعن.

«لعن الله مَن لعن والديه»: وهذا كذلك فيه أن من لعن والديه، أو أن التسبب في لعن الوالدين من الكبائر.

«لعن الله من آوى مُحدِثًا»: آوى أي ضمه وحماه من أن يؤخذ منه الحق.

والمُحدِث: إما أن يكون مُحدِثًا في الدين كالمبتدع، وإما أن يكون محدِثًا من جهة الجناية، فيُطلب من أجل أخذ الحق منه أو القصاص فيؤيه هذا المرء، فمن فعل ذلك فهو ملعون.

فيقال: لعن الله مَن آوى محدِثًا بالكسر، أي فاعل هذا الإحداث من بدعة أو جناية، فإذا كان هذا كما يقول الشاطبي في الاعتصام فيمن يأوي المحدث، فكيف حال المحدِث نفسه؟

يعني إذا كان من يأوي المحدِث ملعون على لسان الشريعة فكيف بالمحدِث المبتدع نفسه عياذًا بالله؟

أو أن يقال: لعن الله من آوى مُحدَثًا على المفعولية، والمراد هاهنا: أي مَن رضي بالإحداث والبدعة وأقرها وصبر عليها ولم ينكرها.

يعني هو نفسه لم يقع في هذه البدعة، ولكنه رآها فرضي بها وأقرها وصبر عليها، فهذا كذلك ملعون على لسان الشريعة، كما قال ذلك ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث.

فسواءً أحدث المرء بنفسه أو رضي بهذا الإحداث وأقره ولم ينكره فهو داخل في لعن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ولعنُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث يحتمل أمرين:

إما أن يكون من باب الإخبار، أي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر أن الله يلعنُ مَن يذبح لغير الله، ويلعن من يلعن والديه، ويلعن من آوى محدثًا، فهذا إخبار من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِدق.

وإما أن يكون دعاءً من النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فاعل هذه الأمور الثلاثة.

قال: **«لعن الله مَن غيَّر منار الأرض»**: والمقصود بمنار الأرض: العلامات والحدود، فمن فعل ذلك بزيادة أو نقص فهو ملعون كذلك.

الذي يُغيِّر تخوم الأرض وعلامات الأرض وحدود الأرض بزيادة أو نقص فهو كذلك ملعون.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن يظلم في هذا الأمر، قال: **«من ظلم شبرًا من الأرض طوَّقه الله يوم القيامة من سبع أراضين»**، الذي يظلم شبرًا واحدًا من الأرض يطوِّقه الله يوم القيامة من سبع أراضين.

وهذا الحديث فيه عبرة لهؤلاء الذين يأكلون حقوق الإناث في الميراث، وكذلك عبرة للفلاحين الذين يتعمدون أخذ بعض ما ليس حقًا لهم من أرض الجوار، هذا تجده عند بعض الفلاحين، تجد الفلاح بينه وبين جاره حد، فيحف هذا الحد ويأخذ منه، حتى يصير هذا الحد دقيقاً جدًا، وما يريد بذلك إلا السعة في أرضه.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : من اقتطع شبرًا من الأرض طوَّقه الله من سبع أراضين يوم القيامة، والحديث على ظاهره كما قال أهل السُنَّة.

أما الكيفية فلا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى، ولا شك أن الحديث فيه وعيد شديد وزجر شديد عن هذا الفعل.

هذا الحديث كذلك فيه: جواز اللعن بالوصف دون العين:

فيجوز للمرء أن يقول كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لعن الله من آوى مبتدعًا، لعن الله مَن ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله المتبرجات»**، يجوز أن

يطلِق ما أطلقه الله تبارك وتعالى ورسوله، بل يجب عليه أن يطلق ما أطلقه الله تعالى ورسوله.

أما إذا أراد أن يُنزِل ذلك على معين فهذا له باب آخر.

باب التكفير له شروط وموانع.

باب الفسق واللعن كذلك: لعن الفاسق: فالجمهور من أهل العلم على أن ذلك لا يجوز، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية.

بل اختار جمهور أهل العلم أنه لا يجوز لعن الكافر الحي، لماذا؟ قالوا: لأنك لا تدري بما يختم الله تبارك وتعالى له.

واللعن يعني الطرد من رحمة الله تبارك وتعالى، فلا يجوز لإنسان أن يقطع بأن إنسان ملعون مطرود من رحمة الله تبارك وتعالى.

أقول: إن كان الجمهور قالوا ذلك في حق الكافر فما بالك بالمسلم؟

وعندنا أحاديث كثيرة في هذا الباب:

هذا الرجل الذي كان يُلقَّب حمارًا، وكان كثيرًا ما يُضحِك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان كثيرًا ما يؤتى به ليُحد في الخمر، ومع ذلك لمَّا لعنه بعض الصحابة قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تلعنوه»**.

أما الإطلاق فأطلِق كما أطلق الله تبارك وتعالى، **«العنوهن فإنهن ملعونات»**، يعني المتبرجات.

فلا يجوز لمسلم أن يأتي أمام متبرجة ثم يقول لها بعد ذلك أمامها: لعنك الله، فإن عُوتِب في ذلك، قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«العنوهن»**.

نقول: إنما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك من باب الوصف ومن باب الإطلاق، لا من باب التعيين.

(المتن)

وعن طارق بن شهاب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب**»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: «**مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذبابًا، فقرب ذبابًا، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة**»، رواه أحمد.

(الشرح)

وهذا الحديث مما اختلف أهل العلم في رفعه ووقفه، وفي تصحيحه وتضعيفه، وذلك للكلام في صحبة طارق بن شهاب.

والصحيح أن طارق بن شهاب ﵁ صحابي من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جزم بذلك الحافظ ابن حجر، وإن كان الرجل صحابيًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يضره إن لم يسمع الحديث من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن مراسيل الصحابة حُجة.

وإن قيل: إنه موقوف على سلمان لأنه ثبت بسند صحيح عن سلمان الفارسي ﵁، فيقال: أن هذا مما لا يقال بالرأي، فهذا مرفوع حكمي.

لماذا؟ لأن هذا من الغيب في الحادثة وكذلك في الوعيد، في دخوله الجنة ودخوله النار، فهذا الحديث صحيح.

قال: «**دخل الجنة رجل في ذباب**»: في هاهنا بمعنى بسبب، أي بسبب ذباب، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح: «**دخلت امرأة النار في هرة**»، أي بسبب هرة.

فهذا الرجل كذلك دخل النار بسبب ذباب، ودخل الجنة كذلك رجل بسبب ذباب.

فقال الصحابة: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فكأنهم استشكلوا الأمر، فأرادوا البيان والتوضيح من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد»: أي لا يتجاوزه أحد إذا مر بهذا الطريق؛ لا يحق له أن يتجاوزه حتى يقرِّب له شيئًا، «فقالوا لأحدهما: قرِّب، فقال: ليس عندي شيء أُقرِّبه، قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، فقرَّب ذبابة فخلوا سبيله، فدخل النار»: بسبب تقريبه هذا الشيء الحقير، وإنما قرَّبه لغير الله تبارك وتعالى، وهذا هو موضع الشاهد:

أنه قرَّب شيئًا لغير الله تبارك وتعالى.

«وقالوا للآخَر: قرِّب، فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله ﷻ، فضربوا عُنقه فدخل الجنة».

هذا الحديث فيه: أن من قرَّب شيئًا ولو كان حقيرًا لغير الله تبارك وتعالى قاصدًا لذلك: فقد أشرك بالله ﷻ، فالعبرة بمقصده لا بمقدار بما يقرِّب ويذبح، فمن ذبح لغير الله دجاجة كمن ذبح لغير الله شاة أو بعيرًا، فهو مشرك بالله ﷻ.

بل من ذبح لغير الله ذبابة كحال هذا المشرك الذي فعل ذلك، فالعبرة بما يقصده.

وهذا الحديث استنبط منه بعض أهل العلم: أن الإكراه لم يكن عُذرًا في الأمم السابقة، ونحن نعلم أن الإكراه المعتبر عُذر معتبر في شريعتنا.

فالرجل لو أُكره على كلمة الكفر أو على فعل الكفر، وكان قلبه مطمئنًا بالإيمان: فهذا لا يؤثر في إسلامه ولا يُخرجه من الإسلام.

بينما استنبط بعض أهل العلم كما قلنا من هذا الحديث: أن الإكراه لم يكن معتبرًا في العذر في الأمم السابقة، لماذا؟ لأنه أُكره على الفعل، ومع ذلك دخل النار.

أما هذه الأمة فالإكراه عُذر في حقها، وهناك أدلة على ذلك:

في سبب نزول قول الله تبارك وتعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل: ١٠٦]، فسبب ذلك: أنَّ عمارًا ﵁ لـمَّا أكرهوه على أن يقول قولًا شديدًا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن يُعظِّم آلهتهم ففعل، فذهب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في التاريخ والسير، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كيف تجد قلبك يا عمار؟»، قال: أجده مطمئنًا بالله، قال: «إن عادوا فَعُد»، فدلَّ ذلك على أن الإكراه معتبر في العُذر.

وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما صح عنه: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».

إن الله تجاوز عن أمتي: أي الإثم المترتب على هذه الأفعال، فإن أخطأوا فلا إثم عليهم، وإن أُكرهوا فلا إثم عليهم، وإن نسوا كذلك فلا إثم عليهم.

وكذلك ما جاء في آخر سورة البقرة.

والحديث لـمَّا قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تجاوز عن أمتي»: هذا فيه دلالة على أن ذلك لم يكن معتبرًا في الأمم السابقة.

هذا توجيه بعض أهل العلم لهذا الحديث: أن الإكراه لم يكن معتبرًا في الأمم السابقة.

كذلك من الأدلة التي استدل بها مَن قال: أن الإكراه لم يكن معتبرًا في الأمم السابقة: ما جاء في سورة الكهف على لسان أصحاب الكهف من قولهم: ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٢٠].

مع أنهم لو أعادوهم في ملتهم سيعيدونهم مكرهين، ومع ذلك قالوا: ولن تُفلحوا إذًا أبدًا، قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في أضواء البيان في كلام ما معناه: هذه الآية

فيها دلالة على أن الإكراه لم يكن معتبرًا في العُذر في الأمم السابقة.، واستدل كذلك بهذا الحديث حديث الباب.

ومن أهل العلم من قال ومنهم الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله، قال: وقد يقال إن هذا الحديث ليس فيه دلالة على أن الإكراه لم يكن معتبرًا في العذر في الأمم السابقة، لأن الحديث ليس فيه إكراه، غاية ما في الحديث: أن هذا الطريق لا يمر فيه أحد إلا إذا قرَّب، فله أن يمر من طريق آخر، فهو الذي اختار أن يمر من هذا الطريق ولم يكن مكرهًا.

قال: بدلالة ما ورد في الحديث. قالوا له: قرِّب، لم يقل: ما كنت لأقرب شيئًا لغير الله كما قال صاحب الجنة، وإنما قال: ليس عندي شيء أقرِّبه، فهذا فيه دليل على أنه لم يكن مكرهًا.

قال: ليس عندي شيء أقربه، فحسَّنوا له تقريب شيء، فقالوا له: قرِّب ولو ذبابة، فقرَّب ذباب عن قصدٍ وإرادة فخلوا سبيله، فدخل النار.

وهذا لا شك أنه توجيه جيد لهذا الحديث، وإنما قال ذلك ردًا للإشكال الذي قيل في هذا الحديث: أن هذا الحديث يوهِم أن الإكراه لم يكن معتبرًا في العذر، قال: الحديث أصلًا ليس فيه ما يدل على الإكراه.

كثيرًا ممن يستدل بمسائل الإكراه أنه لم يكن معتبرًا في الأمم السابقة يذكر هذا الحديث، فالشيخ صالح حفظه الله يقول: هذا الحديث ليس فيه دلالة، وإن كانت الآية دلالتها قوية، وكذلك حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كذلك هذا الحديث الذي معنا: فيه أن المرء قد يُشرك الشرك الأكبر بعمل حقير، طالما كان قلبه قاصدًا فعل ذلك، كما في شأن الذبابة هاهنا، وما كان أعظم من الذبابة كان أشد ذنبًا، فكما أن الجنة درجات فالنار دركات عياذًا بالله.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي ﴾ .

الثانية: تفسير ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .

(الشرح)

أي فصلِّ لربك وانحر لربك، وحذف ما يُعلم جائز.

(المتن)

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أوَّل ما بدأ قال: **«لعن الله من ذبح لغير الله»**، لماذا؟ لأن هذا الذبح من الشرك الأكبر.

والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا ذكر الحقوق بيَّن أن أعظم الحقوق هو التوحيد، وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦].

ولمَّا سُئل عن السبع الموبقات كذلك بدأ بالإشراك بالله.

فلما كان أعظم في الحق وجب أن يُنبَّه عليه أولًا.

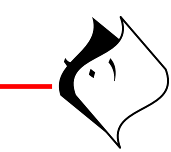
(المتن)

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

(الشرح)

فالمتسبب كالمباشر.

(المتن)



الخامسة: لعن من آوى محدثًا، وهو الرجل يُحدِث شيئًا يجب فيه حق لله فيلتجيء إلى من يجيره من ذلك.

(الشرح)

وهذا تفسير للإيواء.

(المتن)

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك في الأرض وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

(الشرح)

قلنا: الأول: لا يجوز، والثاني: جائز.

(المتن)

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصًا من شرهم.

(الشرح)

وهذا الكلام مع الفائدة الثالثة عشرة لم يوافقه عليها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يعني لمَّا قال: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصًا من شرهم، فهذا إما أن يُحمل على شرع مَن كان قبلنا، كما قلنا، وإما أن يُحمل على أنه لم يُكره، ومن نظر في كلام الشيخ صالح آل الشيخ السابق بان له توجيه آخر للحديث.

لأن بعض الناس قد يستدل بهذا الكلام زاعمًا أن الشيخ ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يعذر بالإكراه، وهذا الكلام غير صحيح.

فالشيخ يعذُر بالجهل المعتبر، ويعذر كذلك بالإكراه، ويعذر بالتأويل، ويعذر بما يعذر به أهل السُنَّة والجماعة.

ولذلك قال المُحشِّي- أي صاحب الحاشية، قال: لا يُفهم من هذه المسألة أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يعذر بالإكراه مطلقًا، فقد قال في رسالته لأحمد بن عبد الكريم: وغاب عنك قوله تعالى في عمار بن ياسر وأشباهه.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، إلى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، الآية.

قال: فلم يستثن الله إلا مَن أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان، بشرط طمأنينة قلبه، والإكراه لا يكون على العقيدة، يعني الإكراه لا يكون على تغيير ما في القلب، وإنما على القول والفعل، فقد صرَّح بأن مَن قال: المكفِّر، يعني من قال القول المكفِّر أو فعله فقد كفر، إلا المكرَه بالشرط المذكور.

وذلك بسبب إيثار الدنيا لا بسبب العقيدة.

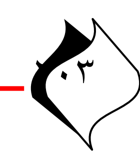
وقال الشيخ ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حاشية كتاب التوحيد في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فدخل النار»: بسبب قربانه الذباب للصنم، قال: لأنه قصد غير الله بقلبه وانقاد بعمله فوجبت له النار، فلم يكن انقيادًا بالعمل فقط وإلا لكان مكرهًا.

(المتن)

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر.

(الشرح)

فهذا المؤمن الذي قيل له قرِّب ولو ذبابة ماذا قال؟ ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا، وشيئًا نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، فهذا يبين قدر الشرك وقدر تعظيم الشرك، أي قدر تعظيم خطره في قلوب المؤمنين، وأن المؤمن يفضِّل الصبر على القتل على أن يعود إلى الكفر مرة ثانية، وهذا مصداقًا لحديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن يجد طعم



الإيمان ولذة الإيمان: «**وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار**».

فالمؤمن ينبغي له أن يصبر، ولكن لو أُكره المرء على شيء ما، لو أُكره على الكفر أو على فعل الباطل: هل الأولى له أن يصبر؟ أم أن يقبل هذا الإكراه ولا شيء عليه؟

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال: هذا يختلف من حالٍ إلى حال، يعني لا يقال بالإطلاق، قال: إن كان الرجل صالحًا دينًا، ينتفع به الناس، وكان الإكراه له خاصة، ولا يترتب على إكراهه مفسدة للخلق، هذا معنى كلامه:

فأنا أرى أن يقبل الإكراه، هذا خير من أن يموت، لماذا؟ لأنه ببقائه يبقى انتفاع الناس بعلمه وبه.

وأما إن كان إكراهه والموافقة على هذا الإكراه يترتب عليه الضرر العظيم للعامة فهذا لا يجوز له أن يقبل الإكراه، وهذا كحال أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فإنه كان وحده في الفتنة، ولو قَبِل الإكراه وقَبِل بما تريده المعتزلة لترتب على ذلك الضرر العظيم.

ولا شك أن هذا التفصيل تفصيل جيد.

(المتن)

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافرًا لم يقل: «**دخل النار في ذباب**».

(الشرح)

يعني هذا الرجل الذي دخل النار كان قبل أن يُقرِّب ذلك مسلمًا لم يكن كافرًا، فهذا فيه دليل على أن المرء قد يكفر بالشيء الحقير.

وهذا فيه رد على المرجئة الذين يقولون: إنه لا يضر مع الإيمان ذنب.

(المتن)

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»**.

(الشرح)

فهذا من باب الترغيب والترهيب، فمن كان مطيعًا لله تبارك وتعالى فلثبت وليصبر ليلق الجزاء الحسن، كما صبر هذا الرجل المسلم فنال الجنة.

وكذلك فيه ترهيب للمرء إن كان على معصية الله تبارك وتعالى: فإنه عليه أن يَقصر وأن يتوب إلى الله تبارك وتعالى، لأن الجنة قريبة جدًا، وكذلك النار.

(المتن)

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

(الشرح)

معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم، لماذا؟ لأنه قرَّب ذبابًا، شيئًا حقيرًا جدًا، ولكن لمَّا قرَّب ذلك قاصدًا نية التقرب أو قاصدًا التقرب دخل النار.

فهذه المسألة مع المسألة التاسعة قال الشيخ ابن عثيمين: كأن هذه المسألة مناقضة للمسألة التاسعة، لماذا؟

لأنه قال في التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب لم يقصده، قال هنا: لم يقصده، وفي الثالثة عشر قال: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم.

الشيخ ابن باز يقول: ما قصده ابتداءً، وإنما قصده أخيرًا، فهو ما جاء إليه ليقرِّب، وإنما جاء مارًا.

الحكم الفقهي المترتب على مسائل الذبح:

من ذبح لغير الله قاصدًا ذلك: فإنه لا يجوز أن يؤكل هذا الذبح.

فإن علمت أن هذا الذي ذبح ذبح لغير الله فهذا الذبح ميتة لا يجوز أن يؤكل.

إلا ما كان من عند أهل الكتاب، فإن جاء من عند أهل الكتاب فنحن نعلم أن بعضهم يذبح بسم المسيح، ومع ذلك أذن الله تبارك وتعالى لنا في أن نأكل ذبائحهم وأن نُسمي وأن نأكل، فسم وكُل.

ومن ترك التسمية عامدًا فذبيحته حرام، لأن التسمية شرط في الذكاة أي في الذبح.

وأما مَن ترك ذلك ناسيًا فسمِّي الله وكُل، فإن الله تجاوز عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه.

(المتن)

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

(الشرح)

عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لبيان أن المرء قد يذبح لله تبارك وتعالى، فالنية والقصد إنما هو لله تبارك وتعالى، والتسمية بسم الله تبارك وتعالى، وإنما يذبح في مكان يُذبح فيه لغير الله.

يعني إنسان يأخذ ذبيحته في مكان يُذبح فيه لغير الله عند الأولياء، يذبح في هذا المكان، أو إنسان يسكن في هذا المكان، في هذا المكان الذي يُذبح فيه لغير الله، مع أنه سيسمي الله ويذبح لله، ومع ذلك لـمَّا كان هذا المكان مخصصًا للذبح لغير الله تبارك وتعالى بيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الذبح في هذا المكان لا يجوز، وأن من نذر أن يذبح في مثل هذه الأماكن أنه لا يجوز له أن يفي بنذره.

فقال: باب لا يُذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله، فإن فعله المرء فقد فعل محرَّمًا ولم يقع في الشرك، وإنما وقع في المحرم، لماذا؟ لأنه سمَّى الله وذبح لله.

غاية الأمر أنه شابه المشركين في مكان يذبحون فيه لغير الله.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾.

(الشرح)

وهذه الآية إنما ذُكرت في مسجد الضرار، وهذا المسجد أسسه المنافقون، أسسوه على المعصية كما قال الله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧].

هؤلاء أسسوا هذا المسجد من أجل أن يُفرِّقوا بين المسلمين، وطلبوا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتي للصلاة فيه، فأجَّلهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا بعد غزوة تبوك، وفي طريق العودة أخبره الله تبارك وتعالى أن هذا المسجد إنما أُسس من أجل هذا الغرض المذكور في الآية، فأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحريقه .

ولذلك قال الله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وهذا المسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قُباء.

ولـمَّا سُئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم؟ قال: **«هو مسجدي هذا»**.

ولا تناقض بين قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين ما جاء عن الصحابة أن المسجد الذي أُسس على التقوى مسجد قُباء، لماذا؟

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأنه إن كان مسجد قُباء أُسس على التقوى من أول يوم، فمسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب أولى.

فهذا أُسس على التقوى، وكذلك مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ما وجه الاستدلال بهذه الآية؟ الترجمة تقول: لا يُذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله، والآية تقول: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال العلماء: ووجه الاستدلال، وهذا قول الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد:

وجه الاستدلال: أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتنابها، كما أن مسجد الضرار لمَّا كان لأجل المعصية وتفريق المؤمنين لا تجوز الصلاة فيه، فهذه المواضع إنما كانت مواطن معصية، وهذا المسجد إنما أُنشيء من أجل المعصية.

ولذلك قال: وهذا قياس صحيح، وهذا يدل على فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ودقة استنباطه.

(المتن)

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال: نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة.

(الشرح)

وهو موضع أسفل مكة.

(المتن)

فسأله النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»، قالوا: لا، قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**»، قالوا: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**»، رواه أبو داود، وإسنادها على شرطهما.

(الشرح)

في هذا الحديث وهو يطابق الترجمة أن المرء إذا نذر عبادة في مكان ما، وكان هذا المكان مما يُشرَك فيه لله تبارك وتعالى، أو مما يتخذه أهل الجاهلية عيدًا لهم أنه لا يجوز له أن يفي بالنذر.

فلا يجوز له أن يذبح لغير الله، ولا يجوز له أن يذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله.

ولذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟**»، قال: لا، قال: «**فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟**».

والعيد اسم لِما يعود ويُعتاد ويُجتمع فيه، أي يعتاده الناس ويجتمع فيه الناس.

وقد يكون هذا العيد زمانيًا أو مكانيًا:

أما العيد الزماني كالفطر والأضحى والجمعة، فبيَّن الشرع أن هذه من أعياد المسلمين، هذا عيد زماني، وهذه أعياد المسلمين، عيد أسبوعي وعيدان سنويان، وما خلاف ذلك فهو من أعياد الجاهلية.

أو أن يكون عيدًا مكانيًا، كقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تتخذوا قبري عيدًا»**، لأنه يُعاد ويُزار في هذا المكان، يجتمع الناس عنده.

فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن بيَّن له الصحابي أن هذه الأمور غير متوفرة، قال: **«أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا فيه أن كون البُقعة مكانًا لعيدهم أو بها وثن من أوثانهم مانع من الذبح فيها ولو نذره، لأن النذر واجب الوفاء به، ومع ذلك منعه الشرع من أن يفي بهذا النذر، لماذا؟ لأنه نذر معصية.

قال: فإنه وهذه تعليلية لِمَا سبق، قال: فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، وهذا إجماع: أن من نَذَر نَذْر معصية فإنه لا يجوز له أن يفي بهذا النذر، وقد أجمع على ذلك أهل العلم.

ولكن اختلفوا هل فيه كفارة أم لا؟ وهذا سيأتي في الباب الذي بعده في باب النذر.

يعني من نذر نذر معصية هذا لا يجوز له إجماعًا أن يفي بهذا النذر، ولكن هل عليه كفارة يمين؟ يُكفِّر عن هذا النذر أم لا؟ سيأتي وسيتضح أن الراجح أن عليه كفارة يمين من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «ولا فيما لا يملك ابن آدم»، يعني لا يجوز كذلك أن ينذر فيما لا يملك، يعني يقول مثلًا: إن نجح ولدي ذبحت شاة محمد، فهذا لا يملكه، فهذا كذلك لا يجوز.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البيِّنة ليزول الإشكال.

(الشرح)

وذلك بسؤال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الصحابي فزال الإشكال.

(المتن)

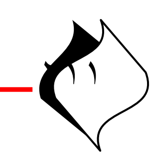
الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

(الشرح)

ولذلك بعض الصحابة نذر أن يصلي في بيت المقدس، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلِّ هاهنا»، يعني قال له: صلي في المسجد الحرام، قال: إني أريد أن أصلي في بيت المقدس، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلِّ هاهنا»، فلما أعادها الرجل قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلِّ حيث شئت».

فهذا فيه أن تخصيص البُقعة بالنذر لا بأس به، إن نذر المرء أن يذبح في مكان ما دون أن يقصد بذلك عبادة مخصوصة لهذا المكان، أو أن يكون هذا المكان فيه معصية: فهذا لا بأس.



وفي حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من نذر شيئًا ووجد خيرًا منه فله أن يفعله دون كفارة، يعني إنسان نذر أن يذبح شاة، وبعد ذلك وسَّع الله عليه فقال: بدل الشاة أن أذبح جملًا، فيجوز أم لا؟ يجوز ولكن لا كفارة عليه.

لماذا؟ هذا الرجل أراد أن يصلي في بيت المقدس، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلِّ هاهنا»، فالصلاة في المسجد الحرام أعلى وأفضل من الصلاة في بيت المقدس.

(المتن)

السادسة: المنع منه.

(الشرح)

يعني من تخصيص هذه البُقعة.

(المتن)

إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «هل كان فيه؟»، فسأل عمَّا مضى.

(المتن)

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

(الشرح)

فمجرد المشابهة أمر محرَّم ولو لم يقصد المرء ذلك.

(المتن)

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

(المتن)

باب من الشرك النذر لغير الله.

(الشرح)

والنذر لغة: اسم لِمَا يجب ويلزم.

وأما في الشرع فله إطلاقان:

إطلاق عام: وهو أن يُلزم العبد نفسه امتثال خطاب الشرع، أي أن يلتزم بدين الإسلام.

وله إطلاق خاص: وهذا هو المعهود في الاستعمال، وهو أن يُلزم العبد نفسه لله نفلًا معينًا غير معلّق، قاله شيخنا العصيمي حفظه الله.

فإن كان لله فهو عبادة له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وجعلُهُ لغير الله من الشرك الأكبر، وهذا هو المقصود بهذه الترجمة: أن النذر إن كان عبادة لله تبارك وتعالى أن المرء يوجِب على نفسه فِعل هذا النفل، فصار عبادة لله، فإن صرفه لغير الله صار شركًا.

قال: باب من الشرك النذر لغير الله.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾.

(الشرح)

وهذه وردت في سورة الإنسان، قال الله ﷻ مادحًا المؤمنين، مثنيًا عليهم لوفائهم بالنذر: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

فدلالة هذه الآية في أن الله ﷻ مدح هؤلاء المؤمنين وأثنى عليهم لوفائهم بهذا النذر، وما مدح الله تبارك وتعالى فاعله في معهود استعمال الشرع فهو عبادة.

فإن جُعلت هذه العبادة لغير الله صارت شركًا.

(المتن)

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

(الشرح)

ففي هذا الحديث كذلك أن النذر طاعة لله تبارك وتعالى، لأن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فليطعه»، هذه لام الأمر دخلت على الفعل المضارع فأفادت الوجوب، فهذا الإيجاب يدل على أنه عبادة محبوبة لله تبارك وتعالى، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يوجِب على العبد إلا ما كان محبوبًا لله ﷻ.

فإن كان محبوبًا لله فهو عبادة، وضد العبادة الشرك.

قال: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»: وإنما نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوفاء بنذر المعصية لأنه معارِضٌ لنهي الله عن العصيان، فالله ﷻ نهى عن العصيان.

فإن نذر المرء أن يعصي الله تبارك وتعالى فلا يجوز له أن يفي بهذا النذر.

والفرق بين نذر المعصية ونذر الشرك: أن نذر الشرك ليس لله أصلًا، فإذا نذر إنسان أن يذبح للبدوي أو أن يذبح لأي مقبور: فهذا النذر ليس لله، لأن النذر إيجاب، فهو أوجب على نفسه أن يذبح لغير الله، فهذا النذر ليس لله فهو من باب الشرك، فليس نذرًا لله أصلًا.

بينما نذر المعصية لله، لله عليَّ أن أسرق لأتصدق، لله عليَّ أن أفعل كذا، وكذا من المعصية وليس من الطاعة، فهذا النذر لله، ولكنه نذر معصية.

فنذر الشرك ليس لله أصلًا، أما نذر المعصية فهو لله، ولكن أخذ صورة المعصية: فالأول لا ينعقد أصلًا وليس فيه كفارة، النذر الأول الذي هو نذر الشرك هذا لا ينعقد وليست فيه كفارة ككفارة اليمين.

لا يقال لمن عقد نذرًا لغير الله كفِّر عن هذا النذر كفارة يمين، ولكنه يقال له: تُب إلى الله تبارك وتعالى، هذا هو المقصود بالكفارة.

وأما النذر الثاني الذي هو نذر المعصية فهذا ينعقد، ولكن لا يجوز لصاحبه أن يفي به.

وفيه خلاف: هل فيه كفارة أم لا؟ والصحيح: أن فيه الكفارة، فمن نذر نذر معصية فلا يجوز له أن يفي به وكفارته كفارة يمين، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، هذا النذر الذي مدح الله تبارك وتعالى الموفي به في هذه الآية هو النذر المطلق لا النذر المقيد.

فالنذر نوعان:

مطلق دون قيد، ومقيد في مقابله شيء يحدث له في المستقبل وهو النذر المعلق.

فلو أن إنسانًا قال: لله على أن أصلي ركعتين، لله على أن أتصدق، لله على أن أفعل كذا دون قيد، دون أن يكون هناك مقابل لشيء يحدث له في المستقبل.

النذر المعلق صورته أن يقول: لله على إن شفى ولدي أن أذبح له كذا، إن نجحت أن أفعل كذا، أن أصوم يومين، أن أصوم ثلاثة، فهذا يسمى نذرًا معلقًا.

فالنذر نوعان: نذر مطلق، ونذر معلق.

والنذر المعلق مكروه وقيل: محرم، وهو الراجح.

النذر المعلق قول الجمهور على أنه مكروه، والراجح أنه محرم، وهذا يقع فيه كثير من الناس.

كثير من الناس يقول: عليَّ إن شفى الله ولدي أن أذبح بدنة أو أن أفعل كذا، أو أن أحج، أو أن أعتمر، فيعلِّق هذه العبادة بما يكون لها من مقابل من عند الله تبارك وتعالى في المستقبل، وهذا لا يجوز.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»**، لماذا قال: إنه لا يأتي بخير؟

لأن الأمر كله بقضاء الله وقدره، فإن قدَّر الله تبارك وتعالى شفاء هذا الولد، أو إن قدَّر الله له هذا النجاح فلا بد أن يقع، وهذا النذر الذي نذره العبد على نفسه ليس سببًا شرعيًا ولا قدريًا يجوز له أن يُحصِّله، فتعلق بسبب ليس هو سبب شرعي ولا هو بسبب قدري.

ثم إنه من سوء الظن أن الله تبارك وتعالى لا يفي له ولا يُعجِّل ولا يجيب طلبه إلا إن علَّقه بهذه العبادة، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنه لا يأتي بخير»**، لماذا لا يأتي بخير؟ لأن الأمر كله بقضاء الله وقدره.

ثم قال: **«وإنما يُستخرج به من البخيل»**.

فأقول كما قال أهل العلم: الصحيح أنه محرم، لأن صاحبه ظن أن الله لا يعطي إلا بمقابل، وهذا سوء ظن وسوء اعتقاد في الله، بل هو المتفضِّل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولًا وآخرًا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

فنذر المعصية كما قلنا: كفارته كفارة يمين، وهذا ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رواه الخمسة، وهؤلاء الخمسة هم أصحاب السُنن ومعهم أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، وصححه الألباني.

فالنذر عبادة لله تبارك وتعالى، لا يجوز أن تُصرف إلا له كجملة العبادات التي مضت وكذلك ستأتي.

ولذلك قال الشيخ حافظ حكمي في سلم الوصول:

ثم العبادة هي اسم جامع لكل ما يُرضي الإله السامع

وفي الحديث مخها الدعاء خوفٌ توكلٌ كذا الرجاء

والذَّبح والنذر وغير ذلك فافهم هُديت أوضح المسالك

ثم قال:

وصرفُ بعضِها لغير الله   شرك وذاك أقبح المناهي

فإن كانت العبادة لله تبارك وتعالى فصرفها لغير الله فهذا من الشرك.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

(الشرح)

وقلنا: ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«كفارة النذر كفارة يمين»**.

(المتن)

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله.

(الشرح)

والاستعاذة هي الالتجاء والاعتصام، من العوذ، فالألف والسين والتاء تفيد الطلب، فالاستعاذة طلب العوذ، يعني طلب الالتجاء والاعتصام لله تبارك وتعالى.

ولهذا يسمى المستعاذ به: مَعاذاً وملتجئًا، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لقد عُذتِ بمُعاذ»**.

وأما في الشرع: فقد قال ابن كثير: الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر.

والعياذ يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير.

فإذا قلت: أعوذ، فإنما تطلب دفع الشر، وإذا قلت: ألوذ فإنما تطلب جلب الخير.

ولذلك قال أبو الطيب:

يا من أعوذ به فيما أحاذره   ومَن ألوذ به فيما أؤمله

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره   ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فالاستعاذة إنما تكون في دفع الشر.

والاستعاذة عبادةٌ أمرَ الله تعالى بها عباده، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقال: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، أي لا تستعذ بغيره، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فصرفها وجعلها لغير الله من الشرك.

والاستعاذة فيها توجُه القلب وطمأنينته لله ﷻ، وفيها ركونه كذلك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولذلك قصرها بعض العلماء على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فقالوا: لا يجوز أن يُستعاذ إلا بالله، بخلاف الاستعانة، فالاستعانة يجوز أن تستعين بحي مخلوق قادر حاضر، أما الاستعاذة فقالوا: لا يجوز أن تستعيذ إلا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لماذا؟ قالوا: لِمَا في الاستعاذة من توجه القلب والطمأنينة لله ﷻ.

ومن أهل العلم مَن قال: أنه يجوز أن تستعيذ بمخلوق فيما يقدر عليه ظاهرًا، مع توجه القلب واعتماده على الله تبارك وتعالى.

ففيها ما في الاستعانة، تتوجه وتتوكل وتطمئن أن الذي ينفع ويضر هو الله تبارك وتعالى، ولكن هذا المخلوق ما هو إلا سبب، فمن هذا الباب يجوز، وهذا ما رجحه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال: إن إطلاق شيخ الإسلام ابن تيمية أن الذي عليه الأئمة في أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله تبارك وتعالى قال: هذا الإطلاق ينبغي أن يُفصَّل على هذا الوجه.

قال الإمام رحمه الله: باب من الشرك الاستعاذة بغير الله.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

(الشرح)

قال مجاهد: كانوا -يعني أهل الجاهلية- إذا هبطوا واديًا يقولون: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه.

قال تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، قيل: أي زادوهم خوفًا وذُعرًا.

وقيل: زادوهم طغيانًا وكُفرًا وإثمًا.

لماذا؟ لأن الذي يستعيذ بغير الله تبارك وتعالى وقع في الشرك، والشرك إثم.

أو أنهم زادوهم رهقًا أي خوفًا وفزعًا، فهذا فيه دليل على أنه لا يجوز لإنسان أن يستعيذ إلا بالله تبارك وتعالى.

قال ملا علي قاري ونقله عنه صاحب فتح المجيد: لا تجوز الاستعانة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، فقال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قال: فاستمتاع الجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات، هذا هو استمتاع الإنسي بالجني، في أن يقضي حوائجه وأن يمتثل أمره، وأن يخبره بشيء من المغيبات.

وهذا هو الذي يحدث الآن مع كثير من المعالجين الذين يستعينون بالجن ويقولون: إنهم أسلموا، وإنهم يعينونهم على طاعة الله وعلى استخراج السحر، وغير ذلك، هذا هو الذي ذمه الله تبارك وتعالى في القرآن لأن هذا العالم عالم غيبي.

واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به وخضوعه له.

ما جزاء هؤلاء؟

قال الله ﷻ: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فهذا الجزاء يدل على أن هذا الفعل محرَّم، وأنه لا يجوز.

(المتن)

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»**، رواه مسلم.

(الشرح)

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: **«مَن نزل منزلًا فقال: أعوذ»**: قلنا: معنى العوذ أي الالتجاء والاعتصام بالله تبارك وتعالى.

«أعوذ بكلمات الله التامات»: أي التي لا يلحقها نقص ولا عيب، بخلاف كلام البشر.

فكلمات الله ﷻ تامات لا يلحقها عيب ولا نقص.

وهذه الكلمات المذكورة في هذا الحديث هي الكلمات الكونية لا الشرعية، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لماذا؟

لأن جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«التي لا يجاوزها بر ولا فاجر»**، وكلمات الله الكونية كذلك، بخلاف الكلمات الشرعية كالوحي المنزل، فقد يجاوزها الفاجر والكافر ويخالفها.

قال: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»**: أي من كل مخلوق به شر، فما هاهنا موصولة، فهي وصف لكل مخلوق به شر، وما تفيد العموم، فيدخل في ذلك الإنس والجن والحيوان والهوام والريح وغير ذلك من المخلوقات التي بها شر.

فإذا نزل المرء منزلًا وقال هذا الدعاء فقد استعاذ بالله تبارك وتعالى من كل ذي شر.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»**: فهذا الذكر شُرع لأهل الإسلام بدلًا مما كان يفعله أهل الجاهلية.

ماذا كان يفعل أهل الجاهلية؟

كانوا إذا نزلوا منزلًا قالوا: نعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فلما جاء الإسلام بيّن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن ذلك لا يجوز، وأبدلهم خيرًا منه، كما هو حال الشرع دائمًا أنه إذا أغلق بابًا فتح بابًا آخر، ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤]، لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، قولوا: ما شاء الله وحده.

لا تقولوا: ما شاء الله وشئت، قل: ما شاء الله وحده.

كذلك في الربا: نهى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن إبدال التمر الردئ بالتمر الجيد، ثم قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«بعه أولًا، ثم بعد ذلك اشتر التمر الجيد»**.

فهذا الذكر شُرع لأهل الإسلام بدل ما كان يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن.

فشُرع لنا الاستعاذة بأسماء الله وصفاته، لأنه قال: **«أعوذ بكلمات الله»**: وكلمات الله صفاته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وفي الحديث: أن من وجد وجعًا عنده يضع يده على هذا الوجع ويقول: بسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، فعزة الله تبارك وتعالى وقدرته كذلك صفتان من صفته.

فيُستعاذ بالخالق، ويُستعاذ بأسمائه وصفاته، ولا يستعاذ بالمخلوق.

قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث: **«لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»**.

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: وهذا خبر صحيح، وقول صادق، عَلِمنَا صِدقه دليلًا وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت به، فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية، والمهدية بلدة بالأندلس.

قال: فتفكَّرت في نفسي فإذا بي نسيت أن أتعوَّذ بتلك الكلمات، فهذا مصداق قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لم يضره شيء حتى يرحل من منزله»**.

فالاستعاذة لا تجوز إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنها عبادة من أعظم العبادات.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

(الشرح)

يعني الاستعاذة بغير الله تعالى هذا من الشرك، فمن استعاذ بمقبور سواءً كان عنده أو في غيبته فهذا من الشرك، وهذا لا يجوز، وهذا مما يقع عند قبور الأولياء في هذه الأيام بكثرة في الموالد وغيرها، وكل هذا من الشرك العظيم لأن الاستعاذة لا تكون إلا بالله تبارك وتعالى.

(المتن)

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا أرشدهم أرشدهم بالاستعاذة بكلمات الله، صرفًا لِمَا كانوا يقومون به من الاستعاذة بالمخلوق.

(المتن)

لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة.

(الشرح)

وهذا مما استدل به أهل السُنَّة في الرد على المعتزلة في مناظرتهم معهم، استدلوا بهذا الحديث في أن كلام الله غير مخلوق.

(المتن)

قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

(الشرح)

فـالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أُوتي جوامـع الكلـم، فهـذا الحـديث وهـذا الـدعاء مـع اختصاره فله فضل عظيم.

(المتن)

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية من كف شر أو جلب نفع - لا يدل على أنه ليس من الشرك.

(الشرح)

فليس الأمر قاصرًا على التجريب، ولكن لا بد من النظر في الشرع، هل الشرع يجيز ذلك أم لا؟ لأن بعض الناس يقول: جرَّبناها ونفعت، استعنا بالجن أو استعنا بكذا أو دعوت الله أن يرزقني عند قبر فلان ورُزقت وغير ذلك.

فحصول هذه المنفعة إنما هو من باب الابتلاء والاختبار، فقد يدعو المرء في موطن شرك ومع ذلك يستجيب الله تبارك وتعالى له من باب الابتلاء والاختبار.

فحصول منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع فهذا لا يدل على أنه ليس من الشرك، بل هو من الشرك بالله.

(المتن)

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

(الشرح)

فهذا الباب كذلك كالأبواب السابقة يتكلم فيها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض الأمور التي تقدح في أصل التوحيد وتُخرج المرء من الإسلام.

فمن هذه الأمور: أن يستغيث المرء بغير الله تبارك وتعالى أو أن يدعو غيره.

والاستغاثة طلب الغوث، فالألف والسين والتاء تفيد الطلب، كالاستعانة، وهي إزالة الشدة، أي طلب إزالة الشدة.

قال: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، فلما عطف الدعاء على الاستغاثة دل ذلك على أن فرقًا بينهما:

وهذا الفرق هو أن الدعاء أعم من الاستغاثة، فالاستغاثة لا تكون إلا في الكرب.

وأما الدعاء ففي الكرب وغيره: فأيها أعم؟ الدعاء أعم من الاستغاثة، الاستغاثة لا تكون إلا في الكرب، وأما الدعاء ففي الكرب وغيره.

فكل استغاثة دعاء ولا عكس، والاستغاثة التي هي من الشرك هي ما كانت فيما لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى.

أما الاستغاثة إن كانت لحي حاضر قادر: فهي مما يجوز.

الاستغاثة إن كانت بإنسان حي، في أسباب ظاهرة عادية، يستطيع المرء القيام بها، كقتال عدو، أو إدراك فريسة، أو دفع سبُع، أو نحو ذلك: فهذا مما يجوز.

ولذلك قال جل وعلا عن موسى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص: ١٥]، فهذه الاستغاثة جائزة، لأنها لحي قادر في أمر ظاهر.

أما إن كانت الاستغاثة من أجل تأثير ما أو قوة ما لا يستطيعها الإنسان في أمر معنوي أو حسي كإنزال المطر وشفاء المريض وإحضار الغائب، وغير ذلك: فهي من الشرك بالله العظيم.

فالاستغاثة إن كانت في أمر مقدور عليه: فهذه مما يجوز.

قال: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

والدعاء الوارد في الكتاب والسُنة نوعان، وكِلا النوعين لا بد أن يُصرفا في الله تبارك وتعالى.

▪ أما النوع الأول: فهو دعاء المسألة، ودعاء المسألة هو طلب العبد من ربه ما ينفعه من جلب نفع أو كشف ضُر.

فهذا النوع الأول من الدعاء وهو دعاء المسألة أن يسأل العبد ربه أن يجلب له نفعًا أو أن يكشف عنه ضرًا، وهذا لا يجوز إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

والآيات في ذلك كثيرة: من أمر الله تبارك وتعالى من إخلاص الدعاء له، وكذلك من إنكاره على مَن صرف هذا النوع من الدعاء لغير الله تبارك وتعالى.

قال الله ﷻ منكرًا على مَن دعا مَن لا يملك له نفعًا ولا ضرًا، قال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، أي الذي يسمع سمع إجابة، فيجيب دعواكم في نفع جلب أو في دفع ضُر.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

فهذا النوع الأول، وهو دعاء المسألة.

ما دعاء المسألة؟ هو أن يسأل العبد ربَّه جلب نفع أو دفع ضُر.

▪ وأما دعاء العبادة: فهو القيام بأمر الله، دعاء العبد أن يقوم العبد بأمر الله من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك، فهذا يسمى بدعاء العبادة.

فالقائم بأمر الله بلسان حاله يعبد الله ويُثني عليه، فدعاء العبادة ثناء على الله تبارك وتعالى.

وكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة:

دعاء المسألة: المرء يسأل ربه تبارك وتعالى جلب نفع أو دفع ضُر.

كيف يتضمن دعاء العبادة؟ لأنه يُخلص في هذا الدعاء لربه تبارك وتعالى، فقام بما أمره الله ﷻ به، فتضمن دعاء العبادة.

والدعاء من أعظم العبادات التي لا ينبغي أن تُصرف إلا لله تبارك وتعالى، ولذلك سماه الله عباده، فقال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩].

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [غافر: ٦٠]، فقال في أول الآية: ادعوني، ثم قال بعد ذلك: إن الذين يستكبرون عن عبادتي، فسمى الدعاء كذلك عبادة.

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث النعمان بن بشير: قال: «الدعاء هو العبادة».

فالدعاء من أعظم العبادات التي يحبها الله تبارك وتعالى.

فالاستغاثة والدعاء لا ينبغي أن تُصرف إلا لله تبارك وتعالى، لأن الله ﷻ شرعها لخلقه وأمرهم بها، قال: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، فإن كان الله ﷻ أمر بها فهي مما يحبها الله ﷻ وتدخل في ضابط العبادة.

فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، فإذا صُرفت لغير الله صارت شركًا، فكل ما أمر الله ﷻ وأثنى عليه إن صُرف لغير الله صار شركًا، وصار هذا الأمر مصادِمًا لبعثة الأنبياء والرُسل.

فالأنبياء والرسل ما أُرسلوا وما أُنزلت الكتب إلا من أجل تقرير ألا يُعبد إلا الله تبارك وتعالى وحده، وألا يُعبد إله آخر معه، ومن ثَمَّ فمن طلب الحوائج من الموتى، من المقبورين: فهذا قد أشرك بالله العظيم.

قال: **باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.**

(المتن)

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

(الشرح)

وجه الاستشهاد بهذه الآية: النهي الذي صُدِّرت به هذه الآية، قال: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ﴾، والنهي يقتضي التحريم.

والتحريم هاهنا لا يُقصد به أن ذلك كبيرة من الكبائر، بل هذا من الشرك الأكبر، فالذي يدعو من دون الله تبارك وتعالى ما لا ينفعه ولا يضره فهذا أشرك بالله.

هل هذا القيد الوارد في الآية مراد وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، هذا القيد مراد في هذه الآية؟

هل معنى ذلك بمفهوم المخالفة أن مَن دعا من دون الله ما ينفعه و يضره فهذا جائز؟ هذا القيد ليس مرادًا.

لماذا جيء به إن كان غير مراد؟ جيء به لبيان الواقع الذي كان عليه أهل الجاهلية، ولبيان شناعة هذا الواقع، والعلماء يسمون هذا القيد بالصفة الكاشفة.

ما معنى الصفة الكاشفة؟

هي صفة ملازمة لهذا الذي وُصِفت به، صفة ملازمة غالبة فيه، جيء بها لبيان الحال وبيان الواقع وشناعة هذا الواقع.

قال الله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، هل معنى ذلك أن الفائدة القليلة تجوز؟ إن لم يكن الربا أضعافًا مضاعفة جاز ذلك؟

لا يجوز، وإنما جيء بهذا القيد كصفة كاشفة، لبيان ما كان عليه أهل الجاهلية، أنهم كانوا يأكلون الربا أضعافًا مضاعفة.

قال الله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، هل هناك طائر لا يطير بجناحيه؟ كل طائر يطير بجناحيه، فهذه تسمى بالصفة الكاشفة، وهذا القيد غير مراد.

يعني لا يقال بمفهوم المخالفة: أن هذا المدعو من دون الله إن كان ينفع ويضر فهو ممن يُدعى من دون الله تبارك وتعالى، نبَّه على ذلك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، وهذا الوعيد يدل على أن ما قبله محرم، والظلم هاهنا مراد به الشرك، لأن الشرك أعظم الظلم، قال الله ﷻ على لسان لقمان: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

ثم بيَّن بعد ذلك أن الذي يكشف الضر وأن الذي ينفع هو الله تبارك وتعالى، وجاء بصيغة القصر بالنفي والاستثناء التي تدل على قصر هذا الأمر على رب العزة

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

فجاء في الضُر بقوله: يمسسك، وجاء في الخير بقوله: وإن يُردك، لماذا؟

لماذا قال في الضر: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [يونس: ١٠٧]؟ لأن الشر ليس من فِعل الله، وإنها هو من مفعولاته، ولذلك لا يُنسَب له صراحة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في صلاة الليل: «والشر ليس إليك»، فَفِعل الله ﷻ لا شر فيه بل كله خير.

ولذلك قال في الضر قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [يونس: ١٠٧]، وفي الخير قال: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ﴾ [يونس: ١٠٧]، فالله ﷻ يُنسَب إليه الخير صراحة، وإن كان هو خالق الخير والشر، ولهذا نظائر في الكتاب والسنة.

(المتن)

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

(الشرح)

أول هذه الآية يبين المراد، فالله ﷻ يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فبيَّن في أول الآية أن هؤلاء الذي يُعبَدون من دون الله تبارك وتعالى لا يملكون نفعًا، ومن ثَّمَّ لا يجوز لهم أن يستغيثوا بهم وأن يدعوهم من دون الله ﷻ.

ثم بيَّن الصحيح في ذلك: أن الرزق لا يُبتغى إلا من الله تبارك وتعالى، ولذلك جاءت الآية بصيغة القصر وبأسلوب القصر.

وأسلوب القصر.هاهنا في تقديم ما حقه التأخير، لأن أسلوب القصر.له طُرق، يعني إذا جاءت الجملة الإسمية إن كانت معرَّفة الطرفين المبتدأ والخبر معرفة فهذه تفيد القصر، وإن جاءت بالنفي والاستثناء فهذه تفيد القصر.

إن قُدِّم ما حقه التأخير فهذا كذلك يفيد القصر.

فهذه الجملة تقول: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، والرزق مفعول به للفعل، فالأصل أن يأتي بعد الفعل، فابتغوا الرزق عند الله، فلما قال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، دل ذلك على أن الذي يُطلب منه الرزق هو الله تبارك وتعالى.

ثم قال: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وهذا أمر من الله تبارك وتعالى، ومن عبادته دعاؤه والاستغاثة به، فلا يجوز أن يُدعى إلا هو، ولا أن يُستغاث إلا به سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ثم بيَّن الجزاء في ذلك، وأن الذي يدعو من دون الله أو يستغيث بغير الله لا بد أن يرجع إلى الله وأن يجازى.

ولذلك قال: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، أي فتُسألون عن أعمالكم وتجازون عنها.

(المتن)

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

(الشرح)

في هذه الآية كذلك يبين الله تبارك وتعالى أنه لا أحد أضل ممن دعا من دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة.

كذلك مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة هذه صفة كاشفة وقيد غير مراد، وإلا فلو أن إنسانًا دعا مخلوقًا يستجيب له ويُجيب حاجته وأشرك به، فهذا لا يبيح له هذا الفعل.

فقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأحقاف: ٥]، وهذا الاستعمال في معهود القرآن هو من أشد الصيغ التي تبين شناعة هذا الفعل.

فقول الله ﷻ: ومن أضل، ومن أظلم، هذا الاستفهام المُشرب بالنفي هذا من أشد الصيغ في بيان شناعة هذا الأمر، فهذا أبلغ من النفي المجرد.

هذا أبلغ من قول الله ﷻ: لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة، هذا أبلغ في الإنكار والنفي.

أن يأتي بصيغة الاستفهام التي تفيد النفي.

فالله ﷻ في هذه الآية يقول: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأحقاف: ٥]، لماذا هذا الضلال؟

لأمور ذكرها الله تبارك وتعالى في هذه الآية، وهذه الأمور واقعة وبيِّنة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، لأن هذه الأصنام وهؤلاء المقبورين الذين يُدعَون من دون الله تبارك وتعالى لا يستجيبون لمعبوديهم إلى يوم القيامة.

﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، هذا هو الأمر الثاني، ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ [الأحقاف: ٦]، يعني يوم القيامة، ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ [الأحقاف:

٦]، كما يقول الله ﷻ في آية أخرى على لسان هؤلاء: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، يتبرؤون منهم يوم القيامة.

﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، يعني يكفرون بهذه العبادة ولا يُقرونها وإنما يتبرؤون منها.

فهذه أمور ذكرها الله ﷻ في هذه الآية لتبين شناعة هذا الأمر، وأن من الشرك أن يستغيث المرء بغير الله تبارك وتعالى، أو أن يدعو غيره.

(المتن)

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾.

(الشرح)

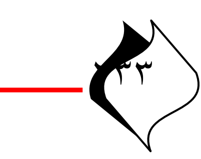
كذلك هذا سؤال مراد به أن يُقر المشركون بأن الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وأن الذي يكشف السوء إنما هو الله تبارك وتعالى، وهذا مما كان يُقر به المشركون ومع ذلك يصرفون الدعاء والاستغاثة والرهبة والخوف لغير الله تبارك وتعالى.

(المتن)

وروي الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل**».

(الشرح)

هذا الحديث مما تكلم أهل العلم على إسناده، وقالوا: إن فيه ضعفًا، ولا يثبت عن النبي ﷺ، لأنه من رواية ابن لهيعة القاضي المصري، وهذا قد احترقت كُتبه فاختلط، وكذلك فيه رجل لم يُسم، فالحديث لا يصح.



ومع ذلك هناك قاعدة ذكرناها فيما سبق في إيراد الأحاديث الضعيفة في كتب الاعتقاد، والمحقق حفظه الله الشيخ دَغش ذكر في الصفحة السابعة والثلاثين كلامًا نفيسًا لشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره في هذه المسألة حبَّذا لو قرأناه.

لأن بعض الناس كان يسأل: لماذا لا تُدرِّسون بعض كُتب الاعتقاد؟ يقول: لأنها مشحونة بالأحاديث الضعيفة.

قال الشيخ دَغش: المطلب الثامن: الأحاديث المنتقدة في الكتاب:

هناك من أهل العلم وطلبته مَن تتبع بعض الأحاديث في هذا الكتاب، وبيَّن أنها ضعيفة على حسب ما أداه إليه اجتهاد، وتجاوز آخرون فأنكروا الاستدلال بها.

وذهب طائفة من العلماء وعلى رأسهم شيخنا العلامة المحدِّث عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن أحاديث الكتاب لا تنزل عن درجة الحسن.

قال: وكلام العلماء في الحديث هل هو ضعيف أو صحيح من قبيل الاجتهاد السائغ الذي تختلف فيه الأنظار، ولكن إذا ثبت ضعف بعض الأحاديث التي أوردها المؤلف ولا سيما وأن المحتج يذكر كلام جهابذة العلماء، وأنهم قد حكموا عليها بالضعف.

أقول: إذا ثبت، فلماذا يذكر المؤلف الحديث الضعيف؟

قال: وللجواب عن هذا أقول:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رده على البكري حينما أنكر عليه الأخير إيراد حديث مع ضعفه؟

فقال: هذا الخبر لم يُذكر للاعتماد عليه، بل ذُكر في ضمن غيره ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسُنة.

كما أنه إذا ذكر حكم معلوم بدليل معلوم ذُكر ما يوافقه من الآثار والمراسيل وأقوال العلماء وغير ذلك، لِمَا في ذلك من الاعتضاد والمعاونة، لا لأن الواحد من ذلك يعتمد عليه في حكم شرعي.

ولهذا كان العلماء متفقين على جواز الاعتضاد والترجيح بما لا يصلح أن يكون هو العمدة من الأخبار التي تُكلم في بعض رواتها لسوء حفظ أو نحو ذلك، وبآثار الصحابة والتابعين، بل بأقوال المشايخ والإسرائيليات والمنامات مما يصلح للاعتضاد، فما يصلح للاعتضاد نوع، وما يصلح للاعتماد نوع، وهذا الخبر من النوع الأول.

ولا شك أن هذا كلام نفيس.

قال: وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية حول حديث: إنه لا يُستغاث بي وإنما يستغاث بالله، والمؤلف هنا أورد هذا الحديث.

أي أن هذا الكلام الذي سبق كان من كلام شيخ الإسلام على هذا الحديث في رده على البكري، فلما أنكر عليه البكري إيراده لهذا الحديث فرد عليه بهذا الكلام.

قال: والمؤلف هنا أورد هذا الحديث في باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، وذلك بعد إيراد أربعة أدلة من القرآن، فكان إيراد الحديث لأنه تُعضده أدلة القرآن.

وقال معالي الشيخ العلامة صالح الفوزان: ولم يورد الشيخ في هذا الكتاب إلا ما صح من الأحاديث أو كان حسن الإسناد، أو هو ضعيف الإسناد وله شواهد تقويه، أو هو داخل تحت أصل عام يشهد له الكتاب والسنة.

وقال شيخنا العلامة صاحب المعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله في معرض كلامه عن الحديث المتقدم: وقد أعل بعض العلماء هذا الحديث لأن في إسناده ابن لهيعة، وحاله معروف، لكن إيراد أئمة الحديث للأحاديث التي قد

يكون في إسنادها بعض مقال في مثل هذا المقام لا بأس به، بل فعلهم هذا صواب إذا كان ما في الحديث من المعنى قد عضدته الأدلة من القرآن ومن السُّنَّة كما في هذا الحديث.

فإن قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنه لا يُستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**»، قد دلت عليه الآيات التي سلفت، وهذا الذي درج عليه صنيع الراسخين في العلم من أهل الحديث، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض كلام له في الفتاوي.

قال: وَأَهْلُ الْحَدِيثِ لَا يَسْتَدِلُّونَ بِحَدِيثٍ ضَعِيفٍ فِي نَقْضِ أَصْلٍ عَظِيمٍ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ بَلْ إمَّا فِي تَأْيِيدِهِ؛ يعني في تأييد ذلك الأصل، وَإِمَّا فِي فَرْعٍ مِنْ الْفُرُوعِ، وهذا هو صنيع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا في هذا الكتاب، فإنه يستدل بأحاديث هي من جهة المعنى التي اشتملت عليه صحيحة.

وهذا كلام نفيس يبين لنا لماذا أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث مع كلام بعض أهل العلم على ضعفه.

قال: وروي الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق.

ورد عند ابن أبي حاتم أن هذا المنافق هو عبد الله بن أبي بن سلول، كان يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم.

ورد في بعض الروايات أن القائل بذلك هو أبو بكر الصديق ﷺ، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المنافق، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل**».

ففي هذا الحديث ترى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كره هذا اللفظ في حقه، مع أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قادرًا على تنفيذ ما يريدونه، ومع ذلك لمَّا قيل في حقه: قوموا بنا نستغيث برسول الله كره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، حماية لجناب التوحيد، وسدًا لذريعة الشرك، وأدبًا وتواضعًا مع الله تبارك وتعالى.

وهذا في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يرضى بهذا القول في حياته وهو يقدر على ذلك، فكيف يجوز بعد ذلك أن يُستغاث بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته مع الإعراض عن الاستغاثة بالله ﷻ الذي له الخلق والأمر.

فتجد غلاة الصوفية يستغيثون ويدعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالبوصيري في قصيدته المشهورة، وكذلك القبوريون تجد هذا في كلامهم و تواشيحهم وفي دعائهم يستغيثون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنت ترى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا أنكر هذا وقد كان قادرًا على دفعه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

(الشرح)

أيهما العام؟ الدعاء.

(المتن)

الثانية: تفسير قوله: ﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ﴾.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

(الشرح)

ضابط الشرك الأكبر: أن تجعل ما لله لغير الله مما يقدح في أصل التوحيد.

إذا جعل المرء ما لله لغير الله، وقد دلت الأدلة على أنه يقدح في أصل التوحيد فهذا هو الشرك الأكبر، لأنه في الآية قال: ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

فالظلم المقصود هنا هو الشرك.

(المتن)

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

(الشرح)

لأن الله ﷻ قال لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطابًا له وللأمة: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أصلح الخلق، ومع ذلك لا محاباة في هذا الباب، في باب التوحيد والشرك لا محاباة لأحد.

ولذلك قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: أن أصلح الناس لو يفعله، وهذه لا تدل على إمكانية فِعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك؛ لأن الله عصمه من ذلك.

(المتن)

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: ذِكره أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافلٌ عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

(الشرح)

لماذا؟ لأنه مات.

(المتن)

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبُغض المدعو للداعي وعداوته له.

(الشرح)

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ [الأحقاف: ٦].

(المتن)

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

(الشرح)

فالدعاء عبادة، قال الله ﷻ: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، فسماها عبادة.

(المتن)

الرابعة عشرة: كُفر المدعو بتلك العبادة.

(الشرح)

والمقصود بالكُفر هاهنا: إنكاره ورده وتبرؤه منها، لأنه لو كان المراد الكفر الذي هو الخروج من الإسلام لقال: كُفر الداعي بتلك العبادة، وإنما قال: كُفر المدعو، فالمدعو يكفر بهذه العبادة، قال: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، يعني متبرئين رادين.

(المتن)

الخامسة عشرة: أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس.

(الشرح)

يعني الأمور الأربعة التي ذُكرت في هذه الآية.

(المتن)

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

(الشرح)

ومع ذلك يدعون غير الله تبارك وتعالى، فهذا هو الأمر العجيب.

وأنت إذا أردت أن تقف على حال هؤلاء وعلى صرفهم العبادة لغير الله تبارك وتعالى فما عليك إلا أن تقرأ في كُتبهم ككتاب الطبقات الكبرى لعبد الوهاب الشعراني، وهذا الكتاب من أشهر كتبهم، بل طُبع طبعات لا حصر لها.

وقد ألَّف بعض الباحثين كتابًا في الرد عليه سماه: رؤية شرعية في الطبقات الكبرى للشعراني، نقل منه وبيَّن ما هم عليه من الخبل ومن الكفر بالله تبارك وتعالى.

أولًا: هؤلاء يخلعون على أوليائهم المزعومين من الصفات ما لا يقبلها عقل عاقل، ومع ذلك من الناس مَن يُصدِّق هذه الأمور.

فمنها ما تضحك منه الثكلى، ولا بأس أن نذكر بعض هذه الأمور لنرى حال هؤلاء، وأن الشرك موجود الآن كما كان عند العرب بل أشد.

فالعرب كانوا يدعون الصالحين في أوقات الشدة، أما هؤلاء فيدعون الصالحين والطالحين، وفي الشدة والرخاء عياذًا بالله، ويُشركون في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

فالمتقدمون كانوا يشركون في الألوهية، يُقرون أن الله هو الذي ينفع ويضر، وهو الذي يحي ويميت، وكانوا يشركون في الإلٰهية.

وأما هؤلاء فيشركون في كل شيء عياذًا بالله.

فمما يُذكر عن هؤلاء: كما ورد في هذا الكتاب: أنهم كانوا يدَّعون أن أوليائهم يتصرفون في هذا الكون.

فذكر الشعراني عن رجل يسمى بسويد السنجاري بأن الله ملَّكه التصرف في هذا العالم.

وذُكر عن رجل يسمى بعلي بن وفا، قال لولي آخر يسمى بمحمد الحنفي: ما تقول في رجل رحى الوجود كلها بيده يُدوِّرها كيف شاء؟ هؤلاء يتبارون فيما معهم من التصرف في هذا الكون.

فالأول: قال له: ما تقول في رجل رحى الوجود كلها بيده يدورها كيف شاء؟ فقال له الحنفي: وما تقول فيمن يضع يده عليها فيمنعها أن تدور؟

فقال علي: كنا نتركها لك ونذهب، فقال الحنفي لجماعة علي: ودِّعوا صاحبكم فإنه ينتقل قريبًا، ليبين أنه يتصرف في هذا الكون.

ويذكرون كذلك أنهم يجيبون المضطر، والله ﷻ هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وهو الذي ينصر سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولم يجعل لنبي ولا لملك من ذلك شيئًا.

ولذلك سيأتي أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: **«يا معشر قريش، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، يا صفية، يا فاطمة، سلوني ما شئتم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا"** فالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول ذلك.

وهم يقولون عن رجل يسمى بالفرغل أنه كان يقول: أنا من المتصرفين في قبورهم، يعني بعد أن يموت عياذًا بالله، يقول: مَن أراد حاجة فليأتِ إلى قبري، قال: فمن كانت له حاجة فليأت قُبالة وجهي ويذكرها لي أقضها له.

وقال الحنفي في مرض موته: مَن كانت له حاجة فليأتِ إلى قبري ويطلب حاجته أقضها له، ثم زاد في غيه فقال: فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكم رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل.

العجيب كما يقول المصنف: أن زوجة الحنفي لم تراعي ذلك في وصية زوجها، زوجها ولي من الأولياء، لو مرضت تدعو زوجها، ولكنها تركت زوجها ودعت البدوي، فجاءها البدوي في المنام بلثامه، ما أراد أن ينكشف على هذه المرأة، وعليه جُبة واسعة الأكمام عريض الصدر، يقول لها: كم تنادينا وتستغيثين وأنتِ لا تعلمين أنكِ في حماية رجل من الكبار المتمكنين؟

ونحن لا نجيب مَن دعانا وهو في موضع أحد من الرجال، قولي: يا سيدي محمد يا حنفي، يُعافِيك الله تعالى، فقالت ذلك، فأصبحت كأن لم يكن بها مرض عياذًا بالله.

كذلك يدَّعون الشفاعة للأموات، وأنهم يراجعون ملك الموت، فقد ذكروا عن محمد الشربيني أنه لـمَّا ضعف ولده أحمد وأشرف على الموت وحضر عزرائيل، هكذا

يقول، يعني ملك الموت لقبض روحه، فقال له الشربيني: ارجع إلى ربك فراجعه فإن الأمر قد نُسخ، فرجع عزرائيل وشُفي أحمد من تلك الضعفة وعاش ثلاثين سنة.

ومشهد آخر بارع في الرعونة وهو في مجلس عبد الرحيم القنائي، والحنفي والقنائي هؤلاء مصريون، حين نزل يومًا في حلقته شبح من الجو، ولا يدري الحاضرون ما هو، فأطرق ساعة ثم ارتفع الشبح إلى السماء، فسألوه عنه، فقال: هذا ملك وقعت به هفوة، أي أخطأ خطأً فسقط علينا يستشفع بنا، فقَبِل الله لنا شفاعتنا فيه.

وكذلك يدَّعون علم ما في الأرحام، فقد ذُكر عن منصور البطائحي، كما في الطبقات أيضاً أن أمه كانت تدخل على شيخه محمد الشنبكي، فكان الشنبكي هذا ينهض لها قائمًا.

يعني كلما دخلت أم منصور هذا يقوم هذا الولي ينهض قائمًا يقف، وتكرر ذلك منه، فسألوه عن ذلك؟ فقال: أنا أقوم للجنين الذي في بطنها؛ فإنه أحد المقربين إلى الله تعالى أصحاب المقامات، وسيصير له شأن عظيم.

وخبر آخر في قيام محمد هارون لوالد إبراهيم الدسوقي، الولي المعروف عند هؤلاء يُسأل في البر والبحر والعياذ بالله.

كان هارون هذا إذا دخل عليه والد إبراهيم الدسوقي كان يقوم له، فإذا سُئل عن ذلك؟ قال: في ظهره ولي يبلغ صيته المشرق والمغرب، في ظهره ولي لم يخرج بعد، يبلغ صيته المغرب والمشرق.

وكان إبراهيم المتبولي مبتلىً بالإنكار لعدم زواجه، يعني كانوا ينكرون عليه أنه لم يتزوج، فكانوا كثيرًا ما ينكرون عليه ذلك.

فكان يُنكر عليه ذلك، فكان يُعلِّل عدم زواجه، فيقول: ما في ظهري أولاد حتى أتزوج بقصد، يعني أنا لو تزوجت لن أُنجِّب، فما في ظهري أولاد حتى أتزوج بقصدهم.

وجاءه شاب وشهوته ثائرة، فقال له: تطلب لك مدة أو دائمًا؟ يعني تريد قطع هذه الشهوة لمدة أم تريد قطعها دائمًا؟

قال: فإن قال: مدة حتى أقدر على مؤنة التزويج قال له: خذ هذا الخيط فشُد به وسطك، فما دام معك لا تتحرك شهوة.

وإن قال: أريد عدم تحرك الشهوة طول عمري يمسح على ظهره فلا تتحرك له شهوة ولا ينتشر إلى أن يموت.

وكذلك كانوا يدَّعون علم الغيب:

فكان أبو العباس المُرسي يدَّعي أنه علم بياقوت، ياقوت هذا كان مريدًا لهم، فعلم به قبل أن يولَد، فعمل له عصيدة قبل أن يولد، فقالوا له: العصيدة لا تُعمل إلا في الشتاء، لماذا تصنعها في هذا اليوم الحار؟

فقال: هذه عصيدة ولدنا ياقوت، وُلد اليوم ببلاد الحبشة، فلم يزل ياقوت يُباع من سيد إلى سيد، وقد كان عبدًا، فلم يزل يُباع من سيد إلى سيد حتى جاء إلى أبي العباس وحسبوا عمره فوجدوا عمره كما قال أبو العباس.

فيخلعون على هؤلاء من الأمور ما يعجب له المرء.

بل جاء في هذا ونختم به لطرافته نسأل الله لنا ولهم الهداية:

أن رجلًا منهم كان يسمى بالحسين أبي علي، وكان كثير التطورات، تدخل عليه بعض الأوقات فتجده جنديًا، يلبس لبس الجندي، ثم تدخل عليه فتجده سبعًا، تحول لسبع، ثم تدخل فتجده فيلًا، تحول إلى فيل، ثم تدخل فتجده صبيًا، وهكذا مكث نحو أربعين سنة في خلوة مسدود بابها، ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء، وكان

يقبض من الأرض ويناوِل الناس الذهب والفضة، وكان مَن لا يعرف أحوال الفقراء يقول: هذا كيماوي سيماوي معروف بالكيمياء.

أي تعلم السحر من أجل الحصول على الذهب والفضة.

وقد قُتل وقطَعوه بالسيوف ورموه على الكوم، ثم أصبحوا فوجدوه جالسًا، فقال: غرَّكم القمر.

يعني ما قطَّعتم شيئًا وإنما أنا كما تركتموني.

فهذا عياذًا بالله من الشرك بالله العظيم.

وإن كان المتقدمون أشركوا بالله ﷻ في الضُر، فهؤلاء أشركوا في النفع والضُر، وأشركوا في أنواع التوحيد الثلاثة، في الربوبية وفي الألوهية وفي الأسماء والصفات.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يطهِّرنا من الشرك أصغره وأكبره، وأن يُكمِّل توحيدنا، وأن يتوفَّانا على ذلك، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

عنون المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الباب بقوله:

(المتن)

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾

(الشرح)

هذا الباب ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وترجم له بهذه الآية.

وذكره بعد أبواب بيَّن فيها أنه من الشرك أن يستغيث المرء بغير الله، أو أن يدعو غير الله، أو أن يذبح لغير الله، أو أن يستعيذ بغير الله، فجاء بهذا الباب كالبرهان لِمَا سبق.

بعد أن أتى بهذه الأبواب التي تدلل على أن هذه الأمور المذكورة شرك أراد أن يدلل على ذلك، لماذا لا يجوز صرف هذه الأمور لغير الله وإنما تُصرف لله تبارك وتعالى وحده؟

فأراد أن يبين في هذا الباب قدرة الخالق وعجز المخلوق، فالمخلوق الذي يُدعى من دون الله تبارك وتعالى عاجز، وإنما الذي يستحق الدعاء والعبادة هو القادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالمخلوق كما سنرى في هذه الآيات والأحاديث التي ذكرها لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

لا يملك أن يخلق ولو ذبابة كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

ثم قال في الآية التي بعدها: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

فهذه الترجمة هي كالبرهان لِمَا قبلها كما قلنا، فإذا كان الأمر كذلك أن المدعو من دون الله ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فالمستحق للعبادة هو الله تبارك وتعالى القادر.

وأما العاجز فلا يصلح لها، وبيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك في الآية التي ترجم بها لهذا الباب بأربعة براهين:

▪ أما البرهان الأول: فهو أنه قال تبارك وتعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ [الأعراف: ١٩١]، فهذا الذي يُدعى من دون الله تبارك وتعالى لا يستطيع أن يخلق شيئًا، وشيئًا نكرة في سياق النفي فتعم أي شيء ولو كان صغيرًا، ولو كان حقيرًا كالذباب، كما ضرب الله به المثال، فهذا البرهان الأول على عجز هؤلاء.

▪ ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١]، هذا البرهان الثاني، فليسوا بخالقين وإنما مخلوقون، فالمخلوق لا يُدعى وإنما يدعو القادر الغني الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

▪ وأما البرهان الثالث ففي قوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، فنفى الله تبارك وتعالى عن المدعوين من البشر ومن الجن ومن الأصنام= نفى عنهم الاستطاعة أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا، أي لا يستطيعون أن ينصروا هؤلاء الذين يدعونهم.

▪ ثم كان البرهان الرابع أنهم لا يستطيعون الانتصار لأنفسهم كما في آية الحج السابقة فكيف ينصرونكم، وقد عجزوا عن جلب الخير لأنفسهم أو دفع الضير عنهم.

بل قبل هذه الآية بيَّن الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف أن هؤلاء لا سمع لهم ولا بصر لهم ولا يد لهم ليبطشوا بها ولا رِجل لهم، فهي أصنام عاجزة وآلهة باطلة.

ولذلك لَمَّا أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على هؤلاء رد ببرهان يسير جدًا، فقال بعد ذلك: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، مع أننا في كثير من الآيات نسمع إنه هو السميع العليم، إنه هو السميع البصير.

في هذه الآية جرَّد اسمه تبارك وتعالى من التعريف من الألف واللام، وجرَّد الآية كذلك من ضمير الفصل (هو)، لماذا؟

لأنه قبل هذه الآية بيَّن أن هذه الآلهة لا يد لها ولا سمع لها ولا قدرة لها، فلما بيَّن عجزهم في كل هذه الأمور أثبت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمعه وعلمه بأيسر الأمور.

فهنا كذلك قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، وهذا بالنسبة لهذه الآية.

فالذي يخلق هو الله تبارك وتعالى، والذي يستطيع النصر هو الله تبارك وتعالى.

ولذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو النبي أشرف الخلق كان يدعو ربه تبارك وتعالى لينصره، ونحن نعلم أن ذلك وقع منه في غزوة بدر شديدًا، حتى قال له الصدِّيق رضي الله عنه: إن الله مُنجز لك ما وعدك به.

وهذا يبين لك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ناشد ربه شديدًا، فكان يقول في دعائه: **«اللَّهم أنت عضدي ونصيري، بك أحُول، وبك أصول، وبك أقاتل»**، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلجأ إلى ربه.

فمَن هو دون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن باب أولى أن يلجأ إلى ربه لا أن يلجأ إلى هؤلاء المدعوين من دون الله، وهذا هو دين الرُسل الذي أرسل الله تبارك وتعالى من أجله الرسل وأنزل الكتب، ألا يُعبد إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فقال: باب قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾.

إذًا لماذا جاء المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب بعد الأبواب السابقة ؟

كالبرهان لِمَا سبق.

(المتن)

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾.

(الشرح)

ففي هذه الآية كذلك يُخبر الله تبارك وتعالى عن حال هؤلاء المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام، يُخبر بما يدل على عجزهم وذلك بانتفاء الأسباب التي ينبغي أن تتوفر في المدعو.

فالمدعو ينبغي أن تتوفر فيه أسبابٌ حتى يُدعى، ما هذه الأسباب؟ هذه الأسباب كلها انتفت عن هؤلاء المدعوين من دون الله:

أولًا: هل يملكون شيئًا؟ لا يملكون شيئًا، قال الله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣].

والذين: هذا اسم موصول، فيعم كل مَن دُعي من دون الله تبارك وتعالى من جن أو إنس أو صنم أو حجر أو ملائكة، ولكن من حُسن تصنيف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه خص هذا الباب بالمدعوين من العالم الأرضي، وسيأتي في باب بعده ذكر المدعوين من العالم السماوي.

يعني جعل هذا الباب للمدعوين من العالم الأرضي، مَن هم؟ الأصنام والأنبياء.

وجعل بابًا بعد ذلك في الملائكة الذين دُعوا من دون الله تبارك وتعالى، وهذا من حُسن تصنيفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبارك وتعالى.

هذا الذي يُدعى من دون الله لا بد أن تتوفر فيه هذه الأسباب حتى يُدعى:

الأول: المِلك، هل يملكون؟ لا يملكون، قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

ما القطمير؟ هو اللُفافة التي تكون على نواة التمر، هذه القشرة التي لا تكاد تراها على نواة التمر، هذه تسمى بالقطمير.

وما النقير؟ هي النقطة التي تكون في ظهر النواة.

وما الفتيل؟ هي الخيط اليسير الذي يكون في قلب النواة.

هنا قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وانظر قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، فقطمير هذه نكرة كذلك في سياق النفي فتعم.

ثم قال: من قطمير، وأهل الأصول يقولون: أن النكرة في سياق النفي هي ظاهرة في العموم، تفيد الظهور في العموم، فإذا دخل عليها (مِن) كانت نصًا في العموم.

يعني لا تخصيص لها، كانت نصًا في العموم.

ما الفرق بين: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وهل خالق غير الله؟ الاستفهام يُشبه النفي، وبالتالي إذا جاءت النكرة في سياق الاستفهام فهي كذلك تعم.

ما الفرق بين التعبير القرآني: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وبين تعبيرنا هل خالق غير الله؟ لو أننا قلنا: هل خالق فهذه ظاهرة في العموم ليست نصًا في العموم.

إنما لمَّا قال الله ﷻ: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، فهذه صارت نصًا في العموم.

وكذلك هنا لمَّا قال: من قطمير لمَّا دخلت من أفادت النصية أي لا تخصيص، هؤلاء لا يملكون شيئًا، وإن ملكوا فهم مستخلَفون وليس بملك حقيقي.

فأول الأسباب التي ينبغي أن تتوفر في المدعو: وهو الملك لا توجد في هؤلاء.

والثاني: سماع الدعاء.

قال الله ﷻ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، فهؤلاء لا يسمعون.

لماذا لا يسمعون؟ لأنهم ما بين ميت أو غائب أو مشغول بنفسه عن غيره، أو هو مسخَّر لِمَا خُلق له.

فهؤلاء المدعون إما أن يكونوا أمواتًا كهؤلاء المقبورين الذين يُدعَون من دون الله، وإما أن يكونوا مشغولين بأنفسهم، ومن ثَمَّ لا يسمع الواحد منهم دعاء هؤلاء، وإما لأنهم خُلِقوا وجُبِلوا على طاعة الله ﷻ، فلا يستطيع الواحد منهم أن يخالف ما خُلق له، كما هو حال الملائكة.

فقال الله ﷻ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، فهؤلاء الذين هم في القبور من الأولياء وغيرهم هؤلاء لا يسمعون، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

الصحيح من أقوال أهل العلم: أن الموتى لا يسمعون في قبورهم.

الثالث: قال تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، فهذا كذلك بيان أنهم لو سمعوا فلا يستطيع الواحد منهم أن يجيب حاجة الداعي، وإنما الأمر كله بيد الله تبارك وتعالى.

فهل سلَّم هؤلاء الذين سمعوا هذه الآيات بذلك، في القديم والحديث؟ ما سلموا بذلك، فتجد الواحد منهم ينذر ويدعوا ويذبح ويخشى غير الله تبارك وتعالى، ويجهر بذلك، ويظن أن ذلك هو الحق وهو الدين الذي جاء به الأنبياء والرسل.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤]، أي يتبرؤون من شرككم، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤]، فالذي نبَّأنا بذلك هو العليم الخبير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والذي بلَّغنا عن ربنا تبارك وتعالى هو أعلم الخلق بربه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فينبغي أن نُصدِّق بذلك.

(المتن)

وفي الصحيح عن أنس قال: شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكُسرت رباعيته، فقال: **«كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم؟»**، فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾.

(الشرح)

نحن نعلم ما وقع للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في غزوة أُحد بسبب مخالفة الرماة، فكُسرت رباعية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ودخل المغفر في وجنتيه، وأُدمي وجه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وشُج أي كُسرت رأسه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

الشج جرح الرأس وشقها، وكل هذا وقع يوم أُحد، وقع ابتلاءً من الله تبارك وتعالى، وجزاء مخالفة بعض أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لنبيهم، ووقع كما قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: ليُعلَم وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء لينالوا جزيل الأجر والثواب.

أي: ليُعلم أن الأنبياء والرُسل كذلك يُبتَلون، وتصيبهم الأسقام، والأمراض لترتفع منزلتهم عند الله ﷻ.

وكذلك ليُعلم أنهم من البشر، فليسوا آلهة، تصيبهم مِحن الدنيا، ليُتيقن أنهم مخلوقون مربوبون، لا يُفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويُلبِّس الشيطان من أمرهم ما لبَّسه على النصارى وغيرهم.

فهذا الذي وقع للنبي ﷺ حتى يظهر أنه بشر، وأنه مخلوق، ليس بإله، يصيبه ﷺ ما يصيب البشر، وهذا قاله القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فشُج النبي ﷺ يوم أُحد، وكُسرت رباعيته، فقال النبي ﷺ: «كيف يُفلح قوم شجُوا نبيهم؟».

أي كأن النبي ﷺ يقول: لا يفلح هؤلاء، لأنهم شجوا نبيهم الذي جاء إليهم بالهدى ودين الحق.

فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ومن وقف مع هذه الآية تدبرًا عرف مقامه عند الله تبارك وتعالى ومقامه عند نفسه، مَن الذي يقال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؟

النبي ﷺ، أعظم الخلق، وأشرفهم، وأفضل الخلق عند الله تبارك وتعالى، ومع ذلك يقول له ربه هذه ليست لك﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فهذا فيه إعلام للنبي ﷺ بأنه لا حكم له على عواقب الخلق وخواتيمهم، إلا بما أخبره الله تبارك وتعالى، فالنبي ﷺ عندما يقول: أن هذا من أهل الجنة أو هذا من أهل النار: هذا عن طريق الوحي، أما بخلاف ذلك فليس للنبي ﷺ.

وليس هذا انتقاصًا من شأن النبي ﷺ، وإنما هو من تحقيق كمال العبودية ومن بيان ما يختص به الربِّ دون العبد .

فأعلم الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا حكم له على عواقب الخلق وخواتيمهم، فالله ﷻ له الأمر جميعًا، كما قال: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

ومن له الحكم كله، فهو القادر المستحق أن يُعبَد، فالله ﷻ إذا كان له الحكم، وإذا كان قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فمعنى ذلك: أن الحكم إنما هو لله تبارك وتعالى.

فكأنه قيل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: امضِ أنت لشأنك وما أُمرت لتبليغه، ودُم على الدعاء لربك والدعوة له تبارك وتعالى، أما هذه الأمور فليست لك، فهذه الأمور ليست لنبي مرسل ولا لملك مقرَّب، وإنما هي لله تبارك وتعالى.

فهل قنع الذين أُرسل إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الكلام؟ هل قرئوا هذه الآية؟ الذين يشركون بالله تبارك وتعالى ويطوفون حول الأضرحة وينذرون ويذبحون لغير الله تبارك وتعالى، هل قرئوا هذه الآية التي تقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؟ أم أنهم غلوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا له:

يا أكرم الخلق ما لي مَن ألوذ به ... سواك عند حلول الحدث العمم

فإن من جودِك الدنيا وضرَّتها ... ومن علومِك علمَ اللوح والقلم

لا شك أنه الثاني، أنهم غلوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعلوا له ما لا ينبغي إلا لله الواحد الأحد، مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في هذا الحديث شُج وكُسرت رباعيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يقول: أنه يأكل كما يأكل العبد، ويقعد كما يقعد العبد، وكان يقول: **«أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد»**، وكان يصلي حتى تتفطر قدماه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يأخذ بالأسباب وقاية لنفسه، فكان يلبس لَأْمَة الحربِ في الجهاد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يقول: إنه يوعك كما يوعَك الرجلان من أمته، وكانت تصيبه الحُمَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكان يصيبه ما يصيب البشر، فكيف يُصرف له بعد ذلك ما لا ينبغي إلا لرب البشر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فهذا فيه كذلك عجز المخلوق وقدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا قيل له بعد ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، في الحديث الذي بعده كفَّ عمَّا لا ينبغي أن يفعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وفيه عن ابن عمر.

(الشرح)

أي في الصحيح.

(المتن)

رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللَّهم العن فلانًا وفلانًا»، بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

(الشرح)

في الحديث قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفي الحديث الذي بعده فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

فهل من الممكن أن تنزل الآية مرتين؟ نعم.

الراجح من أقوال أهل العلم: أن الآية من الممكن أن ينزل بها الوحي مرتين، نزلت في المرة الأولى تأسيسًا، ثم نزلت في المرة الثانية لـمَّا وقعت واقعة مشابهة للوقعة الأولى، كما قالوا في سورة الإخلاص: فبعض العلماء قال: أنها نزلت مرتين، نزلت في

مكة ونزلت في المدينة، فنزلت في مكة ابتداءً، ثم نزل بها جبريل بعد أن سأله اليهود أو النصارى عن صفة ربنا تبارك وتعالى.

فهذا قول: أن الآية من الممكن أن تنزل مرتين.

والقول الثاني: وهو الذي رجحه بعض شُرَّاح هذا الكتاب، أن الآية نزلت بعد الحادثتين، يعني نزلت بعد أن حدث الأمر الأول وهو أن النبي ﷺ شُجَّ، ثم بعد ذلك بعد أن دعا النبي ﷺ نزلت هذه الآية.

كان النبي ﷺ يدعو على فلان وفلان:

سبب دعاء النبي ﷺ كذلك مما اختلف فيه أهل العلم:

فمنهم من قال: إنه دعا على هؤلاء لِمَا أصابه يوم أُحد، إذًا هذا الدعاء كان يوم أُحد لمَّا أصابه ما أصابه، ولمَّا مُثِّل بعمه حمزة رضي الله عنه دعا النبي ﷺ على أقوام بعد أن يرفع من الركوع، إذًا هذا هو القول الأول.

والقول الثاني: أن ذلك كان في قصة بئر معونة، وقصة بئر معونة وقعت بعد أُحد بأربعة أشهر.

وخلاصة هذه القصة: أن النبي ﷺ أُرسل إليه مِن قِبل عامر بن الطفيل أنه يريد بعض أصحاب النبي ﷺ ليعلِّموا الناس القرآن ولدعوة الناس، فأرسل النبي ﷺ القرَّاء، فلما كانوا عند بئر معونة قُتلوا رضي الله عنهم، فلما أُخبر النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء، كان يدعو على فلان وفلان، يذكرهم في دعائه يقول: اللّٰهم العن فلانًا وفلانًا.

فقال الله ﷻ له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

لماذا قال الله ﷻ له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾؟

لأننا نعلم أن اللعن يعني الطرد والإبعاد من رحمة الله، فنهاه الله تبارك وتعالى عن ذلك.

لماذا نهاه الله ﷻ عن ذلك؟ لأن الله بيَّن في باقي الآية قال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فطردهم من رحمة الله ليس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما مردُّه إلى علم الله ومشيئته وحكمته وتصرفه في خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هل تاب الله ﷻ عليهم؟ نعم تاب عليهم كلهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأسلموا كلهم يوم الفتح، وحسُن إسلامهم، هؤلاء الذين سُموا في الرواية التي بعدها، كلهم أسلم يوم الفتح وحسُن إسلامهم.

ومن هنا أخذ العلماء وهذا هو القول الصحيح: أنه لا يجوز لعن المعين ولو كان كافرًا، لأنك لا تدري بما يختم الله تبارك وتعالى له، ولذلك كفَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان لا يجوز لعن الكافر فالمؤمن من باب أولى.

بل قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لعن المسلم كقتله»، ونحن نجد بعض الناس للأسف يقول: الله يلعنك، يلعن مسلمًا مثله، فهذا حكمه كقتله كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوزر عياذًا بالله.

وما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللَّعان ولا الطعَّان ولا الفاحش ولا البذيء، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

(المتن)

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

(الشرح)

كان النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو على هؤلاء، لأنهم كانوا رؤوس الكفر يوم أُحد مع أبي سفيان، فكان هؤلاء رؤوس الكفر يوم أُحد، فدعا عليهم النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله ﷻ عليه: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

عند الترمذي قال: إن هؤلاء تيب عليهم وأسلموا يوم الفتح، فمَن الذي دعا؟ أشرف الخلق صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن الذي كان يؤمِّن خلفه؟ أشرف الخلق بعده صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك قيل لهم: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فالأمر كله بيد الله تبارك وتعالى، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، يرحم من يشاء، ويعذِّب من يشاء، إن رحم الخلق فبفضله، وإن عذَّبهم فبعدله وحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال: «**يا معشر قريش**»، أو كلمة نحوها.

(الشرح)

يعني أو قال كلمة نحوها.

(المتن)

«اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنكِ من الله شيئًا».

(الشرح)

فهذا كذلك يبين قدرة الخالق وعجز المخلوق، وأن المخلوق إنما يُسأل فيما يقدر عليه، حتى ولو كان نبيًا، لا يُسأل فوق ذلك.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أُنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قالوا: عشيرة الرجل: هم بنو أبيه أو قبيلته، هؤلاء هم عشيرة الرجل، وهم أحق الناس ببره وإحسانه الديني والدنيوي.

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

فأمر الله ﷻ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا بالنذارة الخاصة قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، كما أمره بالنذارة العامة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، وقال: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فهذا الحديث من باب النذارة الخاصة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا معشر قريش**»، بدأ بالأعم فالأخص فالأخص، وكان أبلغ الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «**يا معشر قريش**»: والمعشر هم الجماعة، أو قال كلمة نحوها، وهذا من شك الراوي.

قال: «**اشتروا أنفسكم**»، بماذا؟ بالمال؟ لا وإنما اشتروا أنفسكم بتوحيد الله تبارك وتعالى وإخلاص العبادة له، فهذه هي دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء إلى قوم مشركين، فدعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له.

وكذلك اشتروا أنفسكم بطاعته فيما أمر، وبالانتهاء عمَّا نهى عنه وزجر تبارك وتعالى، فهذا الذي يُنجِي.

وأراد أن يبين لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الاعتماد على الأنساب والأحساب لا يُنجي المرء.

النسب والحسب لا يُنجي المرء يوم القيامة، وإنما الذي ينجيه توحيده وعمله وإخلاصه العبادة لله تبارك وتعالى.

فالأنساب والأحساب غير نافعة عند رب الأرباب، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وجاء في الأثر عن عكرمة ﵁ أن الرجل يأتي زوجه يوم القيامة، ويأتي ولده يوم القيامة، فيقول: أي بعل كنت لكِ؟ وأي والدٍ كنت لك؟ فيقولون: نِعم البعل ونعم الوالد، ومع ذلك يأبى كل واحد أن يُعطي ولو حسنة، يقول: أخشى مما تخشى.

فالذي يُنجِّي المرء يوم القيامة توحيده وإخلاص العبادة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من الموحدين المخلصين.

فقال: **«اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنكِ من الله شيئًا»**.

قالها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليبين أن الله هو الغني وأن الله هو القادر، وأن الله تبارك وتعالى هو المتفرد بهذه الأمور للنجاة في الآخرة.

فهذا الحديث فيه حُجة على من تعلق بالأنبياء والصالحين، إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينفع أقربَ الخلق إليه، فكيف بمن دونه أن ينفع الناس؟

فمن تعلق بالأنبياء والصالحين فقد أشرك الشرك الذي حرَّمه الله تبارك وتعالى ، وقد اتخذ هؤلاء أندادًا وشفعاءً يقرِّبونهم زعمًا لله تبارك وتعالى، فهذا هو شرك الأولين، قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

قال: «سليني من مالي ما شئتِ»: فهذا أقصى ما يُسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يُسأل فيما يقدر عليه، وأما الرحمة والمغفرة والنجاة من النار فهذه إذا سألت فاسأل الله تبارك وتعالى، هي خالصة لله عَزَّ وَجَلَّ.

وما عند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد، أن يُجرِّد العبد توحيده لله تبارك وتعالى، فإذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينفع أقرب الأقربين إليه فمن دونهم من باب أولى.

لم يستطع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينفع عمه أبا طالب، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، ما استطاع أن يهدي عمه، لأن القلب ليس بيد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما القلب بيد الله تبارك وتعالى، وما استطاع أن ينجيه من النار، وإنما سأل ربه أن يخفف عذابه، أما أن يخرج من النار فهذه ليست إلا للموحدين ابتداءً أو مآلًا بعد أن يُنقَّى هؤلاء.

الشاهد في هذه الآيات والأحاديث:

أنها تبين عجز المخلوق وقُدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي يستحق العبادة من نذر وذبح واستغاثة وغير ذلك، ولا شك أن الدلالة واضحة في هذه الآيات والأحاديث.

(المتن)

فيه مسائل.

(الشرح)

أي في هذا الباب مسائل.

(المتن)

الأولى: تفسير الآيتين.

(الشرح)

يعني آية الأعراف وآية فاطر.

(المتن)

الثانية: قصة أُحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنون في الصلاة.

(الشرح)

المصنف هاهنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أراد بيان حكم القنوت جائز أو غير جائز، وإنما أراد أن يبين صفة القانت، وصفة من أمَّن، ومع ذلك قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ولذلك جاء بلفظ السيادة، وهذا من دقيق فقهه ﷺ ورحمه الله، قال: قنوت سيد المرسلين، لو أراد أن يبين حكم القنوت لقال قنوت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: وخلفه سادات الأولياء، ولا شك أن الصحابة هم سادات الأولياء، يؤمِّنون في الصلاة ومع ذلك قيل لهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

(المتن)

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

(الشرح)

أي لم يكونوا في حالة مُرضية في هذا الوقت الذي دعا عليهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا كفارًا قبل أن يُسلِموا، ومع ذلك قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

(المتن)

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار.

(الشرح)

فغالب الكفار لا يتجرؤون على الأنبياء، وإنما يخشون ذلك، وإن أصروا على كُفرهم وعنادهم.

أما هؤلاء فماذا فعلوا؟ قال:

(المتن)

منها: شجهم نبيهم وحرصهم على قتله.

(الشرح)

كانوا حريصين على قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوقعوه في الحفرة، وكانوا يبحثون عنه لقتله.

(المتن)

ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

(الشرح)

كما فعلوا بحمزة رضي الله عنه وغيره، ومع ذلك قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وإنما هو لله تبارك وتعالى.

(المتن)

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك.

(الشرح)

أي بعد كل هذه الأمور، أنزل الله قوله جل وعلا:

(المتن)

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

(الشرح)

فغيره من باب أولى.

إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستطيع أن يُدخل أحدًا النار، ولا أن يحكم عليه بالفلاح أو غيره دون وحي من الله تبارك وتعالى، فغيره من باب أولى.

(المتن)

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فتاب عليهم فآمنوا.

(الشرح)

وهذا من كمال سلطانه وقُدرته ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أن الله سيتوب عليهم، وأن توبتهم ستحسن، وسيكونون من خيار الصحابة هل كان يدعو عليهم؟ ما كان يدعو عليهم، لكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب، لا يعلم الغيب إلا الله تبارك وتعالى، ولذلك تاب عليهم لكمال علمه فيهم، وكمال سلطانه ومشيئته، فبعد أن كانوا أبغض الخلق إليه صاروا من أوليائه وأحب الخلق إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وانظر إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كيف كان في الجاهلية ثم كيف صار في الإسلام، وانظر إلى حال بعض الشباب كيف كان قبل استقامته من سب وقذف وإطلاق قبيح القول وترك للصلاة وفعل للفواحش، ثم سبحان الله بعد مدة تقابله وتقول: أنت فلان، فالأمر كله بيد الله تبارك وتعالى، والله تبارك وتعالى لا يُعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

القلوب بيد الله تبارك وتعالى يصرِّفها ويقلِّبها كيف شاء.

(المتن)

الثامنة: القنوت في النوازل.

(الشرح)

أي أن ذلك جائز، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قنت في النازلة.

ولكن ما ضابط القنوت؟

أولًا: أن يكون في نازلة.

ما النازلة؟

أن يضيَّق على المسلمين من خارجهم، يعني من كفار وليسوا من مسلمين لا لأمر نـزل بهـم مـن قِبـل الله تبـارك وتعـالى، ابـتلاء مـن قِبـل الله ﷻ، فـإن أصـابهم الله ﷻ بالقحط فقد شرع لهم صلاة الاستسقاء، وإن ابتلاهم بالكسوف تخويفًا لهـم فقد شرع لهم صلاة الكسوف.

وإن ابتلاهم بظلم من حاكم وغير ذلك فقد شرع لهم الصبر والتوبة والإنابة إلى الله ﷻ.

أما القنوت فيكون في نازلة، وذكرنا ضابط النازلة، ويكون في الصلوات الخمس، لا يُخص بصلاة دون صلاة.

وأما القنوت في الفجر دون غيره من الأوقات: فالصحيح أنه بدعة، كما جاء عن بعض أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه لمَّا سأله ولده، لعله أبو مالك الأشجعي، لمَّا سأل والده، قال: إنك قد صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ها هنا بالكوفة نحوا من خمس سنين أكانوا يقنتون؟ قال: أيْ بُني محدث.

فالسُنَّة: إن نزلت النازلة أن يقنت في الصلوات الخمس.

(المتن)

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

(الشرح)

هذا جائز، أن يُسمي المرء المدعو له أو المدعو عليهم، لو سماه في الصلاة فهذا جائز، كما كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يسمي.

فلو قلنا مثلًا في القنوت: اللَّهم أنَّج فلانًا وفلانًا، فهذا جائز، كما دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض أصحابه بالنجاة.

اللَّهم أهلك فلانًا وفلانًا: هذا جائز، الدعاء بالهلاك لطائفة معينة أو لفرد معين الصحيح أنه جائز اتقاء شره، أما الدعاء باللعنة فلا يجوز، فرق بين الأمرين، لأن اللعن تعني الطرد من رحمة الله تبارك وتعالى، وهذا ليس إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وأما الدعاء بهلاك فرد أو طائفة معينة فهذا جائز.

كما عند البخاري من حديث خبيب بن عدي رضي الله عنه قبل أن يقتلوه ماذا قال؟

قال: اللَّهم أحصهم عددًا، اللَّهم لا تُبقِ منهم أحدًا، فدعا عليهم فما بقي منهم أحد، كما قال الراوي.

أما الدعاء باللعنة فلا يجوز.

(المتن)

العاشرة: لعنه المعين في القنوت.

(الشرح)

نحن قلنا: لا يجوز لعن المعين حتى ولو كان كافرًا.

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: إن أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك أن ذلك وقع من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم نُهي عنه فهذا يُسلَّم له، لأن الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وإن أراد جواز ذلك فهذا فيه نظر، لماذا؟ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فانتهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

الحادية عشرة: قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه:: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

(الشرح)

يريد أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتثل أمر ربه تبارك وتعالى، فدعاهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعمَّ أولًا ثم خص.

(المتن)

الثانية عشرة: جدّه صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون.

(الشرح)

فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو عامتهم وخاصتهم، يدعو أقرب الأقربين إليه، ينتظر الناس في مواسم الحج، يذهب إلى المشركين في أنديتهم، يخرج إلى الطائف وإلى غيرها من الأماكن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس لهم همٌّ إلا هداية الخلق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى نُسب بسبب ذلك إلى الجنون.

(المتن)

وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

(الشرح)

يعني لنُسب للجنون كذلك.

فلو فعل إنسان هذا الأمر لقالوا إنه مجنون، لو ألحَّ وكرَّر في دعوة الناس إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وإلى نبذ ما هم عليه من الشرك والبدعة لقالوا: إنه مجنون.

قد تجد من يقول عن أحد دعاة الخير: إنه مجنون، لكثرة دعوة الرجل الناسَ إلى ترك البدعة والتزام السُّنَّة، وترك الجماعات والأحزاب والفِرق، ولكثرة ما يدعو الناس إلى توحيد الله تبارك وتعالى، يقولون: عنه إنه مجنون.

قال: وكذلك لو يفعله مسلم الآن، يعني لنُسب إلى الجنون كما نُسب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من الله شيئًا»، حتى قال: «يا فاطمةُ بنت محمد».

(الشرح)

لماذا قال :فاطمةُ؟ لأنها عَلم، فيُبنى على الضم.

وأما الصفة بعدها فتُنصب لأنها مضافة، فيقال: يا فاطمةُ بنت محمد، وقالوا كذلك: النصب جائز، يقال: يا فاطمةُ ويا فاطمةَ.

(المتن)

قال: «يا فاطمةُ بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا»، فإذا صرح صلى الله عليه وسلم وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن تبين له التوحيد وغربة الدين.

(الشرح)

الشيخ لا يقول إن ذلك وقع من عوام الناس، بل وقع ذلك من الخواص الذين يشير إليهم الناس بالبَنان، ويقولون: هم العلماء، وهم الذين يؤخذ منهم الفتوى، ومع ذلك هم الدعاة إلى الموالد والطواف حول الأضرحة والاستغاثة والتوسل بالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فالذي يقرأ كلام النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وينظر في حال هؤلاء يعلم معنى التوحيد الذي جاء به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويعلم أن هذا الذي عليه هؤلاء ليس بالتوحيد وإنما هو صريح الشرك بالله تبارك وتعالى، ويعلم غُربة الدين.

الباب الخامس عشر من أبواب كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

(المتن)

قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

(الشرح)

هذه الآية التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبلها آيات يقول الله ﷻ فيها: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

أراد المصنف بهذا الباب أن يستكمل ما بدأه في البابين السابقين من بيان البرهان التوحيدي على عجز المخلوق وقُدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قلنا: إن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ بذكر صنوف الشرك التي وقع فيها المشركون، فلما انتهى من ذلك: كالدعاء لغير الله والاستغاثة والنذر والذبح وغير ذلك، أراد أن يبين الأسباب التي من أجلها استحق الله تبارك وتعالى أن يُعبَد وحده دون المخلوق.

فبدأ بالباب الماضي، ثم ثنَّى بهذا الباب، فجاء بهذا الباب لتوكيد ما سبق.

الباب السابق تكلم فيه عن تعظيم الأصنام، وكذلك تعظيم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر ما هو معظَّم عند المشركين وما هو معظَّم عند المسلمين، وذكر ما هو معظَّم من العالم الأرضي، هذا في الباب الذي مضى.

أما في هذا الباب فذكر الملائكة المقربين، فالفرق بين هذا الباب والباب الذي قبله: أن الباب السابق كان في مخلوقات أرضية، وأما هذا الباب فهو في أهل السماء الذين هم الملائكة.

فلما أثبت في الباب السابق عجز هؤلاء أعني المخلوقات الأرضية، وأن القدرة التامة والغِنى التام إنما هو لله تبارك وتعالى، ثنَّى بذكر عجز المخلوقات السماوية، وأنهم لا يفعلون شيئًا دون إذن الله تبارك وتعالى.

فهذا هو السبب الذي جاء من أجله بهذا الباب.

قال: باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، فُزِّع أي زال الفزع عن قلوبهم، ولذلك جاء بعدها بقوله: عن التي تفيد المجاوزة، أي جاوز الفزع قلوبهم.

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، ولم يقل: حتى فزعت قلوبهم، إنما قال: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، أي قال بعضهم لبعض، قال بعض الملائكة لبعضهم الآخر بعد أن زال عن هذا الفزع عن قلوبهم: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]، والضمير يعود إلى المسئولين الذين سُئلوا عن ذلك، فهم الذين أجابوا، أي قالوا: قال القولَ الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالحق صفة لمصدر محذوف، قال قول الحق أو القول الحق، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

والحق في قول الله تبارك وتعالى هو الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، أي أن الله إذا أخبر بخبر لا يُخبر إلا بما هو صِدق، وكذلك نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو حكم حكمًا فلا يحكم إلا بما هو عدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

(المتن)

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله».

(الشرح)

ويقال كذلك: خَضَعانًا لقوله، فهي بضم الخاء وتسكين الضاد، أو بفتح الخاء والضاد.

خُضعانًا أي خضوعًا، لقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

(المتن)

«كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض»، وصفه سفيان بكفه فحرَّفها وبدد بين أصابعه، «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها عن لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

(الشرح)

هذا الحديث تفسير لهذه الآية التي ذُكرت في الترجمة:

يقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إذا قضى الله الأمر في السماء»، يعني إذا تكلم بكلام أو بالأمر الذي يريده إلى جبريل عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فجبريل ملك الوحي.

«ضربت الملائكة بأجنحتها»، وهذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة، وسيأتي بعد ذلك إثبات القلب كذلك للملائكة.

«ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله»، الضمير يعود إلى قول الله تبارك وتعالى. **«كأنه»**، والضمير كذلك يعود إلى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

«كأنه سلسلة على صفوان»، أي على حجر أملس، فالتشبيه هٰهنا للسماع بالسماع لا المسموع بالمسموع.

كما نقول: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، فهذا ليس تشبيهًا للوجه بالوجه، أو المرئي بالمرئي، وإنما هو تشبيه الرؤية بالرؤية.

«كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك»، فإذا تكلم الله تبارك وتعالى يمضي فيهم كلامُه فيسمعه جميع الملائكة في السماوات، لا يتخلف عن واحد منهم، وهذا دليل على عِظم كلام الله تبارك وتعالى وعلى كمال صفاته.

فإذا حدث ذلك ارتجفت السماوات، وصُعقت الملائكة، كما سيأتي في الحديث الذي بعد ذلك، **«حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم»**، أي زال هذا الفزع عن قلوبهم بعد ذلك.

«قالوا: ماذا قال ربكم؟»، يسألون خشيةَ أن يكون القول الذي قاله الله تبارك وتعالى مما يصيبهم بعذاب من عنده أو بغير ذلك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فيقولون: **«ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير»**، إلى هنا هذا الحديث فيه إثبات خوف الملائكة، وفيه إثبات القلب للملائكة، ومعنى ذلك أن الملائكة أجسام مخلوقة، كما جاء في وصف خلقهم عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **«خُلقت الملائكة من نور»**.

فعلمنا من الكتاب والسنة أن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورُباع، يزيد في الخلق ما يشاء، وأنها تخاف، ولها قلوبًا، وأنها أجسام.

وكذلك فيه إثبات قول الله تبارك وتعالى، لأنهم قالوا: ماذا قال ربكم.

وهذا فيه رد على الجهمية المعطِّلة، لأن قول الله لو كان مخلوقًا لقالت الملائكة: ماذا خلق ربكم، وإنما قالوا: ماذا قال ربكم؟ فهذا فيه إثبات القول لله تبارك وتعالى.

قالوا: قال الحق وهو العلي الكبير، وهذا فيه إثبات عُلو الله تبارك وتعالى، وعُلو الله ثلاثة أنواع:

علو الذات، وعلو الشأن، وعلو القهر.

ما الذي يتفق فيه المسلمون؟ وما الذي يخالف فيه أهلُ البدعة أهلَ السُنَّة؟

ذكرنا أن العُلو ثلاثة أصناف، ما الذي يتفق فيه المسلمون سائرهم؟ يتفقون في علو الشأن والقهر، حتى أهل البدع لا يخالفون في هذا العلو لله ﷻ، فالله ﷻ عليٌّ الشأن وعليُّ القهر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وأما الذي يثبته أهل السُنَّة دون غيرهم فهو علو الذات.

قال: وهو العلي الكبير.

قال: «**فيسمعها مسترق السمع**»، أي الشياطين الذين يسترقون السمع لينالوا بعض ما يُقضى في السماء من الأمور الكونية القدرية، يعني يحج فلان هذا العام، يموت هذا في هذا العام، يُرزق هذا في هذا العام، يسترقون هذه الأمور، كل هذا بإذن الله وتقديره وقدره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لحكمة منه.

قال: «**ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**»، يعني يركب بعضهم بعضًا، إلى أن يصلوا إلى السماء الدنيا، وهذا يدل على كثرتهم وعلى عِظمهم.

قال: «**ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**»، وصفه سفيان بكفه فحرَّفها، يعني لم يجعل يده فوق بعضها، وإنما حرَّفها وبدد بين أصابعه، فصارت كالسُلَّم، هذا حالهم إذا أرادوا أن يسمعوا خبر السماء، بعضهم فوق بعض.

«فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها عن لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها»، والشهاب هو النجم الذي يلقيه الله تبارك وتعالى أو يقذفه ليحرق هذا الشيطان.

قال: **«وربما ألقاها قبل أن يدركه»**، يعني قبل أن يدركه هذا الشهاب ألقى هذه الكلمة إلى مَن هو دونه، ثم بعد ذلك إلى أن تصل إلى الكاهن، وكل ذلك بقضاء الله وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: **«فيكذب معها مائة كَذْبة»**، وهي بفتح الكاف وسكون الذال، يكذب معها مائة كذبة، وما أراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا التحديد وإنما أراد المبالغة.

يعني بكلمة واحدة صادقة يسمعها في السماء ويكذب معها مائة كذبة، يعني يبالغ في هذا الكذب.

«فيقال»:

يأخذ الشيطان هذه الكلمة التي سمعها في السماء وهي كلمة صادقة حقًا، فيذهب بها إلى الكاهن، فيذهب فلان إلى الكاهن، فيقول له: إنك في يوم كذا، أو في هذا العام سيحدث لك كذا وكذا وكذا، فيذكر كلمة واحدة ويضيف عليها مائة كذبة، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا يحدث الأول ولا الثاني ولا الثالث ولا الرابع ولا الخامس، لا تحدث كل هذه الأمور، وإنما تحدث هذه، فلوقوع هذه ينسى الناسُ، والناس المراد به الخصوص وليس جميع الناس، ينسى الناس هذه الكذبات ويصدِّقون الكاهن لأجل هذه الكلمة التي قالها.

ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟»**، أي فقد قال كذا، يعني هذه الكلمة يوم كذا وكذا فوقعت، قال: **«فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»**.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل التي ذكرها: قال: سبحان الله يتعلَّقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة، ففيه قبول النفوس للباطل.

يعني تجد أهل الشُبهات من السحرة والكُهان ومن أهل البدع يُلبِّسون على الناس، ويأتون بمائة شُبهة، وقد يصدُقون في كلمة يستدلون عليها بآية أو حديث من أحاديث النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فينسى الناس كل هذه الأمور التي أوقعت الناس في الفتن والظلمات، ويصدِّقونه من أجل هذه الكلمة التي قالها.

قال: **«فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»**.

هل استراق الشياطين السمع من السماء كان في زمن نزول الوحي على النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم أنهم مُنعوا من ذلك؟

إرسال الشُهب كان عند مبعث النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم تكن الشُهب ترسل قبل ذلك، أو كانت ترسل قليلاً، ولذلك جاء في الخبر أنه لـمَّا مُنع استراق السمع من السماء وأن الشُهب صارت تُرسل عليهم مِن قِبل الله تبارك وتعالى، قالوا: لقد حدث أمر ما، فنظروا فوجدوا بعثة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: أليس قد قال لنا كذا وكذا يوم كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

وفي صحيح البخاري مرفوعًا: **«إن الملائكة تنزل في العَنان»**، يعني في السحاب، **«فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكُهَّان»**.

أين الدلالة في هذا الحديث على الترجمة؟

الدلالة في بداية الحديث أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله»**.

ما وصف الملائكة؟ جاء في وصف الملائكة ما جاء من الوصف العظيم، فجاء في وصف جبريل أن له ست مائة جناح، كل جناح قد سد الأُفق، كل جناح يسقط منه التهاويل والدُرر، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآه ليلة المعراج.

وجاء في وصف الملائكة: أن سبعين ألفًا منهم يدخلون البيت المعمور كل يوم ثم لا يخرجون، وهذا دليل على كثرتهم، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وجاء في وصف أحد الملائكة أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام، أو خفقان الطير، أو كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجاء في وصف الملائكة: أن أحدهم على هيئة ديك، رأسه منثنية تحت العرش، ورجله قد مرقت في الأرض السابعة، يقول: سبحانك ما أعظمك.

يعني خلق الملائكة خلقٌ عظيم، ومع ذلك بمجرد كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الوجه الذي يليق به، خضعت الملائكة وصُعقت، ورجفت السماء، فهذا دليل على عِظم الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى عجز هذه المخلوقات السماوية.

(المتن)

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر**».

(الشرح)

وهذا فيه إثبات الإرادة لله تبارك وتعالى.

(المتن)

«**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي**».

(الشرح)

وهذا فيه إثبات الكلام، الله ﷻ يتكلم كلامًا حقيقًا، يتكلم متى شاء كيف شاء، ولذلك العلماء يقولون: أن الكلام صفة ذاتية فعلية، قديمة النوع حادثة الآحاد.

ما معنى ذاتية؟ أي أنها لا تنفك عن ذاته سبحانه وتعالى، لأن الكلام صفة كمال.

ما معنى فعلية؟ أي أنه يتكلم متى شاء، وليس معنى ذلك أنه تكلم قديمًا في الأزل ثم سكت، كما تقول الأشاعرة بالكلام النفسي، يقولون: القرآن كلام الله، ولكنه كلام قديم، تكلم الله ﷻ به في الأزل، في نفسه ليس بصوت ولا حرف، فجاءوا بالعجائب.

ما الدليل في هذا الحديث على أن الله يتكلم متى شاء ؟

إذا تدل على الشرط، قال: «**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي**»، فيتكلم إذا أراد.

(المتن)

قال: «**فإذا تكلم أخذت السماوات منه رجفة**».

(الشرح)

والسماوات مفعول به مقدَّم، والفاعل رجفة.

(المتن)

«**أخذت السماوات منه رجفة**».

(الشرح)

وهذا فيه كذلك عجز المخلوق، هذا فيه عجز السماوات على عِظمها ترتجف من كلام الله تبارك وتعالى.

(المتن)

«**أخذت السماوات منها رجفة أو قال رعدة شديدة خوفًا من الله عز وجل**».

(الشرح)

هذا فيه أن السماء تخاف، والله ﷻ قد أثبت صفاتٍ لكثير من الجمادات غير الإنسان.

فقال ﷺ عن أُحد: «**جبل يحبنا ونحبه**».

والجذع حنَّ للنبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والطعام كان يُسبِّح في كف النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وهنا في هذا الحديث: رجفت السماوات خوفًا من الله تبارك وتعالى.

وفي الآية: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهذا فيه إثبات هذه الصفات للمخلوقات.

فهذه الجمادات تعبد ربها تبارك وتعالى وتخشاه وتسبحه.

أما الذي يعصي ربه تبارك وتعالى فهم الإنس والجن.

فإذا كانت هذه الجمادات جُبلت على طاعة الرحمن تبارك وتعالى، فقد ركَّب الله ﷻ في الإنس والجن الإرادة والاختيار، فإن عصى-الإنسي- هواه ومراده وشهوته وأطاع الله ﷻ كان في منزلة هي أعلى من منزلة هؤلاء؛ في منزلة أعلى من منزلة من أطاع الله ﷻ جبلة وطوعًا. لماذا؟

أمامك الخير والشر، وعندك الإرادة والمشيئة، ومع ذلك تركت ما يوافق مرادك وهواك وشهوتك ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى.

ولذلك كان الصحيح من أقوال أهل العلم: أن صالحي بني آدم أفضل عند الله من الملائكة.

فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يخافون ربهم من فوقهم، يعني لا يتوقع ولا يتصور منهم المعصية، ومع ذلك صالحوا بنوا آدم أفضل عند الله ﷻ من الملائكة.

لماذا؟ لأن هذا الصالح ترك شهوته هواه ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى، نسأل الله أن يجعلنا من الصالحين.

(المتن)

«فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجدًا».

(الشرح)

والمقصود بأهل السماوات: الملائكة، هذا العالم السماوي على عِظم خلقه، بمجرد هذا السماع يُصعقون ويخرون سجدًا لله تبارك وتعالى.

قال: «فيكون أول».

(الشرح)

أولُ أو أولَ، يصح أن تكون اسم كان أو خبر كان مقدم.

(المتن)

قال: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل».

(الشرح)

هنا خطأ، وهو أن المحقق رفع الكلمتين، فنقول: فيكونُ أولَ من يرفع رأسهُ جبريلُ أو العكس.

(المتن)

«فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير».

(الشرح)

إذًا لمَّا قال: فإذا سمع ذلك أهل السماوات صُعقوا وخروا، لم يستثن منهم أحد، حتى جبريل على عظيم منزلته وخلقه يُصعق مع هؤلاء.

ما معنى جبريل؟ أي عبد الله، وميكائيل: عبيد الله، وإسرافيل: عبد الرحمن، وكل شيء إلى مضاف إلى إيل فهو معبَّد لله تعالى، هذا ذكره الطبري في تفسيره، والبخاري في صحيحه.

فمعنى جبريل؟ أي عبد الله، وميكائيل: عبيد الله، وإسرافيل: عبد الرحمن.

فجبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صاحب الخِلقة العظيمة، ومع هذه الخِلقة يُصعق، فخالقها أعظم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأجل، فكيف يُسوَّى بينهما؟ كيف يُسوى بين الخالق والمخلوق؟

فيُجعل المربوب ربًا والعبد معبودًا، كما يفعل كثير من الخلق، فيعبدون المخلوق شركًا بالله تبارك وتعالى.

أما الكامل في صفاته وفي ذاته وفي فعاله القادر غير العاجز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو الذي يستحق العبادة دون مَن سواه.

هل ثبت أن إسرافيل له ستمائة جناح، الجناح الواحد أكبر من الستمائة التي يمتلكها جبريل؟

هذا لا يثبت، الثابت: أن جبريل هو أشرف الملائكة وأعظمهم خلقًا.

وأما هؤلاء الثلاثة فهم أعظم الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل.

ولذلك كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة الليل يستفتح صلاته يتوسل إلى الله تبارك وتعالى بربوبيته لهذه الملائكة الثلاثة: **«اللَّهم رب جبريل ورب ميكائيل وإسرافيل»**.

لماذا؟

قال العلماء: لأن كل واحد من هذه الثلاثة موكَّل بحياة، فجبريل موكَّل بحياة القلوب، والوحي حياة القلوب.

وميكائيل موكل بالقطر الذي هو حياة الأبدان.

وإسرافيل موكل بالبُوق، بالصور الذي فيه بعث الأجساد بعد الموت مرة أخرى.

فهؤلاء هم أعظم الملائكة وأشرفهم عند الله تبارك وتعالى، أما هذا المذكور عن إسرافيل فلم يثبت.

«يقولون: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحُجة على إبطال الشرك، خصوصًا من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

(الشرح)

ما هذه الآية؟ هي هذه الآية التي معنا، ولو ضممنا لها الآيتين اللتين سبقتا هذه الآية لكان الأمر واضحًا.

فإن المخلوق يتعلق بمن يظن فيه أحد الأمور الأربعة المذكورة: الملك أو المشاركة في الملك أو الإعانة أو الشفاعة.

فنفى الله تبارك وتعالى هذه الأمور الأربعة، وأثبت قدرته التامة ومُلكه التام سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لو نظرت إلى هذه الآيات:

يقول الله ﷻ فيها: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [سبأ: ٢٢]، فنفى الله عنهم المِلك، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، وهذه نكرة في سياق النفي، فليس لهم أي ملك، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، قد لا يكونوا مالكين ولكن شركاء، فنفى عنهم الشراكة، فلا شراكة مع الله تبارك وتعالى.

قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»، سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قد لا يكونون شركاء، ولكن مُعينين لله تبارك وتعالى، قال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

قد لا تكون الأولى ولا الثانية ولا الثالثة، ولكن لهم وجاهة وشفاعة عند الله ﷻ قال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فلا شفاعة إلا لمن يأذن له تبارك وتعالى.

ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، أي عن قلوب الملائكة، فالملائكة على عِظم خلقهم وقوتهم يفزعون من تعظيم الله، فمن عرف ما يصيب السماوات من ارتجاف وصعق لأهلها بمجرد تكلم الله تبارك وتعالى بالوحي انقطعت عروق الشرك من قلبه.

بمجرد كلام الله ﷻ ترتجف الملائكة وترتجف السماوات، فهذا يقطع عروق الشرك من قلب العبد ويجعله يجرِّد التوحيد لله تبارك وتعالى.

(المتن)

الثالثة: تفسير قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

(الشرح)

أي أنهم سألوا: ماذا قال ربكم؟ فلماذا سألوا؟

قلنا: خوفًا وفزعًا أن يكون القول فيهم، فهذا هو سبب السؤال.

(المتن)

الخامسة: أن جبريل هو الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال كذا وكذا».

(الشرح)

أي قال الحق، وقول ربنا حق دائمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك قول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

السادسة: ذِكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

السابعة: أن يقول لأهل السماوات كلهم، لأنهم يسألونه.

(الشرح)

وهذا دليل على مكانة جبريل، أنه يقول الذي سمعه من ربنا تبارك وتعالى لأهل السماوات.

(المتن)

الثامنة: أن الغَشي يعم أهل السماوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

(الشرح)

وهذا فيه أمانة جبريل، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيه: «فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله»، فلا يتقدم ولا يتأخر ولا يخالف ربه تبارك وتعالى.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فَوَصَفَهُ الله ﷻ بالأمانة.

وقال في آية أخرى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]، أي الخَلْقِ العظيم.

فجمع الله ﷻ له بين حُسن الخَلق والخُلق، فجبريل عليه السلام حسن الخَلق وحسن الخُلق عليه السلام، فهو أمين وهو جميل، قد كمُل ظاهراً وباطناً عليه السلام.

(المتن)

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا.

(الشرح)

استدل بعض أهل العلم من هذا الحديث على أن عالم الجن متقدم جدًا، وعندهم من الخوارق ما ليست عند الإنس.

(المتن)

الثالثة عشرة: سبب إرسال الشهب.

(الشرح)

ومن أراد أن يعرف قوتهم فليقرأ قصة بلقيس مع سليمان، كيف قال: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ [النمل: ٣٩]، وقال الثاني: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠]، قيل: الثاني أيضًا من الجن، ويسمى بآصف، وهذا كله من إقدار الله ﷻ لهؤلاء، ومع ذلك المؤمن بما معه من حصن وأذكار يستطيع أن يقهر أي جني مهما كانت قوته.

ولذلك قال الله ﷻ عن كيد الشيطان: إنه ضعيف.

(المتن)

الثالثة عشرة: سبب إرسال الشهب.

(الشرح)

لماذا يرسل الله ﷻ الشُهب؟

هذا هو التفسير القرآني أو التفسير الشرعي الغيبي لهذه النيازك والشُهب التي ترونها، أن الله ﷻ يرسلها على الشياطين.

وتفسير هذه الظواهر بالأمور الشرعية: أدعى وأولى بالقبول من تفسيرها بالنظريات العلمية.

نحن لا نجادل ولا نرد تفسيرها بالنظريات العلمية إذا ثبت ذلك حقًا، فالعلم مثلًا أثبت أن الكسوف متى يحدث؟ إذا كان القمر بين الشمس وبين الأرض.

العلم الحديث والتجربة أثبتت ذلك، لا نعارض ولا نقول أن هذا كذب، لأن هذا لم يرد في كتاب الله ولا في سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..

التفصيل في الشرع جاء في الأمور الشرعية، ولكن إن أثبت العلم الحديث ذلك بما لا يعارض القرآن والسُنة نقول: قبلنا ذلك، ولكن الاعتماد على تفسير هذه الأمور بمثل هذا الأمر المجرد مما ينزع الخوف من القلب.

انظر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا كسفت الشمس على عهده ماذا صنع؟ خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجر إزاره، وهرع إلى الصلاة، وكان يدعو ربه تبارك وتعالى، وأطال الصلاة، وأطال الثناء على ربه عَزَّ وَجَلَّ، وأمرنا بالصدقة، لماذا؟

لأنه فسَّر ذلك لنا تفصيلًا شرعيًا، ما هو؟ **«إن الشمس والقمر آيتين من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، وإنما يُخوِّف الله بهما من يشاء من عباده»**.

فأنت لـمَّا تنظر إلى الكسوف أو الخسوف على أنه آية من آيات الله عَزَّ وَجَلَّ يُحذِّر الله بها عباده ويخوِّف بهما عباده ترى الناس يهرعون إلى الصلاة.

أمَّا الآن فبعض الناس ينتظر الكسوف، وكل واحد معه مثل الأشعة السوداء أو النظارة الشمسية وينظر إلى الكسوف ويفرح ويمرح، وقد يكون هذا عذابًا من الله عَزَّ وَجَلَّ.

فتفسير هذه الأمور بالأمور الشرعية أولى وأحرى وأدعى لأن يخاف المرء ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

(الشرح)

فهذا أمر قدَّره الله ﷻ. قد يقول قائل: كيف لهذا الشيطان أن يسترق السمع فيأتي ببعض الأمور من قِبل السماء من قضاء الله وقدره، ثم يتركه الله ﷻ؟

نقول: إنما أذن الله ﷻ وترك ذلك لحكمة قد تخفى علينا.

المعاصي موجودة في هذا الكون، إبليس، يأجوج ومأجوج، المسيح الدجال آخر الزمان، هذه كلها شرور، ومع ذلك يوجِدها الله تبارك وتعالى ابتلاءً واختبارًا للعباد، لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون.

(المتن)

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

(الشرح)

قلنا: أن هذا على سبيل المبالغة.

(المتن)

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة؟!.

التاسعة عشرة: كونهم يلقي بعضهم إلى بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة.

(الشرح)

قلنا: في هذا الحديث صفة الكلام، والعلو كذلك، والإرادة.

(المتن)

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي كانا خوفًا من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجدًا.

(المتن)

باب الشفاعة.

(الشرح)

جاء بهذا الباب كبرهان آخر من براهين التوحيد، ليبين تمام قدرة الله تبارك وتعالى، وأن الله هو الذي يملك الشفاعة، وأنه هو المستحق أن يوحَّد، إذ غيره لا يشفع إلا بعد إذنه ورضاه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كما سيأتي في الآيات.

الشفاعةُ لغةً: هي اسم من شَفَع يشفعُ إذا جعل الشيء اثنين، قال: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [الفجر: ٣]، والشفع ضد الوتر.

واصطلاحًا: التوسط للغير لجلب خيرٍ أو دفع ضَيْر.

أن يتوسط المخلوق عند الخالق لأحد أمرين: إما لجلب نفع أو لدفع مضرة.

جلب النفع مثل شفاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم القيامة لأهل الجنة أن يدخلوها، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو أول من يُحرِّك حِلَق أبواب الجنة.

فيشفع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عند ربه بعد إذنه ورضاه ليفتح باب الجنة، فهذا من باب جلب النفع.

ودفع الضر: أن يشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، يعني إنسان استحق النار، فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، كما سيأتي في أقسام الشفاعة بعد ذلك.

قال: **باب الشفاعة.**

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾، وقوله: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾، وقوله: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾، الآيتين.

(الشرح)

في هذه الآيات: بيان أن الشفاعة نوعان: شفاعة منفية وشفاعة مُثبتة.

فالشفاعة الواردة في الكتاب والسُنة نوعان: شفاعة منفية، وهي الشفاعة فيمن كفر فلم يرض الله عنه، ولم يأذن للشافع أن يشفع فيه في الآخر، وهذه اعتمد عليها المعتزلة والخوارج في نفي الشفاعة عن عصاة الموحدين، فقالوا: لا شفاعة فيمن مات على معصية فهو خالد مُخلَّد في النار.

وشفاعة مُثبتة للموحدين بشروطها في الآخرة، وتلك غلا فيها الصوفية وكذلك أهل الشرك فأثبتوا الشفاعة للأصنام والمقبورين وجعلوهم واسطة بينهم وبين الله يعبدونهم –وإن فرُّوا من تسمية فعلهم عبادة– ليقربوهم إلى الله زلفى.

ولذلك تجدهم يتوسلون بالصالحين والمقبورين والأنبياء والأولياء، ويتخذونهم شفعاء عند الله تبارك وتعالى.

وأما الوَسَطية فهي حال أهل السُنَّة؛ فإنهم أثبتوا الشفاعة ولكن بشروط، إن وُجدت هذه الشروط كانت الشفاعة، وإن لم توجد فلا شفاعة.

الشفاعة المنفية كما ورد في هذه الآيات: هي ما كانت خالية من أمرين:

مِن إذن الله تبارك وتعالى ورضاه، فإن كانت الشفاعة خالية من إذن الله، لم يأذن الله ﷻ للشافع أن يشفع، ولم يرض عن الشافع ولا المشفوع فيه، فهذه شفاعة منفية.

قد يرضى الله ﷻ عن الشافع، ولكن لا يرضى عن المشفوع فيه.

كما رضي سبحانه عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولم يرضى عن أبيه، فيشفع إبراهيم في أبيه يوم القيامة فلا يقبل الله ﷻ شفاعته في أبيه، لأنه مات على الكفر والشرك.

فالشفاعة المنفية: ما لم تتحقق فيها أمران:

الإذن والرضا، ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦].

والمثبتة: هي التي أثبتها الله ﷻ لمن شاء.

إذًا مدار الشفاعة نفيًا وإثباتًا على الإذن والرضا.

مع النفي لو نفينا الشفاعة: يكون عدم الإذن والرضا مانعين من الشفاعة.

مع الإثبات: يكون الإذن والرضا شرطين في الشفاعة.

قال الشيخ ابن عبد الوهاب في القاعدة الثانية من القواعد الأربع: والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله، والشافع مُكرم بالشفاعة، الشافع مُكرم، هذا من إكرام الله للشافع، أن يأذن الله لعبد من عباده أن يشفع هذا تكريم من الله.

ولذلك كانت شفاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العظمى في أهل الموقف يوم القيامة تسمى بالمقام المحمود، لأن الله يُكرِم نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذا الموقف، وليس لأحد غيره من الأنبياء.

قال: والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن.

هذه الآيات التي ذكرها أين الدلالة فيها؟

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾، والإنذار هو الإعلام مع تخويف، أن يُعلِم مع تخويف هذا يسمى بالإنذار.

﴿ وَأَنذِر بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾، يعني به المؤمنين، فالذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم هم المؤمنون، ولذلك عبدوا ربهم تبارك وتعالى.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾، وهذا هو موطن الشاهد.

قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالشفاعة بإذنه سبحانه ممكنة، وبدونه مستحيلة.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبلها: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في استفهامات القرآن، كما في هذا الاستفهام: : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾.

قال: إذا جاء الاستفهام على أمر قدري فالمراد به النفي وعدم الوجود، قال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]، هذا نفيٌ لقدرة أي أحد على إحياء العظام إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأن إحياء الخلق هذا أمر قدري.

في هذه الآية قال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾، فالأصل في الإنسان أن يدعو ربه تبارك وتعالى وألا يتخذ شفعاء من دونه ﷻ، فالتكليف مداره على الأمر والنهي، فهذا أمر تكليفي وليس أمرًا قدريًا.

فالنفي في الاستفهام في الأمور التكليفية مداره على النهي والذم والعتاب.

قال لوط لقومه: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]، خالفوا النهي، فمراد الاستفهام هنا الذم والنهي.

قال الله ﷻ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم: ١]، فالاستفهام هنا مراده النهي والعتاب، يعاتِب الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا كان الاستفهام في أمر قدري فالمراد به النفي، وإذا كان في أمر شرعي فالمراد به النهي والعتاب والذم.

ففي عتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المراد به العتاب والنهي لا الذم.

قال: ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾، الشاهد هاهنا أن الله حصر ملك الشفاعة فيه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ما وجه الحصر من جهة اللغة؟ تقديم ما حقه التأخير، لأننا لو أردنا أن نُعرِب هذه الجملة: ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾، لله الشفاعة مبتدأ وخبر، أين المبتدأ وأين الخبر؟

الشفاعة هي المبتدأ المؤخر، ولله الخبر المقدم، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فحصر ملك الشفاعة في الله تبارك وتعالى.

ثم قال: جميعًا، جاء بها تأكيدًا لهذا الأمر، فلم يكتف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالحصر من هذه الجهة من تقديم ما حقه التأخير وإنما جاء كذلك بمؤكد.

وقوله: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾، وهذا فيه اشتراط الإذن، فلا شفاعة استقلالًا، وإنما لا بد من إذن الله تبارك وتعالى.

أين شرط الرضا في هذه الآية؟

أنَّه لن يأذن إلا إذا رضي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالإذن متضمن للرضا.

وقوله: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴾، فالملائكة مع كثرة عددها لابد لشفاعتها من شرطين، لكن من أين جئنا هنا في الآية بكثرة عددها؟ بكم، كم هاهنا استفهامية أم خبرية؟

كم خبرية تدل على الكثرة، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾، فالملائكة مع كثرة عددها وعِظم خلقها، وطاعتها لربها لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، الآيتين.

وقد ذكرنا الكلام عن هذه الآيات التي تقلع شجرة الشِّرك من جذورها.

(المتن)

قال أبو العباس في هذه الآية السابقة.

(الشرح)

أبو العباس الذي هو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(المتن)

نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره مُلك أو قِسط منه.

(الشرح)

القِسطُ هو النصيب والمشاركة.

(المتن)

أو يكون عونًا لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولًا، ثم يقال له: «**ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفع**».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: **«من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»**، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته.

(الشرح)

أي حقيقة الشفاعة، ولذلك في نُسخة: وحقيقتها.

(المتن)

أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص.

(الشرح)

فالشفاعة –كما سبق– إكرام من الله ﷻ.

(المتن)

فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع.

(الشرح)

مع أن الله ﷻ قد يغفر لهم ابتداءً، الله ﷻ لا يحتاج لمن يشفع عنده ليغفر للخلق، ، ولكن جعل الشفاعة إكرامًا للشافع، هذه حكمته، وهذا قضاؤه.

(المتن)

ليكرمه وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص، انتهى كلامه.

(الشرح)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدارج السالكين في هذه الآية: قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعًا ممن تُرجى منفعته من إحدى الخصال الأربع، يعني في هذه

الآيـة، التـي هـي أن يكـون مالكًـا، أو شريكًـا، أو معينًـا للمالـك وظهـيرًا، أو أن يكـون شفيعًا عنده.

قال: فنفى هذه المراتب نفيًا مرتبًا.

قلتُ: انظر إلى دقة الاستدلال وتدبر القرآن: أن النفي هاهنا جاء من الأعلى إلى الأدنى، فأعلى المراتب أن يكون مالكًا، وأدنى المراتب أن يكون شفيعًا فقط.

قال رحمه الله: فنفى هذه المراتب نفيًا مرتبًا منتقلًا من الأعلى إلى الأدنى، فحقيقة العبودية تجريد التوحيد لله تعالى، وذلك بتجريد حبه وخوفه، إذا سأل سأل الله، وإذا توكل توكل على الله، وإذا استعان استعان بالله، فهو لله وبالله ومع الله.

قلت: ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية:

فلواحد كن واحدًا في واحد   أعني سبيل الحق والإيمان

فلواحد: لله ﷻ.

كن واحدًا: أي مخلصًا.

في واحد: في طريقٍ واحدٍ، متابعًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك فسَّره قال: أعني سبيل الحق والإيمانِ، فلن يُحصِّل الشفاعة إلا مَن جرَّد التوحيد لله تبارك وتعالى.

سبب حصول الشفاعة:

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أمورًا يستطيع المرء أن يُحصِّل بها الشفاعة يوم القيامة: أن يكون مشفوعًا أو شافعًا.

▪ أولها وأعظمها: **إخلاص التوحيد لله** تعالى كما في هذا الحديث حديث أبي هريرة قال: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة يا رسول الله؟ قال: «**من قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله خالصًا من قلبه**»، يعني جاء بها بعد أن فهم معناها وعمل بمقتضاها.

▪ وكذلك جاء في السُنَّة: متابعة المؤذن، ثم يقول بعد ذلك: اللّٰهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته.

فمن قال هذا بعد أن يتابع المؤذن، قال النبي ﷺ: **«حلَّت له شفاعتي»**، أي يشفع فيه النبي ﷺ.

▪ وكذلك: إذا أراد المرء أن يكون شافعًا يوم القيامة، في قريب له موحد دخل النار، فيريد أن يشفع فيه، فقال النبي ﷺ: **«إن اللعَّانين لا يُبعثون شفعاء يوم القيامة»**، الإنسان كثير اللعن -كما هو مقتضى صيغة المبالغة- الذي يقول: الله يلعنك، لعن الله فلانًا، لعن الله.. فهذا لا يُبعث شافعًا يوم القيامة، لا يؤذن له في أن يشفع في غيره يوم القيامة.

نقول كذلك كما قال علماؤنا:

الشفاعة يوم القيامة قسمان:

- شفاعة خاصة بالنبي ﷺ لا يشركه فيها أحد، أعظمها: الشفاعة العظمى في أن يشفع عند الله في أهل الموقف ليبدأ الله تبارك وتعالى الحساب.

وكذلك شفاعته في دخول الجنة.

وكذلك شفاعته في عمه أبي طالب ليُخفَّف عنه العذاب، لا ليخرج من النار.

- والقسم الثاني: الشفاعة العامة له ولجميع المؤمنين، كأن يشفع المرء فيمن دخل النار أن يخرج منها، قال النبي ﷺ: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**، فإذا دخل أقوام النار يوم القيامة من الموحدين شفع فيهم النبي ﷺ وذووهم، وشفعت الملائكة، وأخرج الله ﷻ من أخرج برحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما في حديث أبي سعيد الخدري في الصحيحين، وغيره من الأحاديث المتواترة.

وكذلك الشفاعة فيمن استحقها ألا يدخلها.

وهذا القسم مذكور في أقسام الشفاعة: أن يُشفع في أقوام يستحقون دخول النار فيُشفع فيهم حتى لا يدخلوا النار.

وبعض أهل العلم أنكر هذا القسم فقالوا: لا دليل عليه، لا دليل على أن المرء إذا كان مستوجبًا للنار أنه قد يُشفع فيه لئلا يدخل النار، وإنما الثابت في الأحاديث أنه يُشفع فيه ليخرج من النار بعد الدخول فيها.

ولكن كما قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد يُستدل لهذا القسم بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من ميت يصلي عليه أربعون أو قال: مائة إلا شُفِّعوا فيه»، فتكون هذه الشفاعة إنقاذًا له من النار، فقد يكون من أهل النار فتكون هذه الشفاعة لئلا يدخل النار.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

(الشرح)

قلنا: وذلك إذا لم يتوفر فيها شرطان: الإذن والرضا.

(المتن)

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

(الشرح)

وشرطها أن يتوفر فيها الإذن والرضا.

(المتن)

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الحديث: يسجد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يشفع ابتداءً، وهذا فيه دليل على كمال أدبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولًا، بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع.

(الشرح)

فهذا دليل على أمرين:

أولًا: على عِظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعِظم الموقف، فأعظم الخلق نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك لا يتقدم لهذا الأمر إلا من بعد أن يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ له.

ودليل على كمال أدب النبي وكمال عبوديته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

السادسة: من أسعد الناس بها؟

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

(الشرح)

فحقيقة الشفاعة إكرام لأهل التوحيد المخلصين لا للمشركين.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

(الشرح)

ذكر الإمامُ المجدد بعد الترجمة حديثًا واحدًا، فهذا الباب فيه دليلان على ما أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبرهن عليه.

في الأبواب السابقة أراد المصنف أن يُدلِّل على عجز المخلوق وقُدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك في هذا الباب أراد أن يبين مُلك الله التام، وتصرفه في خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكما أنه لا يملك الشفاعة إلا هو، فكذلك في هذا الباب لا يملك الهداية إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أعني هداية التوفيق والقبول.

فالهداية هدايتان:

- الهداية الأولى: هداية الدلالة والإرشاد والبيان، وهذه أثبتها الله تبارك وتعالى لنبيه لمَّا قال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِث مبلِّغًا وهاديًا ومرشدًا ونذيرًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك هي لمن بعده من العلماء، فهم يهدون الناس هداية إرشاد وبيان.

- وأما الهداية التي ليست لأحد إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهي هداية التوفيق والقَبول، أن يوفِّق الله عبدًا لِفعلٍ ما: من صلاة، أو زكاة، أو حج أو أي عمل من الأعمال الصالحة، وهذه هي التي نفاها هاهنا في هذا الباب عندما خاطب نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

فلا هاهنا نافية، فنفت هذه الهداية عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الآية كما سنرى نزلت في أبي طالب عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا جَهِدَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُنقذه من النار ولكن نفذت مشيئة الله، فكان آخر ما قاله: هو على ملة عبد المطلب.

فأراد المصنف بهذا الباب أن يرد على عبَّاد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين النفع والضَر.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو النبي في حياته لم يستطع أن ينقل عمه أبا طالب من الكُفر إلى الإيمان، فكيف ينفع بعد مماته؟ كيف ينفع مَن دونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

(المتن)

وفي الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

(الشرح)

هذا الحديث موافق للترجمة التي ترجم بها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال: في الصحيح عن ابن المسيب، وهو سعيد بن المسيب، سيد التابعين.

عن أبيه: وهو المسيب بن حَزْن، وهو صحابي جليل، مات في خلافة عثمان، وجدُّه كذلك حَزْن صحابي جليل.

قال: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهذا فيه شفقةُ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أمته وعلى أهله خاصة.

وعلمنا في الأبواب السابقة كيف أنه صعد الصفا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فعمَّ وخصَّ يُنذرهم، لأنه يخاف عليهم من عذاب الله تبارك وتعالى.

فلما علم أن أبا طالب قد شارف على الموت، وأن الروح لم تبلغ الحلقوم، وأن هذه الكلمة قد يقولها فتكون سببًا في نجاته جاءه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: يعني النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«يا عم»**، وأصلها: يا عمي، فحُذفت الياء وبقيت الكسرة علامة عليها، فهو منادى مضاف.

قال: **«يا عم، قل: لا إله إلا الله»**، فأمره أن يقول هذه الكلمة، وما قال اعتقِد معناها، واعلم أن معناها: لا معبود بحق إلا الله، لماذا؟

لأن العرب كانوا يعلمون مدلول هذه الكلمة، فهم يعلمون أنهم إن قالوها فمعناها لا معبود حق إلا الله تبارك وتعالى، ومعناها: أن يتبرؤوا من الشرك.

ولذلك لو قالها لكانت سببًا في نجاته إن شاء الله.

فقال له: **«قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»**، أو كلمةٌ أحاج لك بها عند الله.

لو قلنا: كلمةً فهي بدل من لَا إِلَهَ إِلَّا الله، من كلمة التوحيد.

ولو قلنا: كلمةٌ فهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي كلمة أُحاج لك بها عند الله.

فقالا له: يعني عبد الله وأبا جهل: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فهذا فيه أن ملة عبد المطلب تخالف هذه الكلمة معنىً ومضمونًا، فملة عبد المطلب ملة الشرك، وهذه الكلمة إنما توحيد الله تبارك وتعالى والبراءة من الشرك.

ولذلك قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فأعادا، يعني لمَّا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، أعادا عليه الكلمة، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

لماذا أعادوا مرة ثانية بعد أن عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لأنهم يعرفون معنى هذه الكلمة، وأن أبا طالب لو قالها لتبرأ من ملة عبد المطلب، وأن ملة عبد المطلب تعظيم الأصنام والشرك بالله تبارك وتعالى.

فمنعوه من أن يقول هذه الكلمة وأن يُقر بها وأن ينطق بها، وهؤلاء كانوا يعلمون أن الله تبارك وتعالى هو المستحق للعبادة، ويعلمون معنى هذه الكلمة، ولكنهم أبوا أن يقولوها استكبارًا.

كما قال الله ﷻ في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، يعني يستكبرون عن النُطق بها وعن الخضوع لمعناها ومضمونها.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]، فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم فقال: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، وهذه عادة القرآن أنه لا يُقر على باطل.

القرآن يُقر على ما هو صِدق، أما إن كان في الكلام باطل فإنه لا يُقره.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا:

في هذه الآية قال: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]، رد الله عليهم ولم يقرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ذلك، فقال: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

وفي سورة الأعراف لمَّا قالوا: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وجدنا عليها آبائنا هذا معلوم وهذا مُصدَّق، ولذلك لم يرده الله تبارك وتعالى، فردَّ الله ﷻ على الأخرى، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فكانوا يستكبرون عن هذه الكلمة يأبون النطق بها.

أعاد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وهذا فيه كذلك حرص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نجاة عمه أبي طالب من النار.

وكذلك مما يدل على حرص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا دخل على الغلام اليهودي، فما تركه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قال الكلمة التي أنقذته من النار.

قال: فكان آخر ما قال، وآخر: خبر مقدَّم، هو على ملة عبد المطلب، هذا اسم كان.

فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب.

الأصل أنه قال: أنا على ملة عبد المطلب، ولكن غيَّر الراوي هذه اللفظة استقباحًا.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا من التصرفات الحسنة.

وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»**، فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، وهذا خبر من الله تبارك وتعالى بمعنى النهي.

هذا نفي، قال: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ [التوبة: ١١٣]، هذا نفي، والنفي خبر، وهو أبلغ من النهي، لأنه نهي وزيادة يدل على استقرار هذا الأمر، أي هذا مما لا ينبغي؛ أن يستغفر نبيٌّ للمشركين ولو كانوا أُولي قربى.

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

فهذه الترجمة مع الحديث فيها بُرهان على أن الأمر كله بيده الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن القلوب بيد الله سبحانه يصرفها كيف يشاء.

طلبَ النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من عمه أبي طالب أن يقول الكلمة وهو النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومع ذلك الأمر كله بيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، يهدي من يشاء ويُضل من يشاء سبحانه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله:: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء ﴾.

(الشرح)

ما نوع الهداية المنفية هاهنا؟ هداية التوفيق.

إذاً لا تعارض بين هذه الآية وبين الآية الأخرى التي فيها إثبات الهداية، لأن الهداية الأخرى هداية الإرشاد.

فالهداية على العموم: هدايتان، وإن كان ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في شفاء العليل أوصلها إلى أنواع خمسة:

هداية عامة: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ١ - ٣]، فهذه هداية لجميع الخلق.

ثم بعد ذلك: هداية الإرشاد والبيان ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم بعد ذلك: هداية التوفيق والقبول ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

ثم بعد ذلك: الهداية يوم القيامة: إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥].

فالمرء يوم القيامة لا يتكلم، فضلًا عن أن يتحرك إلا بإذن الله، لأن الأمر كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقال الله ﷻ في أهل الجنة: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال في أهل النار في سورة الصافات: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٣].

فهذه أنواع خمسة، لأن يوم القيامة هدايتان: هداية إلى الجنة وهداية إلى النار.

(المتن)

الثانية: تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾.

(الشرح)

قلنا: هذا فيه بيان حرمة ذلك، فإذا مات المرء مشركًا، غير موحد، فلا يُستغفر له، هذا أولًا، لأن الله ﷻ قال: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ ﴾.

وقلنا: النهي أبلغ من النهي، لأنه نهي وزيادة، ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي».

إذًا إذا مات مشركًا فلا يُستغفر له، ولا يُحد عليه، فالحداد على المسلم لا على الكافر كما بيَّن شُرَّاح هذا الكتاب.

الشيخ ابن عثيمين قال: لا يُحد عليه، يعني لا نقف دقيقةَ حدادٍ على أحد من المشركين من النصارى إن مات يقال: دقيقة حداد على كذا، أو على كذا، كما يفعلون عياذًا بالله، فهذا لا يجوز.

فضلًا عن أن هذا الفعل من مشابهة المشركين، فليس في الإسلام ما يسمى بالوقوف دقيقة حداد حتى لو كانت على رجل مسلم.

ولا يوصَف بالمرحوم، يعني لا يقال: المرحوم بوليس أو بابا الفاتيكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو شنودة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما كان يقول هؤلاء، لأن الرحمة إنما هي لعباد الله الموحدين، أما المشركين فإن الله ﷻ حرَّم الجنة على مَن أشرك بالله تبارك وتعالى.

فلا يوصف بالمرحوم، ولا يُستغفر له، ولا يُحد عليه.

(المتن)

الثالثة: وهي المسألة الكبرى – تفسير قوله صلى الله عليه وسلم: **«قل: لا إله إلا الله»**، بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

(الشرح)

فبضدها تتميز الأشياءُ.

لمَّا قال له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ علمنا من هذه الكلمة معنى: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، لأن ملة عبد المطلب مبناها على الشرك.

إذن لَا إِلَهَ إِلَّا الله معناها التوحيد، فمعنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله أي لا معبود حق إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قال: بخلاف ما عليه من يدَّعي العلم: فكثير ممن انتسب للعلم أخطئوا في مدلول هذه الكلمة وفي معناها، من الأشاعرة والمعتزلة، فلو سألت الواحد منهم والصوفية

كذلك، لو سألت الأشاعرة: ما معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله؟ يقولون: لا قادر على الاختراع إلا الله.

ولذلك مدار إثباتهم للتوحيد: لا يخرج على فَلَكِ الربوبية، تقريرات الأشاعرة كلها تدور في فلك الربوبية، يثبتون الربوبية، لا يتعرضون لإثبات الإلهية، وإن فعلوا في شروحاتهم وتفاسيرهم فنادراً، وأما تقريراتهم في كتب الكلام فلا تخرج عن إثبات الربوبية!!

وقد ذكرنا قصةً قبل ذلك: قصة المرأة التي رأت الجمع العظيم حول الرازي، فلما سألت وقالت: من هذا؟ قالوا: ألا تعرفين هذا؟ هذا عالم، هذا مع ألف دليل على إثبات ربوبية الله ﷻ، قالت: أفي الله شك؟

يعني بحث حتى وجد ألف دليل يُثبت به الربوبية لله ﷻ؟ هذه فطرة فطر الله الناسَ عليها.

الله ﷻ قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فالإنسان مفطور على الإقرار بربوبية الله تبارك وتعالى.

ولذلك المشركون ما كانوا ينازعون في الربوبية، ومع ذلك الأشاعرة يقولون: لَا إِلَهَ إِلَّا الله أي لا قادر على الاختراع إلا الله، والقدرة على الاختراع فِعل الله ﷻ.

إذًا هم ما خرجوا عن معنى الربوبية.

وغلاة الصوفية يقولون: معنى لَا إِلَهَ إِلَّا الله: أي لا موجود إلا الله، فجعلوا كل شيء في هذا الكون هو صورة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأهل السُنَّة وُفِّقوا للمعنى الحق الذي دلت عليه النصوص: أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله معناها: لا معبود حق إلا الله، فأقروا بمعناها، ولم يعبدوا أحدًا مع الله تبارك وتعالى، فوافقوها قولًا وعملًا واعتقادًا.

فهذه مسألة كبيرة.

(المتن)

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال للرجل: قل لا إله إلا الله، فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام!!

(الشرح)

هذه كلمة عظيمة، **قبَّح اللهُ من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام**.

قلنا: إن كثيراً ممن يقولها لا يفهم معناها، يؤلِّف الكُتب في بيان أن معناها: لا قادر على الاختراع إلا الله، وأبو جهل كان يعلم معناها، ولذلك أبى أن يقولها.

فأبو جهل كان يعرف معناها، من أين علمنا أنه كان يعرف معناها؟ أنه قال له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ أتترك دين عبد المطلب؟ لَـمَّا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله».

فهؤلاء علموا أن معناها ينافي ملة عبد المطلب، حتى هم سموها ملة، فمعنى ذلك: أن دين عبد المطلب في جانب ودين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جانب آخر.

(المتن)

الخامسة: جِدُّه.

(الشرح)

أي: سعيه واجتهاده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

جِدُّه صلى الله عليه وسلم ومبالغته في إسلام عمه.

(الشرح)

وذلك لقرابته، هو عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولًا، ولِما أسداه للنبي ولدين الإسلام من الخدمة العظيمة، فقد كان ينافح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما تعرَّض النبي لأشد الأذى إلا بعد موت أبي طالب.

كان ينافح عنه، بل كان يقول القصائد في صِدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يقول:

ولقد علمت بأن دين محمدٍ　　من خير أديان البرية دينًا

لو لا الملامة أو حذاري مسبَّة　　لرأيتني سمحًا بذاك مبينًا

فكان يعلم صِدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك مات ولم يقل هذه الكلمة لبيان قدرة الله التامة وبيان قدرة الله النافذة في خلقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وله في ذلك الحِكَم العظيمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

(الشرح)

فبعض الرافضة يزعمون أن عبد المطلب كان على الإسلام وأنه أسلم، وكذلك يزعمون أن أبا طالب كان مسلمًا، ففي هذا الحديث أن عبد المطلب كان على الشرك، وأن أبا طالب مات كذلك على الشرك، ولكنه أخف أهل النار عذابًا، كما شفع فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُوضع في قدمه جمرتان تغلي منهما دماغه، عياذًا بالله.

(المتن)

السابعة: كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يُغفر له، بل نُهي عن ذلك.

(الشرح)

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استغفر له، مع أنه أشرف الخلق، ومع أنه أقرب الناس لإجابة الدعاء، ولكن لمَّا وُجِد المانع انتفت الشفاعة وإجابة الدعاء.

الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يشفع في أبيه يوم القيامة فلا يُشفَّع فيه، لماذا؟ لوجود المانع الأعظم الذي هو الشرك، فهذا يجعلنا نحذر من الشرك، وأن نخاف الشرك، وأن نبتعد عنه.

لأن يلقى المرءُ الله بكل ذنب خير له من أن يلقى الله ﷻ وهو مشرك به، لماذا؟ لأنه إن لقي الله ﷻ بكل ذنب فهو في المشيئة، حتى وإن عُذِّب لا بد أن يخرج من النار يومًا ما.

العلماء أعني علماء أهل السُنَّة لم يختلفوا في أن من مات على كبيرة فهو في مشيئة الله، واختلفوا فيمن مات على شرك أصغر:

فمنهم من قال: هو في المشيئة فيما يتعلق بالشرك الأصغر أيضاً؛ إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

ومنهم من قال: بل لا بد أن يُعذَّب بقدر الشرك الأصغر، وأن يُطهَّر ثم يخرج بعد ذلك.

ما قالوا إنه يُخلَّد، ولكن من العلماء من قال: لا يدخل تحت المشيئة.

من وقع في الشرك الأصغر لا يدخل تحت المشيئة، فهذا يجعل المرء يحذر من الشرك ويخاف الشرك.

(المتن)

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

(الشرح)

لأن أبا طالب ربما قال هذه الكلمة لولا هذان الرجلان، فكان وجودهما سببًا في صدِّه عن النُطق بهذه الكلمة.

وهذا يبين لنا أثر الخُلطة، لا تخالط إلا مؤمنًا تقيًا زكيًا، لأنك لو خالطت غير ذلك لا بد أن يؤذيك، ولا بد أن يصيبك، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مثل الجليس الصالح والجليس السوء»**.

وكذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **كلُّ مولود يولَد على الفطرة: فأبواه يهوِّدانه، أو يمجِّسانه، أو ينصرانه**، وهذا بسبب المخالطة.

وكذلك قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«المرء على دين خليله»**، يعني على طريقته، **«فلينظر أحدكم مَن يخالِل»**.

وكذلك قال الشاعر في بيت عظيم:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

قال الأصمعي كما في الإبانة الكبرى، وهو من أئمة أهل السُنَّة في اللغة: لم أرى بيتًا أشبه بالسُنة من هذا البيت:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

وكما قيل: الصاحب ساحب، يؤثِّر عليك بما لم يؤثِّر به عليك أبيك وأمك، فالإنسان ينبغي له أن يحذر هذه الخُلطة، خاصة إذا كان في بداية طريقه، لأنه لو كان في بداية طريقه لا ربما يرجع إليهم، و يسمع منهم ما يؤذيه، مما قد يصده ويجعله يفتر عن الاستقامة .

ففي بداية طريق الاستقامة خاصة يجب على المرء أن يبحث عن الرفقة الصالحة، عمَّن يذكِّرونه بالله تبارك وتعالى وبسُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا الحديث فيه: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

وكذلك فيه: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

الأصل في الإنسان أن يُعظِّم الأسلاف والأكابر، هذا هو الأصل، مَن لا سلف له لا قيمة له ولا أصل له، ولذلك نحن نعتز بالسلف الصالح، وبفهم سلفنا الصالح، بأسلافنا وبأجدادنا وبعلمائنا وبأئمتنا.

ولكن إذا جُعل قول بعضهم حجة يُرد به الكتاب والسُنة ويُرد به الشرع: هذه هي المضرة، وهذا يصدق على الاقتداء بالمشايخ والعلماء.

فالأصل في المرء أن يُعظِّم شيخه وعالمه وأستاذه، ولكن إن تعصَّب لقول شيخه وعالمه وأستاذه بطريقة تؤدي إلى رد نصوص الكتاب والسُنة، فهذا هو الذي عناه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا، فهذا من الغلو ومن مجاوزة الحد.

فالأصل فينا أن نُعظِّم أسلافنا وأكابرنا، بل علَّمنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقِّر كبيرنا»، ولكن إن كان هذا التعظيم يعود على الكتاب والسُنة بالرد، فهذا هو الذي عناه المصنف.

(المتن)

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

(الشرح)

أراد رحمه الله شُبهة من عظَّم الأسلاف والكبائر بطريقة تعود على رد الشرع، ما شبهته؟ أترغب عن ملة عبد المطلب؟

شبهته ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، هذه هي الشُبهة المتوارثة يُسلِّمها السابق للَّاحق

ولذلك قال له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فهؤلاء ظنوا العصمة في هؤلاء وأنهم لا يُخطئون، ومن ثَمَّ كانت سبيلًا إلى الزلل عياذًا بالله.

(المتن)

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءه لمَّا حضرته الوفاة، فقال له: «قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، فلو قالها لنفعته، فالأعمال بالخواتيم.

فالمرء إذا ظهرت عليه علامات الوفاة، ولم تبلغ الروح الحلقوم، فقال هذه الكلمة نفعته، فمن كان آخر كلامه لَا إِلَهَ إِلَّا الله دخل الجنة، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقِّنوا موتاكم: لَا إِلَهَ إِلَّا الله».

وأما إذا بلغت الروح الحلقوم كما كان الحال في فرعون، وكذلك في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ [النساء: ١٨]، حضر الموت، يعني بلغت الروح الحلقوم.

فهو أولًا لا يُوفَّق لقول هذه الكلمة، ومع ذلك لو قال هذه الكلمة فإنها لا تنفعه، فإنها إذا بلغت الحلقوم لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل.

(المتن)

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين.

(الشرح)

ما الشُبهة؟ تعظيم الأسلاف والأكابر.

(المتن)

لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها.

(الشرح)

المجادلة كانت بهذه الشُبهة فقط، أترغب عن ملة عبد المطلب؟

(المتن)

مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكريره.

(الشرح)

«قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، كلمة أُحاج لك بها عند الله».

(المتن)

فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها.

(الشرح)

ولذلك تجد بعض أهل البدع أو بعض من في قلبه زيغ وشُبهة، تذكر له الأدلة العديدة على مسألة من المسائل، فيأتي أخوه أو قرينه يقول: ولكن شيخك الفلاني لا يقول بهذه الكلمة، أو لا يقول بهذا الرأي، فيطرح كل ما قلته من أجل هذا الأمر، لأن شيخه لم يقل، ولو كان حقًا لقاله، هل أنت أعلم من شيخي؟ هكذا يقولون.

فهذه شُبهة عظيمة، ولكل قوم وارث.

(المتن)

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

(الشرح)

ذكر المصنف في هذا الباب سبب وقوع الناس في الشرك.

ما علاقة هذا الباب بالأبواب التي قبله؟

الإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر في الأبواب السابقة البراهين الداعية لإفراد الله تبارك وتعالى بالعبودية؛ من عجز المخلوق وقُدرة الخالق، سواءً كان في العالم الأرضي أو في العالم السماوي ذكر أنه بعد كل هذه البراهين التي ظهرت وبانت لا بد أن تعلم أن مبدأ الشّرك قديم، وأن منشأه وسببه هو الغُلو في الصالحين، لِمَا لهم من مكانة عند معظميهم.

ولذلك سُموا بالصالحين، لِمَا لهم من مكانة تحمل بعض الناس على عبادتهم، وهذا ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص.

وسبب شرك العالم ينقسم إلى نوعين:

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: وَالْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِالشِّرْكِ أَصْلُهُمْ صِنْفَانِ: قَوْمُ نُوحٍ، وَقَوْمُ إبْرَاهِيمَ: فأصل الشرك في هذه البسيطة قوم نوح وقوم إبراهيم.

قال: فَقَوْمُ نُوحٍ كَانَ أَصْلُ شِرْكِهِمْ الْعُكُوفَ عَلَى قُبُورِ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ثُمَّ عَبَدُوهُمْ.

قال: وَقَوْمُ إبْرَاهِيمَ كَانَ أَصْلُ شِرْكِهِمْ عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وهؤلاء ليسوا بصالحين.

قال: وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ تُخَاطِبُهُمْ وَتُعِينُهُمْ عَلَى أَشْيَاءَ، فيظنون أن الذي قضى لهم حاجاتهم هو هذه الأصنام وهذه الكواكب.

فأصل عبادتهم إنما هي للجن.

إذًا سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم: هو الغلو في الصالحين.

ما الغُلو؟ هو تجاوز الحد المأذون به شرعًا على وجه الإفراط.

أن يتجاوز المرء الحد المأذون به شرعًا، ما معنى المأذون به شرعًا؟ هذا يُعرف بمعرفة الحد الشرعي لك تجاه كل عبدٍ من عباد الله الصالحين.

أن تحبه، وأن تعتقد بأنه ولي من أولياء الله الصالحين، له من الولاية بحسب ما معه من الإيمان والتقوى، وأن تناصره، فهذا حد شرعي.

فإن جاوزت هذا الحد فهذا هو الغلو، فالغلو: تجاوز الحد المأذون به شرعًا على وجه الإفراط.

ثم ذكر آية وحديثين عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ثلاثة أحاديث، و أثرًا وكلامًا لابن القيم رحمه الله.

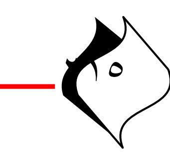
(المتن)

وقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾.

(الشرح)

فأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، قال لهم: لا تغلوا في دينكم، وهذا يدل على أن اليهود والنصارى قد وقعوا في الغُلو، وأن الغلو مذموم، ولذلك نهى عنه.

والغلو عند النصارى أشد من الغلو عند اليهود، كما هو الحال في عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما أن التفريط عند اليهود أشد مما عند غيرهم في حق الأنبياء، وإن كان الخطاب هٰهنا لأهل الكتاب فهو تحذير لهذه الأمة، يُحذِّرهم من أن يفعلوا ما فعله أهل الكتاب.



ولذلك بنى ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه العظيم اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم على هذه المسألة.

وبعض الإخوة يقرأ عنوان الكتاب ولا يفهم معناه، ما معنى اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم؟

اقتضاء يعني استلزام، اقتضاء الصراط المستقيم، أي أن الصراط المستقيم الذي تسير عليه إلى الله تبارك وتعالى، ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] يستلزم منك مخالفة أصحاب الجحيم من الأمتين الغضبية والضالة.

فبنى كتابه كله على هذه المسألة، على المخالفة وعلى التحذير من مشابهة الأمم السابقة، فالله ﷻ هاهنا وإن كان ينهى أهل الكتاب فهو نهي لنا، والنهي يقتضي التحريم كما هو معلوم.

وهذا الغلو وقع في هذه الأمة كوناً وقدراً، فإنه ما وقع أهل الكتاب في أمر ما مما يُغضب الله تبارك وتعالى إلا وكان لهذه الأمة نصيب منه كما جاء عن بعض السلف.

ولذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لتتبعن سَنن من كان قبلكم»، فسبب كفر بني آدم: أنهم غلوا في الصالحين، والنصارى غلو في الصالحين، غلو في عيسى، غلو في أم عيسى، فالآية مطابقة للترجمة.

(المتن)

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح.

(الشرح)

فهؤلاء كانوا موحِّدين أولياء لله تبارك وتعالى، كانوا أهل فضل وعبادة، لم يشركوا بالله ﷻ شيئًا، وإنما الشرك وقع بعدهم.

(المتن)

فلما هلكوا.

(الشرح)

فيه دليل أنه لا بأس أن تقول عن الرجل الصالح أنه هلك.

(المتن)

فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا.

(الشرح)

والأنصاب: هي الأوثان المصوَّرة، جمع نُصُب.

(المتن)

وسموها بأسمائهم.

(الشرح)

وهذا من وحي الشيطان، فعبادة هؤلاء لا تعدوا أي لا تخرج عن عبادة الجن، عبادة الشياطين.

(المتن)

ففعلوا.

(الشرح)

لأنهم ظنوا أن ذلك يُقرِّبهم من الله تبارك وتعالى.

(المتن)

ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم، عُبدت.

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لـمَّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

(الشرح)

فلما مات هؤلاء عكفوا على القبور، ما المقصود بالعُكوف؟ هو البقاء والمُكث الطويل، والإقامة على الشيء عبادة وتعظيمًا وتبركًا.

فعكفوا على قبور الصالحين، وهذا هو أول شرك وقع في الأرض، ولكنهم لم يعبدوا هذه القبور، ثم صوَّروا تماثيلهم، انظر إلى التدرج، والاتباع لخطوات الشيطان؛ **تعظيم، ثم بعد ذلك غلو، ثم بعد ذلك عكوف، ثم صناعة الأصنام والتماثيل، ثم العبادة.**

ولذلك سيذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل هذا الباب: أن البدعة بريد الكفر، لماذا؟ لأنهم لمَّا عكفوا في بداية الأمر ما أرادوا الشرك بالله ﷻ، ولكن فعلوا شيئًا لم يفعله الصالحون، فكان هذا بريدًا وطريقًا إلى الشرك والكفر عياذًا بالله بعد ذلك.

(المتن)

وعن عمر أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**، أخرجاه.

(الشرح)

قال: **«لا تُطروني»**: والإطراء هو المبالغة في المدح بالكذب، أن يبالغ المرء في المدح مستخدمًا الكذب في ذلك، فمن مدح وجاوز حتى كذب فقد غلا وأطرى.

وهذا ما وقع في هذه الأمة، فأظهروا الغلو في صورة تعظيم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتعظيم الصالحين، وأن هذا من التعظيم وليس من الشرك، وقد أخطأوا في ذلك، لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»**.

الصوفية والغلاة ماذا فعلوا؟ قالوا: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»**، فـ(كما) هاهنا تفيد التشبيه والمماثلة، يعني الممنوع أن نقول: أن محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، هذا هو الممنوع، قولوا ما شئتم بخلاف هذه الثلاثة، وهذا عين الضلال.

حتى قال البوصيري في البُردة:

دع ما ادَّعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكمِ

قال: دع ما ادَّعته النصارى في نبيهم، أليس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**»، دع ما ادَّعته النصارى في نبيهم.

واحكم بما شئت، قل: أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينفع ويضر، ويتصرف في هذا الكون، وأنه يسمع مَن دعاه، إلى غير ذلك عياذًا بالله.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد**»: هذا قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأكيدًا وتوكيدًا على عبوديته لربِّه، وأنه وإن كان أشرف الخلق فمع ذلك لم يتعدَّ مرتبة العبودية، بل هي أشرف المنازل أن يكون عبدًا لله تبارك وتعالى.

فقولوا: «**عبد الله ورسولُهُ**»، وهذا ينقض قول البوصيري، فالنبي عبد، ولكنه عبدٌ يوحَى إليه، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

(المتن)

وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**».

(الشرح)

الغلو كما ذكرنا مجاوزة الحد بالإفراط.

فهنا يحذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته، ولا شك أن هذا نهي، والنهي يفيد التحريم.

فقال: «**إياكم والغلو**».

إعرابها: ضمير مبني على السكون في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، تقديره: أُحذِّر، والغلو: مفعول به .

أو أن الغلو معطوفة، أحذِّر إياكم واحذروا الغُلو، جاء الضمير المنفصل.

فقال: «إياكم والغلوَ»: منصوبة، «فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغلو»، فإنما: تعليلية حاصرة أكَّد بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتم التحذير، فجاء بإن، فقال: «فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»، وإنما تفيد الحصر، والحصر هاهنا حصر إضافي، ليس حصرًا حقيقيًا، لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث أخرى بيَّن أن مَن كان قبلنا قد هلك بسبب أمور أخرى.

«كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»، فهذا الحصر يسمى بالحصر الإضافي، يعني هناك أسبابًا أخرى.

إذن: لماذا يُحذِّرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغلو؟

لأنه سبيل إلى الهلاك، ولذلك عند مسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غداة جمع، «هُلم القط لي حصيات»، أمر ابن عباس أن يلتقط له حصيات ليرمي الجمرات، «من حصى الخذف» لما وضع هذه الحصيات في يده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «نعم بأمثال هؤلاءِ، وإياكم الغلو».

اليوم ربما يرمي الإنسان حذاءً، والذي يمسك عصا ويضرب، والذي يقول: والله لن أتركه، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو، فإنما أهلك مَن كان قبلكم الغلو في الدين».

قال شيخ الإسلام في هذا الحديث: **هذا الحديث عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال**، فلا يغلو المرء لا في عمله ولا في اعتقاده، ولكن القسط الوسط، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، لا إفراط ولا تفريط.

(المتن)

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثًا.

(الشرح)

أي قال: «هلك المتنطعون»، «هلك المتنطعون»، «هلك المتنطعون»، يقولها توكيدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحذيرًا من سلوك سبيل هؤلاء.

المتنطعون هم المتكلفون، كما قال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد، قال: هم المتكلفون المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقاصي حلوقهم، وهو مأخوذ من النِّطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استُعمل في كل متعمق قولًا وفعلًا، وهم الغالون في عبادتهم.

فالمتنطع غالى كذلك، ومغالٍ في عبادته.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هلك المتنطعون»، وهذا قد يراد به الخبر، وقد يراد به الدعاء.

فإما أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد ذلك الخبر أن يخبر أن المتنطعين هلكوا، وإما أن يريد بذلك الدعاء، أنه يدعو عليهم.

فالتنطع كذلك من الغلو الذي نهينا عنه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام.

(الشرح)

أي ظهرت له غُربة الإسلام.

(المتن)

ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

(الشرح)

لماذا تبين له غُربة الإسلام؟ لأن الإسلام الذي جاء به الأنبياء يخالف هذا الذي هو مذكور في هذه الأبواب مما يدعى أناسٌ كُثُر أنه الإسلام!!

فهؤلاء يغلون في الصالحين ومع ذلك يظنون أن هذا هو الإسلام الذي جاء به النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا نظر المرء إلى حال الناس وقرأ هذه الأبواب الثلاثة وعاين الإسلام الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبين له حقًا غُربة الإسلام، وأن من يدعو إلى الإسلام الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غريب.

ولذلك حُورِب محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لمَّا دعا إلى هذا الإسلام النقي.

(المتن)

الثانية: معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غيّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

(الشرح)

أي الغلو في الصالحين.

ولذلك قال الشيخ المعلمي رَحِمَهُ اللَّهُ في التنكيل :**من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل.**

قال: **ومن أمضى أسلحته أنْ يَرمي الغالي كل مَن يحاول رده إلى الحق**، أي: تأتي تقول له: هذا لا يصح، هذا شرك، هذا غلو، يرميك بماذا؟

قال: **أن يرمي الغالي كل مَن يحاول رده إلى الحق ببُغض أولئك الأفاضل ومعاداتهم.**

يقول: أنت لا تحب الأولياء الصالحين، تُبغضهم !!

ولذلك قال: **فالنصارى كانوا يرمون في بداية الأمر، لمَّا أظهروا القول بألوهية المسيح،**

كانوا يرمون كل من أنكر عليهم بأنه يُبغِض عيسى، فمنعهم ذلك من الإنكار.

فلما كفُوا عن الإنكار انتشر الشرك عياذًا بالله، فهذا هو أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء.

(المتن)

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

(الشرح)

فالأصل أن الفطرة السليمة وأن الشريعة ترد البدعة، ومع ذلك تقبلها بعض النفوس، بل أقول: كثير من النفوس، لماذا تقبلها؟

لأن فيها بعض الحق، فإن البدعة لو كانت خالية من الحق كما ذكر الشاطبي في الاعتصام لَمَا قبلتها النفوس.

ولذلك تجد هذا في البدع الإضافية خاصة، الموالد فيها محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإعزاز النبي وإكرامه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا حق وهذا مطلوب، ولكن خالط ذلك ما دخله من القصائد والموالد وجعل ذلك من الأعياد، وغير ذلك.

حلقات الذكر الجماعي، الطواف حول القبور، فزيارة القبور هذا حق، ولكن الغلو في هذا الأمر وشدُّ الرِّحال إليها مما جاوز الحد المشروع.

(المتن)

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل.

(الشرح)

قلنا: لأن فيها وجه حق.

(المتن)

فالأول: محبة الصالحين.

(الشرح)

هذا هو وجه الحق.

(المتن)

والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا.

(الشرح)

لأن هؤلاء نصبوا هذه الأنصاب وما أرادوا عبادتها أولًا.

(المتن)

فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

(الشرح)

ولذلك قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الفائدة، قال: فمن أراد تقوية دينه بالبدعة فضرره أشد.

إنسان أراد أن يقوي محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلبه فأنشأ الموالد، فهذا ضرره أشد.

أراد أن يُعظِّم الصالحين فجعل لهم قبورًا في المساجد، فهذا كذلك.

(المتن)

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

(الشرح)

الجبلة هي الأمر المجبول عليه، الذي هو من أصل خِلقته.

فالله ﷻ ذكر في كتابه أن أصل خلق الإنسان أنه ظلوم جهول، هذا هو الأصل، ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم بعد ذلك يمُن الله على من يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتزكية النفوس والعمل الصالح، فيخرج من الظلم إلى العدل، ومن الجهل إلى العلم.

فالأصل في الإنسان أنه مجبول على أن ينقص الحق في قلبه وأن يزيد الباطل إلا إذا أراد الله ﷻ بعبده خيرًا.

(المتن)

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

(الشرح)

فهي بريد الكفر، أي التي توصل إليه.

ولذلك ابن القيم في مدارج السالكين لمَّا ذكر المراتب السبعة التي يتدرج فيها إبليس مع بني آدم.

يبدأ معك بالشرك، فإن لم يستطع فالبدعة، فإن لم يستطع الكبائر، فإن لم يستطع الصغائر، فإن لم يستطع يشغلك بالمباح، فإن لم يستطع شغلك بالمفضول عن الفاضل، يتدرج معك.

فالمرتبة الثانية تكون للبدعة، فإذا وقع المرء في البدعة فالطريق سهل ميسور إلى أن يصل إلى الشرك والعياذ بالله.

ولذلك قال: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر، فهي بريده الذي توصل إليه، وكذلك المعاصي، فهي خطوات يسلِّم بعضها بعضًا عياذًا بالله.

فالبدعة تتبعها بدعة أخرى، تبدأ شبرًا ثم تصير ذراعًا فباعًا، وكما أن الحسنة تتبعها الحسنة، فالسيئة تتبعها السيئة.

(المتن)

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة.

(الشرح)

فالشيطان عليم يعرف ذلك تمام العلم، خبير بحال بني آدم.

(المتن)

ولو حسن قصد الفاعل.

(الشرح)

حتى لو أن إنساناً قال لك: نيتي صالحة، فهذا لا يشفع له في فعله، لأننا نعلم أن قبول العمل متوقف على أمرين: الإخلاص والمتابعة، حتى ولو كان مخلصًا فانتفاء الشرط الثاني يجعل العمل مردودًا على صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد».

وفي آخر سورة الكهف قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فلا بد من ركنين: الإخلاص والمتابعة.

(المتن)

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه.

(الشرح)

فهذه قاعدة عقدية، فكما أن هناك قاعدة أصولية وقاعدة فقهية وقاعدة لغوية، كذلك هناك قاعدة عقدية، فهذه قاعدة كلية: أن الشرع جاء بالنهي عن الغلو.

(المتن)

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

(الشرح)

لأنه كما قلنا: توصل إلى الشرك.

(المتن)

الثانية عشرة: معرفة: النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

(الشرح)

أي سدًا لذريعة الشرك.

وهناك أكثر من سبب لتحريم الصور والتماثيل، يأتي في بابه إن شاء الله.

(المتن)

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة.

(الشرح)

قصة قوم نوح.

(المتن)

وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

(الشرح)

فسبحان الله كيف تدرج معهم الشيطان حتى أوقعهم في الشرك.

(المتن)

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها.

(الشرح)

يعني الإمام المجدد قومه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يقول عن قومه: أمرهم عجيب، لماذا؟ يقرؤون هذه القصة.

(المتن)

في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم.

(الشرح)

يعني بعد قراءتهم، سبحان الله، حال الله بينهم وبين هداية قلوبهم فوقعوا في الشرك الذي وقع فيه الأولون، فنسأل الله الهداية والسلامة والعصمة.

(المتن)

حتى اعتقدوا أن فِعلَ قوم نوح هو أفضل العبادات.

(الشرح)

ولذلك قالوا كما قال الأولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

(المتن)

واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه، فهو الكفر المبيح للدم والمال.

(الشرح)

وهذه جملة مشكِلة. قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما رجحه من المعنى: أي فمن اعتقد أن ما نهي الشرع عنه من الشرك هو أفضل القربات، وأنه أفضل العبادات: فهذا مباح الدم، لأنه جاء بدين غير دين الأنبياء.

من اعتقد بأن الشرك بهذه الصورة التي وردت هو أفضل القربات وأفضل العبادات: فهذا مباح الدم، يحكم فيه القاضي بحكم الشرع.

(المتن)

الخامسة عشرة: التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

(الشرح)

يعني أرادوا الشفاعة لا العبادة، وهذا ظن فاسد، لماذا؟ لأنهم عبدوها بعد ذلك.

(المتن)

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

(الشرح)

فحذَّرنا سبيلهم.

(المتن)

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

(الشرح)

والضمير يعود إلى العلم.

ففي هذا الأثر بيان فضل العلم، وبيان فضل حملة العلم، فهم مصابيح الدُجى، ومنارات الهدى، والدنيا بدونهم ظُلمة، وما نجا مَن نجا مِن الفتن إلا بسبب عمله بما معه من العلم.

العلم بكتاب الله وبسنة النبي ﷺ وبفهم أصحاب النبي ﷺ.

(المتن)

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

(الشرح)

كما قال النبي ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمرو، قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**».

فهذا يبين لنا فضل العلم، وفضل العكوف في مجالس العلم، وثني الركب في مجالس العلم.

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا من العالمين العاملين المخلصين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(المتن)

باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبرِ رجلٍ صالح، فكيف إذا عبده؟!

(الشرح)

التغليظ هو تعظيم النهي، فالتغليظ نهي وزيادة، كما سيأتي في أدلة الباب أن النهي عن تعظيم القبور وعن عبادة الله عند القبور جاء من أكثر من وجه، فلما جاء بصورٍ عديدة كان هذا من باب التغليظ الذي هو تعظيم النهي.

وقوله: **فكيف إذا عبده؟!** أي كيف إذا عبد هذا الرجل الصالح؟ فلا شك أن هذا أشد وأعظم.

فالذي يزور القبور إنما يزورها لكي ينفع أهلها لا لكي ينتفع هو بمن فيها.

يزورها ليتذكر الآخرة، كما بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويزورها كذلك ليدعو لأهل القبور ويستغفر لهم؛ لعلَّ أهلها ينتفعون بهذا .

فزيارة القبور إنما هي لنفع مَن فيها، لا لأن يصرف المرء عبادته من الرجاء والاستغاثة والدعاء لهم.

فإذا كانت الأحاديث جاءت في التغليظ فيمن عبد الله عند القبر فلا شك أن من عبد صاحب القبر هذا أشد وأعظم.

(المتن)

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسةً رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله»**.

(الشرح)

في هذا الحديث يبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال هؤلاء، وحكم ما فعلوه في الكنيسة التي هي معبد النصارى، كما أن البِيع معبد اليهود، فكان في هذه الكنيسة تماثيل وصور.

لـمَّا نقلت أم سلمة رضي الله عنها ذلك إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أولئِكِ»**، أو **«أولئكَ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح»**، وهذا شك من الراوي، **«بنوا على قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصور»**، أي صوروا في هذا المسجد تلك الصور، وما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله هذا تقريرًا لهذا الفعل وإنما قاله على سبيل الذم والتحذير.

ولذلك بيَّن في الجملة التي بعدها أن ذلك مما لا يجوز، وأن ذلك مما أُحدِث في دين الله تبارك وتعالى، فقال: **«أولئك شرار الخلق عند الله»**، وشِرار جمع شِرِّير.

فهؤلاء كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا، فلم يكن هناك مسجد ابتداءً، وإنما كان هناك قبر فبُني عليه هذا المسجد.

فمن فعل ذلك: فهؤلاء هم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى، لماذا؟ لأنه لا يجتمع مسجد وقبر، فإن كان القبر بُني أولًا هُدِم المسجد، لأنه مسجد ضرار، وإن كان المسجد بُني أولًا نُبش هذا القبر وأُخرِج من المسجد.

إن كان القبر بُني أولًا ثم بعد ذلك بُني عليه المسجد، فهذا المسجد لم يؤسَّس على التقوى، وإنما أُسس لأجل صاحب هذا القبر، ومن ثَمَّ فهو مسجد ضرار، يهدم المسجد، ولا يُكتفى بإخراج هذا القبر منه، لأن المسجد من الأساس لم يؤسَّس على التقوى.

ولذلك مسجد الضرار لـمَّا لم يكن مؤسَّسًا على التقوى أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحريقه.

وأما إن كان المسجد بُني أولًا، ثم بعد ذلك لمَّا مات الرجل الصالح أُدخل قبره فيه، فالقبر يُنبش، لماذا؟ لأن المسجد لم يُبن ابتداءً من أجل القبر، وإنما دخل القبر فيه، فيُنبش القبر، ويُخرج من هذا المسجد، وهذا في كل قبرٍ ومسجدٍ إلا في مسجد واحد فقط وهو مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيستثنى من ذلك.

فلا يجتمع قبر ومسجد في مكان واحد، المسجد الذي فيه قبر سواءً بُني القبر أولًا أو بُني المسجد أولًا لا يُصلى فيه.

وسواءً كان القبر في قِبلة المسجد أو خلف المصلين أو عن يمينهم أو عن شمالهم لا يُصلى في هذا المسجد.

بل إن بعض العلماء قال: ولو بُني حائط بين القبر والمسجد، وكذلك شددوا وقالوا: ولو كان هذا المسجد وسط القبور وبينه وبينها حائط: فإنه لا يُصلى في المسجد إلا صلاة الجنازة، من شدتهم في هذا الأمر، حفاظًا على التوحيد وسدًا لهذا الباب الذي يُفضي إلى الشرك.

هذا في كل المساجد والقبور كما قلنا إلا في مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهناك شُبهة يُلبِّس بها القبوريون على الناس: يقولون: يلزمكم على قولكم هذا ألا تصلوا في مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لماذا؟

لأن قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في حُجراته، ثم بعد ذلك أُدخل في المسجد، فيلزمكم على ذلك تحريم الصلاة في مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قُل: كراهة الصلاة في مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نقول -نحن أهل السُنَّة والجماعة الموحدين-: لا يلزمنا ذلك، وقواعد توحيدنا مستقيمة، ومنهجنا مستقيم لم نضطرب فيه.

لأن مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له فضيلة خاصة ثابتة قبل دخول القبر في المسجد، وفضائله كثيرة:

ومنها: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام فإنه أفضل»**، فهذه فضيلة لمسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالها فيه قبل موته.

فهذه الفضيلة كانت قبل موت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبل دفنه.

وكذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»**، ومنبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في المسجد.

وكذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»**، وبيَّن أن من هذه المساجد مسجده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما نقله عنه الألباني في تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، قال: فهذه الأسباب ترفع الكراهة، وذلك معلوم من القاعدة الفقهية في الصلوات ذات السبب.

معنى هذه القاعدة الفقهية:

هب أن رجلًا دخل المسجد قبل المغرب، أو دخل المسجد قبل شروق الشمس، فحقه أن يصلي تحية المسجد، مع أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الصلاة في هاذين الوقتين، ومع ذلك هذا النهي ارتفع وهذه الكراهة أو التحريم ارتفع لأن الصلاة ذات سبب لورود الأحاديث المتكاثرة التي خصصت وأضعفت العموم الوارد في النهي عن الصلاة في هذين الوقتين.

فكذلك مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لمَّا كانت له هذه الخواص المذكورة قبل دخول القبر في مسجده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتفع هذا المحذور، هذا أولًا.

الأمر الثاني: أن يقال: إن إدخال القبر في مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن من فعل واحد من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما كان في خلافة الوليد بن عبد

الملك، ولم يرض واحدٌ من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -على فرض وجودهم- بذلك.

ومن أهل العلم من قال: لم يكن واحد من الصحابة موجودًا في هذا الوقت، ومنهم من قال: كان بعضهم موجودًا.

على فرض وجود بعضهم نقول: لم يرضوا بذلك ولم يسعوا في ذلك، وإنما إدخاله كان عملًا سياسيًا، لأن الذي قام بذلك هو ولي الأمر، لم يرض بذلك واحد من العلماء؛ لا من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا من التابعين.

فإدخاله لم يكن من سعي علماء الأمة رضي الله عنهم.

فمن اعتقد أن المسجد قبل دخول القبر لم تكن له فضيلة مع صلاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه وصلاة المهاجرين والأنصار، وأن هذه الفضيلة كانت بعد إدخال القبر فهو من الجاهلين أشد الجهل؛ لأن الفضيلة كانت موجودة قبل دخول قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذًا إذا أورد بعضهم هذه الشُبهة عليك فقل: المسجد كانت له خصوصية قبل إدخال القبر، وهذا ليس لأي مسجد دون مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: **«أولئك شرار الخلق عند الله»**، لماذا هم شرار الخلق؟

لأن عملهم هذا وسيلة للكُفر والشرك، وهذا أعظم الظلم، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

(المتن)

قال ابن تيمية:

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين.

(الشرح)

جعلوا صورًا للصالحين ثم بعد ذلك عبدوا هذه الصور.

(المتن)

قال:

فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

(الشرح)

فتنة القبور بأن غلوا فيها وفي أصحابها فعبدوها من دون الله تبارك وتعالى.

وفتنة التماثيل: لأن الله تبارك وتعالى نهى عنها وعن الصور، كما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

ولهما.

(الشرح)

أي: في الصحيحين.

(المتن)

عنها رضي الله عنها قالت: لما نُزل برسول الله صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

يعني لمَّا نزل به ملك الموت والملائكة الكرام، كما قاله النووي.

(المتن)

لمَّا نزل برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طفق يطرح خميصة له على وجهه.

(الشرح)

أي جعل يطرح ويكشف ويضع خميصة له على وجهه.

والخميصة كساء له أعلام.

(المتن)

فإذا اغتم بها كشفها.

(الشرح)

يعني بين الحين والآخر يكشف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن وجهه، فماذا كان يقول؟

(المتن)

فقال وهو كذلك .: **«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا، أخرجاه.

(الشرح)

فأنت ترى في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في سياقة الموت يُحذِّر الشرك، مع ما كان من أصحابه من كمال التوحيد والإيمان، وكمال بُعدهم عن الشرك، ومع ذلك يخشى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأمر.

وهذا فيه رد على شُبهة عظيمة، كذلك يرددها القبوريون.

ما هذه الشُبهة؟

أن تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع في وقت لم يكن الإيمان مستقرًا في قلوب الصحابة، وكانوا حديثي عهد بكفر وشرك.

أما نحن الآن: فنحن الموحدون الذين استقر عندنا الإيمان والتوحيد فلا يُخشى علينا من ذلك.

نقول لهم: متى قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأحاديث؟

في هذا الحديث: **لمَّا نُزل برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، معنى ذلك أنه قال ذلك في آخر حياته وقد استقر الإيمان في قلوب أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بل سيأتي معنا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دندن حول ذلك مدة دعوته المباركة، وقال ذلك قبل أن يموت بخمس ليالٍ، وقال ذلك لمَّا نُزل به، أي لمَّا جاءه ملك الموت.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك في مختلف أطوار دعوته، فكيف يقال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك لمَّا لم يكن الإيمان مستقرًا في قلوب أصحابه؟

هذه الشبهة كذلك تردها هذه الأحاديث المتكاثرة ويمكن تقسيمها:

- أنه قال ذلك في سياقة الموت.
- أنه قال ذلك قبل أن يموت بخمس ليالٍ.
- أن الأحاديث التي جاءت في النهي عن اتخاذ القبور مساجد منها ما جاء مطلقاً دون تقييد بوقت معين، فهذا يدل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذَّر من شرك القبور وعبادة الصور والتماثيل طيلة حياته.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لعنة الله على اليهود والنصارى»**، لماذا لعنهم الله تبارك وتعالى؟

جاءت العلة بعد ذلك: **«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

لماذا فصل نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الجملتين ولم يعطف الثانية على الأولى؟ فقال: **«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**؟

قلنا: لأن الجملة الثانية تعليل للجملة الأولى، فكانت بمنزلة الصفة للموصوف، والبدل للمُبدَلِ منه، والتوكيد للمؤكَّد، هكذا قال عبد القاهر.

قال: قد يُفصل بين الجملتين: الجملة الأولى لا تُعطف على الجملة الثانية، فبعض العلماء يقول: إنه فُصل بين الجملتين لاستئناف الجملة الثانية، كأن الجملة الثانية بدأت في موضوع جديد.

قال: هذا خطأ، وما ينبغي أن يُقتصر على ذلك، بل من الممكن أن يُفصل بين الجملتين وألا تُعطف الثانية على الأولى لكمال الاتصال.

كيف ذلك؟

عندما تقول: جاء محمد الكريم، هل تقول: جاء محمد والكريم، أم محمد الكريم؟ الصحيح أننا لا نفصل بين الصفة والموصوف بحرف عطف، فكذلك إذا جيء بجملتين لا نفصل بينهما بحرف عطف، قد تكون الجملة الثانية مؤكدة أو بمنزلة التعليل للأولى.

وهذا يبين لنا لماذا يختم الله تبارك وتعالى كثيرًا من الآيات بقوله: إن الله سميع عليم، ولم يقل: وإن الله سميع عليم، وإن الله هو السميع البصير، لا يأتي بحرف الحرف، لماذا؟

لأن هذه تعليلات للأحكام التي جاءت في الآية، فكانت كالجملة الواحدة.

فهنا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معللًا سبب اللعن: **«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

وهذا الاتخاذ محمول على صورتين:

- الصورة الأولى: إما أنهم يصلون عند هذه القبور لله تبارك وتعالى ظنًا منهم أن الصلاة في هذا الموضع أفضل.

فهم يصلون لله، ولكن يجعلون صلاتهم عند القبور، فهذا من اتخاذ القبور مساجد، وهذا شرك خفي.

- وإما أنهم يصلون عند القبور للقبور، وهذا شرك جلي، فيصلي عند القبر للقبر ولصاحب القبر، كما يفعل الرافضة.

أو يصلي عند القبر لله تبارك وتعالى، فهذا شرك خفي.

وهناك صورة نادرة: أن يصلي على القبر، **«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**: أي يصلي فوق القبر، فهذه تحتمل أن تدخل في هذا المعنى، ولكن هذه صورة نادرة، لا ندري إذا كان أحد يفعلها أم لا، أن يقف فوق القبر، أو أن يصلي على القبر، أو أن يسجد على القبر.

فقال: يُحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرز قبره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ما معنى أُبرز قبره؟ أي لولا ذلك لأُخرِج قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع قبور أصحابه في البقيع، ولكن لمَّا خشي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لمَّا خشي الصحابةُ وقوع الشركَ ممن يأتي بعدهم إذا تقادم الزمان، ونُسي العلم، وذلك بجعل قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثنًا كان من حكمة الله تبارك وتعالى أن قضى أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُدفن حيث يُقبَض.

فما من نبي يموت إلا ويُدفن حيث قُبض، فقُبض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرة عائشة، فدُفن في حجرة عائشة، وهذا صيانة للتوحيد.

(المتن)

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس.

(الشرح)

يعني بخمس ليالٍ.

(المتن)

وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله».

(الشرح)

انظر إلى فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ماذا قال في الترجمة: **ما جاء في التغليظ.**

في الحديث الأول: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لعنة الله».

وفي الحديث الثاني قال: «إني أبرأ إلى الله».

وسيأتي أنه قال: «إني أنهاكم عن ذلك».

ويقول: «إن من شرار الناس»، فهذا نهي وزيادة.

ولذلك لمَّا ترجم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ماذا قال؟ **ما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التغليظ.**

(المتن)

قال: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك».

(الشرح)

هذا الحديث رواه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يقول فيه جُندب ﷺ أنه سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول قبل أن يموت بخمس: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»، والخُلة منزلة فوق المحبة، الخُلة منزلة أعلى من المحبة، وهي من تخلل المودة في القلب.

فالله تبارك وتعالى اتخذ محمدًا خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا عليهما الصلاة والسلام.

ولذلك من الخطأ أن يقال: جعل الله الخُلة لإبراهيم والمحبة لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا خطأ.

ولا يقال: إن نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبيب الله، فهذه ليست منزلته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما منزلته أنه خليل الله.

فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإن الله قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا»، وهذا فيه منزلة الصدِّيق ﷺ، وأنه أفضل أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

ففي هذا الحديث أيضًا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إني أبرأ»، وقال: «إني أنهاكم»، وبيَّن العلة في هذا النهي أن هؤلاء يسجدون لهذه القبور تعظيمًا لها، أو يجوِّزون الصلاة عندها كما قلنا.

وقال: إنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتخذ خليلًا.

كيف نجمع بين هذا الحديث وبين قول بعض الصحابة: أوصاني خليلي؟

وهذا وارد عن أبي هريرة وعن أبي ذر وأبي الدرداء.

فالصحابي يقول: أوصاني خليلي، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»؟

نقول: إن الذي ورد في الحديث أن يتخذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا خليلًا، ولا مانع أن يتخذ الصحابي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلًا، فلا مانع أن يحب الصحابي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تصل هذه المحبة إلى درجة الخُلة، ولكن الممنوع أن يتخذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا خليلًا.

(المتن)

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق مَن فعله، والصلاة عندها من ذلك.

(الشرح)

لأن من صلَّى عند القبور فقد وقع في هذا اللعن.

(المتن)

وإن لم يُبْنَ مسجد، وهو معنى قولها: خُشي أن يتخذ مسجدًا، فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا، وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجدًا، كما قال صلى الله عليه وسلم: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا».

(الشرح)

هذه الأحاديث كما نرى فيها المبالغة في اللعن والزجر والنهي، وهذا يرد على شُبهة للقبوريين أيضًا، وهذه الشُبهة خلاصتها:

أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما نهى عن ذلك من أجل النجاسة الحسية، قالوا: لأن الميت إذا مات أَرِم، فاختلط لحمه وعظمه بالتُربة، وبذلك تتنجس التربة نجاسة حسية. فإن أمِنا هذه النجاسة فلا محظور في الصلاة عند القبر ولا في المسجد الذي فيه ضريح، فكيف نرد على هذه الشُبهة؟

ويعللون ذلك بقولهم: الضريح في مقصورة، وفي مكان مُغلق بعيدًا عن المسجد، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما نهى عن الصلاة في المساجد التي فيها قبور أو عند هذه القبور لأجل هذه العلة، ونحن عندنا الضريح في مقصورة، وحوله حائط، وبعيد عن المسجد، ونضع له عطور ونعتني بنظافته أشد العناية!!.

فكيف نرد على هذه الشُبهة؟

نقول:

- إننا لو سلَّمنا أن هذه العلة موجودة في القبور فليست موجودة في قبور الأنبياء، لماذا؟

لأن أجساد الأنبياء طرية، لا تبلى ولا تأكلها الأرض، وبالتالي لم تتنجس، ومع ذلك ارجع إلى الأحاديث التي ذكرناها، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد»**.

فتجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نص على الأنبياء، والأنبياء أجسادهم لا تتحلل، فأين هذه العلة التي ذكرتموها؟ هذا أولًا.

- الأمر الثاني: أن يقال: إن هذا من القول على الله بغير علم، لماذا؟ لأنكم ذكرتم علة غير موجودة في الأحاديث.

أين في الأحاديث أن العلة النجاسة؟ فهذا من القول على الله بغير علم، وهذا من أشد البُهتان: أن يقول المرء على الله بغير علم.

● الرد الثالث: لو كانت العلة كذلك فهذا لا يقتضى. تغليظ اللعن، ولا يقتضي. تخصيص هذه البُقعة باللعن.

ما معنى هذا الكلام؟

أي لو كانت العلة النجاسة فلا يمكن أن يقول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إني أبرأ إلى الله»**، **«ألا إني أنهاكم عن ذلك»**، لعنة الله تبارك وتعالى على من فعل كذا وكذا، كيف يُغلِّظ في هذا الأمر، لو كانت العلة مجرد النجاسة، هذا غير معهود في الاستعمال الشرعي.

فدل ذلك على أن العلة غير النجاسة.

لو كانت العلة النجاسة لَمَا خص النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القبور دون سائر الأماكن النجسة، فلمّا خص القبور والمساجد التي تُبنى على القبر بهذه الأمور التي ذكرها من التغليظ دل ذلك على أن العلة ليست هي النجاسة.

(المتن)

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: **«إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»**، رواه أبو حاتم في صحيحه.

(الشرح)

انظر كيف جمع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين صنفين، ووصفهما بالشر:

أما الصنف الأول: **فالذين تدركهم الساعة وهم أحياء**، تدركهم الساعة: أي تدركهم مقدمات الساعة قبل الصعق، فالذين تدركهم الساعة وهم أحياء هم الكافرون.

أما المؤمنون فيرسل الله تبارك وتعالى ريحًا طيبة تأخذ روح كل نسمة مؤمنة كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فيموتون كنفس واحدة.

فيقبض الله تبارك وتعالى أرواح المؤمنين قبل أن يُدركوا هذه الأمور العظيمة رحمة منه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فجمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بين هذا الصنف والصنف الثاني الذي هو: **والذين يتخذون القبور مساجد.**

فهذه الأحاديث كلها تدل على تعظيم هذا الأمر و تحريمه.

ولذلك كانت فتاوى الأئمة وأتباعهم على تحريم ذلك، ومن قال منهم بالكراهة فالمراد التحريم.

فقول الشافعي في الأم: أكره أن يعظَّم مخلوقًا حتى يُجعل قبره مسجدًا، ما المراد بكراهة الشافعي هاهنا؟

التحريم، فالكراهة في لسان الأئمة يُقصد بها التحريم، كما بيَّن ذلك الشاطبي رَحِمَهُٱللَّهُ في الموافقات، وكذلك ابن القيم في إعلام الموقِّعين.

ولذلك جزم النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحه على مسلم بتحريم البناء مطلقًا على القبور، أن يُبنى المسجد على القبر، فالمقصود بالكراهة هاهنا: التحريم.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيمن بنى مسجدًا يُعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

(الشرح)

بعض الناس يقول: نيتي أن أعبد الله تبارك وتعالى، لا أن أعبد القبر ولا صاحب القبر، فيقال: النية الصالحة لا تُصلح العمل الفاسد.

وقد جاء النهي مجردًا عن ذكر النية، وجاء في بناء المساجد على القبر مطلقاً، فحتى لو كانت النية صالحة فإنها لا تُصلح العمل الفاسد.

ولذلك إذا قال أصحاب الموالد: نيتنا صالحة: محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نقول: النية الصالحة لا تُخرج الأمر عن حد البدعة.

الذين يذكرون الله تبارك وتعالى ذِكرًا جماعيًا، سبِّح مائة، كبِّر مائة، هلِّل مائة، قالوا لعبد الله بن مسعود: ما أردنا إلا الخير، النية موجودة نية صالحة، ومع ذلك قال ابن مسعود:

وكم من مريد للخير لن يصيبه.

فالنية الصالحة لا تُصلح العمل الفاسد.

(المتن)

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك.

(الشرح)

فإذا اجتمع الأمران تغلظ الأمر، يعني إذا اجتمع وجود التماثيل مع الفتنة بها فقد تغلَّظ الأمر.

(المتن)

الثالثة: العبرة في مبالغته صلى الله عليه وسلم في ذلك، كيف بيّن لهم هذا أولًا، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

(الشرح)

فحذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك طيلة حياته، وقبل موته بخمس ليالٍ، وفي السياق، وهو بين أصحابه الموحدين فغيرهم من باب أولى.

وسبب تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن دعوة الأنبياء مبناها على ذلك، الأنبياء ما أُرسلوا إلا لتقرير التوحيد وتجريده لله تبارك وتعالى، ومحاربة الشرك، فهذه هي أساس دعوة الأنبياء.

(المتن)

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

(الشرح)

وهذا سيرد في الباب الذي بعده.

(المتن)

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

(الشرح)

فمن فعل ذلك فإمامه اليهود والنصارى، ليس إمامه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إبراهيم ولا موسى ولا أي أحد من الأنبياء ولا من الصالحين، وإنما إمامه اليهود والنصارى.

ولذلك قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومَن علا القبر سراجًا أوقدا ... أو ابتنى على الضريح مسجدًا

فإنه مجدد جهارًا ... لسُنن اليهود والنصارى

الذي يفعل ذلك يُجدِّد سُنن اليهود والنصارى.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن مشابهتهم.

(المتن)

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده صلى الله عليه وسلم تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

(الشرح)

ولولا ذلك لأُبرِز قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجدًا.

(الشرح)

قلنا: إما أن يصلي عنده لصاحب القبر، وإما أن يصلي لله عنده، وكلاهما لا يجوز.

(المتن)

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا وبين من تقوم عليهم الساعة.

(الشرح)

فهم شر الخلق.

(المتن)

فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع.

(الشرح)

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلامه قبل أن يموت بخمس رد على طائفتين، وهما شر أهل البدع.

(المتن)

بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية.

(الشرح)

أين الرد على الرافضة في الحديث؟

أنهم غلو في مقبوريهم حتى عبدوهم من دون الله، والواقع يشهد بذلك.

وأين الرد على الجهمية؟

أنه أثبت الخُلة لله تبارك وتعالى.

خالد بن عبد الله القسري قال: أيها الناس ضحوا تقبَّل الله منا ومنكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا.

والرافضة مأخوذ من الرفض، وسُموا بذلك: لرفضهم زيد بن علي بن الحسين، لماذا؟

لأنهم سألوه عن قوله في أبي بكر وعمر؟ فقال زيد ﷺ: وزيرا جدي رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأثنى عليهما فرفضوه.

وأصل مذهبهم: عبد الله بن سبأ اليهودي، فإن عبد الله بن سبأ تظاهر بالدخول في الإسلام ليُفسد الإسلام، كما انتقل بولِس من اليهودية إلى النصرانية ليُفسد النصرانية، وأفلح في فساد النصرانية.

فمن الممكن أن تجد واحدًا من النصارى موحدًا، هذا ممكن ، ولكن دين النصارى اليوم ليس هو الدين الذي جاء به عيسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وكل ذلك بسبب ماذا؟ بسبب بولِس.

وكذلك هناك أمة عظيمة من الرافضة كان سبب ضلالهم عبد الله بن سبأ عياذًا بالله.

فهؤلاء هم الرافضة الذين يعبدون القبور.

وأما الجهمية فإنهم أتباع الجهم بن صفوان، والجهم بن صفوان كانت له بدع عظيمة كثيرة، سواءً في الأسماء والصفات والإيمان والقدر، فهو جهمي، يُنسب مَن نفى الأسماء والصفات إليه، وبئست هذه النِسبة.

فالذي ينفي الأسماء والصفات يقولون: هو من الجهمية.

وأما في الإيمان فهو مرجئ، يقول: إن الإيمان هو المعرفة، وبالتالي إبليس لم يكن كافرًا لأنه عرف ربه.

وأما في القدر فهو جبري يحتج بالقدر على المعاصي، فجمع بين كثير من البدع.

والجهم بن صفوان أخذ عقيدته -كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - عن شيخه الجعد بن درهم، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان، وهو كذلك من رؤوس الضلالة، وأبان بن سمعان أخذها عن طالوت، وطالوت هذا كان ابن أخت لبيد بن الأعصم الذي سَحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يهوديًا، فعاد الأمر كذلك إلى اليهود عياذًا بالله.

فرد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هاتين الطائفتين.

(المتن)

وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بُلي به صلى الله عليه وسلم من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أُكرم به من الخلّة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصِدِّيق رضي الله عنه أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته رضي الله عنه.

(الشرح)

فإنه لو كان هناك مَن هو أحق منه لقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت فلانًا خليلًا.

وهذا يدل على أن الخُلة كما قلنا: أعظم من المحبة، وأن القُرب في الدين أعظم من القرب في النسب.

فأبو بكر كان أبعد في النسب من علي رضي الله عنه ، ومع ذلك كان أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من علي.

(المتن)

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تُعبد من دون الله.

(الشرح)

سبق أن قلنا: إن هذا الغلو يكون بالإفراط في محبة هؤلاء الصالحين، وفي تعظيم حقهم، فيجر ذلك إلى دعائهم من دون الله، فإذا دُعوا من دونه سبحانه صاروا أوثانًا تُعبد.

فالوثن هو ما يُعبد من دون الله من حجر أو شجر أو قبر.

والغُلو مذموم أبدًا، سواءً كان في العقيدة أو في العبادات أو في المعاملات، الغلو مذموم، و كذلك التفري مذموم، وهذه الأمة أمة وسط: لا إفراط ولا تفريط.

(المتن)

روى مالك في الموطأ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«اللّٰهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

(الشرح)

هذا الحديث رواه مالك في الموطأ مرسلًا عن عطاء بن يسار، وعطاء لم يُدرك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بل أدرك الصحابة.

ولكن هذا الحديث له شواهد تقوّيِه، ولذلك صححه مَن صححه ومنهم الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في تحذير الساجد.

يقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«اللّٰهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»**، اللّٰهم أصلها: يا الله، حُذف حرف النداء، واستعيض عنه بميم الجمع، ليدخل في ذلك الدعاء بكل اسم من أسمائه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ فيما نقله عن الحسن البصري: مَن قال: اللّٰهم، فقد دعا الله بكل أسمائه.

فقال: «اللَّهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد».

سبق بيان معنى الوثن، ما إعراب يُعبد؟ جملة بعد نكرة، صفة، لأن الجمل بعد النكرات صفات.

هل هناك وثن لا يُعبد؟ ليس هناك وثن لا يُعبد.

إذًا ماذا تُسمى هذه؟ صفة كاشفة، جاء بها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لتأكيد الأمر، فهذه صفة كاشفة، ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فكل طائر يطير بجناحيه.

قال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»:

وهذا فيه إثبات الغضب لله تبارك وتعالى خلافًا للأشاعرة، فالأشاعرة لَا يُثبتون الغضب ولا الفرح ولا غير ذلك من الصفات الاختيارية الفعلية القائمة بذات الله تبارك وتعالى، ويؤِّلونها، فيقولون: الغضب إرادة الانتقام، الفرح إرادة الإثابة، وهكذا، لأنهم يزعمون أننا لو أثبتنا له هذه الصفات لجعلناه محلاً للحوادث!!

والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو أعلم الخلق بربه يقول: «اشتد غضب الله»، فيُثبت الغضب لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، بل يثبت أنه ليس على درجة واحدة، ولذلك يقول: «اشتد غضب الله».

فهناك غضب وهذا الغضب درجات، ولذلك قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن يوم القيامة: «إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولا بعده قط»، أو كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فأثبت لربه الغضب صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فنُثبت ذلك على ما يليق بكمال الله تبارك وتعالى.

قال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: فهذا هو السبب، أنهم لمَّا اتخذوا قبور الأنبياء مساجد جعلوها أوثانًا تُعبد من دون الله.

(المتن)

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾، قال: كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره.

(الشرح)

وهذا سبق في باب مضى. أنهم غلوا في هذا الصالح، فاللاتُ كان رجلًا صالحًا يلت السويق أي يعجنه.

ما السويق؟ شعير أو قمح يُطحَن ويُخلط بالسمن والماء، فكان يُصنع و يقدَّم للحجيج.

كان رجلًا يلت لهم السويق فمات، فغلوا فيه وعكفوا على قبره، أي أقاموا عنده فعبدوه من دون الله تبارك وتعالى، وكان من أعظم أصنامهم، فقال الله ﷻ مخاطبًا المشركين: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾، وهذا استفهام يراد به التحقير.

(المتن)

وكذلك قال أبو الجوزاء.

(الشرح)

وهو ثقة مشهور، روى عن أبي هريرة وابن عباس.

(المتن)

عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج، رواه أهل السنن.

(الشرح)

وهذا الحديث الراجح ضعفه، حديث ضعيف بهذه اللفظ، لعن رسول الله زائرات القبور، وأما الثابت: لعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوَّارات القبور، كما بيَّنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في أحكام الجنائز.

وأما المتخذين عليها المساجد والسُرُج فهذه لم تصح.

فزيارة القبور على ثلاثة أقسام:

لأن هذا الحديث يورِد علينا سؤال، هذا السؤال هو: ما حكم زيارة القبور؟

نقول: أما الزيارة للرجال فهي على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن تكون الزيارة سُنة، وهو أن يزورها المرء للاتعاظ وللدعاء للميت، «زوروا القبور، فإنها تذكِّركم الآخرة»، وأمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للاستحباب.

القسم الثاني: أن تكون زيارتها بدعة، كأن يزور القبر للدعاء عنده، يظن فضيلة للدعاء عند القبر، لن يدعو القبر، ولكن يظن فضيلةً تكون للدعاء عند القبر.

أو أن يزور القبر لقراءة القرآن، أو لإحداث أي بدعة عند القبر، فهذه زيارة بدعية، إذ لا تجوز قراءة القرآن عند القبر على الراجح ، وإنما هو الدعاء فقط، قال الله ﷻ عن القرآن في سورة يس: ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٧٠]، فالقرآن نزل للأحياء لا للأموات.

ثم يقال كذلك للذين يجوِّزون قراءة القرآن عند القبر: أيهما أفضل الدعاء أم قراءة القرآن؟ قراءة القرآن بلا شك ، ومع ذلك لـمَّا ذهب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى القبور ماذا قال؟ «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل»، ولو كانت قراءة القرآن جائزة لقال: اقرأوا له القرآن.

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن إ نه كالبيت الخرب وكالقبر، فدل ذلك على أن القبور لا يُقرأ فيها القرآن.

وأما اقرؤوا يس على موتاكم أو عند موتاكم، فمن صححه فهو محمول على قراءته عند مَن هو في النزع في الاحتضار؛ لِمَا في هذه السورة من تذكير بالآخرة وبرحمة الله تبارك وتعالى.

أما القراءة عند القبر فلا تجوز.

إذًا القسم الأول: سُنة، والثاني: بدعة، والثالث: زيارة شركية.

وهي ما كانت لدعائهم والاستنجاد بهم.

وأما زيارة النساء للقبور فهذا مما اختلف فيه أهل العلم: والجمهور على الجواز، خلافًا للحنابلة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وسائر علماء الحجاز: فإنهم يفتون بالتحريم، والراجح الجواز، كما بيَّن ذلك الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحكام الجنائز.

ولكن هذا الجواز مشروط بأمور:

من هذه الأمور: ألا يصاحب هذه الزيارة منكر من تبرج واختلاط ونياحة ورفع للصوت، واعتياد يوم بعينه كما يفعلون عندنا يعتدون يوم الخميس: فهذا من البدع.

فالراجح الجواز للأدلة:

مر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على امرأة عند قبر، فقال لها: **«اتقِ الله واصبري»**، أمرها بالصبر، ولم ينهها عن زيارة القبر.

قالت عائشة للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا عاد من البقيع، فسألته إن هي ذهبت إلى القبور ماذا تقول؟ فما قال لها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن هذا لا يجوز، وإنما علَّمها ماذا تقول.

فالراجح الجواز، ولكن لا تُكثر المرأة من ذلك، لأن الحديث قال: **«لعن الله زوارت»**، وزوارات صيغة مبالغة، تدل على الكثرة.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

(الشرح)

وهي كل ما عُبد من دون الله صنمًا أو قبرًا.

(المتن)

الثانية: تفسير العبادة.

(الشرح)

وهي التذلل والخضوع، لأن النبي ﷺ قال: **«اللّٰهم لا تجعل قبرًا وثنًا يُعبد»**، قال: وثنًا يُعبد، فالعبادة هي التذلل والخضوع، وهذا ما يفعله الناس عند القبور.

(المتن)

الثالثة: أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه ﷺ بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها – معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

(الشرح)

وصفة هذه العبادة: أنه لـمَّا مات عكفوا على قبره.

(المتن)

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

(الشرح)

أي معنى اللَّات.

(المتن)

التاسعة: لعنه زَوَّارَات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

(الشرح)

يعني مَن أوقد نارًا عندها، أو جعل المصابيح عندها.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية هذا الباب: **«اللّٰهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»**، فهل استجاب الله تبارك وتعالى لنبيه؟

نعم، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أبيات بديعة في بيان النهي عن الغلو في الرسول وسدِّه الطُرق المفضية إلى الشرك في النونية، يقول:

والله لو يرضى الرسول دعاءنا ... إياه بادرنا إلى الإذعان

والله لو يرضى الرسول سجودنا ... كنا نخر له على الأذقان

والله ما يرضيه منا غير ... إخلاص وتحكيم لذا القرآن

ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائه ... فعل النصارى عابدي الصلبان

ولقد نهانا أن نصير قبره ... عيدًا حذار الشرك بالرحمن

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمه وثنا من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

وحقاً لو دخلت المسجد النبوي وذهبت عند قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجد أن القبر قد أُحيط بجدران ثلاثة، تفصل بينه وبين المسجد، بل تجد القبر في ناحية بعيدًا تمامًا عن أي قِبلة للمصلي، لا تجد مصليًا في المسجد يستقبل قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا من كمال حِفظ الله تبارك وتعالى للتوحيد، واستجابة الله ﷻ لدعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

ولقد غدا عند الوفاة مصرحا ... باللعن يصرخ فيهم بأذان

وعنى الألى جعلوا القبور مساجدا ... وهم اليهود وعابدو الصلبان

وعنى الأُلى، مَن الألى؟ أي اليهود والنصارى.

وعنى الألى جعلوا القبور مساجدا　　وهم اليهود وعابدو الصلبان

والله لولا ذاك أبرز قبره　　لكنهم حجبوه بالحيطان

قصدوا إلى تسنيم حجرته ليمـ　　ـتنع السجود له على الأذقان

قصدوا موافقة الرسول وقصـ　　ـده التجريد للتوحيد للرحمن

فاستجاب الله دعاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وحفظ قبره من أن يكون وثنًا يُعبد من دون الله.

فنسأل الله تبارك وتعالى أن يحيينا على الإسلام والسُنة، وأن يجنبنا الشرك والبدعة حتى نلقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(المتن)

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.

(الشرح)

ثبت إطلاق **المصطفى** على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما عند أحمد في المسند أنه قال: «وأنا النبي المصطفى».

وجناب التوحيد أي جانبه، ومعنى الباب: باب ما جاء في حماية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جانب التوحيد من كل ما يُقرِّب إلى الشرك أو من سد الذرائع المؤدية إلى ذلك.

أي أنه يحمي التوحيد من الشرك ومن الذرائع المفضية إلى الشرك.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حمى هذا الجناب سواءً مما يَنقضه فيعود على أصل التوحيد بالإبطال، أو مما يُنقصه أي يؤثر في الكمال الواجب في التوحيد والإيمان.

فسد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل ذريعة مفضية للشرك، كما وضح في الأبواب التي مضت.

ثم جاء المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الباب بعد هذه الأبواب زيادة في توكيد هذا الأمر.

لماذا نص المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على حماية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون غيره من هذه الأمة؟

لماذا لم يقل باب ما جاء في حماية العلماء أو الصحابة أو التابعين أو المصلحين جناب التوحيد، ولكن قال: باب ما جاء في حماية المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

أول الأسباب: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من قام بهذا الأمر في هذه الأمة، وهو خير من وفَّى بهذا الأمر، كيف لا وهذا الأمر أساس دعوة الرُسل: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

والسبب الثاني لنصه على النبي ﷺ: أن أكثر الزلل في هذا الباب أعني باب الوقوع في الشرك كان بالغُلو في النبي ﷺ، فكأنه أراد أن يَردَّ بهذا الباب على الغُلاة في جناب النبي ﷺ، فهو الذي حذَّر أمته من هذا الغلو.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

(الشرح)

هذه الأجزاء من الآيات وُجدت في بعض النُسخ.

فمن النُسخ ما اقتصر على جزء من الآية، ومنها ما زاد، ومنها ما ذكر الآية كاملة.

ففي هذه الآية يقول الله تبارك وتعالى مخاطبًا هذه الأمة وممتناً عليها: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي من جنسكم وعلى لغتكم، تعرفون نسبه وصفته وصدقه وأمانته ﷺ، وفي قراءة غير متواترة (مِن أَنْفَسِكم) من النفاسة.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي يعز عليه ويشق عليه كل أمر يُعنِت هذه الأمة، ويُدخل عليها المشقة، ولذلك قال ﷺ : **«بُعِثت بالحنيفية السمحة»**.

فديننا قائم على أمرين:

على الحنيفية أي: الإقبال على الله تبارك وتعالى بالتوحيد، ومن لازم ذلك أن يميل المرء وينحرف عن الشرك.

والسمحة: أي كلها يُسر كما قال النبي ﷺ: **«إن هذا الدين يُسر»**، فبعث الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بالحنيفية السمحة.

قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، أي حريص على هدايتكم ووصول النفع لكم، ولذلك ما ترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا يقرِّبنا من الجنة إلا ودَّلنا عليه، وشيئًا يباعِدنا عن النار إلا ودلنا عليه كذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا كان هذا الحال هو حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن شفقته ورحمته وحرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن حذَّر هذه الأمة تمام التحذير من الشرك كبيره وصغيره، وهذا من حمايته لهذا الجانب وسدَّ كل باب يؤدِّي إلى الشرك، ومن ذلك تعظيم القبور وتعظيم مَن فيها، والصلاة عند القبور.

(المتن)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»**، رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات.

(الشرح)

ووجه الدلالة في هذا الحديث الذي يطابق الآية: أن الحديث بيَّن حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ثلاثة أوجه: قال: **«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»**، فهذا فيه أن البيوت ليس محلًا للقبر، فلا يُشرع أن يُدفن الميت في البيت، وإنما المكان الذي يُدفن فيه الميت هو المقبرة.

وعلل العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك بأكثر من علة: أن هذا خلاف الهَدي، وهذا مما يُدخل الوحشة على أهل البيت، وكذلك أن هذا مما قد يؤدِّي إلى امتهان الميت، وقد يؤدِّي إلى تعظيم المقبور، وإلى فعل المحرمات عنده، ولذلك لا يُشرع أن يُدفن الميت في البيت.

ولتناله كذلك دعوة المسلمين فلذلك الأولى أن يُدفن في المقابر.

قال النبي ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»**، هذا هو الوجه الأول المفهوم من هذه الجملة.

والوجه الثاني: أن المراد بذلك وهذا هو الذي أراد أن يشير إليه المصنف: أن المقابر ليست محلًا لقراءة القرآن ولا للصلاة.

فأراد النبي ﷺ أن يُحذِّر أمته من الصلاة عند القبر ومن تعظيم المقبور، ولذلك جاء ذلك صريحًا عند مسلم من قوله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة»**، إذًا المقابر ليست محلًا لقراءة القرآن.

وهذا خلاف ما يفعله الناس في هذه الأيام من قراءة الفاتحة على الميت، أو قراءة ياسين أو غير ذلك: فكل هذا خلاف الهدي وخلاف سُنة النبي ﷺ.

قال: **«ولا تجعلوا قبري عيدًا»**، والعيد مأخوذ من أصلين: من الاعتياد والعود.

من الاعتياد أن المرء يعتاد ذلك.

ومن العود، أي أن يجعل له وقتًا محددًا وزمنًا معينًا، وإن لم يُكثر الاعتياد.

الاعتياد أن يعتاد ذلك وأن يُكثر.

والعود: أي أن يجعل زمنًا معينًا يعود وإن لم يعد إلا مرة في السنة.

وهذا هو الضابط في الأعياد:

فأعياد المسلمين منها: السنوي.

ومنها الأسبوعي.

فعيد الجمعة عيد أسبوعي، وعيد الفطر والأضحى وأيام التشريق هذه أعياد سنوية.

فقال: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»، إذًا المقصود: أن يُقصَد قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أزمنة معينة، أن تُشد الرحال إلى قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أن يُكثر المرء من زيارة قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلما دخل مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا كما سيأتي خلاف هدي السلف، لم يكن هذا هدي أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنهم كلما كانوا دخلوا المسجد ذهبوا إلى القبر، وإنما كان ذلك يُفعل حينًا في السفر، وهذا كان مأثورًا عن عبد الله بن عمر دون غيره من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: «**ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**».

وصلُوا: هذا أمر، ففيه وجوب الصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والوجوب على وجهين: أما الوجه الأول: فالوجوب المطلق، وهو أنه يجب عليك أن تصلي على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة واحدة في العمر، هذا الوجوب المطلق، لأن الوجوب لا يقتضي التكرار على الصحيح كما هو معلوم في الأصول.

وكذلك الوجوب يتحقق كلما ذُكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه معلّق بشرط، فإذا وُجد الشرط وُجد المشروط.

فالشرط: ذِكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، البخيل مَن ذُكر عنده النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم لم يصلِّ عليه، وقال: خاب وخسر، أو قال: «**رغم أنف امرئ ذُكرت عنده ثم لم يصلي عليه**»، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا الوجوب على وجهين: الوجه الأول: وجوب مطلق، وهو أنه يجب عليك في حياتك أن تصلي على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة واحدة.

ثم بعد ذلك كلما ذُكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُصلي عليه، فهذا وجوب مشروط.

مثل وجوب الوضوء، الوضوء واجب بالدليل، لنص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ**».

وكذلك إذا وُجد المقتضي. وهو دخول الوقت أو الصلاة، فالإنسان يتوضأ: إما وجوبًا لأنه مُحدِث، وإما استحبابًا لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتوضأ لكل صلاة، قال: «وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

كيف تبلغ صلاتنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل يسمعها؟ هل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسع سمعه الأصوات كلها؟ هذا لله سبحانه وحده، وإنما يصل سلامنا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما بيَّنه هو عند النسائي وابن حبان والحاكم، قال: «إن لله ملائكة سياحين»، أي يسيحون في الأرض وينتشرون، «يبلِّغوني عن أمتي السلام».

فلو قلنا هاهنا في مجلسنا هذا: صلى الله على نبينا وسلم، لا يسمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاتنا، وإنما الذي ينقل صلاتنا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الملائكة.

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ قال: بل هذا الحديث أعني الحديث الأخير المذكور: قد يؤخذ منه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يسمع سلامنا ولو سلَّمنا عند قبره، وإنما الذي ينقل ذلك أيضًا هم الملائكة.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحيا في قبره حياة برزخية، لا يعلم حقيقتها إلا الله تبارك وتعالى، ومع ذلك لم يرد نص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه يسمع سلامنا بلا واسطة تُبلغه.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن كان هذا صوابًا فالحمد لله، وإن كان خلاف ذلك: فأتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أو كما قال.

فلو كان الأموات يسمعون مَن يناديهم أو من يسلِّم عليهم أو من يسألهم عن الأحاديث وصحتها، أو من يسألهم عن حل للمشكلات وغير ذلك كما هو منتشر عند المتأخرين.

بل يُخرج المقبور يده ويسلِّم على مَن زاره، ويراه، بل ويفرِّج له كربه، لو كان كل هذا جائزًا وصحيحًا لكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى الناس بذلك، ومع ذلك يقول: «فإن لله ملائكة سياحين يبلِّغوني عن أمتي السلام».

الشاهد: أن من حماية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جانب التوحيد أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»، وعلمنا وجه الدليل.

وقال: «لا تجعلوا قبري عيدًا»، لماذا؟ لأن اعتياد قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يصيِّره وثنًا كما مضى.

وقال: «وصلوا عليَّ»: يعني لا تتكلف «فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

(المتن)

وعن علي بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(الشرح)

وهو زين العابدين، أفضل التابعين من أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعلمهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، استشهد يوم عاشوراء عن ست وخمسين سنة.

علي بن الحسين رضي الله عنه وعن أبيه.

(المتن)

أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

والفُرجة هي الكُوَّة في الجدار، الكوة الطاقة التي تكون في الجدار.

(المتن)

فيدخل فيها فيدعو، فنهاه.

(الشرح)

وهذا فيه النهي عن قصد القبور للدعاء وللصلاة ولتفريج الكُرب، كان يقصد قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهاه، وأهل البيت رضي الله عنهم من أكثر الناس تعظيمًا

لجناب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولكنهم لا يخلطون بين جناب تعظيم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وحماية جناب التوحيد.

فبعض الناس يقع في الشرك ويظن أن ذلك من رفع قدر النبي ومن تعظيم جناب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فنهاه ثم ذكر له الدليل.

(المتن)

وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

(الشرح)

فأبوه: الحُسين.

وجده: علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(المتن)

قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**»، رواه في المختارة.

(الشرح)

وصاحب المختارة هو الضياء المقدسي محمد بن عبد الواحد رَحِمَهُٱللَّهُ، أحد الأعلام.

المختارة أحاديث من الأحاديث الجياد زيادة على الصحيحين.

قال شيخ الإسلام: ما علمت أحدًا رخَّص في ذلك، يعني في قصد القبر للدعاء، حتى ولو كان القبر قبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم يكن من هَدي السلف أنهم كلما دخلوا مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصدوا القبر للسلام، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: لم يكن من هدي السلف، واجعل هذا شعارًا لك في كل مسألة من مسائل الدين، هل هذا من هدي السلف أم لم يكن من هدي السلف؟

فمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لم يكن من هدي السلف أنهم كانوا كلما دخلوا مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصدوا القبر للسلام.

ومالك يقصد بالسلف الصحابة والتابعين، يقصد هؤلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: لم يكن هذا من هدي السلف.

مع شدة تعظيم الصحابة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كانوا كلما دخلوا المسجد ذهبوا إلى القبر ليسلِّموا على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنهم يعلمون أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهاهم عن ذلك، وأن الأمر عام،و يدخل في ذلك النهي قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومع وجود قبره في حجرة عائشة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يُحاط بهذه الجدران، لم يكن الصحابة يستأذنون عائشة للدخول إلى قبره للسلام عليه ولا للدعاء عنده، ولا لسؤاله عن حديث يتثبَّتون فيه عنده من صحته، ولا لحل مشكلة من المشكلات، بل إنهم لمَّا أُصيبوا بالقحط أيام عمر توسَّلوا بدعاء العباس عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا كله من حفظ هذا الباب أعني باب التوحيد.

فالسُنَّة أن المرء إذا دخل مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أن يقصد القبر للسلام، إذا ذهب المرء في عمرة أو في زيارة شدَّ الرحال إلى مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الذي يجوز في شد الرحال، لا قصد شد الرحال للقبر.

وقد كانت هذه المسألة سبب الأذى العظيم الذي أُصيب به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنه حُبس بسبب هذه المسألة، بل وكفَّره بعضهم، واستحل بعضهم دمه، وأراد أن يستصدر قرارًا من السلطان بقتله، لماذا؟

لأنه لمَّا قال: إنه لا يجوز أن يُقصد قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره من قبور الأنبياء بشد الرحال إليها، وإنما بشد الرحال إلى المسجد، ثم بعد ذلك تأتي زيارة القبر تبعًا.

قالوا: إن ابن تيمية ينتقص النبي وينتقص كذلك سائر الأنبياء، ولا يعظِّم جنابهم، وانتقاص أحدٍ من الأنبياء كُفر، فاستحلوا دمه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مع أنك لو فتشت في كلام العلماء المعتبرين كالأئمة الأربعة لا تجد واحدًا منهم يقول بجواز ذلك.

فالشاهد: أنك إن وفقك الله لعمرة، تنوي أن تشد الرحال إلى مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بعد ذلك إذا دخلت المسجد ذهبت إلى القبر، فإذا ذهبت إلى القبر تقول:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا خليفة رسول الله، تعني أبا بكر، ثم بعد ذلك تُسلِّم على عمر، ثم تمضي، ولا ترفع يدك عند السلام، فهذا لم يكن من هدي السلف، ولا تقف للدعاء في هذا المكان.

لأن بعض الناس يُسلم ويتوسل ويتكلم ويستقبل القبر بالدعاء، وهذا كله خلاف الهدي.

بل لو دعوت استقبل القبلة ولو كنت عند قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»، رواه في المختارة.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص.

(الشرح)

ما هو الوجه المخصوص؟

أن تشد الرحال إلى القبر، أن تخرج من بيتك وأنت تقصد أنك تشد الرحال إلى القبر، هذا هو الوجه المخصوص الأول.

أو الاعتياد: كلما دخلت المسجد ذهبت إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

(الشرح)

وكأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جاء بهذا الاحتراز حتى لا يُشنِّع عليه مشنِّع ويقول: ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ ينتقص الأنبياء كسلفه من ابن تيمية وابن القيم وغير ذلك.

(المتن)

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

(المتن)

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

(الشرح)

لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»**، فالقبور لا تُصلى فيها الصلاة، فيُفهم من هذا أن المرء يصلي في بيته، فإذا صلى في بيته صلاة النافلة كان ذلك من إنارة البيوت ومن إخراجها عن تسميتها بالقبور.

(المتن)

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

(الشرح)

يتوهَّم أنه كلما كان أقرب كان ذلك أدعى لسماع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسلامه.

(المتن)

التاسعة: كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تُعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

(الشرح)

«إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام».

(السؤال): صلاة الجنازة في المقبرة ما حكمها؟

إن كان هناك مصلى بجوار المقابر يُصلى عليه الجنازة فهذا لا بأس به.

(المتن)

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.

(الشرح)

سبب مجيء المصنف بهذه الترجمة: أن المشرك قد يقول بعد ذكر البراهين السابقة الدالة على الخوف من الشرك والحرص على التوحيد= قد يقول المشرك: أوليس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب»؟

وهذا حديث ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يريدون بذلك أن يبرهنوا على أن الناس لن يقعوا في الشرك وأن ما يفعله هؤلاء عند القبور من تعظيمها وتعظيم مَن فيها ليس شركًا.

يقولون: قد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الشيطان آيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب»، فلماذا تذكرون هذه الأحاديث وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الشيطان لن يُعبد في جزيرة العرب؟

فمعنى ذلك أن هذا الأمر قد قدَّره الله تبارك وتعالى كونًا وقدرًا، فلن يقع الناس في الشرك، فهذا الذي يفعله الناس عند القبور ليس بالشرك، بل هو من الإيمان ومن تعظيم الأنبياء والصالحين، فأراد المصنف أن يرد عليهم بهذا الباب.

إن استدل هؤلاء بهذا الحديث، كيف نرد عليهم؟

نرد عليهم بأمور:

الأمر الأول: أن نبين أن ما هم عليه هو الشرك بعينه، وليس من التوحيد في شيء، فلا يختلف هذا الذي يفعلونه عما كان يفعله المشركون، ودعاؤهم الأوثان والأولياء من جنس عبادتهم وإن لم يسموها عبادة.

يقولون: نحن لا نعبدهم وإنما نتوسَّل بهم، فيقال لهم: قد قال الله ﷻ: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]، فهذه شُبهة المشركين هي نفس شبهتكم ولا فرق.، فهذا أولًا.

ثانيًا: نبين لهم الخَلل في فَهمهم لهذا الحديث، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان قد صح عنه أنه قال: «إن الشيطان قد آيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب»: فيقال: إن يأس الشيطان ليس بمعصوم، وهذا ظن الشيطان.

فإنه لمَّا وجدَ انتشار الإسلام على عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجد الفتوح، ووجد دخول الناس في دين الله أفواجًا: آيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، والشيطان لا يعلم الغيب، فهذا إخبار من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحال التي كانت موجودة في وقت إخبار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث، وظن الشيطان قد يكون خطأً.

الأمر الثالث: أن يُحمل الحديث على يأس الشيطان من أن يُطبِق جميع الناس على عبادة غير الله.

أن الشيطان يأس أو أيس كلاهما صحيح، أن يعبده جميع الناس، فليس معنى ذلك: ألا يعبده بعض الناس.

الذي يأس منه الشيطان: أن يعبده جميع الناس، فهذا لا يخالف أن يعبده بعض الناس، وأن يعود بعض الناس إلى عبادة الأصنام.

ولذلك قال المصنف: باب ما جاء أن **بعض** هذه الأمة يعبدون الأوثان، وهذا من دقته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

كذلك في هذا الحديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «المصلون»: أن يعبده المصلون، فالمصلون هم المؤمنون الكاملون العارفون للتوحيد والشرك المصلون

صلاة صحيحة أمثال الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، والمصلون الذي يُصلُّون الصلاة الحقيقية تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، وأعظم المنكر الشرك بالله تبارك وتعالى، فغير المصلين من الممكن أن يقعوا في عبادة الشيطان.

ولذلك قال: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدون الأوثان، وفعلًا حصل هذا ووقع.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾.

(الشرح)

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبًا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾: وهذا استفهام تعجب وتقرير، أي أن الله ﷻ يقرِّر أن هؤلاء يؤمنون بالجِبت والطاغوت بالرغم مما معهم من التوراة والإنجيل.

فمعهم كتاب وهُدى، ومع ذلك انحرفوا، فآمَنوا بالجبت والطاغوت.

فقلنا: إن الاستفهام استفهام تعجب وإنكار وتقرير، يعني بيان لحال هؤلاء، يقرِّر حال هؤلاء، لا يُقر حالهم .

هناك فرق بين أن الإقرار والتقرير، يقرِّر كأنه يشرح ويعرض ويبين.

قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾، وهذا كان واقعًا وقت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالرؤية هاهنا رؤية بصرية والله أعلم، بدليل تعديها بإلى بحرف الجر، فإنها تحتمل هذا وهذا، فإن كانت رؤية علمية فإنها لا تُعدَّى بحرف الجر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، فإذا قرأت في تفسير هذه الآية تجد تفسير ألم تر بمعنى ألم تعلم، لأن واقعة الفيل كانت وقت ميلاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يرى ذلك؟

فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، الجِبت كما سيأتي في أبواب السحر هو السحر، والطاغوت على وزن فلعوت، مأخوذ من الطغيان، وهو: ما تجاوز به العبدُ الحدَ من معبود أو متبوع أو مطاع.

كل واحد من هؤلاء له حد: فإذا تجاوز العبد حده مع هؤلاء فقد طغى واتخذ هؤلاء طواغيت، فهذا هو الطاغوت.

نزلت هذه الآيات كما ورد في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، لمَّا ذهبا إلى قريش فسُئلا: أديننا أهدى أم دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فقالا للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا.

ما وجه الدلالة في هذه الآية؟

وجه الدلالة يوضحه الحديث الآتي: أن هؤلاء مع ما حباهم الله تبارك وتعالى من علم ووحي على لسان أنبيائهم ضلوا وزاغوا.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لتتبعن سَنن من كان قبلكم»، وبمن ثَمَّ كونًا وقدرًا سيكون في هذه الأمة مَن يضل و يزيغ كما فعل هؤلاء، فسيكون في هذه الأمة مَن يرجع مرة أخرى لعبادة الأوثان.

بل جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب آليات نساء دوس حول ذي الخَلَصة».

آليات جمعُ الألية وهي الأعجاز أو الأرداف، آليات نساء دوس حول ذي الخَلصة، يطوفون حول هذا الصنم الذي كان طاغوت دوس في الجاهلية، فتضطرب أعجازهن كما كان قبل الإسلام.

فمعنى ذلك: أن الشرك يعود مرة أخرى في بعض هذه الأمة.

(المتن)

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾.

(الشرح)

قال: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ ﴾، بِشَرٍّ: أصلها بأشر من ذلك، ولكن حُذفت الهمزة تخفيفًا، يقال: هذا شر من هذا أي أشر من هذا، لكن لكثرة الاستعمال وقع التخفيف فيقال هذا شر، فهي في الأصل للتفضيل، وهذا خير من هذا أي أخير من هذا، كذلك حُذفت الهمزة للتخفيف.

قال: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ ﴾، وهذا فيه إثبات اللعن لله تبارك وتعالى.

﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾: فيه إثبات الغضب لله تبارك وتعالى، فهو من صفاته الفعلية الاختيارية التي لا تُكيَّف، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾، ولا شك أن المقصود بذلك اليهود، فإن قصة مسخهم إلى قردة وخنازير معلومة في أصحاب السبت.

وليست القردة والخنازير الموجودة حاليًا من نسل هؤلاء، لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «كل أمة مُسخت لا يبقى لها نسل»، فالقردة والخنازير الذين هم مسخ بعض اليهود قطع الله نسلهم.

أمَّا القردة والخنازير الموجودة حاليًا فهذه موجودة منذ أن شاء الله خلقها قبل مبعث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بل قبل مبعث موسى عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

(السؤال): لكن جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُدْرَى مَا فَعَلَتْ وَإِنِّي لَا أُرَاهَا إِلَّا الْفَأْرَ إِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الْإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْ، وَإِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبَتْ"

(الجواب):

يقال: إن هذا من العام المخصوص، طالما أن الحديث صحيح فهذا من العام المخصوص، فكل أمة مسخها الله تبارك وتعالى لا يبقى منها نسل، ويُخص من هذا العموم.

أو يقال: قصد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جنس معينًا من الفئران انقرض وباد وليس هي الفئران الموجودة الآن.

فلا يقتضي ذلك أن الفئران الموجودة الآن هي هذه الفئران التي تكلم عنها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو أن يقال: إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال ما قال في الفئران قبل أن يوحى إليه بالعموم الوارد في عدم بقاء نسل المسخ، بدليل أنه قال: ولا أراها إلا الفأر، فكان اجتهاداً منه أولاً صلى الله عليه وسلم، وهذا أقواها، والله أعلم.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، والثواب يكون بالخير والشر، فهؤلاء يثيبهم الله تبارك وتعالى بلعنته وغضبه ومسخه لهم، وذلك لما اقترفوه من التحريف ومن عبادة الطاغوت، وبيَّنا حد الطاغوت.

وهذه الأمة ستُشبه الأمة السابقة في أنها ستتابعها في بعض ما وقعت فيه.

(المتن)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

(الشرح)

هذه الآية وردت في سورة الكهف في قصة أصحاب الكهف، هؤلاء الفتية الذين فروا بدينهم. أما الذين قالوا: لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا فهم الحُكَّام وأصحاب السلطان، فليس في الآية تكئة لهؤلاء الذين يجيزون إدخال القبور في المساجد.

لأن الله بيَّن أن الذي فعل ذلك هم أهل الشوكة والسلطان، ثم لا يقال في رد هذه الشُبهة إن ذلك كان من شرع من كان قبلنا.

قلنا: لأن الشرائع متفقة على تجريد التوحيد لله تبارك وتعالى، وإدخال القبور في المساجد من الشرك، وذريعةٌ إليه

ويقال ذلك كذلك: في المساجد التي بُنيت في عهد الدولة الفاطمية العبيدية المنتسبة زورًا إلى فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هم من أصل يهودي، فإنهم لَـمَّا دخلوا مصر وكانوا مكروهين منبوذين ، علموا قدر عاطفة محبة آل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند المصريين فأدخلوا القبور في المساجد وزعموا أن هذه القبور إنما هي لآل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذبُوا، فإن قبر الحُسين لا يوجد فيه أحد، وإن وُجد فيه فليس بالحُسين، ولا برأس الحسين.

فإن الحُسين لما قُتل وقطعوا رأسه وذهبوا بها إلى يزيد، ذهب بها زياد ابن أبيه إلى يزيد، كان آخر أمر الرأس أن حُملت إلى البقيع ودُفنت في البقيع، هذا هو الصحيح، فرأس الحسين مدفونة في البقيع.

فليس في العراق رأسُ الحسين، وليس في مصر قبرٌ به جسد الحسين ولا رأسه حقيقة، وليس في غيرها من بُلدان المسلمين لا قبر الحسين ولا رأس الحسين حقيقةً، وكذلك معظم هذه القبور التي هي في المساجد ليس فيها أحد من أهل بيت النبي

صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وإن كان فيها أحد نقول: لم يُدخل هؤلاء العلماء ولا الصالحون ولا المقتدى بهم، وإنما الذي أدخل هؤلاء في المساجد أهل الشوكة والسلطان وأهل الغَلبة من هذه الدولة التي لا علاقة لها بآل بيت النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**.

(الشرح)

ولا شك أن من فقه المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ أنه ذكر كل الآيات السابقة ثم جاء بهذا الحديث، حتى إذا غمض عليك وجه الاستدلال بهذه الآيات على الترجمة قال لك: إن الصفات المنكرة الموجودة في هذه الآيات التي استحق بها أصحابها اللعنة والغضب من الله تبارك وتعالى قد جاءت السُّنة ببيان أن هذه الأمة ستتابع هؤلاء فيها.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم»**: فأكّد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ باللام الموطئة للقسم وبالقسم وبنون التوكيد، أن هذه الأمة كونًا وقدرًا لا بد أن تتابع سَنن أو سُنن من كان قبلهم.

والسَنن بالفتح بمعنى الطريق، وهي مفردة.

وأما السُنن فهي جمع سُنة وهي الطريقة.

«لتتبعن سُنن من كان قبلكم»: يعني طُرق من كان قبلكم.

وهذا من العام المخصوص، لأن ظاهر الحديث أن كل الأمة ستتابع الأمم السابقة في ضلالها وغيها، فجاء ما يخصص هذا العموم من قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»**، فهذا مخصوص بالطائفة المنصورة الموجودة في كل زمان.

الطائفة المنصورة: منصورة إما بالسِنان أو باللسان: بالحُجة والبيان.

بالسِنان في بعض الأوقات والأماكن.

وقد يغيب هذا النصر، كما هو موجود الآن، لا تجد طائفة منصورة بالسِنان من المسلمين، ولكن تجد طائفة منصورة بالحُجة واللسان، فأهل السُنَّة لا يزال لهم شوكة، ولا تزال كلمة الحق تجري على لسانهم، فهذا مما يُخصِّص هذا العموم الذي ورد في هذا الحديث.

قال: **«حذو القذّة بالقذّة»**، والقُذة هي ريشة السهم التي تُجعل في آخره مما يقابل رأسه.

السهم يوضع في آخره ريشة، لماذا؟ لأن هذا يساعد على اندفاع السهم بقوة، فهذه تسمى بالقُذة، وجمعها قُذذ.

قال: **«حذو القُذة بالقُذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**، وجاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الجملة تأكيدًا على بلوغ ووقوع هذا الأمر في أمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء بهذا المثال الذي تعرفه العرب وهو جُحر الضب مع شدة ضيقه وصعوبة الخروج منه، لبيان أن هذه الأمة ستتابع الأمم السابقة فيما لا يتصور العاقل أنها ستتابَع فيه.

مَن يدخل طواعيةً جحر الضب الضيق جدًا؟! ومع ذلك يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**، وأنت تجد الشباب في هذه الأيام بملابسهم المنكرة هيئاتهم القبيحة، عياذًا بالله تتعجب أن يفعل ذَكرٌ هذا الأمر، ومع ذلك يفعل هذه الأمور وهو مرتاح البال، بل يتفاخر بذلك، ويأخذ ما يسمى بالسِلفي، يُخرِج لسانه وينشر ذلك على مواقع التواصل ليصدق فيه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**.

ولذلك قال الصحابة متعجبين:

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟

(الشرح)

بالنصب أو بالرفع، إما: تعني اليهود والنصارى؟ أو هم اليهود والنصارى؟

وهذا فيه استعظام الصحابة لهذا الأمر، لا يتصور الصحابة أن بعض هذه الأمة سيتابع اليهود والنصارى في فعالهم، لأنهم يعلمون أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء إلا بمخالفة اليهود والنصارى.

ثم بعد ذلك يأتي في هذه الأمة من يتابع اليهود والنصارى حتى في هذا الأمر الذي لا يتصوره عاقل!!!

(المتن)

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن؟»، أخرجاه.

(الشرح)

أي فَمَن غير هؤلاء؟

أَوَ يأتي البلاء من غير هؤلاء؟

وفعلًا تحقق كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجدنا في هذه الأمة كل ما فعله اليهود والنصارى على حد قول بعض السلف، وقع في هذه الأمة، كل نقيصة و عيب وقع فيه اليهود والنصارى.

فمنهم مَن عبد القبور، ومنهم من طاف حولها، ونذر لها، وغلا فيها.

ومنهم مَن حرَّف الكلم عن مواضعه، قال الله ﷻ لهم قولوا: حِطة، فقالوا: حنطة.

قيل لقوم من أهل ملتنا وقبلتنا: قولوا: استوى على العرش، قالوا: استولى، فاليهود زادوا النون، وهؤلاء زادوا اللام، فحرَّفوا وبدَّلوا.

وكذلك نُفاة الصفات، وكذلك من يرتشي، وكذلك من يقيم الحد على الضعيف دون القوي.

تجد كل ما كان في اليهود والنصارى وقع في هذه الأمة عياذًا بالله كونًا وقدرًا، وهذا من حكمة الله تبارك وتعالى.

فلا يظنن إنسان أن هذا الذي وقع إنما هو من هوان هذه الأمة على الله تبارك وتعالى، هذه الأمة أكرم الأمم وأشرف الأمم عند الله تبارك وتعالى؛ كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فلماذا تقع هذه الأمور في الأمة؟

تقع ابتلاءً واختبارًا وتصفية لهذه الأمة، ليميز الله الخبيث من الطيب.

(المتن)

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه.

(الشرح)

فهذه الأحاديث جاءت كالمفسِّرة والمبينة للآيات التي ساقها.

(المتن)

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: **«إن الله زوى لي الأرض»**.

(الشرح)

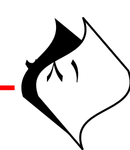
يعني ضمها.

(المتن)

«فرأيت مشارقها ومغاربها».

(الشرح)

وهذا فيه بيان قدرة الله تبارك وتعالى وأنه على كل شيء قدير.



ولذلك من الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس: أنه إذا دعا يقول: إنك على ما تشاء قدير، هذا خطأ، ولكن الوارد: إن الله على كل شيء قدير، فقدرته لا تقيَّد بمشيئة، لأن القدرة صفة ذات، جاءت مطلقة لا منتهى لها.

(المتن)

«فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض».

(الشرح)

يعني الذهب والفضة.

(المتن)

«وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة».

(الشرح)

أي بمهلكة عامة.

(المتن)

«وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم».

(الشرح)

أي يستحل بيضتهم، والبيضة هي ما يُجعل على الرأس للوقاية، والمراد هاهنا: ألا يتغلَّب عليهم وألا يظهر عليهم.

سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه ألا يُمكِّن من هذه الأمة مَن يتغلَّب و يظهر عليهم أجمعين.

(المتن)

«وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد».

(الشرح)

والمقصود هاهنا القضاء الشرعي أم الكوني؟

القضاء الكوني القدري هو الذي لا يُرد.

(المتن)

«وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة».

(الشرح)

وهذا من فضل الله ؛ أنه قدَّر لهذه الأمة ألا يُهلكهم بقحط عام يستأصل شأفتهم.

(المتن)

«وألا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها».

(الشرح)

إذًا الله تبارك وتعالى لا يُسلِّط على هذه الأمة عدوًا من خارجهم يستبيح بيضتهم، يستأصل شأفتهم، ولكن..

(المتن)

«حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا».

(الشرح)

فيكون الشر والشرر من داخل الأمة نفسها، كما هو واقع الآن؛ الثورات والفتن، ويخوض من يخوض في هذه الفتن، يصطنع الغرب هذه الفتن ونحن نفتن، يصنع لنا عدوًا داعشاً والقاعدة وغيرهم من الجبهات الخارجية مثلًا، ويُمدهم بالسلاح، ثم يأتي بمن يحاربهم منا، ويُمدنا بالسلاح، وكل هذا صنعه الغرب.

يأتي بالثورات فينشرها في بلاد المسلمين تحت شعار طويل مطاط: الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية إلى غير ذلك من الشعارات، ويخوض فيه مَن يخوض، ثم بعد ذلك لا تجد إلا الخراب والدمار في بلاد المسلمين، حتى يكون بعضهم يُهلِك بعضًا.

مَن الذي يقاتِل في سوريا؟ مسلمٌ يقاتِل مسلمًا.

وهذا يُكفِّر ذلك، يعني النُصرة وداعش، والقاعدة، وجبهة سوريا الديمقراطية، كل هذه جبهات تقاتِل في سوريا، سبعة وعشرون راية في سوريا، وهذا يقاتِل هذا، وهذا يحكم على هذا بالردة، وهذا يستبيح دم هذا، مصداقًا لكلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«حتى يكون بعضهم يُهلِك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»**.

دواعش عندهم الآن سوق للنخاسة والعياذ بالله، يبيعون نساء المسلمين، وكل امرأة لها سعر معين، المتزوجة بسعر يخالف سعر البكر، خلاف كذا وكذا تباع النسوة على أنهن من الرقيق.

قال: **«ويسبي بعضهم بعضًا»**.

(المتن)

قال: ورواه البرقاني في صحيحه.

(الشرح)

والبرقاني إمام له مُسند، وهو من خوارزم.

(المتن)

وزاد: **«وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»**.

(الشرح)

وهم أئمة الشر، والإمام هو كل مَن يُقتدى به في خير أو شر.

ومن الأئمة المضلين: أهل البدع، بل هم شر الأئمة، ومنهم الأمراء المضلون، والحكام الفاسدون، فهؤلاء من الأئمة المضلين، ومنهم العلماء المضلون كذلك.

(المتن)

«وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة».

(الشرح)

وهذا حاصل، فمنذ فتنة عثمان ومقتل عثمان ﷺ ولم يُرفع السيف من أمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

قال: «ولا تقوم الساعة».

(الشرح)

وهذا هو موطن الشاهد.

(المتن)

«حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين».

(الشرح)

والحي هم القبيلة: إما أن يلحق بهم لحوقًا بدنيًا، يعني أن يسافر إلى المشركين ويلحق بهم.

وإما أن يلحق بهم لحوقًا معنويًا، أن يكون في بلدته ويعبد الأصنام.

(المتن)

«وحتى تعبد فئة من أمتي الأوثان».

(الشرح)

والفئام هم الجماعات.

(المتن)

«وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع؟

(الشرح)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

(المتن)

هل هو اعتقاد قلب؟ أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

(الشرح)

فإن كان عن اعتقاد بالقلب، يعني الإيمان بالجبت والطاغوت إن كان عن اعتقاد بالقلب فهو كفر وردة.

وأما إن كان موافقة في الظاهر مع اعتقاد بطلانها: فإن هذا لا يكفر وإن كان على خطر عظيم.

(المتن)

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلًا من المؤمنين.

(الشرح)

فهذا القول: كُفر وَرِدَّة، فالذي يصحح دين اليهود والنصارى ودين المشركين، والذي يقول: إن دينهم أهدى من دين المؤمنين هذا كُفر ورِدَّة عياذًا بالله، وفيه شَبه من المشركين الأولين.

(المتن)

السادسة: وهي المقصود بالترجمة - أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

(الشرح)

وهذا من باب التحذير لا من باب الإقرار.

(المتن)

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»**، أي جماعات.

(المتن)

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدّعي النبوة، مثل المختار.

(الشرح)

وهو ابن أبي عبيد الثقفي، ادَّعى النبوة، وادَّعى أن جبريل ينزل عليه، وكان ذلك في أول خلافة عبد الله بن الزبير في أيام الحجَّاج، فادَّعى ذلك، مع ما كان منتشرًا في عصره من العلماء والقرَّاء وسُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والبراهين العظيمة على صدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خاتم الأنبياء، ومع ذلك ادَّعى النبوة، فهذا أمر عجيب.

وتجد هذا في حال أهل البدع، تنتشر الحقائق والدلائل والبراهين على صدق المسألة وعلى الحق في هذه المسألة، ومع ذلك تجده يخالف في ذلك، فقال: هذا من العجب العُجاب.

(المتن)

مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق.

(الشرح)

يعني ما قرأ في القرآن: وخاتَم النبيين؟

(المتن)

وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح.

(الشرح)

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠]، نسأل الله العافية.

(المتن)

وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

(الشرح)

أسأل الله أن يجعلنا منهم.

(المتن)

العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

(الشرح)

لماذا؟ لأن الحق ليس من شرطه: الكثرة.

(المتن)

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة.

منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب.

(الشرح)

فرآها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأي عين، أو رآها في منامه.

(المتن)

وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال.

(الشرح)

فرسالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتدت شرقًا وغربًا، أكثر من امتدادها للجنوب والشمال.

(المتن)

وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه مُنع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة.

وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون من العقول.

(الشرح)

ومع ذلك وقعت.

(المتن)

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

(الشرح)

وسبب هذا الحصر كما يقول ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الأئمة المضلين ثلاثة:

إما أن يكون عالمًا، أو أميرًا، أو عابدًا.

فالعالم يضل بما معه من العلم.

والأمير يضل بما معه من البطش والقهر.

والعابد يضل بخداعه الناس بما معه من الزُهد والعبادة.

ولذلك بيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك بقوله: «**إنما أخشى عليكم الأئمة المضلين**»، فدخل في الألف واللام التي تفيد العموم هؤلاء الثلاثة.

(المتن)

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

(الشرح)

فالعبادة لا تختص بالركوع والسجود وفقط، وإنما يدخل فيها الطواف والذبح والنذر وغير ذلك من مفردات العبادة.

(المتن)

باب ما جاء في السِّحْر.

(الشرح)

هذا هو الباب الثالث والعشرون من هذا الكتاب الطيب المبارك.

قال ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حاشيته على هذا الكتاب: أي باب ما جاء في السِّحْر من الوعيد، وبيان منافاته للتوحيد، وتكفير فاعله.

والسِّحْر في اللغة: الصرف، وهو عبارة عمَّا خفي ولَطُف سببه.

وسُمي سحرًا: لأنه بأمور خفية، لا تدرك بالأبصار، أو لأنه يصرف الشيء عن جهته.

قال: وفي الحديث: **«إن من البيان لسحرًا»**، شبَّهه به صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لكون البيان يحصل منه ما يحصل من السِّحْر، لأن الإنسان بحلاوة لسانه وعذوبة منطقه يستطيع أن يُقنع مَن أمامه بما يريد، ويستطيع أن يقلب الحق باطلًا والباطل حقًا، هذا فيه معنى السِّحْر.

وسمي السَّحَرُ سَحَرًا لأنه يقع خفيًا آخر الليل.

وأما السِّحْر في الشرع فقسمان:

القسم الأول: وهو السِّحْر الشركي الذي يكفر صاحبه، وهو عُقَدٌ ورُقى، يُنفث فيها مع الاستعانة بالشياطين.

عُقدٌ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، ورُقى، يُنفث فيها، مع الاستعانة بالشياطين فيما يريد به ضرر المسحور.

فلما استعان بالجن والشياطين كان شركًا، وهو الوارد في آية البقرة كما سيأتي.

وأما القسم الثاني: فعبارة عن أدوية وعقاقير تؤثر في بدن المسحور وعقله، وهو ما يسمى بالصرف والعطف.

فالقسم الأول: شرك يكفر صاحبه، لأنه استعان بالشياطين.

والقسم الثاني: عدوان وفُسوق.

وبهذا التقسيم نستطيع أن نحكم على الساحر، ففي القسم الأول: ما حكم الساحر؟ كافر، لأنه استعان بالشياطين، وادَّعى الغيب.

وأما في القسم الثاني: فهو فاسق معتدٍ.

وسبب إدخال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب في كتاب التوحيد:

أن من السِّحْر ما لا يتأتَّى إلا بالشرك وادِّعاء الغيب فكان مما يناقض التوحيد، فلُحق بغيره.

والسِّحْر له حقيقة وتأثير، ولكن كل ذلك بإذن الله وقدره، فلا يؤثر بذاته استقلالًا، ولكن بإذن الله وتقديره سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾.

(الشرح)

هذه الآية في سورة البقرة، وفيها أكثر من دلالة على كُفر الساحر الذي يستعين بالشيطان.

قال الشيخ **حافظ حكمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معارج القبول في دلالة هذه الآية: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قال: فهذا فيه دلالة على كُفر الساحر، لأنه كفَّر الشياطين بتعليمهم الناس السِّحْر.

قال تعالى: وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا، ما بعدها تعليل لما قبلها، قال: ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فلما كانت الجملة الثانية تعليلاً للجملة الأولى فُصل بينهما ولم تُعطف الثانية على الأولى.

فلم يقل: ويعلِّمون الناس السِّحْر.

وكذلك قوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال: فبيَّن تعالى أنه بمجرد تعلمه يكفر، سواءً عمل به وعلَّمه أو لا.

بمجرد إقدام الساحر على تعلم السِّحْر والاستعانة بالشياطين فإنه يكفر.

قال: ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قال: يعني من حظ ولا نصيب، وهذا الوعيد لم يُطلق إلا فيما هو كُفر لا بقاء للإيمان معه.

فَإِنَّهُ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا ويدخل الْجَنَّةَ، إما حالًا وإما مآلًا، وَكَفَى بِدُخُولِ الْجَنَّةِ خَلَاقًا.

ما المقصود بالخَلَاق؟ النصيب.

وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٠٢].

وَمِنْهَا: في الآية التي بعدها: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ يُعْنَى: بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْقُرْآنِ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ بِالسِّحْرِ وَسَائِرِ الذُّنُوبِ، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٠٣]، وَهَذَا مِنْ أَصْرَحِ الْأَدِلَّةِ عَلَى كُفْرِ السَّاحِرِ وَنَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ لِلْمُؤْمِنِ الْمُتَّقِي: وَلَوْ أَنَّهُ آمَنَ وَاتَّقَى، وإنما قَالَ تَعَالَى ذَلِكَ لِمَنْ كَفَرَ وَفَجَرَ وَعَمِلَ بِالسِّحْرِ وَاتَّبَعَهُ وَخَاصَمَ بِهِ رَسُولَهُ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَمَى بِهِ نَبِيَّهُ وَنَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

إذًا هذه الآية الأولى التي معنا وفيها أكثر من دلالة على كُفر الساحر لاستعانته بالشياطين.

(المتن)

وقوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾.

(الشرح)

هذه الآية نزلت في اليهود.

(المتن)

قال عمر رضي الله عنه: الجبت: السِّحْر، والطاغوت: الشيطان.

(الشرح)

الجِبت: السِّحْر، فلما آمنوا به كان ذلك دليلًا على كفرهم، والطاغوت الشيطان.

(المتن)

وقال جابر: الطواغيت: كُهَّان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد.

(الشرح)

فقال عمر رضي الله عنه في الطواغيت أنهم الشياطين، وقال جابر رضي الله عنه في الطواغيت: أنهم الكهان.

وهذا من ضرب المثل، وهي طريقة للسلف في تفسير القرآن، أنهم أحيانًا يفسرون القرآن بضرب المثل.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، أبو بكر وعمر، أو يقولون: الصراط المستقيم: طريق أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا ليس تفسيرًا للصراط المستقيم لأن الصراط معناه معروف، والاستقامة معناها معروف، وإنما فسَّروه بضرب المثل.

فهذه التفاسير لا تتناقض.

لماذا قلنا إنه تفسير بضرب المثل؟

لأنه ورد في كلام السلف تسمية أكثر من شيء بالطواغيت:

فالشيطان طاغوت، والكُهان طواغيت، والذين يحكمون بغير ما أنزل الله طواغيت، كما سمَّاهم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر ثلاثة الأصول.

ولذلك حده ابن القيم بحد جامع مانع: كل ما تجاوز به العبد الحد من معبود أو متبوع أو مطاع، فيدخل في ذلك الأمثلة الثلاثة التي ذكرها.

قال جابر: الطواغيت: كُهَّان.

قلنا: الطاغوت على وزن فلعوت مأخوذ من الطغيان وهو المجاوزة في الحد.

قال: كُهَّان كان ينزل عليهم الشيطان، هؤلاء الكهان كان أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم، تنزل عليهم الشيطان بما استرقت من السمع قبل مبعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا كانت خصومة احتكم إليهم أهل الجاهلية، وكان في كل حي واحد يحتكمون إليه.

فالإيمان بالجبت الذي هو السِّحْر كُفر، وكذلك بالطاغوت.

(المتن)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**».

(الشرح)

رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث يقول: «**اجتنبوا**»: أي اجعلوا هذه السبعة في جانب وأنتم في جانب، هذا معنى الاجتناب، أن تجعل الشيء في جانب وأنت في جانب، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

هذا أبلغ من قولنا: اتركوا ودعوا، الأمر بالاجتناب أبلغ من قولنا: اتركوا ودعوا، لأنك لا تقربها أصلًا، اجعلها في جانب وأنت في جانب.

قال: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**: وهذا ليس للحصر. فالكبائر ليست سبعًا فقط، بل كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها أقرب إلى السبعين، فالكبائر كثيرة جدًا، ولذلك صنَّف الإمام الذهبي كتابًا سماه بكتاب الكبائر، ذكر فيه كثيرًا من الكبائر، جمعها من حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وصنَّف غيره الزواجر عن اجتناب الكبائر، وذكر فيه كذلك الكثير من الكبائر.

وكذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب صنَّف كتابًا سماه الكبائر، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ جمع معظم هذه الكبائر في كتابه فتح الباري وقد جاوزت السبع.

لماذا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**؟

إما لأنها هذه المذكورات هي أعظم الكبائر، وإما أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخبر أولًا بما أُعلم به، وهذا يذكِّرنا بمسألة الفأرة، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: **«الفأرة مسخ»**.

العلماء وجَّهوا هذا الحديث في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وآية ذلك: إذا وُضع لها ألبان الإبل لا تشرب، وإذا وُضع لها ألبان الشاة شربت، مع أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخبر أنه لا نسل للمسخ.

يعني الأمم التي مسخها الله تبارك وتعالى لا يتناسلون بل ينقرضون، ومع ذلك قال في هذا الحديث عن الفأرة أنها مسخ.

فوجَّه العلماء كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن ذلك قبل أن يُعلم بأنه لا نسل للمسخ.

فكان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول ذلك أولًا، ثم أخبره ربه تبارك وتعالى أنه لا نسل للمسخ، إذًا الفأرة ليست مسخًا.

لماذا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اجتنبوا السبع الموبقات»؟

قلنا: إما لأنها أعظمها.

والأمر الثاني: أو لأن ذلك بحسب ما أُعلم به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلمّا قال هذا الحديث أُعلم بهذه السبع.

وإما بحسب المقام بالنسبة للسائل، فقد كان النبي يختلف جوابه أحيانًا من سائل إلى سائل، أوصني، قال: «لا تغضب»، يأتي رجل يسأل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيقول: أي الإسلام خير؟

قال: «أن تُقرئ السلام، وتطعم الطعام، وتصلي بالليل والناس نيام».

أي الناس خير؟ «مَن سلم المسلمون من لسانه ويده».

إذًا كان جواب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يختلف من شخص إلى آخر بحسب حاله.

فقد يكون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هاهنا أجاب بحسب حال السائل.

وإما أن مفهوم العدد ليس بحُجَّة هٰهنا، فأحيانًا يؤتى بالعدد من أجل التكثير، ولا يُقصد به هذا العدد المعين، «سبعة يظلهم الله في ظله»، مع أنه جاء في أحاديث أخرى خلاف هؤلاء السبعة، كالتاجر الصدوق، ولم يأتِ ذِكره في هذا الحديث.

وكذلك: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠]، فهل معنى ذلك أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لو استغفر إحدى وسبعين مرة لتاب الله عليهم؟ لا، وإنما هذا من باب التكثير، لأن العدد هٰهنا لا مفهوم له.

(المتن)

قال: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات».

(الشرح)

يعني المهلكات.

قال أبو هريرة في الرجل الذي قال عن أخيه من بني إسرائيل: والله لا يغفر الله له، قال: لقد قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته.

أوبقت أي أهلكت وعادت على دنياه وآخرته بالإفساد والعاقبة السيئة.

فالموبقات بمعنى المُهلكات، أنها تُهلك فاعلها في الدنيا بالعقوبة وفي الآخرة بالعذاب.

(المتن)

قالوا: يا رسول الله: وما هن؟

(الشرح)

وهذا يدل على حرص الصحابة على اجتناب الشر، وعلى تعلم ما يقربهم من ربهم تبارك وتعالى.

(المتن)

قال: «**الشرك بالله**».

(الشرح)

بدأ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه أعظم الذنوب.

(المتن)

قال: «**والسِّحْر**».

(الشرح)

وهذا هو الشاهد في هذا الحديث.

فالسِّحْر منهي عنه بعد الشرك: إما لأنه شرك لاستعانة صاحبه بالشياطين، وإما لأنه يؤول بصاحبه إلى الشرك.

(المتن)

قال: «**وقتل النفس**».

(الشرح)

من أعظم الكبائر أن يقتل الإنسان نفسًا معصومة.

ما النفوس المعصومة في الإسلام؟

أربعة:

نفس المؤمن، ونفس الذمي، ونفس المعاهَد، ونفس المستأمِن.

فهذه نفوس معصومة لا تُقتل إلا بحقها.

نفس المسلم: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: التارك لدينه المفارق للجماعة**»، يعني المرتد، «**والثيب الزاني، والنفس بالنفس**»، يعني القاتل عمداً عدواناً، هذا بالنسبة للمؤمن.

وأما الثاني: فالذمي: وهو من كان من أهل الكتاب وكانت له ذمة، كالنصارى بيننا.

وكذلك: المعاهَد: وهو من كان بيننا وبينه عهد ولم يكونوا من أهل الحرب.

والمستأمن: الذي يدخل بلدك بأمان، سواء كان بأمان نفس مؤمنة، إنسان مسلم أدخله وأمَّنه، أو بما أمَّنته به الدولة، أخذ تأشيرة للدخول، فالتأشيرة هذه عهد أمان، لا يجوز لك أن تتعرض له ولا أن تؤذيه، ولا أن تقتله.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، فهذه النفوس الأربعة نفوس معصومة.

فرسل الملوك والرؤساء يدخلون في حدِّ المستأمِن، لأنك لما سمحت لهم بدخول بلدك صاروا مستأمنين، طلبوا الأمان فأعطيتهم هذا الأمان.

(المتن)

قال: «**وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم**».

(الشرح)

وعبَّر بالأكل: لأنه أشهر صوره، وإلا فلو أحرق مال اليتيم أو أضاعه فهو كالأكل، لأنه يشترك في العلة التي هي الظلم، ظلم اليتيم.

(المتن)

«والتولي يوم الزحف»: أي يوم القتال، أن يفر المرء ويترك ساحة الجهاد إلا في حالتين، فإنه لا يدخل في هذا الحديث:

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]:

إما أن يترك المركز الذي يقف فيه لينتقل إلى مكان آخر هو أولى وأصلح في الجهاد، أو أن يترك هذا المكان لينحاز إلى فئة أخرى من فئات المسلمين، فمن فعل هذين الأمرين فلا يصدق عليه أنه تولى يوم الزحف.

(المتن)

قال: «وقذف المحصنات».

(الشرح)

والمحصنة بالفتح هي المحفوظة من الزنا، يعني التي حفظت فرجها منه.

والمراد هاهنا: رميهن بالزنا.

وقوله: «الغافلات»: كناية عن البراءة، وقذف الرجل كالمرأة.

فليس معنى الحديث: أن الوعيد على قذف المرأة فقط، وإنما يصدق كذلك على قذف الرجل.

فلو أن إنسانًا قذف رجلًا بأمه، أو قذفه بالزنى، فهذا كذلك يدخل في هذا الحديث.

(المتن)

«وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

(الشرح)

إذًا عبَّر بالمحصنات: لأن هذا هو الغالب أن التي تُقذف هي المرأة وليس الرجل.

(المتن)

وعن جندب ﷺ مرفوعًا.

(الشرح)

وهو جندب الخير، ابن كعب الأزدي، وليس جُندب بن عبد الله البجلي الصحابي المشهور.

(المتن)

قال: «**حد الساحر ضربه بالسيف**»، رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

(الشرح)

حد الساحر ضربُه، وروي كذلك: ضربٌة بالسيف، يعني يروى بالهاء والتاء، فيقال: حد الساحر ضربُه بالسيف، وحد الساحر ضربةٌ بالسيف.

وهذا لم يثبت مرفوعًا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال العلماء.

فضعفه البخاري والترمذي، وكذلك الألباني في الضعيفة، ومال الترمذي والذهبي والألباني إلى أن الصحيح وقفه، فهو من قول هذا الصحابي وليس من قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من المرفوع حكمًا لا قولًا.

فقال: حد الساحر ضربه بالسيف، والشاهد في هذا الحديث: أنه لمَّا جعل القتل بالسيف حدًا للساحر، دل ذلك على حرمة فِعله حرمة شديدة.

وبهذا الأثر والذي بعده وهو أثر عمر أخذ الجمهور أن الساحر يُقتل بلا تفصيل، يعني سواءً استعان بالشيطان أو لم يستعن بالشيطان أنه يُقتل، لهذا الحديث، لأنه قال: حد الساحر ضربه بالسيف.

والألف واللام تصدق على كل ساحر.

أما الشافعي رحمه الله ففصَّل:

فقال: لا يُقتل ابتداءً، وإنما يُسأل، يقال له: صف لنا سحرك؟ فإن وصف من سحره الاستعانة بالنجوم، وكذلك بالشياطين وعلم الغيب فإنه يُقتل، وإلا عُذِّر.

ومن أهل العلم من قال كذلك على مقتضى هذا الحديث :أن الساحر لا يُستتاب، قالوا: لأنه جاء في الحديث: حد الساحر ضربه بالسيف، وإذا وصلت الحدود إلى السلطان أُقيمت ولا تُقبل التوبة، إنما يتوب قبل أن يُتمكَّن به، فإن تُمكِّن منه فإنه لا يُقبل منه توبة ولا استتابة، وإنما يُقتل، سواءً قُتل رِدة بسبب استعانته بالشياطين أو قُتل تعزيرًا من باب دفع الصائل لعظيم ضرره على المسلمين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية وهذا هو القائل الثالث: إن الأمر يرجع في ذلك إلى السلطان، فهو الذي ينظر في المصلحة العامة التي لا تخالف الشرع، فإن رأى أن المصلحة استتابته استتيب ، وإن رأى أن من المصلحة قَتْلَه قتَله.

(المتن)

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.

(الشرح)

وكل من ألفاظ العموم.

(المتن)

قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

(الشرح)

ووجه الدلالة في هذا الأثر: أن عمر ﷺ لمَّا أمر بقتلهم دل ذلك على حرمة هذا الفعل، وأن تعلم السِّحْر أمر محرم، ولا يجوز تعلمه ولو كان من باب العلاج، كما سيأتي في باب النُشرة.

فبعض الناس يسأل: هل يجوز لنا أن نتعلم السِّحْر من باب العلاج؟ لن أستعمله في إضرا ر المسلمين، ولكن سأستعمله في باب العلاج، فالشياطين ستطلع المستعين بها على مكان السِّحْر، تقول له: هذا السِّحْر وُضع في مكان ما، هل يجوز ذلك أم لا يجوز؟

هذا سيأتي، وسيتضح أن القول الصحيح أنه لا يجوز مطلقًا، وسيأتي كذلك الرد على هؤلاء الدجَّالين الذين كثروا في هذه الأيام ممن يستعينون بالشياطين، وإن طالت لحاهم وقصرت ثيابهم، وقيل عنهم: الشيخ فلان والشيخ فلان.

لأن عالم الجن عالم غيبي، والأصل فيه الكذب، فكيف تصدقه، حتى لو قال لك: إني أسلمت، واسمي أبو بكر أو محمد، وأستطيع أن أُعينك؟ ثم بعد ذلك إن كنت في بداية الأمر لا تعتمد إلا على الله، فإنه ولا بد بعد ذلك أن يكون اعتماد الأبعد على الشيطان.

وهذا ملاحظ: أول ما يجلس للعلاج، يخبره الجن أنه مسحور، أو أنه يحتاج إلى كذا وكذا.

قال لي بعضهم: جاء بالراقي إلى بيته، قبل أن يدخل البيت، قال له : أمك عندها سحر، من غير أن يقرأ ولا أي شيء، فهذا لا يجوز، لأنها استعانة بالشياطين وتوكُل على الشياطين.

ففي هذا الأثر لمَّا أمر عمر رضي الله عنه بقتل هؤلاء دل ذلك على حرمة فعلهم.

وقد رجَّح الشيخ ابن عثيمين ذلك ، يقول: إ ن القتل لهؤلاء سواء كفروا أم لا.

لا يُفصِّل: يقول: سواءً كفروا أو لم يكفروا بسحرهم يُقتلون، لماذا؟

قال: لأنهم يسعون في الأرض فسادًا، فيُقتلون إما ردة وإما تعزيرًا.

(المتن)

وصح عن حفصة رضي الله عنها: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت، وكذلك صح عن جندب.

(الشرح)

صح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت، من الذي قتلها؟ ليس السلطان هو الذي قتلها، ولذلك جاء في الرواية: أنهم ذكروا ذلك لأمير المؤمنين عثمان.

الأصل من الذي يقتل الساحر؟ ولي الأمر.

حفصة هي التي قتلت هذه الساحرة.

وقصة هذه الساحرة: أن حفصة رضي الله عنها دبَّرتها، أي علَّقت عتقها على موتها، انظر إلى جزاء المعروف، فحفصة علقَّت عتق هذه الجارية على موتها: إن ماتت حفصة رضي الله عنها عُتقت الجارية.

فاستعجلت هذه الجارية الشيء قبل أوانه، فسحرت حفصة لتقتلها، فقتلت حفصة رضي الله عنها هذه الجارية.

فذكروا ذلك لأمير المؤمنين عثمان ﷺ، فأنكر عليها أنها قتلتها دون إذنه.

فالأصل أن الذي يقوم بذلك هو ولي الأمر.

وكذلك جُندب ﷺ وقصته عند البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي، قال: كان عند الوليد بن عقبة رجل يلعب، يعني ساحر يلعب، فذبح إنسانًا وأبان رأسه عن جسده.

قال: فعجبنا وقلنا: سبحان الله يحي الموتى، لأنه أعاد الرأس مرة أخرى، فجاء جندب الأزدي الذي قال: حد الساحر ضربه بالسيف، جاء وقد أخفى سيفه، فلما فعل هذا الساحر ما فعل، اخترط سيفه وضرب رأسه، وقال: إن كان صادقًا يحي نفسه، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه، فسجنه ثم أطلقه.

فجندب ﷺ قتل الساحر، وكذلك حفصة، وكذلك أمر عمر رضي الله عنهم أجمعين.

(المتن)

قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

يعني صح ذلك عن ثلاثة من الصحابة، كأنه يريد أن يقول: لم يُعلم لهم مخالف.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

(الشرح)

تؤخذ من تفسير عمر وتفسير جابر.

لأن عمر قال: إن الطواغيت الشياطين، وجابر قال: الكهَّان.

(المتن)

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

(الشرح)

لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولغير ذلك من دلالات الآية التي ذكرناها.

(المتن)

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

(الشرح)

وهذا الذي رجحه الشيخ ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رجحه بدليل وليس بهوى بناءً على الآثار التي ذُكرت.

(المتن)

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟

(الشرح)

فإذا وُجد هذا الفعل الشنيع على عهد عمر في القرون الفاضلة التي زكاها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بمن بعدهم؟ لا شك أن هذا الشر انتشر أكثر وأكثر.

(المتن)

باب بيان شيء من أنواع السِّحْر.

(الشرح)

أبواب هذا الكتاب المبارك كالسلسلة يأخذ بعضها ببعض؛ ومناسبة هذا الباب للباب الذي قبله: أن المصنف لمَّا ذكر في الباب السابق: ما جاء في السِّحْر من الوعيد ذكر في هذا الباب شيئًا من أنواعه، لكثرة وقوع هذه الأنواع أولًا، ولخفائها على الناس ثانيًا.

اعتقد كثير من الناس أن مَن صدر منه ذلك فهو ولي لله تعالى، وأن هذه من الكرامات، وما علموا أن ذلك من السِّحْر فلزم التنبيه على ذلك.

فقال: **باب بيان شيء من أنواع السِّحْر**، ومن فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قال: باب بيان شيء من أنواع السِّحْر، فلم يحكم عليها بحكم واحد، لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو كبيرة من الكبائر، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصده فاعله، فرحمة الله عليه.

فلمَّا لم تستو في الحكم لم يقطع بالحكم في الترجمة، فقال: **باب بيان شيء من أنواع السِّحْر.**

(المتن)

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت»**.

(الشرح)

وهذا الحديث حسَّن إسناده النووي في رياض الصالحين، وابن تيمية في الفتاوى، وجوَّد إسناده ابن مفلح، فهو حديث حسن.

ما العيافة والطرق والطيرة؟

(المتن)

قال عوف.

(الشرح)

وهو أحد الرواة، وهو عوف بن أبي جميلة.

(المتن)

قال: العيافة: زجر الطير.

(الشرح)

فكانوا يزجرون الطير، يمسكون الطير ثم يطلقونه، يزجرونه، فيتشاءمون تارة ويتيمَّنون أخرى.

إذا طار الطير إلى جهة معينة تشاءموا فأحجموا، لم يُقدِموا على فعل أرادوه.

وإن طار إلى جهة معينة تيمَّنوا وتفاءلوا، فأقدموا على هذا الأمر، وهذا من عمل الجاهلية.

فالطير كما يقول ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس عنده خير ولا شر.

هل هذا من السِّحْر؟ هل هذا من الاستعانة بالشياطين؟ ليس من الاستعانة بالشياطين.

لماذا قال في آخر الحديث: من الجِبت أي السِّحْر؟

لأنها وإن لم تكن سحرًا في حقيقتها إلا أنها عملت ما عمل السِّحْر.

ما معنى السِّحْر في اللغة؟ الصرف والتحويل.

فكما أن السِّحْر يصرف ويحوِّل المرء ويصيبه بالأذى، فكذلك هذه الأمور.

ولذلك قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُميت هذه الأمور سحرًا وإن لم تكن سحرًا من جهة الحقيقة التي هي استخدام الشياطين: لأنها تعمل عمل السِّحْر، من الأذى والصرف عمَّا قد يكون باب خير للعبد من غير سبب شرعي.

فالاعتماد على زجر الطير هل هو سبب شرعي؟ ليس سببًا شرعيًا.

هل هو سبب عادي كالأدوية مثلًا؟ ليس سببًا شرعيًا ولا عاديًا.

قال: سميت سحرًا وإن لم تكن سحرًا من جهة الحقيقة التي هي استخدام الشياطين، لأنها تعمل عمل السِّحْر من الأذى والصرف عمَّا قد يكون باب خير للعبد من غير سبب شرعي.

(المتن)

العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض والجبت.

(الشرح)

غالبًا ما يكون بإلقاء الحصى على الأرض، للاستدلال بمواقعها، وادِّعاء علم الغيب بها، إذا وقع هذا الحصى على طريقة معينة زعم الكاهن أنه يستدل به على أمور من أمور الغيب، فهذا من السِّحْر:

إن كان يستدعي بهذه الطريقة الشياطين فهو من السِّحْر حقيقة.

وإن لم تكن باستعمال الشياطين فهو من العبث الذي أُريد به معنى السِّحْر من الصرف والتحويل.

ولذلك أدخلها في الجبت الذي هو السِّحْر.

قال: والطيرة، وسيأتي بابها وهي التشاؤم.

قال: إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

(المتن)

والجبت قال الحسن.

(الشرح)

الحسن بن سعيد البصري، سيد التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(المتن)

قال الحسن: رنة الشيطان.

(الشرح)

وهذا كذلك ثبت عن سعيد بن المسيب: أن الشيطان كانت له أربع رنات، ورنة الشيطان أي صوته ووحيه الذي يوحيه إلى الكهان.

كانت له أربع رنات: إما لحُزن بسبب طرده من الملكوت، أو بسبب لعن الله له، وأ بسبب مبعث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ونسيت السبب الرابع.

المهم أن الشيطان لـمَّا حدث له ما حدث كان له صوت حُزن ووحي وتفريع إلى الكهَّان ليضلوا بني آدم بصوته، ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

قال الحسن: رنة الشيطان، إذًا الجبت رنة الشيطان، هذا تفسير بالمثال.

فمنهم من قال إن الجبت: رنة الشيطان.

ومنهم من قال: إن الجبت الشيطان نفسه.

ومنهم من قال إن الجبت: الكُهان.

هل بينها تعارض؟ ليس بينها تعارض، وهذا من تفسير السلف بالمثال، كما بيَّن ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة أصول التفسير.

قال:

(المتن)

إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، المسند منه.

(الشرح)

يعني مرفوعًا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السِّحْر، زاد ما زاد»**، رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

(الشرح)

يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: **«من اقتبس»**، يعني من تعلَّم، **«شُعبة من النجوم»**، يعني طائفة وجزءًا.

ومنه الحديث: **«والحياء شعبة من الإيمان»**: أي جزء من أجزاء الإيمان.

«من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شُعبة من السِّحْر»، وهذا يدل على حرمة تعلم ذلك.

وعلم النجوم علمان: علم تأثير، وعلم تسيير.

- علم التأثير: الذي يعتقد صاحبه أن النجوم تؤثر في حوادث الأرض، فموت هذا بسبب حركة النجوم، وحياة هذا وميلاد ذاك بسبب حركة النجوم، فهذا كُفر، وهذا هو الذي يصدق عليه الحديث.
- وأما علم التسيير فهذا على حد قول ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ من نعمة الله تبارك وتعالى على عباده، وهو أن تنظر في النجوم لتعرف القِبلة، ولتعرف الحر والبرد وغير ذلك، فهذا من تعليم الله تبارك وتعالى للعبد، فهذا ليس بمحرم، وإن كرهه بعض السلف.

ولكن الصحيح: أنه ليس بمكروه.

والنوع المقصود في الحديث: هو النوع الأول.

«من اقتبس شُعبة من النجوم فقد اقتبس شُعبة من السِّحْر، زاد ما زاد»، معنى زاد ما زاد أي: جُرمه على قدر تعلمه.

(المتن)

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه»**.

(الشرح)

قال: **«مَن عقد عُقدة ثم نفث فيها فقد سحر»**.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤]، ما النفث؟ هو النفخ بريق خفيف من أجل السِّحْر.

يعقد الساحر أو الساحرة عُقدة ما بطريقة معينة، ويتمتم بكلمات، وينفث مع هذه الكلمات على هذه العقدة، كلما عقد عقدة نفث بريقه، حتى يصل هذا الريق الخفيف إلى هذه العُقدة.

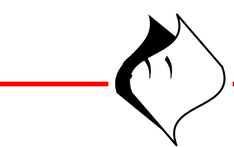
فقال: **«من عقد عُقدة ثم نفث فيها فقد سحر»**، وليس معنى ذلك أن السِّحْر لا يكون إلا بذلك، فمن كتب رقية بطريقة معينة شركية فنفث فيها فيصدق عليه أنه سحر، وإنما النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر ما هو شائع بين الناس.

قال: **«ومن سحر فقد أشرك»**، وهذا بيان لحكم الجملة الأولى، قال: **«ومن تعلق شيئًا وُكِل إليه»**.

وجاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجملة الأخيرة لأن الذي يذهب إلى السَّحْرة غالبًا يتعلق قلبه به، فيوكَل إليه.

وأما من اجتنبهم وتوكل على الله تبارك وتعالى فالله كافيه، قال الله ﷻ: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]، والله حسبه، قال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣].

وأما الذي يتعلق بالمخلوقين من السَّحْرة وغيرهم فهذا يوكَل إلى ضعف وعجز، ولذلك جاء في الآية: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ



فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]، فقال النبي ﷺ: «ومن تعلق بشيء وُكِل إليه».

ودلالة الحديث واضحة على الترجمة.

(المتن)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا».

(الشرح)

أداة تنبيه للتشويق والإثارة.

(المتن)

قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟».

(الشرح)

يقال العُضه والعِضه.

(المتن)

«ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة، القالة بين الناس»، رواه مسلم.

(الشرح)

والنميمة فعيلة، فسَّرها النبي ﷺ بقوله: القالة بين الناس، يعني نقل القول بين الناس على وجه الإفساد.

هل هذا من السِّحْر حقيقة؟ لا، هي من السحر حكمًا ومعنى، لماذا؟ لأنها تُفرِّق، فأشبهت السِّحْر في ذلك، قال الله ﷻ: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولذلك كانت النميمة كالسِّحْر من كبائر الذنوب، قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قتَّات»، نمَّام، وليس هذا تكفيرًا له كما هو معلوم عند أهل السُنَّة والجماعة، وإنما هذا وعيد شديد، وزجر عن هذه الكبيرة.

وهذا الفعل كذلك من موجبات عذاب القبر، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مر بين قبرين، فقال: **«إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير، أما أحدهما: فكان لا يستبرئ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة»**.

فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«وإنه لكبير»**، كثير من الناس يظن أن هذا الأمر ليس بالأمر الكبير وإنما هو أمر هين.

فبيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه من الأمور العظيمة.

(المتن)

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إن من البيان لسحرًا»**.

(الشرح)

المرء بفصاحته وبكلامه يستطيع أن يُظهر الحق، وأن يأتي بالحُجج الدامغة عليه، وأن يُقنع الناس به، هذا البيان محمود أم مذموم؟ محمود ومطلوب، ويستطيع المرء ببيانه وبفصاحته أن يقلب الحق باطلًا، كما هو حال أهل البدع، ومن قبلهم حال المشركين.

فهذا مذموم أم محمود؟ مذموم، فالأمر ليس على حالة واحدة.

ولذلك لم يقطع المصنف في ترجمة هذا الباب بحكم واحد، قال: **باب بيان شيء من أنواع السِّحْر.**

فقلب الحق إلى باطل من أنواع السِّحْر من جهة المعنى، لأنه تغيير، وصرف عن الحق.

ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لعل بعضكم يكون ألحن بحجته من أخيه، فأقضي له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بذلك فقد قضيت له بقطعة من النار»، أو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا قلب الحق باطلًا أو الباطل حقًا.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يطَّلع على الغيب، وإنما يجتهد في الحكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الحديث مما استدل به من قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجتهد، وهذه مسألة أصولية.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

(الشرح)

سبق بيان وجه دخولها في السِّحْر.

(المتن)

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السِّحْر.

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك.

(الشرح)

أي من السِّحْر.

(المتن)

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

(الشرح)

قلنا: لأنها تفعل فعل السِّحْر.

(المتن)

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

(الشرح)

ومن تبعيضية، لأن النبي قال: **«إن من البيان لسحرًا»**، لم يقل إن البيان سحر، قال: **«إن من البيان»**، فهذا تبعيض.

ولذلك لمَّا ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد هذا الباب ومسائله قال: إن من ذلك بعض الفصاحة.

(المتن)

باب ما جاء في الكهان ونحوهم.

(الشرح)

أي ما جاء فيهم من الوعيد الشديد، ومن التغليظ في الحكم.

وقوله: ونحوهم، أي ما جاء من الأحكام في نحوهم: كالعرافين والمنجمين والرمالين كما سيأتي.

فالباب ليس مختصًا بحكم الكُهان فقط، ولكن يُلحق بهم في الحكم مَن شابههم.

ومناسبة هذا الباب بالباب الذي قبله: أنه في الباب الذي قبله تكلم عن السحر وبعض أنواعه، فأحبَّ أن يُردف ذلك بذكر الكهان ونحوهم لمشابهتهم للسحرة.

فالكهان إخوان السحرة.

وأما مناسبة ذكر هذا الباب لكتاب التوحيد: فإن هذا مما ينافي التوحيد ويضاده، الكهانة والسحر والعرافة مما ينافي التوحيد ويضاده.

ولذلك كان هذا الكتاب قائما على أمرين:

الأمر الأول: بيان فضل التوحيد وجزاء أهله المكملين له.

والأمر الثاني: بيان ضد التوحيد من الشرك بأنواعه.

فقال: **باب ما جاء في الكُهان ونحوهم.**

والكُهَّان جمع كاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيَّبات بالأخذ عن مسترق السمع.

الكاهن يُخبر عن المغيبات فيما يُستقبل، وذلك عن طريق أخذه عن مُسترق السمع من الجن.

وسُمي الكاهن بذلك: لأنه يتكهَّن الأخبار، أي يتوقَّعها.

وأما قوله: ونحوهم، فهم العرَّافون والمنجِّمون والرمالون.

أما العراف: فإنه يستدل بأمور ظاهرة معروفة على أمور غائبة مستورة، وذلك من خلال كلام من يسأله.

فإذا جاءه رجل ليسأله، سأله عن اسمه، عن نسبه، عن بعض أحواله وأموره، فيفهم أنه من خلال هذه الأسئلة يستطيع أن يصل إلى أمور غائبة مستورة.

وأما المنجِّم: فهو الذي يستدل على التأثير بالنظر في النجوم، ينظر في النجوم فيزعم أن النجوم بحركتها تؤثر في هذا الكون نفعًا أو ضرًا.

وأما الرمَّال فهو الذي يستدل بالخط في الرمل، والطرق بالحصى، يجعل أو يصنع خطوطًا في الرمل، ويستدل بهذه الخطوط مع الاستعانة بالجن على أمور معينة يزعمها، أو قد يلقي بعض الحصا، فإذا وقعت على صورة معينة يزعم أن هذه الصورة تعني كذا وكذا من أمور غيبية.

ومثل هؤلاء في هذه الأيام الذي يقرأ الكف، والذي يقرأ الفنجان، فهؤلاء لهم نفس الحكم.

وكذلك النظر في الأبراج وحظك اليوم، فهذا كذلك مما لا يجوز لأنه من الشرك، والكهانة.

وهؤلاء الأربعة كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعني الكاهن والعراف والمنجم والرمَّال، هؤلاء الأربعة يشتركون في أمر واحد وهو ادِّعاء الغيب، وإن اختلفت أسماؤهم فإنما حصل هذا الاختلاف لاختلاف طرائقهم في ذلك الادِّعاء.

فكلهم يدَّعون الغيب، ولكن لمَّا كان هذا يدَّعي الغيب عن طريق النظر في النجوم سمي منجمًا.

هذا لمَّا كان يتكهن يتوقَّع الأمور المستقبلية سمي كاهنًا.

هذا لمَّا كان يخط في الرمل بطريقة معينة سمي رمَّالًا، وكلهم يشتركون في ادِّعاء واحد وهو أنهم يدَّعون الغيب.

فقال: باب ما جاء في الكهَّان ونحوهم.

(المتن)

روى مسلم في صحيحه، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى عرَّافُا فسأله عن شيء فصدقه، لم تُقبل له صلاة أربعين يومُا».

(الشرح)

وقوله في هذا الحديث: «فصدَّقه»: ليس عند مسلم، كما أشار المحقق إلى ذلك في الحاشية، وإنما هو من رواية أحمد في المسند، وهي زيادة إسنادها صحيح.

قال النبي ﷺ: «مَن أتى عرَّافًا فسأله عن شيء»، هذا الذي عند مسلم، «لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»، وعند أحمد: «فسألة عن شيء فصدَّقه، لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا».

فهذا الحديث فيه ما فيه من الوعيد الشديد، ويكفي أن هذا الوعيد جاء فيمن ذهب إلى عرَّاف فسأله، فكيف بالعرَّاف نفسه؟

إن كان الذي يسأل العرَّاف هذا وعيده، أنه لا تُقبل له الصلاة أربعين يومًا، وكما جاء في الحديث الذي بعده أنه قد كفر بما أُنزل على محمد، فهذا إذا كان فيمن أتى العراف فكيف بالعراف؟

لا شك أن العراف الذي يدِّعي صراحة الغيب حكمه أشد؛ وهو الكفر.

قلنا: إن الرواية التي عند مسلم ليس فيها **فصدَّقه**، والتي عند أحمد فيها **فصدَّقه**، ومن ثَمّ اختلف أهل العلم في حكم مَن أتى عرَّافًا:

فمنهم من قال على مقتضى حديث مسلم: إن أتى عرافًا فسأله دون أن يصدِّقه لن تُقبل له صلاة أربعين يومًا.

فإن صدَّقه فقد كفر بما أُنزل على محمد.

إذًا جعلوا في المسألة حكمين: إن جاء عرّافًا فسأله دون أن يصدِّقه فهذا لا تُقبل له صلاة أربعين يومًا، فإن صدقه فقد كفر بما أُنزل على محمد.

وهذا هو المشهور عند شُراح هذا الكتاب.

ومنهم من قال: إننا نحمل المطلق على المقيد، فالرواية التي عند مسلم مطلقة، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من أتى عرافًا فسأله لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»**، هنا الإتيان المطلق، والسؤال كذلك مطلق دون تصديق من عدمه.

والرواية التي عند أحمد أنه قال: **«فصدقه»**، والحديث واحد، وكذلك الحكم واحد، هنا قال: **«لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»**، وفي الذي عند أحمد قال: **«لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**.

فإذا اتفق الحكم حملنا المطلق على المقيد، ومن ثَّمَّ مَن قال كذلك: قال: إن قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي بعده: **«من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول: فقد كفر بما أنزل على محمد»**، هذا كُفر دون كفر.

هذا الحديث الثاني قالوا فيه بحمل المطلق على المقيد، عندنا في رواية أحمد قال: **«فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**، وفي حديث أبي هريرة الذي عند أبي داوود قال: **«فصدقه فقد كفر بما أُنزل على محمد»**.

الرواية الأولى قال: **«لم تُقبل له صلاة»**، مع ذلك هو مطالب بالصلاة، وإن سقط الأجر، لو كان كافرًا هل كان يطالَب بالصلاة؟ فدل ذلك على أن الكفر المذكور في هذا الحديث كُفر دون كُفر، وهذا كذلك رجحه بعض شراح هذا الحديث، منه شيخنا الشيخ صالح العصيمي حفظه الله، وكذلك الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه على كتاب التوحيد، فإنه رجح هذا القول أن الكفر في هذا الحديث كُفر دون كُفر.

والقول الثالث: التوقف، وهذا هو المشهور عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه توقَّف في الحكم عليه، لم يقل يكفر كفرًا أكبر، ولم يقل يكفر كفرًا دون كفر، لماذا؟

قالوا: لأن هذه عادة السلف في مثل هذه الأحاديث، الأحاديث التي فيها الزجر والتغليظ كانوا يقولونها كما جاءت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون تفسيرها.

لماذا لا يفسِّرونها؟ لأنهم لو فسَّروها لوهن وضعف تأثيرها في نفوس الناس، وإنما يتوقَّفون عن تفسيرها.

ومنهم من فصَّل وهو الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فبيَّن أن إتيان الكاهن ليس على وجه واحد، ولا على درجة واحدة:

فمن الناس من يأتي إلى الكاهن لمجرد السؤال، قال: فهذا محرم للعقوبة التي في الحديث، الحديث الذي هو بلا قيد التصديق، فهذا قال: لا تقبل لهم صلاة أربعين يومًا.

ومنهم من جاء ليسأله فصدقه واعتبر بقوله، مع علمه أنه لا يعلم الغيب إلا الله، قال: فهذا كفر أكبر، لأنه تكذيب بالقرآن، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

ومنهم من يأتي العراف ليسأله ليختبره في صدقه وكذبه، هو يريد أن يعرف هل هو صادق أم كاذب لمجرد الاختبار، قال: فهذا جائز، كما حصل من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ابن صياد، لمَّا قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ماذا خبأت لك؟»**، فقال: الدُخ، يعني الدخان، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: **«اخسأ عدو الله فلن تعدو قدرك»**.

قال: ومنهم من يأتي العراف ليسأله ليُظهر عجزه وكذبه أمام الناس، قال: فهذا مطلوب، لأنه من إبطال العادة في هذا العراف.

الشاهد أن هذا الحديث فيه ما فيه من الوعيد الشديد لمن أتى العراف.

ولو قيل بأن من أتاه فصدقه فقد كفر كفرًا أكبر بما أُنزل على محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهذا ليس ببعيد.

(المتن)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»، رواه أبو داود.

وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(الشرح)

يعني على شرط الشيخين.

(الشرح)

قال: عن.

(الشرح)

وبيَّض له المؤلف، كأنه أراد أن يرجع له ثم تركه بعد ذلك، فقد قال الشيخ سليمان في شرحه: أن الراوي المبيَّض له هو أبو هريرة ﵁.

(المتن)

عن أبي هريرة: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم».

(الشرح)

وهذا كذلك فيه ما فيه من الدلالة مثل ما سبق.

والملاحظ أن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاء بأكثر من حديث في نفس المعنى، وما هذا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا من باب تكثير الدلالة والأدلة على هذا الحكم.

ولذلك قال العلماء: إن كثرة الأدلة تدل على كثرة المدلول وعلى قطعية هذا المدلول، فلم يأت بدليل واحد للحكم في هذه المسألة وإنما أكثر من الأدلة.

قال: **«فقد كفر بما أُنزل على محمد»**: فيه دليل على أن القرآن منزَّل من عند الله تبارك وتعالى، وفيه دليل على علو الله تبارك وتعالى على خلقه، لأن النزول لا يكون إلا من أعلى.

قوله: **«لن تُقبل له صلاة أربعين يومًا»**، هل معنى ذلك أن هذه الصلاة لا تصح؟ يصلي وصلاته لا تصح؟ أم المعنى أنه يصلي وصلاته لا ثواب له فيها؟ المعنى الأول أم الثاني؟

المعنى الثاني.

إذًا هل القاعدة في ذلك أن نفي القبول يستلزم نفي الصحة؟ لا يستلزم نفي الصحة.

قولًا واحدًا مطلقًا أم في المسألة تفصيل؟

في المسألة تفصيل؟

إذا كانت العبادة مكتملة الشروط والأركان وانتفت الموانع وجاء النفي فالنفي هنا نفي للثواب.

فإن لم تكن الشروط أو الأركان كاملة أو وُجِد المانع فالنفي هنا نفي للصحة.

والأوضح من ذلك أن نقول: **إذا كان نفي القبول مبنيًا على معصية فالنفي هاهنا نفي للثواب، وإن كان النفي مبنيًا على فقدان شرط أو وجود مانع فالنفي هنا نفي للصحة.**

هذه هي القاعدة التي بيَّنها ابن النجار في شرح الكوكب المنير.

أُكرر:

إذا كان نفي القبول مبنيًا على وجود معصية فالنفي هاهنا نفي للثواب، قال النبي ﷺ: **«من أتى عرافًا»**، هذه هي المعصية، **«لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**، فنفي القبول.

فنفي القبول هنا يستلزم نفي الثواب، لاقتران ذلك بالمعصية.

دليل آخر: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من شرب الخمر لم تُقبل له صلاة أربعين صباحًا».

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العبد الآبِق: «لا تُقبل له صلاة حتى يرجع إلى سيده».

فإذا نظرنا إلى هذه الأحاديث وجدنا أن نفي القبول يقترن بفعل معصية.

معنى ذلك: أنه مطالَب بأدائها، شارب الخمر مطالب بأداء الصلاة، ولكن لا ثواب له فيها.

وإن كان النفي مبنيًا على فقدان شرط أو وجود مانع فالنفي هنا نفي للصحة.

«لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»، فنفي القبول هنا نفي للصحة، لأنه اقتران بفقدان شرط.

المرأة الحائض إذا صلت صلاتها لا تُقبل، لوجود مانع، وهو الحيض أو فقدان شرط الذي هو الطهارة.

(المتن)

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا.

(الشرح)

يعني مثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول: فقد كفر بما أُنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وهذا له حكم الرفع.

فهذا الحكم مما لا يقال من قِبل الرأي.

(المتن)

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا: «ليس منا من تَطير أو تُطير له أو تَكهن أو تُكهن له أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»، رواه البزار بإسناد جيد.

(الشرح)

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا»: وهذا فيه نفي كمال الإيمان الواجب، أو نفي الإيمان الواجب.

فقوله: ليس منا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: كل نفي للإيمان ورد في الشرع فالمقصود به نفي الإيمان الواجب، فلم يرد في الشرع مطلقًا نفي الإيمان المستحب.

لم يرد دليل في الشرع نفى الله أو نفى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإيمان عن أحد وكان المقصود أن ينفي الإيمان المستحب، أي أن صاحبه لا يأثم بذلك، وإنما كل نفي ورد في الشرع للإيمان فالمقصود الإيمان الواجب، سواء نفي أصله أم كماله الواجب فتنبه.

فالمراد أن صاحبه مقصِّر، نقص عن درجة الإيمان الواجب أو خرج من الإسلام، لأنه قال هاهنا: «أو سحر أو سُحر له»، والسحر كفر بالله تبارك وتعالى، وكذلك الكهانة.

فقوله ليس منا هذا من نفي الإيمان الواجب، ومن نُفِي عنه الإيمان الواجب دل على أن فِعله محرم، هذا هو موطن الشاهد.

والسلف كذلك كانوا في مثل هذه العبارات يحجمون عن تفسيرها، لماذا؟ لتكون أوقع في نفوس الناس.

وإنما يُضطر لتفسيرها حينًا للرد على أهل البدع من الخوارج والمعتزلة، فإنهم يستدلون بمثل هذه النصوص على تكفير المسلمين، فيستدلون بمثل قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له»، أو «مَن غشنا فليس منا»، أو «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، يستدلون بمثل هذه النصوص على تكفير المسلمين.

وأما بخلاف ذلك فإنها لا تُفسَّر لتكون أوقع في نفوس الناس.

قال: «ليس منا من تطير أو تُطير له»، والتطير له باب سيأتي، والتطير التشاؤم بمرئي أو مسموع أو غير ذلك.

أن يتشاءم المرء بشيء مرئيء يراه، أو بصوت يسمعه، أو بغير ذلك مما يتعارف عليه الناس من الأمور التي تسبب التشاؤم.

والتطير مأخوذ من الطير على عادة العرب القديمة في الجاهلية، فالعرب كانوا يتطيرون عن طريق زجر الطير، أو صوت بعض الطيور كالهامة كما سيأتي في الباب.

قال: «ليس منا من تطير أو تُطير له»: تطير تشاءم بنفسه بصوت أو شيء رآه، أو تُطير له أي طلب من شخص آخر أن ينشر الطير له، يريد أن يخرج إلى عمل أو في سفر فيأمر إنسانًا آخر لينشر الطير ليرى هل يُقدِم أم يُحجِم.

قال: «أو تكهَّن أو تُكهِّن له، أو سحر أو سُحر له»، قال: «ومن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(المتن)

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، دون قوله: «ومن أتى»، الخ.

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

(الشرح)

وهذا ذكره في شرح السُنَّة.

(المتن)

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

(الشرح)

قلنا: وإنما اختلفت مسمياتهم باعتبار الطرائق التي يتوصلون بها إلى هذا الادعاء.

ومما يؤسف له في هذا الزمان: أن هؤلاء ممن ادَّعى الناس فيهم الولاية، فترى الدجالين والكهنة والعرافين ممن أطالوا لحاهم وقصَّروا ثيابهم، ويزعمون أنهم على السُنَّة ويتابعون نهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صار هؤلاء ممن يدَّعي الناس فيهم الولاية.

فيقولون: اذهب للشيخ فلان، واذهب للشيخ علان، وهؤلاء سحرة، وقلَّما يخلو واحدًا منهم، أعني المعاندين الذين يزعمون أنهم يعالجون بالقرآن، ووظَّفوا أنفسهم لذلك.

قلَّما يخلو الواحد منهم من الاستعانة بالشياطين، فجُلُّهم يستعين بالشياطين.

وبعض هؤلاء -عياذًا بالله- شاع عنهم في هذه الأيام الوقوع في الفاحشة، وفعل المحرمات، لتوسعهم في هذا الأمر وخلوتهم بالنساء، وكذلك أكل أموال الناس بالباطل.

بعضهم حكى لي: أن الشيخ المزعوم طلب منه أن يشتري له ما يسمى بدهن النعَّام، بكم سعره؟ قال: هذا لن تجده، أنا أستطيع أن آتي لك به، بكم؟ قال: أعطني أربع مائة جنيه، هذا الرجل أراني هذه الزجاجة التي فيها هذا الدُهن، قال: فسألت عنها العطار، فوجدتها لا تتعدي خمسين جنيهًا ، فإياكم وإياهم فهؤلاء ينبغي أن يُحذِّر الناسُ منهم.

واحتسب ذلك عند الله تبارك وتعالى، وإياك أن تخشى هؤلاء، وأن تخشى ما معهم، فهذا من الجهاد في سبيل الله، ومن كشف ألاعيبهم.

ومما يؤسف له أن من هؤلاء مَن يدَّعون السلفية، وتعتقد الناس فيهم الولاية و متابعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم على الجادة، فهؤلاء ليس لهم من الولاية شيء، كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما هم أعداء الله ينازعونه فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب.

ينازعون الله ﷻ فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، مع ما هم عليه من الفساد الظاهر والباطن، بخلاف أولياء الله الصالحين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقديمًا لم تكن معالجة الناس بالقرآن يجلس القائم بها في بيته والناس يذهبون إليه كأنه متخصص في ذلك، وإنما هي كرامة يعطيها الله تبارك وتعالى لبعض الناس ممن صلح ظاهرهم وباطنهم.

فأحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاء عنه أنه كان يرسل النعل، لا يذهب بنفسه، يُرسل النعل، بمجرد إرساله النعل مع الرجل يخرج الجني.

وكذلك ممن كان يعالج شيخ الإسلام ابن تيمية، وقبلهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان هؤلاء يتخذون من هذه الأمور حِرفة ولا وظيفة، مع ما عندهم من صلاح الباطن والظاهر، ومع ما عندهم من خشية الله تبارك وتعالى ومن مجانبة الشرك وأهله.

(المتن)

وقال ابن عباس -في قوم يكتبون: أبا جاد، وينظرون في النجوم -: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

(الشرح)

وأبا جاد هي حروف التهجي، أبجد هوز حطي كلمون، هذه تسمى بأبي جاد، حروف التهجي، وكانت تُكتب بهذه الطريقة قديمًا من باب معرفة حساب الجمل.

فكانوا إذا أرادوا أن يحسبوا أو أن يؤرِّخوا القصيدة متى كُتبت، فكانوا يؤرِّخون بمثل هذه الطريقة، أبجد هوز، يجعلون أول عشرة حروف كل حرف بواحد، ثم بعد العشرة كل حرف بعشرة، حتى إذا وصل إلى العشرين كل حرف بمائة، وهكذا.

فيكتبون الكلمة فينظر إلى هذا الحرف بخمسة، وهذا بخمسين، وهذا بألف، وبذلك يستطيع الواحد أن يقف على وقت كتابة القصيدة أو على عدد أبياتها.

كما قال آخر تحفة الأطفال:

أَبْيَاتُهُ **نَدٌّ بَدَا** لِذِي النُّهَى

فرمز الناظم إلى عدد أبيات القصيدة في قوله (**ندٌّ بَدا**، وذلك أن الحروف لها حساب في الأرقام، وذلك على النحو التالي: (أ = ١، ب = ٢، ج = ٣، د = ٤، هـ = ٥، و = ٦، ز = ٧، ح = ٨، ط = ٩، ي = ١٠، ك = ٢٠، ل = ٣٠، م = ٤٠، ن = ٥٠

فـ**ندٌّ بَدا** = ٥٠ + ٤ + ٢ + ٤ + ١ = (٦١) وهو عدد أبيات هذا النظم (تحفة الأطفال).

إذًا من كتب أبا جاد أعني حروف الهجاء، من كتبها من أجل هذا الغرض فهو مباح، ومن كتبها من أجل أن يستعين بها على النظر في النجوم، وأن يربط الحروف بحركة النجوم فهذا ما يسمى بسحر التأثير، وهو كُفر بالله العظيم.

ابن عباس رضي الله عنهما يقصد أي النوعين؟

يقصد النوع الثاني، لماذا؟ لأنه قال: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق، والخَلاق بمعنى الحظ والنصيب.

وقلنا: إن هذا يقتضي كُفر فاعله، كما سبق في باب السحر، قال الله ﷻ عن السحرة: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، يعني ليس له في الآخرة من نصيب.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«فقد كفر بما أُنزل على محمد»**، والذي أُنزل على محمد هو القرآن، فلا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بهذا القرآن المنزَّل.

(المتن)

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

(الشرح)

قلنا: هذا التعلم فيه تفصيل كما بيَّنا، فالمقصود هاهنا من أجل السحر.

(المتن)

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

(الشرح)

على ما مضى.

(المتن)

باب ما جاء في النُشرة.

(الشرح)

والنُشرة أصلها من النَّشر، يقال: نشر نشرًا.

والنشر: هو قيام المريض صحيحًا.

ومنه النشور كذلك، كما سنَّ لنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نقول إذا أصبحنا: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

ما المقصود بالنشور؟ القيام له تبارك وتعالى يوم القيامة.

فالمريض ينتشر بهذه النُشرة، أي يقوم صحيحًا.

والمراد بها هاهنا: حل السحر عن المسحور.

وهذا الأمر قد يراد به: حله بالأدوية والرُقى الشرعية.

وقد يراد به حله بسحر مثله، وهو المراد في إطلاق العرب إذا أطلقوا النُشرة، فلما كان الأمر يحتمل هذا أو ذاك جاءت الترجمة هكذا.

وكذلك لتطابق ما جاء من الأدلة تحتها.

وأما مناسبة هذا الباب للباب الذي قبله، وكذلك لكتاب التوحيد: أن النُشرة قد تكون من ساحر فهي كالسحر.

تكون حينئذٍ شركًا بالله تبارك وتعالى، وهذا مناقض لأصل التوحيد، ولذلك جاء بها هاهنا.

(المتن)

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن النشرة؟ فقال: «**هي من عمل الشيطان**»، رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود.

(الشرح)

وحسَّـن إسـناده ابـن حجـر في الفـتح، وجـوَّده كـذلك ابـن مفلـح في الآداب الشرعية، وصححه الألباني في الصحيحة.

أين الدليل على حرمة النُشرة في هذا الحديث؟

أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«هي من عمل الشيطان»**، وعمل الشيطان محرَّم منهي عنه.

فإذا اقترن عمل الشيطان بعبادته كان كُفرًا مُخرجًا من الملة، فالأصل في عمل المرء عمل الشيطان أن ذلك محرم، يعني مَن أكل بشماله هذا محرم، من شرب بشماله هذا محرم، من أعطى بشماله، من أخذ بشماله، هذا محرم، ولكن لا يصل إلى درجة الكُفر.

لماذا هو محرَّم؟ لأن هذا من عمل الشيطان.

فإن كان من عمل الشيطان واقترن به عبادة الشيطان ارتقى هذا المحرم ليكون كُفرًا.

إلى أي نوعي النُشرة يصرف كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ النشرة المحرمة، وهي حل السحر بسحر مثله.

(المتن)

وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

(الشرح)

سُئل أحمد عن النُشرة، فقال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: ابن مسعود يكره هذا كله، وكان أحمد ممن يعظِّم آثار أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يبحث دائمًا في الباب إن لم يجد حديثًا أو آية عن آثار أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورضي الله عنهم.

فهنا أحمد لمَّا سُئل قال: كان ابن مسعود يكره هذا كله.

وقال إبراهيم النخعي: وهو من تلاميذ عبد الله بن مسعود أو من تلاميذ تلاميذ عبد الله بن مسعود، قال: عن أصحاب ابن مسعود، قال: كانوا يكرهون هذا كله.

والكراهة هاهنا للتحريم.

(المتن)

وفي البخاري: عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب.

(الشرح)

والمقصود به طِب أي به سِحر، وإنما سمي السحر طبًا: لأنه أول ما استُعمل استُعمل في الطب والمعالجة، فسُمي به.

(المتن)

فقال: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. أ. هـ.

(الشرح)

أراد ابن المسيب هاهنا: النُشرة التي تكون بالتعوذات والقرآن والرقى الشرعية والأدوية المباحة، ولم يُرد حل السحر بالسحر.

ولذلك قال: فأما ما ينفع فلم يُنه عنه.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا سُئل عن النُشرة التي هي حل السحر بالسحر؟ قال: «**هي من عمل الشيطان**».

فلا يُفهم من كلام ابن المسيب أنه أراد بذلك حل السحر بالسحر، وبهذا الفهم أعني هذا الفهم المرجوح أجاز بعض الفقهاء حل السحر بالسحر للضرورة، واستدلوا بكلام ابن المسيب، ظنوا أنه أراد بذلك حل السحر بالسحر، وما أراد ذلك سعيد ابن المسيب، وإنما أراد حل السحر بالمشروع من القرآن وغير ذلك، لأنه قيد ذلك بقوله: فأما ما ينفع فلم يُنه عنه.

وحل السحر بالسحر لا يدخل في باب الضرورة، وهذا نُسأل عنه : هل يجوز أن أذهب لساحر من باب الضرورة؟ والضرورات تبيح المحظورات، فإن كان الذهاب إلى الساحر محظورًا فهذه ضرورة، فما الحكم؟

يقال: هذا الكلام خطأ، لأنه لا تكون الضرورة جائزة ببذل الدين والتوحيد، يعني لا يبذل المرء دينه وتوحيده من أجل إزالة هذا الضرر الذي لحق به، مع وجود المقابل الشرعي لإزالة ما لحق بالعبد من ضرر.

وهذه القاعدة لا بد لها من قيد، فبعض الناس في كثير من الأمور: البرلمانات، والانتخابات، وغير ذلك، وحل السحر بالسحر، يذكرون هذه القاعدة: الضرورات تبيح المحظورات، فيقال لهم:

هذه القاعدة ليست على إطلاقها، وإلا فهناك ما هو دون الشرك ولا تبيحه الضرورة كالزنا، إنسان وصل به الأمر لدرجة من العشق والشبق لا يستطيع أن يمنع نفسه من الزنا، هل يباح له الزنا من أجل هذه الضرورة؟ لا.

إنسان قيل له: اقتل فلانًا وإلا قتلناك، إبقاء نفسه ضرورة، بل هو من الضروريات الخمس التي جاء الدين بحفظها، هل يجوز له أن يقتل غيره لإبقاء نفسه؟

فإذا كانت هذه الأمور وهي من الضرورة لا تجوز، فأن يخالف المرء دينه وعقيدته وأن يقع في الشرك من باب أولى، لأن أعظم الضرورات حفظ الدين، خاصة مع وجود العلاج الشرعي الذي دلَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية التي في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال: هذه الأربعة محرمة على لسان جميع الأنبياء والرسل، ولا تجيزها ضرورة ولا غير ضرورة.

إذًا لا يجوز حل السحر بسحر مثله.

(المتن)

وروى عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

(الشرح)

يعني أراد بذلك بغير الطُرق الشرعية، فمن حل السحر بغير الطرق الشرعية فهو ساحر، هذا الذي أراده الحسن البصري، وإلا فالسحر يُحل بالرقى الشرعية، وبقوة الاعتماد والتوكل على الله ﷻ من جهة المسحور، فكلما زاد توكله واعتماده على الله تبارك وتعالى خفَّ هذا الضرر عنه.

(المتن)

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، ويبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

(الشرح)

الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في فتح الباري طُرقًا لحل السحر، وأهل العلم من قديم يقولون: إنها مجربة، وقد نفعت كثيرًا، وليس فيها محذور شرعي، ومنها أن يأتي المرء بسبع ورقات من ورق النبق ويدقها جيدًا، ثم توضع في الماء، ثم يُقرأ على هذا الماء من كتاب الله تبارك وتعالى، ثم بعد ذلك يشرب المسحور منها، وكذلك يغتسل بها، فيُشفى بإذن الله تبارك وتعالى.

عندنا في بلدتنا شجرة سدر معروفة، يقصدها من أراد الرقية، وقد رأيت بعضهم قد أوقد تحتها نارًا، والله لو نظرت في منظر هذه النار وكيف وصلت إلى جذرها لتعجبت، فقلت: لا يقوم بهذا إلا ساحر أو دجَّال، فالنار أكلت جذرها بطريقة عجيب، يكاد المرء يخشى أن ينظر إلى هذه الشجرة، وماتت هذه الشجرة العظيمة التي كانت في المقابر، لا أدري إذا كانت هناك شجرة أخرى أم لا.

فهذه الشجرة تأتي منها بسبع ورقات، وتدقها جيدًا، وأنا بنفسي. قمت بهذا الأمر مع أحد المرضى، كان مربوطًا عن زوجته منذ أسبوعين، وصعب عليه الأمر، وذهبت إليه، وفعلًا جاء بهذه الأوراق ودققتها ووضعتها في الماء، وقلت له: استعن بالله، فالمهم والله أنا صليت الفجر وقلت له: إن شاء الله توكل على الله بعد صلاة الفجر، وفعلًا شرب هذا الماء واغتسل به، وبعد صلاة الفجر جئت لأنام رن هاتفي، فقال له وقد بلغ من السعادة ما بلغ : جزاك الله خيرًا.

فهذا مما هو مأثور عن السلف.

أما حل السحر عن المسحور بمثل ما يفعل الدجَّالون الآن: فهذا لا يجوز.

(المتن)

باب ما جاء في التطير.

(الشرح)

أي ما جاء في التطير من النهي عنه والوعيد.

والتطير مصدر تطير يتطير تطيرًا، وأصل التطير والطيرة: ما كانوا يتشاءمون به من السانح والبارح، هكذا قال رؤبة بن العجاج.

قيل له: فما السانح؟ قال: ما ولّاك ميامنه، يعني أطلقت الطير فمال ناحية اليمين.

والبارح: ما ولّاك مياسره، فيصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأخبر أنه لا تأثير له في النفع والضر.

وأما مناسبة هذا الباب للكتاب: أن الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب، لأنها من تخويف الشيطان ومن وسوسته، ومن المنافاة للتوكل على الله ﷻ.

إنسان يتشاءم بالبوم، أو يتشاءم بشخص معين يراه في الصباح، أو بصوت معين يسمعه لأحد من الناس، فهذا من التطير، وهذا من الشرك بالله تبارك وتعالى، وهو من الشرك الأصغر.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

(الشرح)

هذه الآية جاءت ي سياق الكلام عن قوم موسى عليه السلام، قال الله ﷻ عنهم: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

انظر إلى بلاغة القرآن قال: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾، هي معرفة بالألف واللام، فهذا دليل على عِظَم هذه الحسنة، والألف واللام تفيد العموم فيدخل تحتها الكثير من الحسنات، أي النعم.

فإذا جاءتهم هذه الحسنات العظيمة ومعهم موسى قالوا لنا هذه، أي نحن نستحقها، وإن تصبهم سيئة، أي البلية والمصيبة، كان فِعلهم كفعل النساء.

تقول بعض النساء إن رأت من الرجل مكروهًا: لم أرى منك خيرًا قط، فهذا حال بني إسرائيل، ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، أي يتشاءمون ويقولون: هذا بسبب موسى.

يقولون: موسى أصابنا بشؤمه، يتطيرون منه، فقال الله ﷻ: ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، يعني هذا الأمر الذي أصابهم والذي يتشاءمون منه هو من قضاء الله وتقديره عليهم لكفرهم وتكذيبهم.

فلم تكن الإصابة من أجل وجود موسى معهم، وإنما كانت هذه الإصابة وكانت هذه البلايا التي جاءتهم من الدم والطوفان والضفادع وغير ذلك، كل ذلك كان بسبب كفرهم وتكذيبهم بأنبياء الله ورُسله.

(المتن)

وقوله: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾.

(الشرح)

وهذه الآيات كذلك ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة يس على لسان هؤلاء الذين كذَّبوا رُسل الله، فلما جاءهم الرسل أعني رسل رسل الله وعذَّبهم الله تبارك وتعالى بذلك ماذا قالوا؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس: ١٨]، يعني تشاءمنا بكم، ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٨].

فقال الله ﷻ: ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾، أي تشاؤمكم وما يصيبكم من البلاء ملازم لكم، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: لأن هذا بقضاء الله وقدره.

والأمر الثاني: أن هذه الملازمة بسبب التكذيب لأنبياء الله ورسله.

ما موضع الشاهد في هاتين الآيتين؟

موضع الشاهد في هاتين الآيتين:

أن الله تبارك وتعالى ذكر ذلك عن مخالفي أنبياء الله ورسله، فذكر ذلك في معرض الذم، فمن وقع في ذلك فقد شابه مخالفي أنبياء الله ورسله.

لأن الآية الأولى في قوم موسى، والآية الثانية فيمن ذكرهم الله تبارك وتعالى في سورة ياسين، فافهم طريقة استدلال الإمام المجدد رحمه الله.

(المتن)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**»، أخرجاه، زاد مسلم: «**ولا نوء، ولا غول**».

(الشرح)

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عدوى**»: ما العدوى؟

العدوى اسم من الإعداء، يقال: أعداه يُعديه إعداءً، إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء، فإذا أصاب المرءَ مثلُ ما بصاحب الداء، يقال: أنه أُصيب بالعدوى، وهذا قاله ابن الأثير في النهاية.

«**ولا طِيرة**»: أي تشاؤم، وسبق بيان مصدرها أو مما تُشتق.

قال: «**ولا هامة**»، والهامة مما اختلفوا فيه: فقيل: الهامة دودة بالبطن، تصيب المرء وتتسبب في موته.

وقيل: الهامة طير من طيور الليل كالبوم، يتشاءمون به إذا وقع على بيت أحدهم، فإذا وقعت البومة على بيت أحدهم كانوا يتشاءمون من ذلك، ويقولون: نَعَتْ صاحب هذا البيت.

ما معنى نعت؟ أي جاءت بموته، يقولون: جاء أجله.

مثل الغراب في هذه الأيام، فبعض الناس يتشاءم بصوت الغراب ورؤيته.

قال: «**ولا صفر**»: ما المقصود بصَفَر؟ هو شهر صفر، فقد كانوا يتشاءمون بهذا الشهر، ، كما يتشاءم الناس بيوم الأربعاء أو بعدد معين كرقم ثلاثة عشر، فكذلك كانوا يتشاءمون بهذا الشهر.

كان أهل الجاهلية يتشاءمون من النكاح في شهر شوال، فكانوا لا ينكحون في شوال، فكان من سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العملية الزواج في شوال مخالفة لأهل الجاهلية.

زاد مسلم: «**ولا نوء**»: والنوء واحد أنواء، ولها باب سيأتي.

قال: «**ولا غُول**»: قال الشيخ سليمان: قوله: ولا غُول، قال: الغول أحد الغِيلان، وهو جنس من الجن، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس فتتغوَّل تغوُّلًا، أي تلون تلونًا في صور شتى، وتغولهم أي تضلهم عن الطريق وتُهلكهم، فنفاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبطله.

وقيل: ليس نفيًا لوجود الغُول، وإنما فيه إبطال زعم العرب في تلونه واغتياله، فيكون المعنى: أنها لا تستطيع أن تضل أحدًا، وإن أضلت فليس بذاتها، وإنما هو بإذن الله تبارك وتعالى، هذا معنى ما جاء في الحديث من مفردات.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عدوى**»: هل نفى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث العدوى؟ هل نفى وجودها أم نفى تأثيرها؟

نفى تأثيرها بذاته. عندما تدخل على مريض ربما تصاب بالبرد الذي عنده أم لا؟

نعم، فإذًا العدوى موجودة، بدليل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، فدل ذلك على أنه يُعدي.

إذًا ما الذي أراد أن ينفيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قال: «لا عدوى»؟

أراد أن ينفي ما كان يعتقده العرب من أن العدوى تؤثر بذاتها لا بقدر الله تبارك وتعالى، هذا الذي أراد أن ينفيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كان العرب يعتقدون في جاهليتهم أن العدوى تؤثر بذاتها لا بقدر الله، تستقل بهذا التأثير، وهذا كُفر، لأن كل شيء بقضاء الله وقدره.

ولا طِيرة: أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينفي وجودها أم تأثيرها؟ تأثيرها.

كذلك في قوله لا طيرة: لأن التشاؤم موجود عند بعض الناس.

إذًا هي موجودة، فما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا أن ينفي وجودها، وإنما أراد أن ينفي تأثيرها، فالطيرة لا تنفع ولا تضر، ولا تؤثر في قضاء الله وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: «ولا هامة»: فالبوم موجود، إذًا ما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينفي وجودها، وإنما أراد أن ينفي تأثيرها، أن ينفي أن صوتًا معينًا أو أن رؤية طائر بعينه تؤثر في وقوع شيء من عدمه.

قال: «ولا نوء ولا غُول».

(المتن)

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

(الشرح)

قال: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، ما الفأل؟ خير التفسير تفسير النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «الكلمة الطيبة».

ولذلك فرَّق العلماء بين الطِيرة والفأل:

لأن التفاؤل بالكلمة الطيبة فيه نوع من الطيرة التي قد تلتبس بما هو محرم. يقول القائل: جاءكم سهيل بن عمرو، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «سهل لكم أمركم»، فتفاءل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذا الاسم.

حد الطيرة هو ما أمضاك أو ردك، فلما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سهل لكم أمركم، هذا قد يلتبس أن هذا مما يُمضي المرء فيما يريد، ولكن هناك فرق لطيف بين الطيرة والفأل، ما هذا الفرق؟

ذكره ابن القيم والحليمي: الطيرة سوء ظن بالله بغير سبب محقق.

الطيرة سوء ظن بالله، لأن الطيرة تشاؤم، سوء ظن بالله بغير سبب محقق، وتوقع للبلاء.

لذلك تجد هذا الإنسان المتطير أو المتشاءم دائمًا يتوقع البلاء، متشائم، عنده وسواس من كل شيء، سمع صوتًا معينًا، رأى إنسانًا في الشارع، وهكذا.

وأما الفأل فحُسن ظن بالله، ولذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمَّا رأى سهيل بن عمرو، قال: «سهل لكم أمركم»، هذا ليس من التشاؤم، ولكن هذا فيه حُسن ظن بالله، أن الله سُيجري هذا الأمر.

والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله، هذا أولًا.

ثم الأمر الثاني: أن الفأل يوافق مقتضى الطبيعة، وموجِب الفطرة الإنسانية، فالأصل في الفطرة الإنسانية السليمة أنها تتفاءل لا تتشاءم، ولذلك من الفأل ما وقع مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في صُلح الحديبية، لمَّا رأى سهيل بن عمرو قال: «سهل لكم أمركم»، أخذها من ماذا؟

من اسمه، سهيل.

وكذلك لو أن إنسانًا مريضًا سمع مَن بالطريق يقول: يا سالم، أو إنسانًا ضلت راحلته فسمع من بالطريق يقول: يا واجد، فتفاءل بذلك، فهذا من باب الفأل الحسن، لأن هذا هو حد الفأل الكلمة الطيبة، يتفاءل بذلك.

ولذلك لمَّا سُئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفأل؟ قال: **«الكلمة الطيبة»**، فالفأل يُدخل السعادة والفرح والارتياح على سامعها، هذا كلام ابن القيم، فتنشرح بها الصدور، وتقوى بها القلوب.

ولذلك جاء عند الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يُعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع يا راشد يا نجيح**.

كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع مثل هذه النداءات: يا راشد، فالراشد من الرُشد، يا نجيح من النجاح، فهذا من الفأل الحسن.

فهناك فرق بين الطيرة والفأل.

(المتن)

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(الشرح)

وليس بعقبة، وإنما هو عروة بن عامر كما بيَّن في الحاشية.

(المتن)

عن عروة بن عامر رضي الله عنه قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **«أحسنها الفأل»**.

(الشرح)

إذًا الفأل يُشبه الطيرة من طرف خفي.

(المتن)

قال: **«ولا ترد مسلمًا»**.

(الشرح)

يعني الطيرة لا ترد مسلمًا، فهذا حال المسلم الموحد أن الطيرة لا ترده.

وقوله: لا ترُد مسلمًا: فيه دليل على أن الذي ترده الطيرة قد وقع في الشرك، لأن المسلم الموحِّد لا ترده الطيرة.

(المتن)

قال: **«فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللَّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»**.

(الشرح)

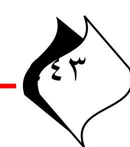
إذا رأى أحدكم ما يكرهه، وخشي أن يصيبه شيء من التشاؤم، فماذا يقول؟ ويمضي في طريقه: يقول: **«اللَّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت»**، الطيرة لا تأتي بالحسنات ولا تأتي بما يضر، **«اللَّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت»**، والمقصود بالحسنات هاهنا: النِّعم، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فالحسنة النعمة.

قال الله ﷻ في سورة النساء: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ما المقصود بالحسنة والسيئة هنا؟ النعمة والمصيبة.

فقل: **«اللَّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت»**: أي لا يأتي بالنِّعم إلا أنت، الطيرة لا دخل لها في ذلك، وهذا أسلوب قصر بلا وإلا، فالذي يأتي بهذه الأمور ربنا تبارك وتعالى.

«ولا يدفع السيئات إلا أنت»، ولذلك تبرأ من كل حول له وقوة، قال: **«ولا حول ولا قوة إلا بك»**، وهذا فيه النهي عن تعلق القلب بغير الله.

الذي يقول هذا الدعاء يخلع وينزع من قلبه كل تعلق بغير الله تعالى، وهذا هو التوحيد، أن يتعلق قلب المرء بربه تبارك وتعالى.



فإذا تعلق قلب الإنسان بشيء من الطيرة، فيناسبه أن يقول هذا الدعاء، ليتوكل على الله ﷻ، فالتوكل عليه من أقوى أسباب جلب الخيرات ودفع الابتلاءات.

(المتن)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: **«الطيرة شرك»**.

(الشرح)

وهذا هو موضع الشاهد، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«الطيرة شرك»**، والشرك محرم.

ما وجه كونها شركًا؟

أنه جعل ما ليس بسببٍ سببًا، لا هو سبب شرعي ولا هو سبب قدري كوني، فهذا هو الشرك.

(المتن)

«الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلاَّ، ولكن الله يذهبه بالتوكل».

(الشرح)

الطيرة شرك، الطيرة شرك، هذا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما قوله: وما منا إلا، فليس من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتطير، وهذا ما جزم به العلماء، فنص على ذلك شيخ البخاري سليمان بن حرب، ونص على ذلك البخاري، ونص على ذلك الترمذي في سننه والخطابي، والمنذري في الترغيب والترهيب.

نصوا على أن قوله: وما منا إلا، مدرجٌ من قول ابن مسعود وليس من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: **«الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا»**، ما معنى قوله: وما منا إلا؟

يعني وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك.

لماذا حذف المستثنى؟

حذف المستثنى تأدبًا في الكلام، لما يتضمن ذكر هذا المستثنى الذي هو قوله: إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك يتضمن هذا ذكر حالة مكروهة، الإنسان يخبر عن نفسه أنه وقع في قلبه شيء من التطير، هذا أمر مكروه.

ولذلك حذفه ابن مسعود ﷺ، والصحابة كانوا بُلغاء رضي الله عنهم.

قال: وما منا إلا، ولكن الله يُذهبه بالتوكل.

كأنه يقول: أن هذا أمر لا يسلم منه أحد، فإن توكلت على الله واعتمدت عليه فلا يضرك شيء، لأن الله يُذهبه بالإخلاص والتوكل.

(المتن)

رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

(الشرح)

الترمذي جعل آخره من قول ابن مسعود.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: وهو الصواب.

(المتن)

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك»، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللَّهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

(الشرح)

إذًا هذا الدعاء الثاني: إما أن تقول: «اللَّهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وإما أن تقول: «اللَّهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

قال: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»، فقوله: فقد أشرك، فيه دليل على أن الطيرة لا تضر من أعرض عنها ومضى في طريقه، لأن قوله فقد أشرك، فيه أمر للموحد أن يبتعد عنها، وفيه بيان أن الموحد إن ابتعد عنها فإنها لم تضره، لأن الأمر كله بيد الله تبارك وتعالى.

قالوا: فما كفارة ذلك؟ وهذا دليل على حرمتها، فالكفارة إنما تكون للذنوب، قال: «أن تقول: اللّٰهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»، فهو الذي يجلب الحسنات وهو الذي يدفع السيئات، فإن أصابك بعد ذلك شيء فبذنبك.

قال الله ﷻ: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾، تفضلًا منه، ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، فبسبب ذنبك وتقصيرك.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨]، فالحسنات والسيئات هي من عند الله تبارك وتعالى خلقًا وتكوينًا وكونًا وقدرًا.

(المتن)

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما: إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك.

(الشرح)

وهذا فيه حد الطيرة: ما ضابطها؟ ما أمضاك أو ردك.

فإذا كان الأمر ما بين إمضاء لك أو رد لك فهذه هي الطيرة.

أما الفأل ففيه نوع بشارة، يُسر به العبد ولا يعتمد عليه، بخلاف الطيرة، فالطيرة فيها اعتماد القلب عليها وتعلق القلب بها، بدليل أنه لو سمع صوتًا رجع، إذًا القلب تعلق بها.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهُ﴾، مع قوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

(الشرح)

هل فيه تعارض بين الآيتين؟

ليس هناك تعارض، فالله هو المقدِّر، وطائركم معكم لأن ما أصابهم إنما هو بذنبهم.

(المتن)

الثانية: نفي العدوى.

(الشرح)

ما المقصود بنفي العدوى؟ نفي تأثيرها بذاتها لا نفي وجودها.

(المتن)

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

(الشرح)

ودليل الاستحباب: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ويعجبني الفأل الحسن»، وما أعجب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو مستحب.

(المتن)

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

(الشرح)

وهذا مأخوذ من قول ابن مسعود: وما منا إلا، ولكن الله يُذهبه بالتوكل.

(المتن)

التاسعة: ذكر ما يقوله من وجده.

(الشرح)

ماذا يقول: إما أن تقول: **«اللّٰهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله»**.

وإما أن تقول: **«اللّٰهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**.

(المتن)

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

(الشرح)

وقوله: المذمومة يحتمل أمرين: إما أن تكون المذمومة صفة كاشفة، لأن الطيرة مذمومة مطلقًا، فالصفة الكاشفة لا تؤثر في الحكم، وإنما هي لبيان حقيقة الموصوف.

وإما أن يكون قد قال الطيرة المذمومة ليُخرج منها الفأل الحسن، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُكرت الطيرة عنده، فقال: **«أحسنها الفأل»**.

ثم قال: باب ما جاء في التنجيم.

(المتن)

باب ما جاء في التنجيم.

(الشرح)

أي باب ذكر ما يجوز منه وما لا يجوز.

أو باب ذكر ما جاء في ذمه وتحريمه والوعيد فيه.

وقوله: ما جاء في التنجيم: التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

الاستدلال بحركات النجوم وبالأحوال الفلكية، أحوال الفلك على الحوادث الأرضية، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، يقولون مثلًا: من سافر إذا طلع نجم كذا حدث له كذا وكذا، ومن تزوج بنجم كذا حدث له كذا وكذا.

فيربطون الخير والشر بهذه الأحوال الفلكية، يربطون ما يحدث في الأرض من الخير والشر بهذه الأحوال الفلكية، وهذا تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه قال: التنجيم: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

وأما سبب مجيء المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب:

فهذا الباب مناسب جدًا لكتاب التوحيد، وذلك أن بعض التنجيم باطل؛ إذ الذي يستدل بهذه الأحوال على الحوادث الأرضية لا شك أنه مشارك لله تبارك وتعالى فيما اختص به من علم الغيب، وكذلك النفع والضُر، ومن ثَمَّ تعلق قلب من اعتقد ذلك بغير الله.

وكل هذا ينافي التوحيد، فإن الذي يعلم الغيب هو الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ولذلك عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليكون المسلم على بصيرة من أمره، كما يقول الشيخ الفوزان حفظه الله في شرحه على هذا الكتاب.

(المتن)

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة.

(الشرح)

ذكر ذلك مُعلَّقًا.

(المتن)

قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. أ. هـ.

(الشرح)

قتادة بن دُعامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من سادات التابعين يقول: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [الملك: ٥]، فالله ﷻ زيَّن هذه السماء كما نرى بهذه النجوم، فصارت مصابيح السماء.

قال: ورجومًا للشياطين، في نفس الآية قال الله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: ٥].

فالشياطين التي كانت تسترق السمع جعل الله ﷻ هذه النجوم رجومًا تُرجَم بها، ولا تستطيع أن تصل بهذا الخبر الذي استرقته من السماء إلى الكُهان إلا أن يشاء الله تبارك وتعالى أن ينزل بعضها بهذا الخبر كونًا وقدرًا، شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك لحكمته.

قال: وعلامات يهتدى بها، قال الله ﷻ: ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

فأهل البادية خاصة ممن يعيشون في الصحراء كانوا يهتدون بها في معرفة الجهات، في ظلمات البر والملاحون في البحر، فكانوا يعلمون إلى أي جهة يتجهون إذا نظروا في هذه النجوم، سواءً كان ذلك في البر أو في البحر.

قال: ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦]، وكذلك يُهتدى بها في معرفة القِبلة، فهذا علم.

فهذه الأمور الثلاثة هي التي نص الله ﷻ عليها في كتابه.

ولذلك قال قتادة: فمن تأول فيها غير ذلك، أي فمن زعم فيها من النفع والضر. غير ما ذكره الله تبارك وتعالى فقد أخطأ، لماذا أخطأ؟

لأنه تكلم بغير علم، فقد أخطأ، وأضاع نصيبه، ما معنى أضاع نصيبه؟

إما أن يكون قد اعتقد اعتقادًا جازمًا أن هذه النجوم هي التي تنفع وتضر من دون الله تبارك وتعالى فيكون إضاعة النصيب هاهنا من باب القضاء عليه بالكفر لأنه نسب ما لا ينبغي أن يكون إلا لله تبارك وتعالى لهذه النجوم.

وإما أن يكون قد اشتغل بها في أمور لا تنفع بل تضر، فأراد أن يُحصِّل منها علومًا معينة ما وصلت إلى درجة الكفر ولكنها شغلت عن أمور هي أهم منها، فهذا هو الذي يُحمل عليه قول قتادة، أضاع نصيبه.

قال صاحب كتاب فتح المجيد: لأنه شغل نفسه بما لا يضره وما لا ينفعه.

قال: وتكلف ما لا علم له به.

وقد ذكروا أن هذا كان حال أهل الجاهلية، كانوا يقولون: مَن أعرس بنجم كذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا كان كذا وكذا، يعني حصل له من الخير أو من الضُر أو ما غير ذلك.

ومن تزوج بنجم كذا كان كذا وكذا.

وتعلم النجوم أو النظر في النجوم على قسمين: منه ما هو حرام يصل إلى درجة الكفر، ومنه ما هو مختلف فيه بين أهل العلم بين الجواز وعدمه.

فأما الذي هو حرام: فهو النظر في هذه النجوم على اعتقاد تأثيرها.

وهذا على أقسام كما ذكر العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

- إما أن يعتقد أن النجوم مؤثرة فاعلة تخلق الخير والشر: فهذا كافر كفرًا أكبر.
- وإما أن يستدل بالنظر في هذه النجوم على معرفة الغيب زعمًا، كما مر معنا من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: في قوم يكتبون أبا جاد، يعني حروف التهجي وينظرون في النجوم، فيربطون هذه الحروف بحركات النجوم والأفلاك، قال: ما أُرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق، وهذا حكم عليه بالكفر.

- وأما القسم الثالث: وهو أن يعتقد أن النجوم سبب لحدوث الخير والشر، فإذا وقع شيء نسبه لهذه النجوم بعد وقوعه، فهذا كفر أصغر، لأنه اعتقد ما ليس بسبب سببًا قدريًا وليس كذلك.

وأما النوع الثاني الذي اختلف فيه السلف: فهو علم التسيير، يعني أن ينظر في هذه النجوم وفي منازل القمر لا من أجل هذه الأمور التي مضت، ولكن من أجل معرفة القِبلة، أو من أجل الملاحة، أو من أجل التعرف على الجهات في ظلمات البر والبحر.

فمن السلف: من كره ذلك، سداً للذرائع، لأنه وإن كان النظر في هذه النجوم على هذه الصورة ليس شركًا، إلا أنه قد يؤدي فيما بعد إلى ما هو شرك، ولذلك كرهوا ذلك، حسمًا لمادة الشرك وسدًا للذرائع.

ومنهم من رخَّص في ذلك.

(المتن)

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه.

(الشرح)

لماذا كرهوا ذلك؟

سدًا للذريعة كما ذكرنا، لأن ذلك قد يُفضي إلى الشرك، فأرادوا غلق هذا الباب، حتى وإن كان المراد أن يستدل بها المرء على القبلة وأوقات الصلاة.

الشاهد من ذكر المصنف لهذا الكلام عن قتادة و ابن عيينة: أنهم وإن لم يرخصوا في ذلك وإن كان من باب معرفة الجهات وتعلم القبلة، فكيف الحال فيمن يتعلم أو من ينظر في النجوم من أجل ما يسمى بعلم التأثير؟

فلا شك أن الأمر خطير، وأنه محكوم عليه بالحُرمة.

(المتن)

قال: ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

(الشرح)

ورخص في تعلم المنازل أي منازل القمر أحمد وإسحاق، وذلك لِمَا فيه من مصالح الدنيا والدين.

لأن هذه المفسدة وإن كانت موجودة أو كانت متوهمة فإن المصالح التي تقابلها أعظم بكثير، ولذلك رخَّصوا في ذلك.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا التأثير، فهو محرم باطل قليله وكثيره.

(فهو) الضمير يعود لأقرب مذكور وهو علم التأثير، فهو محرم باطل قليله وكثيره، وتعلمه للحاجة، لا يقصد علم التأثير وإنما يقصد علم التسيير، وما زاد على الحاجة مشغلة تضر ولا تنفع.

(المتن)

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر»، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

(الشرح)

وهذا الحديث صححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بشواهده كما في صحيح الترغيب والترهيب.

ففي هذا الحديث يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر»**.

وهذا هو الشاهد الذي جاء به المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة»**: ليس فيه أن هؤلاء الثلاثة محصورون دون غيرهم، فهناك أحاديث أخرى جاءت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبيِّن أن أُناسًا آخرين لا يدخلون الجنة، هذا أولًا.

فالحصر هاهنا ليس مقصودًا.

والأمر الثاني وهو قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يدخلون الجنة»**: هل أراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك الحكم عليهم بالكُفر؟

نقول: في مثل هذه الأحاديث الناس على أقوال ثلاثة: إفراط وتفريط ووسط:

أما الإفراط: فهو مذهب المعتزلة والخوارج، فإن المعتزلة والخوارج قالوا: إن هذه الأحاديث تدل بظاهرها على أن مرتكب الكبيرة خارج من الإسلام، وأنه خالد مخلد في النار، وإن كانوا قد اختلفوا في اسمه في الدنيا.

فالمعتزلة يجعلون مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين.

والخوارج يحكمون عليه بالكفر.

أما في المآل في الآخرة: فالحكم واحد أنه مخلَّد في النار.

وعلى النقيض تمامًا المرجئة قالوا: إن الإيمان هو التصديق والأعمال ليست من الإيمان، وبالتالي لا يضر مع الإيمان ذنب، فلو شرب المرء الخمر أو قطع الرحم أو فعل الموبقات، طالما أنه مصدِّق، لا يضر ذلك إيمانَه.

وغلاتهم يقولون: طالما أنه يعرف الله تبارك وتعالى، فإن هذا لا يضر، بل إيمانه كإيمان الملائكة والأنبياء والرُسل.

وأهل السُنَّة والجماعة يقولون في مثل هذه الأحاديث في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لا يدخلون الجنة»**:

منهم مَن لا يتأوَّل هذه الأحاديث ولا يفسرها، يعني يمرها كآيات الصفات وأحاديث الصفات، لماذا؟

لأن هذا أوقع في النفوس وأزجر عن فعل المعصية، وإن كان الواحد منهم يستطيع أن يتكلم و يبين المراد.

ومنهم من تكلم عند الحاجة، لمَّا رأى أن الخوارج والمعتزلة يستدلون بمثل هذه الأحاديث في تكفير المسلمين قال: لا، ما أراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بذلك التكفير، وإنما لمَّا قال لا يدخلون الجنة، يعني لا يدخلون الدخول الأَوَّلي، فإنهم وإن لم يدخلوها حالًا فلا بد أن يدخلوها مآلًا.

فإن شاء الله تبارك وتعالى عفا عنهم، وإن شاء عذَّبهم على قدر ذنبهم، ثم بعد ذلك يخرجون.

فقال: **«مدمن الخمر»**: وهو الذي يُكثر منه جدًا ويشربه كثيرًا.

وعندنا في النصوص ما يدل على أن مدمن الخمر ليس بكافر، هذا الرجل الذي كان يُضحك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وكان كثيرًا ما يؤتى به إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليقيم عليه الحد، فلما لعنه بعض الصحابة، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لا تلعنوه، ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»**.

«وقاطع الرحم»: والرحم هم الأقارب من جهة النسب، لا من جهة أهل الزوجين.

عندنا في العامية المصرية نقول : أنا ذاهب إلى نسايبي، لا النسايب أو الأنساب هؤلاء يسمون بالأصهار، أما النسب لغة فهم أقاربك كأبيك وعمك وجدك وخالتك وخالك.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توعَّد كذلك قاطع الرحم.

قال: «ومصدِّق بالسحر»: وهذا هو الشاهد في هذا الحديث.

وذكرنا خلاف العلماء فيمن ذهب إلى كاهن أو عرَّاف فصدَّقه.

قلنا: من أهل العلم من قال: بكفره، ومنهم من قال: إنه قد أشرك شركًا أصغر، لماذا؟ لأنه جاء في الحديث الآخَر في الزيادة التي عند أحمد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا».

فلما حكم أنه يصلي، دل ذلك على أنه لا يخرج من الإسلام.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

(الشرح)

وهذا يؤخذ من قول قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ.

(المتن)

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

(الشرح)

لأن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به، فهذا يرد به على المنجمين الزاعمين أن لها تأثيرًا في هذا الكون.

(المتن)

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

(المتن)

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

(الشرح)

وهو الباب التاسع والعشرون، باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

والمراد من هذه الترجمة: بيان حكم الاستسقاء بالأنواء: أي نسبة السُقيا بنزول المطر إليها، فيقول: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فينسب السقيا إليها.

والأنواء منازل القمر.

الأنواء جمع نوء، وهي منازل القمر إذا سقط واحد منها سمي نوءًا، وهي ثمانٍ وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منزلة.

فالقمر له منازل، قال الله ﷻ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

هذا قاله ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فكانت العرب تزعم أنه مع سقوط المنزلة يكون المطر، فيقولون: مطرنا بنوء كذا، فالباء هاهنا: للسببية، أي بسبب نوء كذا، فجاء بهذا الباب ردًا عليهم، ومن باب بيان أن كل ذلك من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

(الشرح)

أي وتجعلون شكركم أنكم تُكذبون، فمن الذي ينزل المطر؟ الله تبارك وتعالى، وهو الذي يستحق أن يُشكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذه النعمة، فكان أهل الجاهلية يقابلون ذلك بنسبة هذا الفضل لغير الله تبارك وتعالى، فسمى الله ﷻ ذلك تكذيبًا.

فيقول: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾، أي شكركم على قول جمهور المفسرين، ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾، قالوا: تكذيبهم أنهم يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا.

الشاهد من الآية: أن الله ﷻ لمَّا ذكر فعلهم وخرج هذا الذكر مخرج الذم دل هذا على أن هذا الفعل لا يجوز.

(المتن)

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«أربعة في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»**.

(الشرح)

وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أربع في أمتي من أهل الجاهلية»**، هذا ليس للحصر.

وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«في أمتي»**: أي تفعلها هذه الأمة: إما جهلًا لقلة العلم، وإما مع العلم بتحريمها، ومع ذلك يخالفون.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أربع في أمتي»**: أي واقعة في أمتي، يقال فيه: إن الأمة أمتان:

أمة دعوة: وهي التي ما زالت على الكفر.

وأمة الإجابة: وهي الأمة التي استجابت لرسالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والفرق بين الأمتين في أصح الأقوال:

أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قال في أمتي: فالمراد أمة الإجابة، وإذا أطلق وقال في هذه الأمة: فإما أن يراد أمة الدعوة، أو أمة الإجابة.

فالأمر يُرجع في ذلك إلى السياق.

وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية»**: هذا خرج مخرج الذم لا الإقرار، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قال ذلك قاله من باب الذم لا من باب

إقراره على هذا الفعل ورضاه، كما يقول: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِرى والحرير والخمر والمعازف».

فلا يستدل به على جواز مثل هذه الأمور.

قال: «من أمر الجاهلية»: والجاهلية هي ما قبل الإسلام، وسُموا بذلك: لفرط جهلهم، ووقوعهم فيما يخالف شرائع الأنبياء.

والشاهد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسب هذا الفعل للجاهلية، وكل ما أُضيف للجاهلية فهو مذموم.

ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحد الصحابة لما عيَّر رجلاً بأمه، قال: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وقال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال: «لا يتركونهن»: فلا بد أن ذلك واقعٌ في الأمة كونًا وقدرًا لحكمة الله تبارك وتعالى.

ثم فصَّل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذا الإجمال، فقال: «الفخر بالأحساب»: أي أن يتعاظم المرء على أخيه بحسبه ونسبه، بآبائه، فهذا مما لا يجوز، وهذا من فعل أهل الجاهلية.

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

فالشاهد: أن الفخر بالأحساب من أمر الجاهلية.

قال: «والطعن في الأنساب»: أن يقع المرء في نسب أخيه وأن يطعن فيه.

«والاستسقاء بالنجوم»: أي نسبة السُقيا والمطر للنجوم، وهذا هو موضع الشاهد في هذا الحديث.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والنياحة»، ما النياحة؟ أن تعدد المرأة محاسن الميت على وجه السُخط والاعتراض على قضاء الله تبارك وتعالى وقدره، وأن ترفع صوتها بذلك.

فهذه الأمور الأربعة من أمور الجاهلية.

(المتن)

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والنائحة».

(الشرح)

التي ترفع صوتها بالندب على الميت.

(المتن)

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها».

(الشرح)

وهذا فيه: أن النياحة من الكبائر، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجب عليها التوبة، والتوبة تجبُّ ما قبلها، بخلاف الصغائر فإنها تُكفَّر بالأعمال الصالحة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النائحة إذا لم تتب»، وهذا فيه: أن التوبة تُكفِّر الذنوب، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

(المتن)

«والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران».

(الشرح)

ما السربال؟

هو واحد السرابيل، وهي الثياب والقُمص، يلطَّخ بالقطران، يلطَّخ جلدها بالقطران وجسدها بالقطران، والقطران هو النُحاس المذاب، فهذا جزاؤها إن عاقبها الله تبارك وتعالى يوم القيامة.

أن يُلطَّخ جسدها بالنُحاس المذاب، فيصير هذا القطران كالثياب، فيكون أشدَّ عذاباً عياذاً بالله.

(المتن)

«والنائحة إذا لم تتب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب».

(الشرح)

والجرب هو المرض المعروف.

وهذا الوعيد من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدل على أن النياحة من الكبائر.

وبعض النساء في هذه الأيام كففن عن النياحة ، النياحة معصية، فتركن المعصية وابتدعن في دين الله تبارك وتعالى.

إذا خرج الميت تقول النساء : لَا إِلَهَ إِلَّا الله، لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وتجد هذه تعظ الأخرى تقول لها: قولي: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فإذا رُفعت الجنازة تسمع صوتاً عالياً من النساء تقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وهذا بدعة، لأن الأصل في مثل هذا الموضع السكون، وهذا الذكر عبادة، والعبادة لها صفة بيَّنها الشرع من الهيئة والعدد والزمان والمكان.

والصحابة كانوا يخرجون خلف الجنائز، وما سمعنا أن الواحد منهم كان يرفع صوته، أو كان يقول: وحدوه، أو غير ذلك من الأمور.

بل جاء عن التابعين النهي عن مثل هذه الأمور.

(المتن)

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب». ولهما من حديث ابن عباس بمعناه: وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٢].

(الشرح)

هذا الحديث ساقه المصنف رَحِمَهُ اللهُ للدلالة على هذه الترجمة، وبيان حكم الاستسقاء بالنجوم، قال: صلى لنا أي بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقولنا: صلى الرجل لنا، لا يُقصد به أن الصلاة ستُصرف لغير الله تبارك وتعالى، وإنما المقصود: صلى بنا، أو لنا يؤمنا.

صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء: يعني على إثر مطر، فالمطر ينزل من السماء أي من العلو.

كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس: أي انصرف من الصلاة، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى لا يطيل استقبال القبلة إلا على قدر قوله: اللّٰهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، ثم ينصرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهة اليمين أو من جهة اليسار.

ثم يُقبل على أصحابه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأحيانًا يحدِّثهم بالحديث، وأحيانًا يسألهم عن رؤيا رآها أحدهم، فقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»، وهذا السؤال من النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب التشويق.

ثم كان من أدب الصحابة أن قالوا: الله ورسوله أعلم، فالصحابة وإن كانوا يعلمون الإجابة أحيانًا، يقولون: الله ورسوله أعلم، وهذا من باب حُسن الأدب مع رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لمَّا قال لمعاذ: «يا معاذ هل تدري ما حق الله على العباد؟»، قال: الله ورسوله أعلم، مع أن معاذًا يعلم حق الله وحق رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك تأدَّب مع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال»: وهذا حديث قدسي.

فقال: «قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»: والإضافة في عبادي تفيد العموم لا التشريف، ودليل ذلك التقسيم بعده .

بخلاف قول الله تبارك وتعالى في آخر سورة الفرقان: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالإضافة هنا إضافة تشريف لهذه الصفات التي ذكرها الله ﷻ.

قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»: أجمل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا من حُسن إلقاء الخطاب، ثم فصَّل بعد ذلك.

قال: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته»، وهذا هو الإيمان، ولذلك قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله: «فذلك مؤمن بي»، فبيَّن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نسبة الفضل لله تبارك وتعالى فيما يجري في هذا الكون من الخير من علامات الإيمان.

وهذا الحديث يفسر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾

وهذا الحديث فيه إثبات صفتين من صفات الله تبارك وتعالى، إثبات صفة الفضل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإثبات صفة الرحمة على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفضل الله إحسانه، قال: «فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»، أي كافر وجاحد بنسبة هذا التأثير للكوكب دون الله تبارك وتعالى ونسبة هذا الفضل للكوكب دون الله عَزَّوَجَلَّ.

«وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»، والكُفر هاهنا يحتمل الأكبر والأصغر على حسب اعتقاد القائل، فإن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا وأراد أنه يستقل بهذا التأثير فهذا كُفر أكبر.

وإن أراد غير ذلك فجعله سببًا فهذا كفر أصغر، لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب» كما قال بعض العلماء.

قال: ولهما من حديث ابن عباس بمعناه: وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، يعني كأنه قال: مطرنا بفضل نوء كذا وكذا، فالحكم عليه بالصدق يحتمل أنه أراد أن ذلك من فضله لا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ وبسببه.

قال: فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

هذا الكلام بعض العلماء قال: بأنه من باب الشرك الأصغر، وبعض العلماء وهو الشيخ ابن عثيمين قال: أن هذا ليس من الشرك الأصغر، ولكن من الأدب مع الله تبارك وتعالى ألا يُنسب ذلك.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية كذلك: أنه من الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ ألا يُقال هذا الكلام، وإن أثبتت التجربة حقًا أن هذا هو الذي يقع.

قال: فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، أنزل الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٢].

قلنا: ما المقصود بالرزق؟

الشكر.

وما المقصود بالتكذيب على قول جمهور المفسرين؟ نسبة هذا الفضل لغير الله تبارك وتعالى.

قال: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾، والمقصود بمواقع النجوم: المطالع والمساقط.

وهذا قسم من الله تبارك وتعالى، فالله يقول: أُقسم بمواقع النجوم.

وجيء بلا من باب توكيد هذا القسم وتوكيد النفي قبله، كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأنهم جعلوا القرآن كهانة وسحرًا، فجيء بالنفي لتوكيد النفي الذي نفاه الله قبل ذلك، كأنه قال: أُقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم، فوُصِف القرآن بالكرم.

القرآن حَسَن مكرم، والكرم اسم جامع لوجوه الخير، فلا يأتي كريم بمعنى مكرِم فقط، يعني من الكرم والجود، كما ظن بعضهم فغلَّط من قال: رمضان كريم، فقال: لا يجوز أن تقول ذلك لأن الله هو الكريم، رمضان لا يُعطي أحدًا.

فيرد عليه بآيات وصف الله تبارك وتعالى فيها بعض مخلوقاته بالكرم، ووصف العرش بالكرم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالمقصود بالكرم: يعني الذي جمع كثيرًا من المحاسن والفضائل المكرم، الحسن.

لماذا أقسم الله ﷻ بمواقع النجوم على وحي هذا القرآن وأنه ليس من قول الكهان والسحرة؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالمناسبة بين المقسم والمقسم به، المقسم به: مواقع النجوم، والمقسم عليه الذي هو القرآن.

قال: المناسبة في الهداية.

فمواقع النجوم تهدي في ظلمات البر والبحر، والقرآن في ظلمات الغي والجهل، فهذه هداية حسية وتلك هداية معنوية، فجمع الله بين الهدايتين.

وكذلك من المناسبة لما في نجوم السماء من الزينة الظاهرة وما في القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس. والنجوم آياته المشهودة عيناً، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول. ذكره ابن القيم رحمه الله.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يُخرج عن الملة.

(الشرح)

قلنا: لأن الاستسقاء بالأنواء على حسب مراد صاحبه، وكذلك النظر في النجوم ومنازل القمر.

(المتن)

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، بسبب نزول النعمة.

(الشرح)

فالناس عند نزول النعمة ينقسمون قسمين.

(المتن)

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

(الشرح)

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: مؤمن من قال: مطرنا بفضل الله ورحمة، فدل على أن هذا القول يؤثر في إيمان العبد، وأن خلافه كذلك يؤثر في إيمان العبد.

(المتن)

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

(الشرح)

لأنه إن نسب النعمة لغير الله فقد وقع في الكفر.

(المتن)

الثامنة: التفطن لقوله: لقد صدق نوء كذا وكذا.

(الشرح)

فإن هذا القول قريب من قول بعضهم: مطرنا بنوء كذا، أي بفضل نوء كذا يعني بسببه.

(المتن)

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».

العاشرة: وعيد النائحة.

ثم قال: باب قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهذا الباب له شأن مستقل، ولذلك من عادتنا في هذا الشرح أننا نجمع بين الأبواب المشتركة في موضوع معين.

(المتن)

قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾.

(الشرح)

هذا الباب وبابان بعده أو ثلاثة تتناول أعمال القلوب، والمحبة من أعظم أعمال القلوب.

وهذه المحبة أنواع:

فمنها ما لا يصلح إلا لله تعالى، فإن كان لغير الله فهو الشرك، ولما كان بعض أنواع المحبة ينقسم إلى ما هو عبادة و ما هو شرك، جاء المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب، ولذلك قال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد:

لَمَّا كان من أنواع المحبة نوع لا يصلح إلا لله تعالى وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع وكمال الطاعة، ولا يجوز تعليقها بغير الله أصلًا، ومتى أحب العبد بها غير الله كان مشركًا لا يُغفر شركه إلا بالتوبة.

فلما كان الأمر كذلك ترجم المصنف بهذه الآية ليوضِّح ما دلت عليه من الشرك باتخاذ النِّد في التشريك بمحبة غير الله تبارك وتعالى تألُهًا وتعظيمًا.

فجاء المصنف بهذا الباب، قال: **باب قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾.**

إذًا هناك من المحبة ما لا يصلح إلا لله تعالى وهي محبة العبادة التي تستلزم الذُل والخضوع والتأله وكمال الطاعة وهي أصل الإيمان والتوحيد.

وهناك أنواع أخرى للمحبة: فمن ذلك: وهو محبة الله تبارك وتعالى، وهي محبة العبادة.

فالقسم الأول وهوأعظمها: أن يحب الله تبارك وتعالى.

والقسم الثاني: أن يحب في الله تبارك وتعالى: بأن يحب الأنبياء والصالحين، لا يحب إنسانًا من أجل دنيا ولا حسب ولا نسب، وإنما يحبه لأجل ما معه من خصال الخير والدين، فبقدر كماله في هذا الأمر تكون محبة العبد له، وأن يحب العمل الصالح، وهذه من تمام المحبة الأولى، فإن من أحب الله تبارك وتعالى أحب أولياءه وأبغض أعدائه، وأحب ما يقرِّب إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من العمل الصالح.

فما من عمل صالح إلا وتجده مقبلًا عليه محبًا له.

وأما النوع الثالث: فهي المحبة الشركية، وهي المحبة مع الله تبارك وتعالى، وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم، وهذه المحبة هي أصل الشركِ، فإن المشركين لا يُقبِلون على عبادة الأصنام إلا بعد محبتها.

وهذا القسم هو المعنِي بالآية التي ترجم بها المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾.

وأما النوع الرابع من أنواع المحبة: فهي المحبة الطبعية التي توافق الطبع، وتلاءم العبد، كمحبته للطعام والشراب والنكاح، فهذه مباحة.

إلا أن تكون وسيلة لطاعة: فإن كانت وسيلة لطاعة أخذت حكم هذه الطاعة من واجب أو مندوب.

أو كانت وسيلة لمعصية: فأخذت حكم تلك المعصية، فكم نوعاً للمحبة؟ أربعة.

محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة مع الله، ومحبة طبعية.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، ومن هاهنا تبعيضية، أي بعض الناس، يحب من يتخذه من دون الله، أي من الأصنام والأوثان وكل ما يؤلِّه ويُعظِّمه على وجه الذُل والخضوع يحب هؤلاء محبة تعظيم وإجلال.

فتجد هؤلاء يخافون أصنامهم، ويحبونهم، ويتقربون إليهم، ويرغبون إليهم، ويرهبون منهم، وهذا كله من أعمال القلوب التي لا ينبغي أن تُصرف إلا لله تبارك وتعالى.

قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾، قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي في الكيفِ أو في النوع:

أما في الكيف: فيحبونهم محبة العبادة، فتكون كيفية محبتهم لهم ككفية محبتهم لله تبارك وتعالى، أو محبة المؤمنين لربهم كما سيأتي في بيان المراد بكاف التشبيه هاهنا.

وأما في النوع: أي يحبون هؤلاء كما يحبون ربهم تبارك وتعالى، فجعلوا هؤلاء أندادًا يحبونهم كما يحبون ربهم تبارك وتعالى، فأندادهم نوع، وربهم تبارك وتعالى شيء آخر سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾، والكاف في قوله: كحُبِّ اختلف فيها السلف على قولين:

هل المعنى: أنهم يحبون ربهم ويحبون المشركين كمحبتهم لربهم؟

إذًا هم يحبون ربهم تبارك وتعالى، وفي نفس الوقت يحبون الأصنام مع ربهم تبارك وتعالى.

أم المعنى: أنهم يحبون أصنامهم كمحبة أو كقدر المحبة التي يحب بها المؤمنون ربهم؟

فإما أنه أثبت لهم محبة لربهم لله تبارك وتعالى، أو لم يُثبت لهم محبة لله، وإنما أثبت لهم محبة عظيمة في القدر للأصنام والأنداد كمحبة المؤمنين لربهم تبارك وتعالى.

فمن أهل العلم من قال رجَّح الأول، ومنهم من قال بالقول الثاني.

وإن كان الراجح أن المقصود هو القول الأول: أنهم يحبون ربهم تبارك وتعالى، ومع ذلك يُشركون في هذه المحبة، لماذا؟ لأن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأثبت لهم محبة لربهم تبارك وتعالى.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، تبارك وتعالى، أسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده المؤمنين، وأن يرزقنا محبته ومحبة مَن يحبه، ومحبة كل عمل صالحٍ يقرِّبنا إلى حبه تبارك وتعالى.

فإن الذي يحب غير ربه محبة العبادة والتألُّه عاقبته وخيمة، ولذلك جاء في تكملة هذه الآية: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وأعظم الظلم أن تُشرِك بالله تبارك وتعالى، وأن تحب الأنداد محبتك لله أو أن تُشرِّك في محبة الله تبارك وتعالى غيره محبة تعظيم وطاعة وغير ذلك.

قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

لو تدبرت في هذه الآية لوجدت عقوبات وعواقب وخيمة لهذا الذي أشرك بالله تبارك وتعالى في هذه المحبة: أن الذي يحبه من صنم أو من خلق مخلوق أو غير ذلك

يتبرأ منه يوم القيامة، ولا يستطيع هو أن يُعيد الكرَّة مرة أخرى وأن يعود إلى هذه الحياة الدنيا فيتبرأ منه كما تبرأ هو منه.

وهذه الأعمال من محبة غير الله تبارك وتعالى لا تكون في ميزان حسناته يوم القيامة، وإنما تنقلب حسرات عليهم، ثم بعد ذلك يكون العذاب العظيم من الله تبارك وتعالى؛ إذ يصير الأبعد من أهل النار الذين هم أهلها.

(المتن)

وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾.

(الشرح)

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾.

وهذا وعيد من الله تبارك وتعالى، فالذي يجعل هذه الأمور المذكورة في الآية من الآباء والأبناء والعشيرة والمسكن أحب إلى نفسه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وإن لم تكن محبة تأليه، لكن بصورة تمنعه عن الطاعات،

فإن هذا يقدح في كمال إيمانه الواجب وكمال توحيده الواجب، ويستحق دخول النار إن عاقبه الله تبارك وتعالى على ذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [التوبة: ٢٤].

إذًا ما الفرق بين الآية الأولى والآية الثانية؟

أن الآية الأولى المحبة فيها محبة شركية، الواقع فيها كافر بالله العظيم، أم المحبة الثانية وهي محبة الأولاد والزوجة والعشيرة والمسكن وغير ذلك: هذه المحبة الأصل

فيها أنها مباحة، أما إن أدت للصد عن واجب وعن طاعة لله تبارك وتعالى فإنها تنقلب على صاحبها وبالًا، وكم من إنسانٍ صدته محبة تلك المذكورات عن طاعة الله وشغلته حتى تلهى بها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن ثَمَّ حذَّرهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فالأمر هٰهنا للتهديد.

(المتن)

عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**، أخرجاه.

(الشرح)

في هذا الحديثِ يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يؤمن أحدكم»**: أي لا يؤمن الإيمان الواجب، لا يبلغ كمال الإيمان الواجب.

والمعروف في الشرع أن الله تبارك وتعالى إذا نفى الإيمان عن عبد فإنه لا يعني بذلك نفي كمال الإيمان المستحب.

فمَن جاء نفي إيمانه في الشرع إن وقع في محذور ما، فليس المراد به نفي كمال الإيمان المستحب الذي إن فعله صاحبه أُثيب وبلغ الدرجات العُلى من درجات السابقين والمقربين، وإن تركه فإنه لا يأثم على ذلك ولا يُذم، هذا لم يرد في الشرع.

وإنما الذي ورد في نفي الإيمان في الشرع: إما أن يكون النفي مرادًا به نفي الأصل، أي أصل الإيمان، وإما أن يراد به نفي كمال الإيمان الواجب، أي أن صاحبه قصَّر في تحقيق هذا الإيمان الواجب، ومن ثَمَّ استحق الذم.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا يقول: **«لا يؤمن أحدكم»**: أي لا يؤمن الإيمان الواجب، **«حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقول ابن بطال: جمع بين هذه المحابِّ الثلاثة لأنها جمعت أنواع المحبة:

فالمحبة إما أن تكون محبة تعظيم وإجلال، كمحبة الولد لوالده.

وإما أن تكون محبة شفقة: كمحبة الوالد لولده.

وإما أن تكون محبة مشاكلة ومجانسة: كالمحبة التي بين الناس أجمعين.

فلا يصل العبد إلى كمال الإيمان إلا إذا أحب النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبة شفقة وخوف عليه في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى سُنته بعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك محبة تبجيل وتعظيم: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فهذا من تبجيل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك تبجيل سُنة النبي وتعظيم سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هو ظاهر عند أهل السُنَّة والجماعة فإنهم دائمًا يقدِّمون سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قول كل أحدٍ كائنًا من كان.

أو محبة المشاكلة التي تقتضي النُصح لسنته وبيان السُنَّة بعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه المحبة ماذا تقتضي؟ العمل.

فيا من تقول: إنك تحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من ولدك ووالدك والناس أجمعين، هذا يقتضي منك طاعته، وتقديم قوله على كل قول، وهذا هو المراد من الحديث.

ففي هذا الحديث يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يبلغ العبد كمال الإيمان الواجب حتى يحصل منه ذلك.

لماذا كل هذا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لماذا لا يبلغ العبد كمال الإيمان الواجب حتى يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الدرجة والمنزلة؟

لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو سبب إخراجنا من الظلمات إلى النور، بعث الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهل الأرض، وقد مقت أهلها عربًا وعجمًا إلا بقايا من أهل الكتاب، فجاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعلم النافع والعمل الصالح، وهدى الله عَزَّ وَجَلَّ به الخلق أجمعين.

فالواجب في حق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، لماذا؟ لأنه أخرجنا من الظلمات إلى النور، ولأن الإيمان به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب النعيم الأبدي، و النجاة من النار.

بل زد على ذلك: لا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إلينا من نفوسنا، كما في حديث عمر، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرض منه إلا أن يكون هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من نفسه، فلما قال: أنت يا رسول الله أحب إليَّ من نفسي ماذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: «الآن يا عمر»، أي حققت ما هو مطلوب منك من الإيمان، فنسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقنا محبته، وأن يرزقنا العمل بهذه المحبة.

(المتن)

ولهما عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله رسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»**، وفي رواية: **«لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى»**، إلى آخره.

(الشرح)

في هذا الحديث يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ثلاث من كن فيه»**، يعني مَن وُجدت فيه هذه الخصال الثلاثة، فاستكملها، كان ثمرة ذلك أن يجد حلاوة الإيمان، وحلاوة الإيمان كما قال مَن ذاقها، نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يذيقنا إياها.

قالوا: إن حلاوة الإيمان يشعر بها المرء ويذوقها كما يذوق أحدنا الحلاوة والأطعمة المحسوسة، فالأطعمة المحسوسة تجد لها حلاوة في فمك، كذلك الإيمان تجد له حلاوة في قلبك من السرور والنعيم وانشراح الصدر والأنس بالله وغير ذلك مما هو حال عباد الله الطائعين المقربين من أوليائه.

فهذه الخصال الثلاثة من استكملها وجد بهن حلاوة الإيمان.

فيجد نعيمًا وسرورًا ولذة في قلبه، هكذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي حلاوة محسوسة يجدها أهل الإيمان أعلى من المطعوم، رزقنا الله وإياكم إياها.

ولذلك وجدنا من السلف من يقول: إنا لفي نعيم لو يعلم به الملوك وأبناء الملوك لجالدونا على هذا النعيم بالسيوف، هذا النعيم لا يقصد به نعيم الدنيا من قصور وأموال وغير ذلك.

وإنما هو نعيم يوجد في القلب، فالقلب محل نظر الله تبارك وتعالى، فإذا انشرح القلب بعبادة الله وكمَّل العبد الإيمان شعر ووجد هذه الحلاوة.

ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أمور: **«أن يكون الله رسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»**.

وهذه الأمور الثلاثة بها تكميل المحبة أي بهذا الأمر يصل المرء إلى **كمال المحبة**، ثم بعد ذلك ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فروع هذه المحبة** وأثر هذه المحبة، ثم ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما هو **ضد هذه المحبة** مما ينبغي على المرء أن يدفعه، ما معنى هذا الكلام؟

يعني إذا أردت أن تصل إلى كمال المحبة فعليك بأمور ثلاثة ذكرها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما.

أحببت الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر مما سواهما، هذا يترتب عليه ماذا؟

أن تُعطي لله، وأن تمنع لله، وأن تُحب لله، وأن تُبغِض لله، ألا تُحب المرء إلا من أجل الله تبارك وتعالى لِمَا معه من خصال الخير، ولمتابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم الأمر الثالث: أن تدفع ما يضاد هذه المحبة، فهناك تحلية وتخلية، تحلية بالأمرين المذكورين، والتخلية بأن تتخلص مما يضاد هذه المحبة.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه الحلاوة تتبع كمال محبة العبد لربه وذلك بثلاثة الأمور، أي إنك إن حققت هذه الثلاثة وجدت هذه الحلاوة في قلبك، ما هي هذه الأمور الثلاثة:

قال: **تَكْمِيلُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَتَفْرِيعُهَا، وَدَفْعُ ضِدِّهَا.**

" فَتَكْمِيلُهَا " أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يُكْتَفَى فِيهَا بِأَصْلِ الْحُبِّ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا كَمَا تَقَدَّمَ، لا بد أن يصل إلى كمال هذه المحبة، فمن كان معه أصل المحبة يعني يحب الله تبارك وتعالى ويحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك يقع في الذنوب والمعاصي التي تنافي هذه المحبة، هذا ليس معه كمال المحبة، وإنما معه أصل المحبة، ليس كافرًا وليس خارجًا عن الإسلام، لكنه ناقص الإيمان والمحبة.

ولذلك أهل السُنَّة والجماعة لا يحكمون على عُصاة المؤمنين بالكفر ولا يُخرجونهم من الإسلام، لِمَا معهم من أصل المحبة، أما الذي ذُكر هاهنا فهو كمال المحبة الواجبة.

قال: **" وَتَفْرِيعُهَا " أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ.**

" وَدَفْعُ ضِدِّهَا " أَنْ يَكْرَهَ ضِدَّ الْإِيمَانِ أَعْظَمَ مِنْ كَرَاهَتِهِ الْإِلْقَاءَ فِي النَّارِ.

(المتن)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن

كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا، رواه بن جرير.

(الشرح)

هذه الأمور التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما هي من ثمرات محبة الله، فهذا هو الفرع المبني على الأصل، فالأصل أن تحب الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما الثمرة التي تُبنى على ذلك؟

أن تحب لله، وأن تُبغض في الله، وأن توالي في الله، وأن تعادِي في الله، هذه الثمار الأربعة هي المبنية على محبة الله ورسوله.

فقال: من أحب في الله، يحب مَن؟ من آمن بالله، يحب أهل طاعته، يحب العمل الصالح، يحب أولياء الله الصالحين.

وأبغض في الله، يُبغِض الشرك وأهله، ويُبغض العصاة، ويُبغض المعصية، ويبغض المبتدعة، لا يُبغِضهم لأشخاصهم، وإنما يُبغضهم من أجل ما أحدثوا في الدين ومن أجل ما معهم من معصية الله.

ووالى في الله، وعادى في الله، كان الولاء والبراء على مقتضى رضا الله تبارك وتعالى، لا لمصلحة شخصية ولا لحزب ولا لجماعة.

لا يقال: فلان هذا من جماعتي أواليه دومًا حتى وإن فعل كل المعاصي، حتى وإن خالف سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أختلق له الأعذار، هذه ليست محبة في الله ولا موالاة في الله، وإنما أن تحب في الله وأن تُبغِض في الله.

إن فعل ما يرضي الله تبارك وتعالى فهو وليي وحبيبي، وإن فعل ما يُغضب الله تبارك وتعالى فأنا أُبغِضه بقدر ما معه من المعصية ومن مخالفة هدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فإنما تنال ولاية الله بذلك، والوَلاية بالفتح هي النُصرة والتأييد، وبالكسر الإمارة.

قال: ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، لماذا؟

لأن ذلك من أعمال القلوب، وأعمال القلوب عظيمة جدًا ومؤثرة جدًا في ذوق حلاوة الإيمان، وهي أعظم من أعمال الجوارح؛ إذ هي أصلها.

ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، ابن عباس يقول هذا الكلام وهو في القرون الخيرية وبين أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول: صارت عامة معاملة الناس ومؤاخاة الناس على أمر الدنيا، فكيف لو رأى حالنا في هذه الأيام وقد صارت المؤاخاة وللأسف على الشرك حينًا وعلى البدعة حينًا وعلى الفِسق حينًا.

فلا تجد الشاب يواخي الشاب إلا من أجل الدنيا والمعصية، لما يجتمعان عليه من الفسق واستماع الأغاني، وشُرب الدخان وغير ذلك.

أو تجد هذا يجتمع مع الآخَر من أجل البدعة، أسأل الله ﷻ أن يُسلِّمنا وإياكم.

قال: وذلك لا يجدي على أهله شيئا، أي أن هذا الأمر لا ينفع صاحبه يوم القيامة، لأن الذي ينفع يوم القيامة الإيمان والعمل الصالح.

قال الله ﷻ: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومن المتقي؟ من فعل المأمور وترك المحظور.

في هذا الأثر والذي قبله: أن أعمال القلوب من الإيمان، وأنها تؤثر في الإيمان زيادة ونقصانًا، فالإيمان قول وعمل، قول القلب وعمل اللسان، وعمل القلب والجوارح.

فهذا فيه أن أعمال القلوب من الإيمان تؤثر فيه زيادة ونقصانًا، لأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رتب إيجاد حلاوة الإيمان أو وجود حلاوة الإيمان على هذه الأعمال، وهذه الأعمال أعمال قلبية، فالمحبة عمل قلبي.

(المتن)

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾، قال: المودة.

(الشرح)

والأسباب جمع سبب، وهو ما يُتوصل به إلى المراد، والمراد بالآية: أي تقطَّع ما كانوا يتواصلون به في الدنيا، فهذه الأمور لا تنفعهم في الآخرة، لأنه في الآخرة تقع البراءة، وإنما الخُلة لا تكون إلا للمتقين كما سبق في الآية.

فإن قيل: ما حد المحبة؟

فيقال كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: لَا تُحَدُّ الْمَحَبَّةُ بِحَدٍّ أَوْضَحَ مِنْهَا، يعني هذه المحبة حال، لا يستطيع المرء أن يحدها.

قال: فَالْحُدُودُ لَا تَزِيدُهَا إِلَّا خَفَاءً وَجَفَاءً، فَحَدُّهَا وُجُودُهَا.

إذا أراد الإنسان أن يعرف حقيقة المحبة ذاقها بنفسه.

قال: وَلَا تُوصَفُ الْمَحَبَّةُ بِوَصْفٍ أَظْهَرَ مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ النَّاسُ فِي أَسْبَابِهَا وَمُوجِبَاتِهَا، وَعَلَامَاتِهَا وَشَوَاهِدِهَا، وَثَمَرَاتِهَا وَأَحْكَامِهَا.

قال: وأجمع ما قيل في ذلك: ما ذكر أَبُو بَكْرٍ الْكَتَّانِيُّ عند الجنيد.

قال أبو بكر: جَرَتْ مَسْأَلَةٌ فِي الْمَحَبَّةِ بِمَكَّةَ - أَعَزَّهَا اللَّهُ تَعَالَى - أَيَّامَ الْمَوْسِمِ، فَتَكَلَّمَ الشُّيُوخُ فِيهَا، وَكَانَ الْجُنَيْدُ أَصْغَرَهُمْ سِنًّا، فَقَالُوا: هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا عِرَاقِيُّ،

فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ، وَدَمِعَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ: عَبْدٌ ذَاهِبٌ عَنْ نَفْسِهِ، مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ رَبِّهِ، قَائِمٌ بِأَدَاءِ حُقُوقِهِ، نَاظِرٌ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ، أَحْرَقَتْ قَلْبَهُ أَنْوَارُ هَيْبَتِهِ، وَصَفَا شُرْبُهُ مِنْ كَأْسِ وُدِّهِ، وَانْكَشَفَ لَهُ الْجَبَّارُ مِنْ أَسْتَارِ غَيْبِهِ، فالإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه.

فَإِنْ تَكَلَّمَ فَبِاللَّهِ، وَإِنْ نَطَقَ فَعَنِ اللَّهِ، وَإِنْ تَحَرَّكَ فَبِأَمْرِ اللَّهِ، وَإِنْ سَكَنَ فَمَعَ اللَّهِ، فَهُوَ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ وَمَعَ اللَّهِ.

فَبَكَى الشُّيُوخُ وَقَالُوا: مَا عَلَى هَذَا مَزِيدٌ.

فالذي يتلبَّس بهذه الأمور يذوق حلاوة الإيمان، رزقنا الله وإياكم إياها.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال.

(الشرح)

هنا محذوف، تقديره: وجوب تقديم محبته على النفس والأهل والمال.

(المتن)

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

(الشرح)

كما بينا، لأنه في الحديث الأول قال: «لا يؤمن»، فهذا النفي يحتمل نفي الأصل ونفي كمال الإيمان الواجب، أي يحتمل الأمرين.

فلما قال في الحديث الثاني: لا يجد حلاوة الإيمان إلا أن يفعل كذا وكذا، وكانت حلاوة الإيمان قدرًا زائدًا على أصل الإيمان، فبمجموع الحديثين يدل الأمر على أن النفي هاهنا ليس نفيًا لأصل الإيمان وإنما هو لكمال الإيمان الواجب.

(المتن)

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها.

(الشرح)

الحب في الله، والبُغض في الله، والولاء والبراء.

(المتن)

ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع.

(الشرح)

يعني ابن عباس رضي الله عنهما.

(المتن)

أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

(الشرح)

ويحبون غيره كحبهم لله.

(المتن)

العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

(الشرح)

التي جاءت في سورة براءة.

(المتن)

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(الشرح)

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان فقيهًا، وكثيرًا ما نذكر ذلك ردًا على من قال: إن هذا الكتاب جاء مرسلًا هكذا من محمد بن عبد الوهاب دون ترتيب ولا فقه منه، بل كان فقيهًا، بارعًا في فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

جاء أولًا بباب يتحدث فيه عن المحبة، ثم بعد ذلك أتبعه بباب يتحدث فيه عن الخوف، لماذا؟

لأن المسلم في سيره إلى الله تبارك وتعالى يكون بين الخوف والرجاء، المحبة تحمله على فعل المأمور، والخوف يحمله على ترك المحظور، فناسب أن يأتي بعد باب المحبة بباب الخوف.

قال: **باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**

قال ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **لـمَّا كان الخوف من الله من أجل مقامات الدين وأشرفها.**

الخوف من الله ﷻ عبادة عظيمة، وهو من أجل مقامات الدين كالمحبة، قال الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فهاتان الجنتان جعلهما الله جزاءً لمن خاف مقام الله تبارك وتعالى.

وقال الله ﷻ عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وهذا الوصف للملائكة خرج مخرج المدح لا مخرج الذم.

فلما كان الخوف من أجل العبادات ومقامات الدين وأشرفها **نبَّه المصنف بهذه الترجمة على وجوب إخلاص هذه العبادة لله، وعلى النهي عن تعلقه بالمخلوقين، فإنه لا يتم التوحيد إلا بذلك.**

هل كل خوف يُعتبر شركًا بالله؟ لا، ولذلك فصَّل العلماء في هذا الموضع كما فصَّلوا في المحبة.

لأن بعض الناس لمَّا تكلم في المحبة كفَّر بعض المسلمين بسبب هذا الأمر كمحبة ما عند اليهود والنصارى من أموال ومتاع الدنيا وغير ذلك مما يتعلق بدنياهم لا دينهم، وقد يواليهم من أجل ذلك، فيأتي على مثل قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

فيقول: الولاية تقتضي المحبة، إذًا هو يحبهم، إذًا هو مثلهم، لأن الله ﷻ قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، فإنه كفر بذلك، لا بد من التفصيل بارك الله فيكم، فأنت تتزوج النصرانية الكتابية وتحبها، هل تخرج بذلك من الإسلام حبا طبعياً؟ لا تخرج بذلك من الإسلام.

كذلك هاهنا الخوف هل هو على درجة واحدة، كل خوف من غير الله هو شرك؟ لا.

ولذلك قال العلماء: إن الخوف على أقسام أربعة:

- القسم الأول: الخوف من الله تبارك وتعالى، وخوف وعيده، وهذا من أجل العبادات، أن يخاف المسلم ربه تبارك وتعالى، فهذا من أجل العبادات، وهو خوف السر، فإن صُرف لله فهو من أجل العبادات، وإن صُرف لغير الله، يعني إلى وثن أو إلى مقبور، يخاف أن يصيبه بمكروه فهذا شرك أكبر.

قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وذكرت لكم قبل ذلك قصة طالب العلم الذي مر في طنطا، ووقف وسأله سائل من النافذة، قال: بالله أعطني جنيهًا، فأعطاه الجنيه، فقال: بالبدوي أعطني خمسة جنيهات، فما كان منه إلا أن قال: أعطني الجنيه، فأخذ منه الجنيه وانصرف، ولم يعطه مالًا.

فكان السائق الذي يركب معه طيلة الطريق يتمتم، يقول: ألا تخشى من البدوي؟ لقد حلف لك، وتوسَّل لك بالبدوي، ألا تخشى من البدوي؟

يقول له طالب العلم الموحد: هذا لا يجوز، هذا شرك بالله، هذا لا ينفع، هذا البدوي لا ينفع ولا يضر، هو مقبور ميت لا حول له ولا قوة، إلى أن خرج من طنطا ووصل إلى مقصده، فلما وصل إلى مقصده قال الطالب لهذا السائق، هل صنع البدوي شيئًا؟ هل ضرَّنا بشيء؟

فكانت المصيبة في الرد: قال له: إن البدوي رحيم، عياذًا باللهِ، يعني ما أصابك بمكروه لحلمه عليك، ورحمته بك.

فهذا خوف السر، وهذا شرك بالله تبارك وتعالى.

▪ والخوف الثاني: وهو الخوف الذي يحمل على ترك الواجب، وهذا محرم وليس بشرك مخرِجٍ من الملة، وهو الذي يحمل على ترك الواجب من جهاد وأداء فريضة وغير ذلك، وهذا ينافي كمال التوحيد الواجب، وهو سبب نزول قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، أرادوا بذلك أن يخوفوهم من المشركين لصدهم عن الجهاد.

- وأما النوع الثالث: فهو الخوف الطبعي، أن يخاف المرء من كلب أو سبع أو عدو أو غير ذلك، فهذا لا يُذم، لأن هذا من جبلة البشر وطبيعتهم.

إنسان يخاف من القطط أو من الكلاب والسباع أو عدو وغير ذلك: فهذا لا يُذم شرعاً.

ولذلك قال الله ﷻ عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وما ذكر ذلك ذمًا لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فهناك إذن خوف السر من الوثن: هذا شرك.

والخوف الذي يُقعد المرء من أداء الواجبات، وهذا محرم.

والخوف الطبيعي.

الخوف من الله ﷻ الذي هو من أصول توحيد العبد لربه تبارك وتعالى.

هذا الخوف هو المقصود هنا في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى كما قال أهل التفسير: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ﴾ أي يخوفكم أوليائه، فأخاف ويخيف ويخوِّف مما ينصب مفعولين.

يخوفكم أوليائه، فالشيطان يخوِّف عباد الله المؤمنين بأوليائه، فقال الله ﷻ: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن القيم: من كيد عدو الله: أن يخوِّف المؤمنين من جُنده وأوليائهم من الكفرة والمجرمين وغير ذلك: من ألا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر.

وقال قتادة: يعظِّمه في صدوركم، أي يُعظِّم مخافة هؤلاء في صدوركم، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف الإيمان قوي الخوف منه.

فقال الله ﷻ مبينًا أن هؤلاء لا ينفعون ولا يضرون، وإنما الذي ينفع ويضر ويستحق أن يُخاف هو الله تبارك وتعالى، قال: ﴿ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، كما قال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فهذا فيه إخلاص الخوف لله تبارك وتعالى.

(المتن)

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾.

(الشرح)

وموضع الشاهد: ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾، فلما كان الخوف عبادة قلبية من أعظم العبادات وجب أن لا تُصرف إلا لله تبارك وتعالى.

وأسلوب الحصر في الآية: باللّام وإلّا دل على وجوب قصر ذلك على الله ﷻ.

ولذلك جاء في حديث ابن عباس: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»**.

وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

(المتن)

وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾.

(الشرح)

فهذه الآية فيها بيان حال قومٍ ادَّعوا الإيمان بلسانهم، و مِن في قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ: تبعيضية. هؤلاء لم يثبت الإيمان في قلوبهم، فإذا جاءتهم فتنة من فتن الدنيا ارتدوا، وهذا من سُنن الله تبارك وتعالى في خلقه:

أن الله ﷻ يبتلي الناس، ويُرسل إليهم الرسل كما يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان:

الناس على صنفين إذا أرسل الله إليهم الرسل: إمَّا أن يقول أحدهم: آمنا.

وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر.

فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومَن لم يقل آمنا، فلا يحسب أنه يُعجِز الله ويقوده ويسبقه، فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتُلي بما يؤلمه.

ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عُوقِب في الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم اتِّباعهم، فلا بد لحصول الألم لكل نفسٍ آمنت أو رغبت عن الإيمان.

الذي يؤمن لا بد له من حصول الألم من الابتلاء وغير ذلك، والذي يرغب عن الإيمان لا يؤمن فلا بد له كذلك من حصول الألم في الدنيا والآخرة.

لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً ثم يصير في الألم الدائم.

والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس: والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتُقى حلَّ بين قوم فجار ظلمة، لا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ فُجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ، أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ، فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الِابْتِدَاءِ، ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذَى أَضْعَافَ

مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ، وَإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ، فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ فِي الْأَخْذِ بِمَا قَالَتْ عائشة أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أي في الحديث الذي يأتي بعد ذلك.

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وهو في هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

هذا يدخل في الإيمان بلا بصيرة بلسانه دون قلبه.

وَأَنَّهُ إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ لَهُ كَعَذَابِ اللَّهِ، وَهِيَ أَذَاهُمْ لَهُ، وَنَيْلُهُمْ إِيَّاهُ بِالْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، جَعَلَ ذَلِكَ فِي فِرَارِهِ مِنْهُمْ وَتَرْكِهِ السَّبَبَ الَّذِي نَالَهُ، كَعَذَابِ اللَّهِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ، فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ أَلَمِ عَذَابِ اللَّهِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَتَحَمَّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الزَّائِلِ الْمُفَارِقِ عَنْ قَرِيبٍ، وَهَذَا لِضَعْفِ بَصِيرَتِهِ فَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ، فَفَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِهِمْ إِلَى أَلَمِ عَذَابِ اللَّهِ.

يستعجل الفرار من الألم في الدنيا وينسى الألم الذي سيصيبه في الآخرة، ويظن أن العذاب الذي يصيبه من أعداء الله في الدنيا يساوي عذاب الله في الآخرة، فيتعجل الدنيا دون الآخرة، ونسي المسكين أن عذاب الله تبارك وتعالى لا يساويه عذاب.

وأنه إن صبر في هذه الدنيا فلا بد وأن تكون له العاقبة بعد قليل.

أما إن وافقهم فرارًا من ألمهم فلا بد أن يصيبه الألم والأذى في الدنيا والآخرة.

فموطن الشاهد في هذه الآية: أن أعداء الله لا ينبغي أن يُخافوا، ولكن الخوف لا بد أن يكون من الله تبارك وتعالى.

(المتن)

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا: **«إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»**.

(الشرح)

وهذا حديث ضعيف الإسناد، وأما المعنى فهو صحيح، وقد ذكرنا قبل ذلك سبب إيراد الأئمة للأحاديث الضعيفة في كتب الاعتقاد، فهو من جهة المعنى صحيح.

يقول فيه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«إن من ضعف اليقين»**، وضعف اليقين يعني ضعف الإيمان، فالإيمان يقين قلبي، وجزم القلب على ما اعتقده.

فمن ضعف الإيمان: أن تُرضي الناس بسخط الله، فتؤثِر رضاهم على رضا الله تبارك وتعالى.

وأن تحمدهم على رزق الله، يعني أن تضيف ما رزقك الله ﷻ إلى الناس، وأن تجعل هؤلاء الناس هم السبب، فتنظر إلى السبب وتنسى المسبب الذي هو الله تبارك وتعالى.

والذي ينبغي أن يكون هو أن يُشكر هؤلاء، لا أن يُنسى المنعم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فإذا تعلق قلبك بالسبب دون المسبب سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فهذا من ضعف الإيمان.

وأن تذمهم على مالم يؤتك الله، لماذا؟ لأن الذي يتفرد بالعطاء والمنع هو الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهو الذي يرزق بسبب وبغير سبب، فلا بد أن يعتمد المرء عليه وحده.

قال: إن رزق الله: وهذه تعليلية لما قبلها، فإن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

لأن الله إذا قضى أمرًا لا بد أن يقع.

في هذا الحديث كذلك: زيادة الإيمان ونقصانه، قال: **«إن من ضعف اليقين»**.

وفيه: أن الأعمال من مسمى الإيمان، داخلة في الإيمان، لأن أعمال القلوب كما قلنا: تؤثر في الإيمان زيادة ونقصانًا.

(المتن)

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»**، رواه ابن حبان في صحيحه.

(الشرح)

وصححه الألباني في الصحيحة.

عائشة رضي الله عنها كتبت بهذا الحديث إلى معاوية ﵁، لـمَّا كان ملكاً على المسلمين، فقالت: **«من التمس رضا الله»**: يعني من طلب رضا الله بسخط الناس، لا يبتغي إلا رضا الله ﷻ، حتى وإن سخط الناس عليه، ولا شك أن المرء لن يطلب رضا الله ﷻ إلا بما يحبه.

ما جزاؤه؟

رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، كما قال النبي ﷺ فيمن يحبه الله تبارك وتعالى، ينادى في السماء أن الله يحبه، ثم تحبه ملائكة السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

وأما من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس: لا بد أن يعود حامده ذامًا له يومًا ما.

قال شيخ الإسلام في هذا الحديث: وهذا من أعظم الفقه في الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه.

الذي يرضي الله بسخط الناس كان قد اتقى الله ﷻ، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كافٍ عبده، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فالذي يتقي الله وإن أسخط الناس لا بد أن يرضيه الله ﷻ وأن يرضى الناس عنه، لأن الناس يعلمون أنه ما فعل ذلك إلا ابتغاء مرضات الله ﷻ.

والله يكفيه مؤونة الناس بلا ريب.

ولذلك قال الشاعر:

إذا صح منك الوُد يا غاية المنى فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكيف تقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف ترضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

فالإنسان ينبغي أن يرضي الله تبارك وتعالى وإن أسخط الناس.

فهذا فيه أن المرء لا ينبغي أن يخشى الناس ويسعى في مرضاتهم على حساب خوفه ومحبته من الله تبارك وتعالى، وإنما ينبغي أن يقدِّم محبة الله والخوف منه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

(الشرح)

وهذا الباب من جملة الأبواب التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه عن العبادات القلبية، وقبل هذا الباب ذكر بابًا في المحبة وكذلك في الخوف، ثم ثلَّث بباب في التوكل على الله تعالى.

التوكل عبادة عظيمة، وهو فريضة، أمر الله تبارك وتعالى به، ولذلك وجب إخلاصه لله ﷻ.

وهذا يتبين من الآيات التي ساقها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالتوكل عبادة عظيمة، وهو من أعلى مقامات التوحيد لأن فيه اعتمادًا على الله تعالى.

المرء إذا توكل على الله ﷻ فإنه يعتمد عليه في أموره في أمور دينه كلها، ودنياه كذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.**

في هذه الآية يأمر الله تبارك وتعالى عباده بالتوكل عليه، أي بتمام الاعتماد عليه، بل جعل ذلك شرطًا في إيمانهم، وسيأتي كذلك أنه جعله شرطًا في إسلامهم.

فهذه الآية تفيد وجوب التوكل على الله ﷻ وإخلاص التوكل على الله ﷻ من أكثر من وجه:

أما الوجه الأول: فمن الحصر الذي فيها، ففي الآية تقديم ما حقه التأخير، لأن الأصل توكلوا على الله، فلما قال: وعلى الله فتوكلوا، هذا التقديم تقديم الجار والمجرور على الفعل دل على الحصر والقصر، أن الإنسان لا ينبغي عليه أن يتوكل إلا على الله تبارك وتعالى.

و الثاني: أن في الآية أمرًا، فالله ﷻ يقول: توكلوا والأصل في الأوامر أنها للوجوب، إلا إذا جاءت قرينة تصرف هذا الوجوب إلى الاستحباب أو غير ذلك ولا قرينة.

و الثالث: أن الله ﷻ جعل الإيمان لا يصح إلا بالتوكل عليه، ولذلك قال: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

فإن كنتم مؤمنين فتوكلوا على الله، ونحن نعلم أن إن شرطية، لها فعل شرط وجواب شرط، ففعلها كنتم، وجوابها: فتوكلوا على الله، واقترن بالفاء لأنها جملة طلبية.

ففي هذه الآية جعل الله التوكل شرطًا في صحة إيمان العبد، وفي سورة يونس على لسان موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جعل التوكل شرطًا في إسلام العبد، فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

فهذه الآية كذلك كالآية التي بوَّب بها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ونحن نعلم أن الإسلام والإيمان إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، فالله ﷻ شرط التوكل في صحة إيمان العبد وصحة دينه، وانتفائه بالكلية مذهب لأصل التوحيد، وذلك إذا توكل العبد على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى.

التوكل له صور ثلاثة:

الصورة الأولى: أن يتوكل على غير الله تبارك وتعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ كطلب الولد وإنزال المطر، ومن كشف الضر فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، وغير ذلك.

فهذه الأمور الذي يقدر عليها الله ﷻ وحده، فإذا توكل فيها العبد على مخلوق سواءً كان حاضرًا أو غائبًا أو ميتًا أو حيًا: إذا توكل عليه فهذا من الشرك الأكبر، لأن هذه الأمور لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

الصورة الثانية من صور التوكل: أن يعتمد على مخلوق في رزقه ومعاشه، وأن يعلِّق قلبه وافتقاره به دون خالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا من الشرك الأصغر، لأنه جعل هذا المخلوق فوق السبب.

الله ﷻ هو الذي سبَّب هذا المخلوق في جلب الرزق كأن يعيِّنك في عمل، أو في وظيفة وفي غير ذلك، فإن تعلق القلب بهذا المخلوق في جلب هذا الرزق والمعاش فقد رفع السبب فوق قدره الذي ينبغي أن يكون عليه، فهذا من الشرك الأصغر.

لأنه قد يوجد السبب ولا يوجد المسبَّب، الإنسان لا ينبغي له أن يتعلق بالسبب، وإنما يتعلق بخالق السبب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلك قال العلماء: مِن شكر النعمة أن ينتقل نظرك من النعمة إلى المنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وألا تغفل بالنعمة عمن أسدى إليك هذه النعمة وهو خالقك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إن كان المخلوق هو الذي أسدى إليك هذه النعمة فحقه الشكر، من لا يشكر الناس لا يشكر الله، هذا حقه.

أما أن يتعلق قلبك به فهذا قدر زائد عن مجرد جعل هذا المخلوق سببًا.

قلنا: لأن السبب قد يوجد ومع ذلك قد يتخلف المسبَّب.

وعندنا آية في كتاب الله تدل على ذلك، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ [يونس: ٢٤]، هذا هو السبب، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ

قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

فالذي نريد أن نقوله: إن المرء لا ينبغي له أن يتعلق بالمخلوق، وإنما يُخلص توكله على الله تبارك وتعالى.

وفي الصورة الأولى وفي الصورة الثانية تجد هذا الذي تعلق قلبه بالمخلوق أو بغير الله ﷻ تجده في مرتبة أدنى، وجعل هذا المخلوق في مرتبة أعلى، رفعه فوق قدره.

وأما الصورة الثالثة الجائزة التي سنذكرها: فأنت ستجد فيها أن هذا الذي وكَّل غيره في مرتبة أعلى، ولذلك كان جائزًا، وهي أن يعتمد المرء على شخص فيما فوَّضه فيه ليتصرف بإذنه.

أن يعتمد المرء على شخص فيما فوضه: أي فوَّض هذا الشخص غيره، ليتصرف بإذنه هو في مُلكه، كما لو وكلت شخصًا مثلًا في بيع أو شراء، فهذا اعتماد عليه.

أنا وكلته في بيع شيء لي أو شراء شيء لي، فهذا لا شيء فيه وهو جائز، وليس من التوكل الممنوع.

ولذلك وكَّل النبي ﷺ أبا هريرة على الصدقة، ووكل النبي ﷺ أحد الصحابة أن يشتري له شاة، ووكل النبي ﷺ عليًا رضي الله عنه على الهَدي ليذبح أو ليتم ذبح الهدي، فهذا ليس من التوكل المحرم.

إذًا التوكل له ثلاثة صور:

منه ما هو شرك أكبر: وهو أن يتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

ومنه ما هو شرك أصغر: أن يتوكل على مخلوق وأن يرفعه فوق قدره، ولكن لا يصل إلى درجة الشرك، لأن هذا الذي طلبه منه أو مال قلبه إليه يقدر عليه.

والصورة الثالثة وهي الصورة الجائزة.

(المتن)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

(الشرح)

ففي هذه الآية يقول الله ﷻ فيها في موضع الشاهد: ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، كذلك قدَّم ما حقه التأخير، فهذا يدل على قصر وحصر التوكل على الله تبارك وتعالى.

وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ ﴾، فذكر صفات للمؤمنين ينبغي أن يتصفوا بها، والآية خرجت مخرج المدح لهم لما تلبسوا به من صفات:

منها: أنه إذا ذُكر الله ﷻ وجلت قلوبهم، فأدى هذا الوجل إلى أدائهم للفرائض، وانتهائهم عن المعاصي، وهذا أثر الوجل والخوف من الله تبارك وتعالى.

﴿ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾: وجلت قلوبهم عند أداء الفرائض، فيؤدون هذه الفرائض، وعند تذكر المحرمات، فينتهون عن هذه المحرمات، كما كان في حديث الغار، هذا الرجل الذي دخل على ابنة عمه أو قريبة له، فلما قالت له: اتق الله ولا تفض الخاتَم إلا بحقه، ما كان منه إلا أن أقلع عن ذلك، وإذا ذُكر الله وجلت قلوبهم، ينتهون عن هذا الفعل.

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾: وهذا كذلك من علامات إيمان العبد، وهذا فيه دليل على زيادة الإيمان.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحب سماع القرآن من غيره، كما قال لابن مسعود وطلب منه أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ عليه شيئًا من سورة النساء.

فالمرء إذا سمع القرآن أو تُلي عليه، فهذا يزيده إيمانًا.

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، فلا يتوكلون إلا على الله ﷻ.

قال ابن عباس: بخلاف المنافق.

يعني هذه الأوصاف التي وُصفت لمن وُصفت؟ لأهل الإيمان.

ما حال المنافق؟

قال ابن عباس: المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، يعني هذا القرآن الذي يستمعونه في الصلاة هم يصلون مع الناس، ومع ذلك لا توجل قلوبهم ولا يزدادون إيمانًا بسبب هذا الذكر الذي يسمعونه، نسأل الله العافية.

ولا يؤمنون بشيء من آياته، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، يعني إن كانوا فرادى في منأى عن الناس، بعيدين عن أعينهم فإنهم لا يصلون إلا أمام الناس رئاءً للناس، ولا يؤدون زكاة أموالهم.

فهذا يدل على أن المؤمن ينبغي له أن يتصف بهذه الأمور.

(المتن)

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

(الشرح)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ ﴾، ما معنى حسبك الله؟ الحسب الكفاية ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

فالله ﷻ يقول للنبي ﷺ وهو أشرف الخلق وأكمل الناس إيمانًا: حسبك الله، يعني الله يكفيك، فلا تتوكل إلا عليه.

وهو حَسْبُ من اتَّبعك من المؤمنين، وهذا هو المعنى الصحيح للآية: أن الله يكفيه وأنه كذلك كافِ من اتَّبعه؛ فليس معنى الآية حسبك الله: الله يكفيك والمؤمنون يكفونك كذلك، ليس هذا هو معنى الآية.

هل هناك فرق بين المعنى الأول والمعنى الثاني؟

نعم.

المعنى الأول: أن الكفاية من الله ﷻ للنبي وللمؤمنين.

أما المعنى الثاني: أن الكفاية للنبي ﷺ تكون ممن معه من المؤمنين، وهذا خلاف معهود استعمال القرآن.

معهود استعمال القرآن أن الحسب والرغبة والإنابة والخشية دائمًا مقصورة على الله ﷻ.

قال تعالى في سورة براءة: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

انظر إلى هذه الآية: لمَّا ذكر الإتيان ذكر الله ورسوله، ولمَّا ذكر الحسب ما ذكر إلا الله ﷻ وحده، ولمَّا ذكر الرغبة ما ذكر إلا الله ﷻ وحده.

ففي معهود استعمال القرآن أن الحسب لا يكون إلا لله ﷻ، فهذا فيه قصر التوكل على الله ﷻ، فهو الذي يكفيه.

وهو الذي يحفظه، وهذا فيه رد على القبوريين الذين يتوسلون ويلجؤون إلى المقبورين، فإذا كان النبي ﷺ حسبه الله وهو النبي ﷺ، الله وحده يكفيه، لا حول له ولا قوة، فمن كان دونه فمن باب أولى.

(المتن)

وقوله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

(الشرح)

وهذه الآية كالتي قبلها في المعنى، وهذه الآية فيها حُسن الظن بالله ﷻ.

الإنسان دائمًا ينبغي له أن يحسِّن ظنه بالله إذا أخذ بالأسباب، الله يقول: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾، هذا هو الأخذ بالأسباب، ما الجزاء المترتب على ذلك؟

فالله حسبه وكافيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالإنسان إذا أخذ بالأسباب، وأدَّى ما أراده الله ﷻ منه، فلا بد أن يعلم أن الله ﷻ لا بد أن يكافئه وأن يجازيه على هذا العمل.

(المتن)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، رواه البخاري والنسائي.

(الشرح)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وهذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما إما أن يكون سمعه من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن هذا مما لا يتلقَّى إلا بالوحي، كيف علم ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين أُلقي في النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل؟ أو سمعه ممن سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإما أن يكون ابن عباس تلقَّاه عن أهل الكتاب، أخذه من أهل الكتاب، فقد كان ابن عباس ممن أخذوا عن أهل الكتاب رضي الله عنهما استناداً لإذن النبي في ذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقالها محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا قالها الخليلان، وهذا يدل على عِظم هذه الكلمة، وهي قولنا: حسبنا الله ونعم الوكيل، والوكيل: بمعنى الموكول إليه، الوكيل فعيل بمعنى مفعول، يعني الموكول إليه الأمر.

فالله ﷻ إذا وكل العبد إليه أمره فإنه يكفيه، فيقولها المؤمن عند الشدائد مع الأخذ بالأسباب، لأن الخليلين قالاها حينئذ، حسبنا الله ونعم الوكيل.

أي: الله يكفينا وهو نعم الموكول عليه.

وقالها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، متى قالها؟ بعد أن انصرفت قريش من أُحد بعد ما دار بينهم وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بلغ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا على الكرِّ على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فجاء من يقول للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أبا سفيان قد أجمع أن يرجع إليكم مرة أخرى، فخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبعين راكبًا، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان ومن معه، فرجع إلى مكة، ولكنه أرسل إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يقول له: لنستأصلن بقيتكم إذا لقيناكم مرة أخرى، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حسبنا الله ونعم الوكيل.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

(الشرح)

لأن الله ﷻ علَّق الإيمان عليه، والإسلام كذلك.

(المتن)

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

(الشرح)

أن التوكل من شروط الإيمان.

هل يعني المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذلك أن التوكل خارج عن ماهية العمل وأنه ليس من الإيمان؟ كما فسر الشرط بعضُ المتأخرين وبعض قليلي العلم، فاتهم الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه يقول بقول المرجئة، لمَّا قال: أن الأعمال شرط كمال في الإيمان؟

لا لم يقصد بذلك أو بهذا التعبير هذا المعنى، وإلا فإننا وجدنا كلمة الشرط في لسان السلف، ويتكلمون بها عن أصول الإيمان.

يعني لمَّا يقولون: شروط لَا إِلَهَ إِلَّا الله: هل يعنون بذلك أن هذه الشروط خارجة عن مسمى الإيمان؟ لا يعنون ذلك.

لو نظرت في رسالة ابن رجب في تحقيق كلمة الإخلاص تجده يكثر من كلمة الشروط، تجد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الصلاة، يذكر أن الصلاة شرط في صحة الإيمان.

هل يُخرج ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصلاة من مسمى الإيمان؟ لا يقصد بذلك.

إذًا لا ينبغي أن نحاكِم الأئمة إلى اصطلاحات حادثة، وإنما ينبغي أن ننظر في مرادهم.

ربما يقول إنسان: المرجئة قالوا: إن الأعمال شرط كمال، وأرادوا بذلك أنها خارجة عن مسمى الإيمان؟

نقول: هم أنفسهم قالوا وصرَّحوا أن الأعمال لا تدخل في الإيمان، يعني أنفسهم صرَّحوا بذلك: أن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان.

هل الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ صرح بذلك؟ لم يصرِّح بذلك، ولكنه في مواضع كثيرة يذكر أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، بل شنَّع على من قال: إن الخلاف بين أهل السُنَّة وبين مرجئة الفقهاء خلاف لفظي.

(المتن)

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عِظم شأن هذه الكلمة.

(الشرح)

ما هي الكلمة؟ حسبنا الله ونعم الوكيل.

(المتن)

السابعة: أنها قول إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم في الشدائد.

(المتن)

باب قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

(الشرح)

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب: لبيان ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الجمع بين الخوف والرجاء، فلا يحمله خوفه على القنوط واليأس من رحمة الله.

بعض الناس من كثرة الذنوب والمعاصي من شدة الخوف يحمله على القنوط واليأس من رحمة الله، يقول: والله لن يغفر لي أبدًا، فيقنط وييأس من رحمة الله عياذًا بالله.

وبعض الناس يحملهم رجاؤهم في ربهم تبارك وتعالى واعتمادهم على سعة رحمة الله ﷻ على الأمن من مكر الله، فتجده مقيم على المعصية، والله ﷻ يمهله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيأمن مكر الله ﷻ.

فالمؤمن ينبغي أن يسير إلى الله ﷻ في طريق وسط، وهو أن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يتم التوحيد إلا بذلك.

فالأمن من مكر الله، قال الله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، فالأمن من مكر الله ينافي كمال التوحيد الواجب.

والقنوط من رحمة الله، والقنوط بالطاء وليس بالتاء، لأن القنوت بالتاء هو الطاعة والعبادة.

والقنوط من رحمته كذلك، ولذلك جاء المصنف بآية الباب ثم أتبعها بالآية التي بعدها التي تبين خطورة القنوط من رحمة الله، فجاء بالآية الأولى في الأمن من مكر

الله، ثم في الآية التي بعدها في القنوط من رحمة الله، وهذا يدل على فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ففي هذه الآية الأولى يقول الله ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

ما المراد بالأمن من مكر الله؟

الأمن من مكر الله كما قال العلماء: أن يتجارى بالمرء الرجاء، حتى يغفل عن عقوبة الله وعن إمهال الله له، فيقيم على المعاصي وعلى اللهو، ذاكرًا لترفه، غافلًا عن ذكر ربه، في الليل نائم، كما قال في الآيات التي قبل هذه الآية.

قال الله ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ففي الليل نائم، وفي النهار لعب، ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٨]، فهذا من مكر الله بهم.

ولذلك قال: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وهذه الآيات جاءت بعد قول الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ [الأعراف: ٩٦، ٩٧].

في الآية الأولى يبين الله ﷻ علاج الأمة، وهو الإيمان والتقوى، الإيمان والعمل الصالح، فلو أن الأمة آمنت واتقت: لفتح الله ﷻ عليها البركات من السماء والأرض، ولكن الناس في غفلة وفي أمن من مكر الله تبارك وتعالى.

فتجد الناس مقيمين على المعاصي والذنوب، ثم يقولون بعد ذلك: من أين أُوتينا؟

فالله ﷻ بيَّن أن سبب ما فيه الأمم من المصائب والبلايا إنما هو من الأمن من مكر الله تبارك وتعالى.

وكذلك من الخطأ في تشخيص الداء والدواء، الأمة تدور في حلقة مفرغة، تجد هذا يريد أن يُصلح الأمة بطريقة ما، وهذا بطريقة ما، وهذا بطريقة ما، يعالجون العَرَض، الأمر الظاهر، ولا يعالجون أساس المرض.

وأساس المرض بيَّنه الله تبارك وتعالى وهو البُعد عن تقوى الله وعن الإيمان: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]، فهذا قانون لا يتخلف على مدار هذا الخلق منذ أن خلق الله ﷻ آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن أراد أن يعرف اضطرار هذا القانون كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النافع الداء والدواء فلينظر إلى حال الأمم منذ أن خلق الله آدم وأسكنه الجنة، ماذا فعل الله ﷻ مع آدم لمَّا أكل من الشجرة؟ ومع إبليس لمَّا أبى السجود؟

وماذا فعل الله ﷻ مع الأمم المكذبة لرسلها؟

ماذا فعل الله ﷻ مع هؤلاء؟ وكل ذلك بسبب غفلتهم عن هذا القانون، أن سُنة الله ﷻ لا تتخلف.

فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، هل يوصف الله ﷻ بالمكر؟

نقول: نعم يوصف الله تبارك وتعالى بالمكر، كما يوصف بغيره من الصفات كالسمع والبصر والكلام وغير ذلك.

ولكن هذه الصفة وهي صفة المكر، وكذلك صفة الاستهزاء، وكذلك صفة الخداع: فهذه وصف الله ﷻ بها نفسه مقيِّدًا إياها، يعني هذه الصفات لا يوصف الله ﷻ بها هكذا مطلقة دون أن تُقيَّد، ولكن الله ﷻ يمكر بمن مكر بالمؤمنين، ويستهزئ

بمن استهزئ بالمؤمنين وبدينه وبرسوله، ويخادِع من يحاول أن يخادع في دين الله تبارك وتعالى.

قال الله ﷻ: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

قال: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

فهذه الصفات تُذكر ولكن بلا إطلاق، وتُذكر مقيدة، وتُذكر على سبيل المقابلة.

لأن هذه الصفة ليست صفة مدح بإطلاق، ولكن هي صفة كمال من جهة وصفة ذم من جهة أخرى.

والله ﷻ لا يوصف بالخيانة مطلقًا، لأن الخيانة لا كمال فيها من أي وجه كان، حتى في صفات المؤمن، قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **«أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تَخُن مَن خانك»**، فلو كان فيها وجه مدح لقال: وخُن من خانك.

كذلك مما يدل على معنى هذه الآية: أن الإنسان ينبغي عليه ألا يأمن مكر الله ﷻ:

قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»**.

العبد مقيم على معصيته ومع ذلك يعطيه الله تبارك وتعالى، فإذا رأيت ذلك فاعلم أن هذا استدراج من الله ﷻ، وهذا صححه الألباني.

وقال الحسن: من وسَّع الله عليه فلم يرى أنه يُمكَر به، فلا رأي له.

من وسَّع الله عليه في رزق أو غير ذلك فلم يرى أنه يُمكَر به، كيف يُمكر به؟ لأن الله يوسِّع عليه ليرى هل يشكر أم يكفر؟

هل يشكر العبد بفعل الطاعات، بشكر ربه بقلبه ولسانه وجوارحه، ويكفر بإسداء هذه النعمة وبإسنادها لغير الله تبارك وتعالى.

فالذي يرى في نفسه أن الله يوسِّع عليه، ثم لا يرى بعد ذلك أنه لا يُمكَر به، قال: هذا لا رأي له، أي لا عقل له.

وذكر ابن كثير في تفسيره الأثر الإلهي: أن بعض الناس قد يقول: إلهي كم أعصيك ولا تعاقبني؟ فيقول الله ﷻ له: وكم أعاقبك وأنت لا تدري.

بعض الناس يقيم على المعصية، ويظن أن الله ﷻ لا يعاقبه بسبب الإقامة على هذه المعصية، لا.

ليس شرطًا أن تكون العقوبة ظاهرة، قد تكون العقوبة في سلب الإيمان وفي نقصان الإيمان، وهي عقوبة أعظم من الابتلاء في الجسد والمال والأهل.

فنسأل الله أن يسلِّمنا من ذلك.

(المتن)

وقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾.

(الشرح)

وهذه في سورة الحجر، وهذه فيها تحريم القنوط من رحمة الله ﷻ، لأن الله ﷻ بيَّن أن القنوط من رحمته من صفة الضالين، قال: ﴿إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾، وبمفهوم المخالفة: أن المهتدين لا يقنطون من رحمة الله، فهم دائمًا يعلمون أن فَرَجَ الله قريب.

ولذلك يعجب ربنا تبارك وتعالى من قنوط عباده وقُرب غِيَرِه.

ما المقصود بالغِيَر؟ أي تغير الحال، الناس يقنطون من رحمة الله، وفَرَج الله ﷻ وتغير الحال قريب، ولكن على الناس أن يصبروا، وأن يلجؤوا إلى الله ﷻ، وأن يُحسِنوا الظن بربهم تبارك وتعالى.

قال: وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾.

(المتن)

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكبائر، فقال: «**الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**».

(الشرح)

الشاهد: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لـمَّا سُئل عن الكبائر، والكبيرة مضى حدها، وهي كل ذنب ختمه الشرع بنار أو لعنة أو غضب أو عذابٍ أو نفي إيمان، أو رتَّب عليه حدًا، أو صرَّح أنها من الكبيرة، فهذا حد الكبيرة.

فقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لـمَّا سُئل عن الكبائر: ذكر منها اليأس من روح الله، هذا دليل على تحريم اليأس من روح الله.

فسُئل عن الكبائر، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**الشرك بالله**»: وهذا أعظم الكبائر، «**واليأس من روح الله**»: أي أن يذهب الرجاء من قلب العبد، «**والأمن من مكر الله**»، يعني أن يذهب الخوف من قلب العبد.

فعلى المؤمن أن يجمع دائمًا بين الخوف والرجاء، يغلِّب جانب الرجاء حينًا في مرضه أو قبل موته، يُحسن ظنه بربه تبارك وتعالى، يُغلب جانب الخوف حينًا وذلك حين همه بمعصية أو إقباله على ما يُغضب الله تبارك وتعالى.

المهم أن يسير دائمًا بين الخوف والرجاء، ورأسه في ذلك: محبة الله تبارك وتعالى.

(المتن)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، رواه عبد الرزاق.

(الشرح)

وهذا الحديث كالذي قبله، ولكن فيه فائدة: وهي قول ابن مسعود رضي الله عنه: والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله.

فالقنوط هو اليأس، ولكن هل هناك فرق بين رحمة الله وروح الله؟

نعم، ذكر بعض شراح هذا الكتاب فرقًا بين رحمة الله وروح الله، وهو الشيخ صالح آل الشيخ، قال:

الرحمة أوسع من الروح، فالرحمة تشمل جلب النِّعم ودفع النِّقم.

أما الروح فللخلاص من المصائب والنِّقم، قال: فهو من عطف الخاص على العام.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

(الشرح)

بقي كلام نفيس للشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أسباب الأمن مكر الله:

فقال: أن سبب الأمن مكر الله أمران، ما الذي يؤدي بالمرء إلى أن يأمن مكر الله عَزَّ وَجَلَّ؟

الأمر الأول: أن يُعرِض العبد عن دين الله، وأن يغفل عن معرفة ربه، إنسان لا يتعلم دين الله عَزَّ وَجَلَّ، يُعرض عن دين الله ولا يتعلم دين ربه تبارك وتعالى، وما له من الحقوق فلا يزال معرضًا منهمكًا في المحرمات، حتى يقع في الأمن من مكر الله.

يعني حتى يذهب الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ من قلبه.

والأمر الثاني: أن يكون عابدًا جاهلًا معجبًا بنفسه، أن يكون المرء عابدًا، ولكنه جاهل معجَب بنفسه، مغرور بعمله، فيرى أنه في أعلى المقامات، فيضل ويأمن مكر الله.

وأما سبب القنوط من رحمة الله، لماذا يقنط العبد من رحمة ربه تبارك وتعالى؟

فهما أمران كذلك:

الأمر الأول: أن يُسرِف العبد على نفسه، وأن يتجرأ على المعصية ويقيم عليها، فإذا طال به الأمد يعني في ملابسة المعاصي انقطع طمعه من رحمة الله، يظن أن الله ﷻ لا يغفر له، لأنه يرى نفسه مقيمًا على أسبابٍ تمنع الرحمة، وبالتالي يقنط من رحمة الله.

والأمر الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من جرائم، الإنسان يفعل معصية ويشتد خوفه جدًا من ربه تبارك وتعالى.

يقابل ذلك أن يضعُف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، يعني يغلِّب جانب الخوف جدًا، حتى يقضي على جانب الرجاء، ويظن أن الله لا يغفر له.

(المتن)

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله.

(الشرح)

والصبر من المقامات العظيمة والعبادات الجليلة التي تكون في القلب وفي اللسان وفي الجوارح.

والصبر حقيقة العبودية، وهي لا تثبت إلا به، عبادة الله ﷻ لا تثبت إلا بالصبر، لماذا؟

لأن العبادة أركانها ثلاثة:

أمر شرعي، ونهي شرعي، وابتلاء قدري.

أمر شرعي: فهو صبر على الطاعة.

ونهي شرعي: فهو صبر عن المعصية.

وابتلاء قدري: فهو صبر على أقدار الله.

فكل هذه الأمور الثلاثة تقابَل بالصبر:

أما الأمر: فيقابل بالصبر على الطاعة، الإنسان يصبر على أداء الفرائض.

وأما النهي: فيصبر عن المعصية ولا يواقعها.

وأما الابتلاء: فيصبر على أقدار الله ﷻ، لأنه يعلم أن الله لا يُقدِّر إلا كل خير لعبده.

والصبر في اللغة: الحبس.

وأما الصبر الشرعي: فهو كما ذكره ابن القيم في المدارج: حبس اللسان عن التشكّي، وحبس القلب عن التسخط، وحبس الجوارح عن إظهار السُخط بشق ولطم ونحوه.

حبس اللسان عن التشكي: أي عن الشكاية فلا يشكو ربه تبارك وتعالى بلسانه.

وحبس القلب عن التسخط، وحبس الجوارح عن إظهار السُخط بشق ولطم ونحوه.

وقد ورد في فضل الصبر وجزاء الصابرين آيات وأحاديث كثيرة، ويكفي أن الصبر كما يقول الإمام أحمد ذُكر في القرآن في أكثر من تسعين موضعًا، ويكفي فيه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما أُعطي أحد عطاءً خيرًا ولا أوسع من الصبر»**، فهذا فضل وعطاءٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ.

وجاء عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال: هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لماذا؟

لأن مَن لا صبر له على طاعة ولا على مصيبة ولا عن معصية هذا يفوته إيمان كثير.

لماذا خص المصنف هذا الباب بالصبر على أقدار الله؟ قال: باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله.

وذلك كما قال الشراح: لأن الصبر على المصائب قليل، أهله قليلون، ولذلك قد تجد الرجل من أهل العبادة والزهد أو العلم أو غير ذلك: فإذا أصابته مصيبة جزع، فلما كان الأمر كذلك أفرده المصنف بهذا الباب، لبيان أنه من كمال التوحيد الواجب.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

(الشرح)

وقبلها قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [التغابن: ١١]، أي إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته وحكمته.

فالله ﷻ لا يقدِّر إلا لحكمة وإلا لغاية، وأحكام الله معللة كما هو معروف، فالمؤمن إذا علم أن الله ﷻ لا يقدِّر له إلا خير، إذا علم أولًا أن هذه المصيبة من قضاء الله وقدره، وعلم ثانيًا أن الله لا يقدِّر له إلا كل خير فإنه يطمئن.

ولذلك ذكر في تفسير هذه الآية قال:

(المتن)

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلِّم.

(الشرح)

يعلم أنها من عند الله، ويعلم أن الله لا يقدِّر له إلا كل خير، فيرضى ويُسلِّم، وهذا من لازم الإيمان بالقضاء والقدر.

فالذي يؤمن بالقضاء والقدر على وجهه الصحيح لا بد أن يطمئن وأن يسلِّم لِمَا قدَّره الله تبارك وتعالى في هذا الكون، فالله ﷻ لا يُقدِّر للعبد إلا كل خير، وإن عجز عن إدراك هذه الحكمة.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث صهيب: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**.

وجاء في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المؤمن لا يزال البلاء ينزل به حتى يمشي على الأرض وليست عنده خطيئة، فهذا من تقدير الله ﷻ.

ولكن كيف يُحصِّل المرء هذا الثواب؟

بالصبر على أقدار الله تبارك وتعالى.

(المتن)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»**.

(الشرح)

وسبق بيان معنى الطعن في النسب والنياحة على الميت، وبقي بيان قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اثنتان في الناس هما بهم كُفر»: يعني هاتان الخصلتان من خصال الجاهلية التي قلَّ ما يسلم منهما إلا مَن سلَّمه الله ﷻ.

وهنا نقطة هامة: وهي قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هما بهم كُفر»، وهذا التركيب في معهود استعمال الشرع ولسان السلف يُراد به الكفر الأصغر، هذا التركيب يراد به الكفر الأصغر.

كما جاء في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]، جاء عن ابن عباس وغيره: أنه قال فيمن يحكم بغير ما أنزل الله: قال: هي به كُفر، وليس الكفر الذي تذهبون إليه.

وهذا يرد عليه على من يكفِّرون بمجرد الحكم بغير ما أنزل الله دون استحلال أو تفضيل أو تجويز ذلك أو غير ذلك، فيجعلون ذلك قاعدة عامة، يأخذون بظواهر النصوص وإطلاقها دون الرجوع إلى تفسير السلف وإلى معهود استعمال الشرع، وهذا منهم حكم بغير ما أنزل الله.

(المتن)

ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

(الشرح)

ليس منا: وهذا من نصوص الوعيد التي كان السلف يكرهون تأويلها، ليس جهلًا منهم بمعانيها، ولكن لأن إمرارها كما جاءت دون التعرض لتفسيرها يكون أبلغ في الزجر.

وليس المراد منها: الخروج من الإيمان، ولكن المراد نفي كمال الإيمان الواجب.

يعني من وقع في هذه الخصال فقد نقص إيمانه الواجب واستحق الذنب.

قال: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»:

هذه الثلاثة مما تنافي الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى:

فضرب الخدود معروف.

وشق الجيوب: أي شق الثياب وتمزيقها.

والجيب هو موضع الرأس من الثياب، هذا يسمى بالجيب.

ودعا بدعوى الجاهلية: أي دعا بالويل والثبور والندب، وغير ذلك.

وقيل: دعوى الجاهلية: يعني العصبية للقبائل والعلماء والمشايخ والأعراف والتقاليد بما ينافي ويخالف شرع الله تبارك وتعالى.

الشاهد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس منا»: فهذا فيه تحريم هذه الأمور.

(المتن)

وعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة».

(الشرح)

«إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا»، فإذا علم المرء ذلك فإنه ينبغي عليه أن يصبر، وأن يعلم أن الله ﷻ لا يقدِّر له إلا كل خير.

ولذلك جاء عن خالد بن الوليد أو عمرو بن العاصي رضي الله عنهما أنه تزوج امرأة، فكانت لا تمرض قط، فطلقها، فلما سُئل عن ذلك؟ فقال: تأتي يوم القيامة بكامل ذنوبها!، وهو زوجها، فلعل بعض هذه الذنوب تعود عليه، فلما كان يخشى ذلك طلقها.

فالإنسان لا يفرح أن الله دائمًا يصح جسده، أو أن الله ﷻ دائمًا يُكثر عليه المال، أو كذا أو كذا، لأن الحسن البصري قال: لعل هذا يكون استدراجًا ومكرًا من الله ﷻ بهذا العبد.

وإذا عجل الله ﷻ له العقوبة في الدنيا فإن عليه أن يصبر، وأن يعلم أن هذا إما من باب تكفير السيئات أو رفع الدرجات.

قال: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه»، أي أمسك عنه العقوبة، فلا يظنن إنسان أمسك الله ﷻ عنه العقوبة أن الله راضٍ عنه.

لأن بعض الناس يقول: الحمد لله ربنا راض عنِّي، كيف علمت أنه راضٍ عنك؟ الصحة تمام، والمال تمام، والتجارة تمام، وكل شيء تمام.

لعل هذا يكون استدراجًا من الله تبارك وتعالى.

قال: «حتى يوافى به يوم القيامة»، يعني حتى يجيء هذا العبد يوم القيامة مستوفيًا لذنوبه، فيستوفي ما استحقه من العذاب عياذًا بالله.

بعض الناس قد يُشكِل فيقول: هذا كافر بالله العظيم، ومع ذلك في نعيم مقيم، دُول الكفر عندهم المال والسلطان والجاه وغير ذلك:

نقول: إنما أعطاه الله ﷻ ذلك ليستوفي منهم العذاب أو ليوقِع عليهم العذاب كاملًا يوم القيامة، بل إن الكافر كما جاء في الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا فعل خصلة من خصال الخير فإنه يُوفَّى أو يُعجَّل له الجزاء في الدنيا، ولا يُدَّخر إلى الآخرة.

(المتن)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء»، أو: «إن عُظم الجزاء مع عُظم البلاء».

(الشرح)

ضبطوها هكذا وهكذا.

(المتن)

«وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضي، ومن سخط فله السخط»، حسنه الترمذي.

(الشرح)

فابتلاء الله ﷻ للعباد من علامات محبة الله ﷻ، ولكن بشرط أن يصبروا على هذا البلاء، ولذلك كان أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى المرء على قدر دينه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

(الشرح)

يعني تفسير علقمة، يعني الصبر على أقدار الله من الإيمان بالله.

(المتن)

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

(الشرح)

وهو أن يُعجِّل عقوبته في الدنيا.

(المتن)

السادسة: إرادة الله به الشر.

(الشرح)

وهو أن يُمسِك عنه بذنبه.

(المتن)

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضي بالبلاء.

(الشرح)

بعض الإخوة يقول: هل يدعو المرء على نفسه بالبلاء ليُمحَّص من الذنوب؟

أقول:

لا، وقد ورد النهي عنه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما دخل على رجل في مرضه، صار كالعصفور أو كالفرخ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله، «**بم كنت تدعو؟**»، يعني اشتد عليه المرض والبلاء جدًا حتى كاد أن يهلك، فسأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بم كنت تدعو؟**»، فبيَّن أنه كان يدعو ربه تبارك وتعالى أنه إن كان معاقبه أن يُعجِّل له البلاء والعقوبة في الدنيا، فنهاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

ولكن سل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر لك وأن يرحمك وأن يعفو عنك، فالله عَزَّ وَجَلَّ من أسمائه الغفور، الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العفو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن الإنسان لا يدعو ربه تبارك وتعالى أن يعجِّل العقوبة له في الدنيا.

فالعقوبة بيد الله، والرحمة والمغفرة بيد الله، فلماذا يدعو المرء أن يعجِّل الله عَزَّ وَجَلَّ عقوبته في الدنيا ولا يدعو برحمة الله عَزَّ وَجَلَّ؟

الباب الخامس والثلاثون من أبواب كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، لمؤلفه شيخ الإسلام: الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

(المتن)

باب ما جاء في الرياء

(الشرح)

أي ما جاء فيه من النهي والتحذير والوعيد، وبيان أنه من الشرك الأصغر ما لم يطغى على عمل المرء كحال المنافقين.

فالرياء كما سيأتي نوعان:

إما أن يكون رياءً في أصل الإيمان، يعني أن يُبطن المرء الكفر ويُظهر الإسلام كحال المنافقين، لا يعبد الله ﷻ إلا ليراه الناس، فهذا شرك أكبر ينافي أصل التوحيد، كما كان المنافقون على عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم كانوا يصلون ويصومون ويفعلون العبادات أمام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك لم يكونوا مسلمين.

فرياؤهم كان رياءً في أصل العمل.

والنوع الثاني: وهو ما يقدح في كمال الإيمان الواجب، وهو الذي يتعلق ببعض أعمال العبد التي يظهرها أحيانًا ليحمده الناس عليها، وهذا شرك أصغر.

وهذا النوع الثاني هو المعهود في خطاب الشرع إذا أُطلق.

أي الرياء الذي يُقصد به الشرك الأصغر هذا هو المعهود في خطاب الشرع، في الآيات والأحاديث التي ورد فيها ذِكر الرياء فالمقصود بها النوع الثاني.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاء بهذا الباب: لبيان أن شرط قبول العمل عند الله ﷻ: أن يكون خالصًا من الشرك والرياء، فالله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا لوجهه، متابعًا فيه المرءُ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأحد ركني قبول العمل: أن يكون المرء فيه مخلصًا لله ﷻ، فجاء بهذا الباب ليبين لنا أهمية الإخلاص، وأن الرياء والتسميع مما ينافي التوحيد، ومن ثَمَّ يجب على المرء أن يحذره.

والرياء مصدر راءى يرائي مراءاة ورياء، ومعناه كما قال الحافظ ابن حجر: إظهار العبد عبادته لقصد رؤية الناس لها ليحمدوه عليها.

وقد جاء في الشرع ذم الرياء والتسميع، فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«من راءى راءى الله به، ومن سمَّع سمَّع الله به»**.

ولكن هناك فرق بين الرياء والتسميع:

فالرياء يكون فيما يُرى من العمل: كالصلاة والصدقة وغير ذلك من الأعمال الظاهرة التي يراها الناس بأعينهم.

وأما التسميع: فلِما يُسمع من العمل: كقراءة القرآن والذكر وغير ذلك.

وهذه الترجمة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب: **باب ما جاء في الرياء**، وكذلك الترجمة التي بعدها، وهي قوله: **باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا**.

هذه الترجمة والتي بعدها في الشرك وفي أن من أنواع الشرك أن يبتغي المرء حمد الناس أو أن يبتغي المرء شيئًا من الدنيا في مقابل هذه الأعمال الصالحة، وهذا شرك في النية.

إذًا لماذا جاء المصنف بهذين البابين؟

للكلام على نوع من الشرك وهو الشرك في النية، وهو البحر الذي لا ساحل له كما قال العلماء، وقلَّ مَن ينجو منه.

فمن أراد بعمله غير وجه الله تبارك وتعالى أو نوى شيئًا غير التقرب لله ﷻ، وطلب الجزاء من هذا الذي ابتغى حمده أو ذكره: فهذا قد أشرك في إرادته ونيته، والإخلاص ضد ذلك:

أن يخلص المرء لربه تبارك وتعالى في أقواله وأفعاله وإراداته ونيته، وهذا الكلام السابق قاله ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد.

قال: **باب ما جاء في الرياء.**

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

(الشرح)

هذه الآية في آخر سورة الكهف دائمًا تُذكر عند الكلام عن الإخلاص والمتابعة.

يقول الله ﷻ في هذه الآية: ﴿ قُلْ ﴾، يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾، فوْصفُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبشرية يتضمن إبطال مُلكه لأي شيء من أمور الربوبية أو الألوهية.

وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبشرية يتضمن إبطال أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالكًا لأي شيء من أمور الربوبية من التصرف والضر والتدبير وغير ذلك، وكذلك من صفات الألوهية أي من صرف العبادات له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إنما أنا بشر مثلكم، لا شيء لي في ربوبية ولا ألوهية، فمن هو دون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب أولى.

والوصف بالبشرية يبين أنه لا قيمة من حرص العبد على أن يلاحظ الناسُ عبادته، هذا لا قيمة له، لأن الذي يجزي على ذلك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾، وهذا الوحي الذي جاء به جميع الأنبياء: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، يُعبد باللسان وبالقلب وبالجوارح، بإخلاص كل هذه الأمور له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وحقيقة الألوهية: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، حقيقة هذه الألوهية أو الإلهية: ألا يُعبد إلا الله تبارك وتعالى، وألا يقع في القلب غير إرادة الله ﷻ بهذه العبادة، فالإنسان دائمًا يراقب قلبه في عبادته وفي إخلاص العبادة لله ﷻ.

قال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: وهذا فيه أن كون العمل صالحاً شرط قبول مع الإخلاص، قال: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: أي صوابًا موافقًا لسُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: لا يبتغي غير وجه الله ﷻ في هذا العمل، كما جاء عن الفضيل وغيره في تفسير هذه الآية.

والإخلاص لا يثبت للعبد إلا بنفيه الرياء عن قلبه، ومَن كان مخلصًا لله ﷻ عرف حقيقة الرياء، كلما كان العبد أكثر إخلاصًا لله ﷻ عرف الرياء، ويستطيع أن يقف عليه وأن يجدد نيته مرة أخرى، وأن يُخلص عبادته لله ﷻ.

ولذلك قال الشافعي وسهل بن عبد الله التستري رحمهما الله: لا يعرف الرياء إلا المخلصون.

ليس معنى ذلك أنهم يراءون، ولكن لا يقف على حقيقته وعلى إخراجه من القلب إلا المخلصون.

وقال عبد الله بن عون: ذكر الناس داء، وذكر الله دواء.

ذكر الناس داء، ذكر الناس مرض، الإنسان الذي يذكر الناس في كل أعماله يبتغي به حمد الناس وثناء الناس عليه، فهذا داء، وهو من أعظم ما يصيب القلوب عياذًا بالله، ومن أعظم ما يُمرِض القلوب، يكفي أنه قد يصير يومًا ما كالمنافقين، ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وأما ذكر الله ﷻ فهو الدواء، الذي يخلص لله ﷻ العبادة وينظر إلى الله ﷻ بقلبه في كل أعماله فهذا الذي هو صاحب القلب السليم، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من هؤلاء.

(المتن)

قال: وعن أبي هريرة مرفوعًا: **«قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**، رواه مسلم.

(الشرح)

يقول النبي ﷺ فيما يخبر به عن ربه تبارك وتعالى فيما يسمى بالحديث القدسي، أو الحديث الإلهي: **«قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك»**، ولـمَّا كان الله ﷻ أغنى الشركاء عن الشرك، قال: **«من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري»**، وهذه هي صفة الرياء: أن يعمل المرء عملًا يُشرك في نيته غير الله تبارك وتعالى، قال: **«تركته وشركه»**، وهذا فيه غِنى الله ﷻ التام.

فالله ﷻ لا يقبل من العمل إلا إذا كان خالصًا صوابًا، فكل عمل رآى فيه العبدُ رُدَّ على صاحبه.

ومن سفه العبد أن يُنعم سيده عليه ثم هو بعد ذلك يصرف الشكر لغير سيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا من السفه.

يعني لو تصورنا هذا في عبيد الدنيا لقلنا إن هذا من السفه، سيدك هو الذي يُطعِمك، وهو الذي يراعيك، وهو الذي يمن عليك بالعطاء وغير ذلك، ثم بعد ذلك تصرف الشكر لغيره؟ فهذا من السفه.

ولله المثل الأعلى، فكذلك العبد لو نظر في حاله مع الله ﷻ وفي النِّعم التي أنعم الله ﷻ بها عليه في مأكل ومشرب وصحة، وفيما هو أعلى من ذلك من إسلام وتوحيد ومتابعة للنبي ﷺ: فهذا العبد لا ينبغي له أن يصرف العبادة إلا لله، وما

ينبغي له أن يرائي الناس، فإذا راءى الناس وجعل هدفه أن يبتغي بذلك مرضاة الناس: فلا شك أن هذا من السفه، وقد جاء في الحديث العظيم حديث يحيى بن زكريا عليه السلام : إنَّ اللهَ أوحَى إلى يحيَى بنِ زكريَّا بخمسِ كلماتٍ أن يعملَ بهنَّ ويأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بهنَّ..... أولاهنَّ لا تُشرِكوا باللهِ شيئًا فإنَّ مَثلَ من أشرك باللهِ كمثلِ رجلٍ اشترَى عبدًا من خالصِ مالِه بذهبٍ أو ورِقٍ ثمَّ أسكنه دارًا فقال اعملْ وارفعْ إليَّ فجعل يعملُ ويرفعُ إلى غيرِ سيِّدِه فأيُّكم يرضَى أن يكونَ عبدُه كذلك فإنَّ اللهَ خلقكم ورزقكم فلا تُشرِكوا به شيئًا وإذا قمتُم إلى الصَّلاةِ فلا تلتفتوا فإنَّ اللهَ يُقبِلُ بوجهِه إلى عبدِه ما لم يلتفتْ."

وهذا الحديث فيه صفة الترك لله ﷻ، وهي من صفات الأفعال، قال الله ﷻ: «تركته وشركه»، يتركه الله ﷻ يهلك في أي وادٍ هلك، لا يبالي به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولا يقبل منه هذا العمل.

(المتن)

وعن أبي سعيد مرفوعًا.

(الشرح)

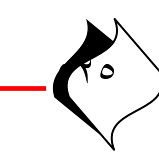
أي من قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزيّن صلاته، لما يرى من نظر رجل»، رواه أحمد.

(الشرح)

وهذا الحديث حسّنه البوصيري في المصباح، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب.



يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أخبركم؟»: وهذا خرج منه مخرج التشويق ولفت الانتباه.

قال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي»: وهذا فيه رحمة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفقته على هذه الأمة.

«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «الشرك الخفي»، إنما خاف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرياء على أصحابه وأمته أكثر من خوفه من المسيح الدجال: لخفائه ولأن التخلص منه شاق.

التخلص من الرياء صعب جدًا، ولذلك المرء قد يجلس في هذا المجلس ولا غرض له إلا أن يبتغي مرضاة الله ﷻ، ثم هو ما يلبث أن تتحول نيته.

يقول بعض السلف: إني لأجلس في مجلسٍ بنية ثم تتحول نيتي إلى نية أخرى، ثم إلى نية أخرى، وهكذا، عياذًا بالله.

فالشيطان له مسالك كثيرة، والنفس لها مسالك كثيرة كذلك عياذًا بالله، فالإنسان عليه دائمًا أن يراجع نيته، وأن يراجع قلبه.

ولذلك قال بعض السلف: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص.

فأكثر ما كان السلف يعتنون به مجاهدة النفس على إخلاص العمل لله تبارك وتعالى.

والسبب الثاني لخوف النبي من الرياء على أمته بهذه الصورة أن المسيح الدجال لو خرج والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجود، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فأنا حجيجه»، وأما هذا الشرك الذي يدُب في القلوب ويسري فيها سريان النار في الهشيم دون أن يشعر به المرء عياذًا بالله: فهذا لا يطَّلع عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك كان خوف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشرك الخفي الذي هو الرياء أعظم من خوفه من المسيح الدجال، غاية المسيح الدجال: أنك لو قرأت العشر الآيات

الأُوَل من سورة الكهف، أو نأيت عنه فإنه لن يصيبك بمكروه، كما أخبر النبي ﷺ، وأما هذا الأمر فبابه خطير جدًا.

والمسيح الدجال موصوف بوصفين، يستطيع المرء بهذين الوصفين أن يتعرَّف عليه، نسأل الله ﷻ أن يسلِّمنا منه:

- أولًا: أنه أعور العين اليمنى، كما قال النبي ﷺ: **«وإن ربكم ليس بأعور»**، وهذا الحديث عُمدة عند أهل السُّنَّة والجماعة في إثبات العينين لله ﷻ، فالعَوَر لا يكون إلا لصاحب العينين، فالله ﷻ له عينان تليقان به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.
- وكذلك أنه دجَّال، وهي مبالغة في وصفه، فهي صفة لازمة له، وهو الكذب والدجل والتمويه على الناس.

والذي ينظر في الأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ يجد هذا: أن حاله دائمًا الكذب والدجل والتمويه على الناس.

قال: **«الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزيّن صلاته، لما يرى من نظر رجل»**.

وهذا فيه أن الشرك نوعان:

قول النبي ﷺ: **«الشرك الخفي»**: هذا فيه أن الشرك نوعان:

شرك خفي، وشرك جلي ظاهر:

فالشرك منه ما هو خفي، ومنه ما هو جلي، وكل قسم من هذين القسمين قسمان:

شرك أكبر، وشرك أصغر.

- فالجلي من الأصغر: يعني الشرك الأصغر في الأعمال الجلية الظاهرة: كالحلف بغير الله، كما قال النبي ﷺ: **«من حلف بغير الله فقد أشرك»**، يعني أشرك شركًا أصغر.

وكلُبس الحلقة: فهذا من الشرك الأصغر.

▪ والأكبر: كالسجود للصنم، وعبادة غير الله ﷻ، فهذا شرك أكبر.

والخفي: ما كان في القلب مما لا يعلمه إلا الله.

▪ والأكبر منه: كحال المنافقين الذين يراءون الناس عياذًا بالله، ولا يبتغون بذلك مرضاة الله ﷻ.

▪ والأصغر: كيسير الرياء كما هو في هذا الباب.

والشرك الخفي يسمى كذلك بشرك السرائر، قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، فهذا كذلك يسمى به الشرك الخفي.

وقول النبي ﷺ: «يقوم الرجل فيصلي».. الحديث: هذا من باب ضرب المثل.

وإلا فقد يكون التزيين في صدقة، قد يكون في حج، قد يكون في أمر بمعروف ونهي عن منكر، في سائر الأمور الظاهرة.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

(الشرح)

ماذا يقصد بهذا الأمر العظيم؟

الرياء، إذا دخل العمل الصالح.

وهذه المسألة فيها تفصيل ذكره الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو: هل إذا دخل الرياء في العمل الصالح يُرد كلية؟ هذا العمل الصالح يُرد كُلية أم ماذا؟

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

● إن كان رياءً محضًا، كحال المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا، إن كان رياءً محضًا، يعني في أصل الإيمان: فهذا لا يصدر من مؤمن في الصلاة والصيام خاصة.

يعني أن يبتغي المرء بعمله محمدة الناس، لا يبتغي في ذلك شيئًا من رضا الله ﷻ، فقال: هذا قلَّما يصدر من مؤمن في هاتين العبادتين.

فلا تجد إنسانًا يدخل المسجد أو يصلي من أجل محمدة الناس فقط، ولا يصوم النهار من أجل محمدة الناس فقط.

قال: وقد يصدر في صدقة وحج، بعض الناس يذهبون للحج حتى يقول الناس له: عمي الحاج ذهب وجاء، وقد تكون هذه هي النية.

وكذلك بعض الناس لا يتصدق إلا من أجل أن يقول الناس: إنه قد تصدق، فهذا القسم الأول: وهذا لا شك في بطلانه، أي بطلان هذا العمل، هذا العمل لا يُقبل، وهو مردود على صاحبه، وصاحبه مستحق للذم والعقوبة.

فهناك أمران:

الأمر الأول: أن العمل يُرد عليه.

والأمر الثاني: أنه يستحق الذم والعقوبة، لأن هذا النوع شرك بالله تبارك وتعالى.

● والقسم الثاني: إن كان العمل لله وشاركه الرياء، يعني هو دخل في الصلاة قال: الله أكبر، ويريد بذلك أن يصلي لله ﷻ، ثم شاركه الرياء، يعني دخل الرياء عليه:

فإن شاركه في أصله: فالنصوص على بطلانه، فمن صلى لله ومن أجل نظر الناس، في ابتداء النية صلى لله وصلى من أجل نظر الناس: فهذا لا شك في بطلانه، والنصوص تدل على ذلك.

قال الله ﷻ: «**من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري: تركته وشركه**».

وإن طرأ على عمله؛ فكبَّر وصلى لله تبارك وتعالى، ثم شعر بمن دخل المسجد، فحسَّن صلاته وزيَّنها: هذا طارئ على العمل، ولم يكن في أصل العمل وفي بداية العمل:

فإن دفعه فلا يضره بلا خلاف، بل هو مثاب على دفعه.

إن دفع هذا الرياء وأخلص العبادة لله تبارك وتعالى: فلا يضره ذلك ولا يؤثر في عبادته.

وإن استرسل مع هذا الرياء حتى انتهى من عبادته: فالصحيح عن السلف كما نقل الحافظ ابن حجر في الفتح: أنه يجازى على أصل نيته، يعني على هذا القدر الذي أخلص فيه لله تبارك وتعالى.

هنا مسألة كذلك مهمة وهي:

أن بعض الناس قد يعمل عملًا صالحًا من صدقة أو بر أو غير ذلك، ثم بعد أن ينتهي من ذلك يُثني الناس عليه خيرًا، فيفرح بذلك، هل هذا من الرياء؟

هذا ليس من الرياء، وإنما هذا من عاجل بُشرى الله تبارك وتعالى لهذا العبد، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أخلص المرء العبادة لله عَجَّلَ ثم أثنى الناس عليه خيرًا فسرَّه هذا الثناء فهذا لا يدخل في الرياء، لأنه لم يقصده فليس من هذا الباب.

(المتن)

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك.

(الشرح)

يعني لماذا يرُد الله عَزَّوَجَلَّ هذا العمل على صاحبه؟

(المتن)

وهو كمال الغنى.

(الشرح)

فالله ﷻ غني عن كل عملٍ يُشرِك العبدُ فيه أحدًا غير الله تبارك وتعالى، لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا، متابِعًا فيه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

الرابعة: أن من الأسباب، أنه تعالى خير الشركاء.

(الشرح)

يعني من أساب رد العمل.

(المتن)

الخامسة: خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسَّر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

(الشرح)

ولا شك أن ذِكر الرجل في هذه الأحاديث خرج مخرج الغالب، وإلا فإن المرأة تدخل في ذلك.

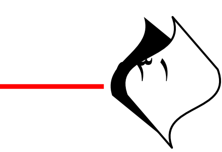
في الحالة الأخيرة وهي إذا طرأ الرياء على العمل وليس في أصله، يعني صلى لله، ثم بعد ذلك طرأ الرياء، والعبادة منفصلة الأجزاء تتبعَّض.

إنسان تصدَّق بدرهمين: الدرهم الأول أخلص لله ﷻ، وفي الدرهم الثاني راءى:

في البداية أراد أن يتصدق، وكانت النية لله ﷻ:

في الدرهم الأول: كان مخلصًا لله ﷻ، والدرهم الثاني: هذا مردود عليه ولا ثواب له فهذا في العبادة التي تتبعَّض وتتجزَّأ.

في الصلاة:



قال: الله أكبر، ودخل في الصلاة، وصلى لله ﷻ، ثم بعد ذلك طرأ عليه الرياء، فهل يجازَى على أصل نيته التي أخلص فيها لله ﷻ؟ أم أن العمل يُرد كذلك لأن العمل بُني على بعضه، أجزاؤه مترابطة؟

قلت لك: السلف على أنه يجازى على أصل نيته.

(المتن)

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا .

(الشرح)

الناظر لأول وهلة كما قال الشُرَّاح: يتصور أن هذه الترجمة تُشبه الترجمة التي قبلها، فالترجمة التي قبلها في الرياء، والترجمة هذه في إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

ولكن هناك فرق بين الترجمتين:

فالمرء في الباب السابق -وهذا كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: المرء في الباب السابق يعمل من أجل مدح الناس، يقوم الرجل في صلاته فيزين صلاته لِما يرى من نظر رجل فيعمل من أجل مدح الناس، ولا يريد بذلك النفع المادي، وإنما هو نفع معنوي، لا يريد نفعًا ماديًا، وإنما هو نفع معنوي.

وهذا الباب الذي معنا وهو قوله: من الشرك إرادة العبد بعمله الدنيا: لا يريد المراءاة بل يريد بعمله شيئًا من الدنيا، كمال ورُتبة عالية، كشهادة وغير ذلك:

يعني يعمل العمل الصالح لا يريد مراءاة الناس، وإنما يريد بذلك أن يبتغي أن يحصل على شيء من أمور الدنيا.

قال: كمن يؤذِّن، والأذان عبادة، كمن يؤذِّن ليأخذ راتب المؤذن.

ومن تعلَّم العلم وهو عبادة ليحصل على شهادة أو درجة علمية، يبتغي بذلك شيئًا من عَرَضِ الدنيا.

ومثاله كذلك: ما جاء في حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما الأعمال بالنيات»، «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها»، ولذلك لم يذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزاؤه لحقارته، قال: «فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فهذه الأعمال الصالحة التي يعملها المرء لا يعملها ابتغاء مدح الناس، وإنما من أجل أن يُحصِّل منصبًا من الدنيا، فأخلص نيتك وجدد نيتك لله تبارك وتعالى.

قال العلماء: وهذا أشد من الرياء، يعني هذا أشد من الباب الأول عياذًا بالله، لماذا؟

قالوا: لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من أعماله، المرائي قد يرائي في عمل دون عمل، قد يرائي ويرجع ويصحح ويُخلص لله ﷻ.

أما الذي لا يقصد العبادة إلا من أجل ذلك قد يكون هذا هو الأصل عنده في سائر أعماله عياذًا بالله.

ولذلك كان أخطر من النوع الأول.

هناك بعض الناس لا يحفظ القرآن إلا من أجل أن يكون إمامًا لهذا المسجد، لا يطلب العلم إلا من أجل أن يتصدر، أن يصلي بالناس، فهذا من باب ابتغاء شيء من أمور الدنيا، ولذلك أتى بهذا الباب مع الذي قبله.

وأما من جمع بين الحسنيين فلا شيء عليه، كمن صلى لله ﷻ ودعا في صلاته أن يوسّع الله عليه رزقه، وأن يبارك الله في أهله: فهذا لا شيء عليه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال: **باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا.**

ما إعراب كلمة الدنيا؟ الإرادة هنا مصدر عامل، لماذا هو عامل؟ لأنه مضاف، فهي من إضافة المصدر إلى فاعله، فصاحب الإرادة في هذه الترجمة: هو الإنسان.

ولو أردت أن تعرف هل المصدر هنا من إضافة المصدر إلى فاعله أم إلى مفعوله: فقدِّر مكانه أن والفعل، فمن الشرك أن يريد الإنسانُ، فالإنسان هو الفاعل، والدنيا مفعولٌ به.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

(الشرح)

يقول الله ﷻ في هذه الآية: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾: همه الأكبر الحياة الدنيا، يريد الخلود فيها وطول العُمر والصحة وغير ذلك.

﴿ وَزِينَتَهَا ﴾: من المال والبنين والأنعام وغير ذلك، ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾: أي نعطيهم ما يريدون، وهذا حال الكافر: فإن الله ﷻ يعطيه ما يريد في هذه الحياة الدنيا، حتى لو صنع شيئًا من المعروف فإنه يجازى به في هذه الحياة الدنيا، حتى إذا لقي الله ﷻ لم يكن له شيء عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذه الآية مذكورة فيمن أراد بعمله كله الحياة الدنيا، وهذا لا يكون إلا في المشرك الكافر، الذي يبتغي بكل أعماله الحياة الدنيا، هذا لا يكون إلا ممن أشرك شركًا أكبر، فحال هؤلاء أن الله ﷻ يوفِّ إليهم أعمالهم.

﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾: لأن الله ﷻ لا يظلم الناس شيئًا، أراد ذلك فأعطاه الله ﷻ، أما في الآخرة فليس له شيء.

ومثال ذلك: هذا الرجل الذي قاتل ليقال: مقاتل، وقرأ ليقال: قارئ، وأنفق ليقال: كريم أو منفق، لـمَّا أراد ذلك قال الله ﷻ: إنما أردت أن يقال كذا وقد قيل، وقول الناس بيد الله تبارك وتعالى، فالله ﷻ وفَّاه ما أراد في هذه الحياة الدنيا، وفي ذلك حديث عظيم رواه شُفَيٌّ الْأَصْبَحِيِّ :

أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَقَالَ مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا أَبُو هُرَيْرَةَ فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ: لَهُ أَنْشُدُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً- أي أي شهق ، حتى بلغ به لغشي من البكاء- فَمَكَثَ قَلِيلًا ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى ثُمَّ أَفَاقَ وَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ أَفْعَلُ لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَعَهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ يَقْتَتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي قَالَ بَلَى يَا رَبِّ قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ قَالَ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ قَالَ بَلَى يَا رَبِّ قَالَ فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ قَالَ كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ فِي مَاذَا قُتِلْتَ فَيَقُولُ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ

وَيَقُولُ اللَّهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

و قَالَ الْوَلِيدُ أَبُو عُثْمَانَ فَأَخْبَرَنِي عُقْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ أَنَّ شُفَيًّا هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا قَالَ أَبُو عُثْمَانَ وَحَدَّثَنِي الْعَلَاءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ أَنَّهُ كَانَ سَيَّافًا لِمُعَاوِيَةَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ قَدْ فُعِلَ بِهَؤُلَاءِ هَذَا فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنْ النَّاسِ ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ بُكَاءً شَدِيدًا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ هَالِكٌ وَقُلْنَا قَدْ جَاءَنَا هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةُ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }"

ولكن أما في الآخرة فليس له شيء.

وهذه الآية وإن خرجت مخرج الخبر فالمقصود بها النهي والزجر عن حال هؤلاء، وألا يكون حال المرء المسلم كحال هؤلاء.

(المتن)

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش».

(الشرح)

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: «تعس عبد الدينار»: يعني هلك وشقي، وسماه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدًا: لأن الدينار هو المقصود بعمله، ما عمل إلا من أجل المال ومن أجل الدينار.

فكل من توجه بقصده لغير الله تبارك وتعالى فقد جعل هذا العمل شريكًا لله ﷻ في عبوديته، سواءً توجه بذلك إلى شيء مادِّي، كجاه أو مال أو جمال، كما سيأتي في هذا الحديث، أو شيء معنوي.

قال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»**:

الدرهم معروف، والخميصة: ثوب معلَّم، وغالبًا يكون أسود، والخميلة كذلك نوع من أنواع الثياب.

فالذي يكون هذا حاله مع ديناره ومع خميصته، ومع خميلته: تراه يتذلل ويخضع لها، وتكون غايته.

هناك بالفعل بعض الناس ليس لها غاية إلا العمل وإلا الكسب و المال، يقال له: تعال صلِّ، يقول لك: العمل عبادة، وهو كذَّاب، لأن هذه الكلمة وإن كانت كلمة حق إن وجدت النية الصالحة فالمراد بها باطل، لأن عمله شغل قلبه فصار كالعبد له، وهذا ليس تكفيرًا له، فانتبه.

ولذلك شراح هذا الحديث يستدلون بهذا الحديث أن التعديد لا يراد به التكفير، وإنما هو من الشرك الأصغر.

فذكر النبي ﷺ نوعين من الناس، أرادا بعملهما الدنيا ولم يريدا وجه الله ﷻ:

أما الأول: فهو صاحب المال، وأما الثاني: فهو صاحب الجمال والهيئة.

ما معنى عبد الخميصة وعبد الخميلة؟

ليس له هَمٌّ إلا أن يتزين، وإلا أن يُجمِّل نفسه، فصار كالعبد لهذه الصورة وهذا الجمال.

وهذا تجده في بعض الناس، فبعض الناس قد لا يصلي إلا على كرسي، أو لا يصلي فيسجد مع الناس مثلًا ويركع لماذا؟ لأنه يخشى على ثيابه أن تتغير عن هيئتها، يخاف إن ركع أو سجد أن تتغير ملابسه، فإما أن يصلي على كرسي أو لا يصلي والعياذ بالله إلا عندما يذهب إلى بيته فيجمع عدة صلوات مع بعضهم البعض.

هذا يصدق عليه هذا الحديث، فالذي يكون همه المال أو همه الجمال مما يؤثره على مرضاة الله ﷻ فيكون بعد ذلك في رضاه وسخطه: فهذا دعا عليه النبي ﷺ.

قال: **«إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط»**: فلا يسخط إلا من أجل هذه الأمور المذكورة في هذا الحديث، ولا يرضى إلا من أجلها كذلك، لا يجعل رضاه وسخطه من أجل الله تبارك وتعالى.

ثم قال النبي ﷺ: **«تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»**.

تعس عرفناها، وانتكس يعني عاوده المرض مرة ثانية، وعاوده البلاء مرة ثانية، وهذا معنى الانتكاسة، وإذا شيك فلا انتقش: يعني إن أصابه الشوك في قدمه أو في جسمه: فلا يجد المنقاش الذي به يستخرج هذه الشوكة، وهذه الجمل الثلاث من النبي ﷺ وهي قوله: تعس عبد الدينار، وقوله: تعس وانتكس، وقوله: وإذا شيك فلا انتقش: إما أن يراد بها الخبر وبيان حال هذا الرجل، وإما أن يراد بها الدعاء من النبي ﷺ، أي أن النبي ﷺ يدعو على هذا الرجل.

وعلى كِلا الأمرين فالحال واحدة: لأنه لو خبر، فخبر النبي ﷺ صادق ينبغي أن يصدَّق، وإن كان دعاءً من النبي ﷺ فدعاء النبي ﷺ كذلك مستجاب.

ثم ذكر النبي ﷺ صنفًا آخر من الناس.

(المتن)

قال: **«طوبى لعبد آخذٌ بعنان فرسه في سبيل الله»**.

(الشرح)

وطوبى فُعلى من الطِيب، وهي اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعنى حالة طيبة لمن كانت صفته كذلك.

وقيل: إنها شجرة في الجنة كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طوبى: **«شجرة في الجنة، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»**.

ما حال هذا الرجل؟ آخذٌ بعنان فرسه في سبيل الله، أي لا يجاهد ابتغاء رضا الناس ولا نظر الناس.

(المتن)

«أشعثَ رأسه».

(الشرح)

لا يهتم بحاله، وهذا وصف لهذا العبد، فأشعث وصف.

(المتن)

«مغبرةٍ قدماه».

(الشرح)

عاد هنا الوصف لأصله، فكُسرت الكلمة، طوبى لعبد مُغبرةٍ قدماه، أما الأولى فهي ممنوعة من الصرف، فجُرت بالفتحة.

(المتن)

«إن كان في الحراسة كان في الحراسة».

(الشرح)

أي في حراسة الجيش.

(المتن)

«وإن كان في الساقة كان في الساقة».

(الشرح)

الساقة أي مؤخرة الجيش.

(المتن)

«إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

(الشرح)

فليست له وجاهة عند الناس وإن كان وجيهًا عند ربه تبارك وتعالى.

فهذا العبد المتروك في هذا الحديث صفته: أنه لا يبالي أين وُضع في أي عمل صالح، فليس له همٌّ إلا أن يرضي الله ﷻ، لا يطلب بعمله الصالح شيئًا من أمور الدنيا، يؤدي حق الله ﷻ أينما وُضع: إن كان في الحراسة أدى حق الله ﷻ، وابتغى بذلك مرضاة الله ﷻ.

إن كان في الساقة في مؤخرة الجيش أدى حق الله ﷻ وابتغى بذلك مرضاة الله ﷻ.

فهذا يدل على إخلاص هذا العبد، بخلاف الصنف الأول الذي كان عبدًا للدينار أو للخميصة أو للخميلة.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم: عبد الدينار والدرهم والخميصة.

(الشرح)

الشيخ هاهنا يريد أن يقول إن هذا ليس من الكفر الأكبر.

وذلك أن محبة هذه الأشياء زاحمت في قلبه محبة الله ومحبة أعمال الآخرة، فلما زاحمت محبة الله ﷻ سماه عبدًا لها.

(المتن)

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: **«تعس وانتكس»**.

السادسة: قوله: **«وإذا شيك فلا انتقش»**.

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

(الشرح)

فالمراد من هذين البابين: إخلاص العبادة لله ﷻ.

وعلى الإنسان أن يتفقد نيته بين الحين والآخر، وأن ينظر في عمله هل يبتغي بعمله مرضاة الله ﷻ أم يبتغي ثناء الناس وحمد الناس؟

فإن الذي ينفع ويضر ويجازي، والذي مدحه زين وذمه شين هو الله تبارك وتعالى وليس للناس شأن في ذلك.

أسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده المخلِصين المخلَصين، وأن يرزقنا متابعة نبيه الأمين ﷺ.

(المتن)

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله: فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

(الشرح)

قصد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة بيان وجوب طاعة العبد ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما أحلَّ وحرّم، فالعبد يجب عليه أن يطيع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما أحل وحرَّم، ولا يجوز له أن يتحاكم إلا إليه، ولا يجوز له أن يُحكِّم في الدين إلا ما شرعه الله ﷻ.

ما علاقة هذا بالدين والشرع؟

نقول: الأصل في الطاعة أنها عبادة، اختص الله ﷻ بها، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ثَمَّ من أطاع العلماء أو الأمراء في التحليل والتحريم فقد اتخذهم أربابًا وتوجَّه إليهم بالتأليه والخضوع والذُل.

وهذه المسألة لا بد فيها من تفصيل: لأن الخوارج أخذوا الآيات التي تتعلق بهذا الباب وأنزلوها على كل من أطاع أميرًا أو عالـمًا في قضاء أو في أمر أمر به مما يخالف شرع الله ﷻ، فحكموا على كل مَن كان هذا حاله بالكفر الأكبر، وأخرجوه من الملة.

قالوا: من تحاكم إلى هذه المحاكم التي تحكم في بعض القضايا بغير شرع الله ﷻ فهو كافر كُفرًا أكبر مخرجًا من الملة، سواءً كان راضيًا بذلك أو مضطرًا إلى ذلك، سواءً كان معتقدًا جواز ذلك أو عدم جوازه، أنزلوا الحكم على عموم المسلمين بلا تفصيل.

فوجب أن يكون هناك تفصيل في هذا الباب.

فهذه المسألة على قسمين: أعني مسألة طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرم أو تحريم ما أحل الله:

▪ أما القسم الأول: فهو الذي يطيع هؤلاء فيما خالفوا فيه الشرع، مع اعتقاد صحة ما أمروا به، يعني هو يعلم أنهم خالفوا الشرع بهذا الحكم، يطيعهم ويعتقد صحة كلامهم، أو مع اعتقاد تجويزه.

يعني يقول: هذا جائز وهذا جائز، حكَّمنا الشرع في هذه المسألة جائز، حكَّمنا خلاف الشرع في هذا المسألة كذلك جائز.

أو اعتقاد مساواته بالشرع، أو أن يجعله دينًا يتدين به، فهذا كله من الشرك الأكبر.

تجد إنساناً يدافع عن القوانين الوضعية ويقول: هذه القوانين هي التي تصلح في هذا الزمان، وهي مقدمَة على حكم الشريعة، وهو يعلم أنها تخالف الشريعة ويناضل عنها، ويقدِّمها على الشريعة، فهذا كفر أكبر.

وأما القسم الثاني: فهو من أطاعهم فيما خالفوا فيه مع عدم اعتقاد ذلك، يعني هو لا يعتقد صحة هذه القوانين، ولا جواز الاحتكام بهذه القوانين، ولا يساويها بالشرع، لا يعتقد أمرًا من هذه الأمور.

ومع ذلك احتكم إليها دون اضطرار، تحاكم بها مع علمه بأن هذا ذنب يحاسبه الله ﷻ ويستحق عليه العقاب والغضب، فهذا ليس شركًا أكبر، وإنما هو ذنب وكبيرة من الكبائر كسائر الكبائر.

يوضِّح هذه المسألة رجلان: رجل وقع في الزنا مع شعوره بالذنب، فهذا وقع في كبيرة، ورجل وقع في الزنا مع علمه بحرمته، ثم استحل ذلك أو جوَّزه: فهذا كافر بالله العظيم.

كذلك التحاكم إلى شرع الله ﷻ:

مَن تحاكم إلى شرع الله في مسألة مع اعتقاد ذنبه واستحقاقه للعقوبة: فهذا واقع في الكبيرة.

وهذا لا يختص بالحاكم وحده:

فلو أن رجلًا حكم بين ولدين عنده: ففضَّل هذا على هذا: مع علمه أن هذا خلاف الشرع: هل هذا يكفر؟

لا يكفر، وقع في الكبيرة.

متى يكفر؟ إن استحل ذلك واعتقد جواز ذلك مع مخالفته للشرع.

لماذا؟ لأن في المرة الأولى كان قلبه منطويًا على اعتقاد استحلال ذلك، أما في هذه المرة فقلبه منطوٍ على اعتقاد أن هذا لا يجوز، وإنما أقدم عليه لماذا؟ إما لشهوة وإما لشُبهة، يحب هذا الولد أكثر من ذاك.

القاضي أخذ مالًا من هذا المتهم فحكم له على خلاف الشرع على حساب الآخَر: فهذا لا يكفر، وإنما وقع في كبيرة من الكبائر.

ولا فرق في هذه المسألة بين مسألة واحدة وعدة مسائل، وهذه مسألة مهمة جدًا، لأن هؤلاء يقولون: هذا التفصيل في المسألة الواحدة:

رجل قضى لأحد أبنائه على حساب الآخَر، أو قاضٍ في قضية بخلاف الشرع لهوىً أو لشُبهة أو لشهوة.

وأما من جعل ذلك قانونًا عامًا عنده: فإنه يكفر، هكذا يقول الخوارج.

فيُرد عليهم كما ردَّ الشيخ الألباني في رسالته في التحذير من فتنة التكفير: يقال لهم:

ما نعلم ذنبًا يصير كفرًا بعدده أو بكمه، يعني هب أن رجلًا زنى مرة واحدة وهو يعلم حرمة الزنى، فما حكمه؟ وقع في كبيرة من الكبائر.

زنى مرتين، زنى ثلاث مرات: لا يفارق الزنى، هل نستطيع أن نحكم عليه بالكفر؟

لا نستطيع أن نحكم عليه بالكفر.

هذا الذي يأخذ الرِشوة كل يوم، وأخذ الرِشوة كبيرة من الكبائر، بل هو من الغلول، من أخذ أموال المسلمين بغير الحق، هل نستطيع أن نحكم عليه بالكفر؟

لا نستطيع أن نحكم عليه بالكفر، ولا نستطيع أن نحكم عليه بأنه مستحل استحلالًا قلبيًا، وإنما استحلَّ الأمر استحلالًا عمليًا، والاستحلال العملي لا يُخرج المرء من دائرة الإسلام إلى دائرة الكُفر.

ولذلك لو نظرت في تصنيف الأئمة المتقدمين في علم الاعتقاد ممن صنَّفوا الكُتب الكبار كابن بطة في الإبانة، أو الآجري في الشريعة لوجدتهم يذكرون مسألة الحكم بغير ما أنزل الله في الذنب الذي لا يُخرج صاحبه من الإسلام، هل كان هؤلاء مرجئة؟

افتح كتاب الإبانة لابن بطة، تجده عقد بابًا في الذنوب التي لا تُخرج صاحبها من الإسلام، أول مسألة ذكرها في هذا الباب: الحكم بغير ما أنزل الله.

إذًا هو في أصله كُفر أصغر، متى يصير كفرًا أكبر مخرجًا من الملة؟ إذا استحله كسائر الذنوب.

وكذلك هذه المسألة.

وأما مَن احتكم إلى غير شرع الله أو إلى محاكم تتحاكم لغير شرع الله لأنه لا سبيل لاستخلاص حقه إلا بذلك: فهذا لا بأس عليه، وهذا معذور، كما بيَّن العلماء، والإثم على من قضى لا إثم عليه هو .

قال: من أطاع العلماء والأمراء، وليس الأمر مقصورًا على العلماء والأمراء، ولكن يندرج فيه كل معظَّم من الخلق، كطاعة العبد لسيده، وسيده لا هو من العلماء ولا هو من الأمراء.

لماذا نص على العلماء والأمراء في هذا الباب؟

لأنهم أكثر المعظَّمين في خلاف أمر الله.

قال: **باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا.**

وذلك لقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فطاعة الله مستقلة، وطاعة الرسول ﷺ مستقلة، وأما طاعة أولى الأمر وهم العلماء والأمراء في هذه الآية فليست مستقلة، بل لا بد أن يُنظر في أمرهم ونهيهم إلى ما يوافق شرع الله ﷻ فيُفعل، وإلى ما يخالف شرع الله ﷻ فيُجتنب.

(المتن)

وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!

(الشرح)

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما على شُهرته لا يوجد له إسناد وصل إلينا، وإنما ذكره ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا النص في مجموعة من كُتبه، وكذلك ذكره ابن القيم في زاد المعاد.

وابن عباس في هذا الأثر يقول هذا الكلام: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء لمن عارض قوله بقول أبي بكر وعمر، وهما وزيرا رسول الله ﷺ، وهما مَن هما في الإسلام، ومع ذلك لمَّا عارض هذا المعارِض قول النبي ﷺ في أمره بالتمتع في العمرة، لما عارض هذا القول بأن أبا بكر وعمر يريان الإفراد قال ابن عباس هذا القول، فما بالنا بمن هو دون الشيخين؟

فلا يجوز لأي أحد كائنًا من كان أن يعارِض كلام الله ولا كلام رسوله ﷺ لقول أي أحد كائنًا مَن كان كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من استبانت له

سُنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يجوز له أن يدعها لقول أحدٍ كائناً من كان. ، وهذا الأثر فيه التحذير من التعصب لآراء الرجال.

بل التعصب قد يؤدِّي بالمرء إلى الكفر، الذي يتعصَّب لجماعته أو حزبه أو شيخه: هذا يترك الدليل الواضح الصريح لقول شيخه أو لقول جماعته، بل قد يطعن في آية أو يستهزئ بحديث صحيح عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما حمله على ذلك إلا التعصب لمن يُعظِّمهم عياذًا بالله.

بعض هؤلاء المتعصبة لو ذكرت له الدليل يقول لك: شيخي أعلم بالدليل منك، لو كان دليلًا لقاله، وهذا كلام قديم ذكره الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الاعتصام.

بعض الناس إذا ذُكر له الدليل ولم يكن عنده ما يخالف هذا الدليل يقول: لو كان دليلًا لعلمه شيخي ولقاله شيخي، وكأن شيخه قد جمع سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي ما جمعها أبو بكر ولا عمر ولا عثمان رضي الله عنهم ولا أحد من الخلق.

فليس أحد من الخلق جمع سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما من أحد إلا وقد غابت عنه سُنة، ولو كان من الملْصقين الملازمين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أبو بكر غابت عنه سُنة، عمر غابت عنه سُنة يعلمها أصغر الصحابة وهي سنة الاستئذان، عثمان غابت عنه سُنة، علي غابت عنه سُنة، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه رفع الملام.

(المتن)

وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان.

(الشرح)

هذه الآثار تقلع شجرة التعصب من جذورها، فنحمد الله ﷻ أن وفَّقنا لسماع هذه الآثار بقلب منشرح وطمأنينة.

هذه الآثار تقلع شجرة التعصب من جذورها، ولذلك ينبغي للمسلم ألا يتعصب إلا للدليل، لا يتعصب لقول شيخ كائنًا من كان، وإن كان يحب هذا الشيخ أيما محبة، لا يتعصب إلا للدليل، عنده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقول سفيان: هو الميزان الأكبر الذين توزن عليه كل الأقوال والأعمال.

فإن وافق قول شيخك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبها ونعمة، وإلا رُدَّ هذا القول، فإن كان من أهل السُنَّة وممن لهم قدم راسخة في العلم حُفظت له مكانته، ورُدَّ قوله، وإن كان من أهل البدع فلا كرامة له.

وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد: يعني عرفوا صحة الحديث، لا يعني أنهم عرفوا الإسناد برجاله، فليس كل أحد يستطيع ذلك، إنما المقصود أنهم عرفوا صحة الحديث، أن هذا الحديث ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان.

وهو سفيان بن سعيد الثوري، وذكره لأنه كان صاحب مذهب، وكان فقيهًا رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن مذهبه اندَّثر، كان له تلاميذ، كابن جرير الطبري كان له مذهب وكان له تلاميذ كذلك، والليث ابن سعد كان له مذهب وتلاميذ، والبخاري كان له مذهب، ولكن هذه المذاهب اندثرت وانتشرت هذه المذاهب الأربعة المعروفة.

فكأن أحمد بن حنبل قيل له ذات يوم في حديث ولكن سفيان يقول كذا، فقال: عجبت، والعَجَبُ هاهنا عجب إنكار، كما قال الله ﷻ: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢]، على قراءة بضم تاء عجبتَ ، فالعجب كذلك في هذه القراءة عجبُ إنكار.

(المتن)

قال: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾،

أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

(الشرح)

يقول الله ﷻ في هذه الآية: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾: أي يُعرِضون عن أمره، لأن الفعل خالف يتعدَّى بنفسه إلى مفعوله، خالف الأمر، فلما عدَّاه بعن دل ذلك على أنه مضمَّن معنى فِعل آخر، وهو الإعراض، لأنك تقول: أعرض الأمر، أو أعرض عن الأمر؟

أعرض عن الأمر، فضمِّن معنى فِعل آخر.

فيقول الله ﷻ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ ﴾: وهذا وعيد، ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾: أي يُعرِضون عن أمره لهوىً أو لشُبهة أو زُهدًا فيه، أو لقول أحدٍ كائنًا مَن كان، أو استحسانًا لآرائهم، ما حال هؤلاء إن ردوا كلام الله وكلام رسوله؟ ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لأن هذا الأمر سبيل وطريق إلى الكفر والخروج من الإسلام عياذًا بالله.

ولذلك قالوا في المعاصي: إنها بريد الكفر، وكذلك في البدعة إنها بريد الكُفر، والبدعة تبدأ شبرًا ثم ذراعًا فهكذا، ثم قد تُخرج صاحبها من الإسلام وتوقِعه في الشرك.

ولذلك مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا جاءه رجل وأراد أن يُحرِم من مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إن أخشى عليك الفتنة، ما الفتنة؟ أن يعتقد أنه سبق إلى منقبة وإلى فضيلة قصَّر عنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه.

هو لن يعتقد ذلك في بادئ أمره، ولكن بعد ذلك بسبب استمرائه للبدع سيكون هذا لسان حاله أو لسان مقاله، كما هو حال أهل البدع، فأهل البدع يقولون بلسان

حالهم أو بلسان مقالهم إنهم أكمل عبادة ممن سبقهم، ولذلك يجتهدون في العبادة ويقولون بلسان حالهم أو مقالهم: إن الدين في نقصان ويحتاج إلى هذه التكملة التي جاؤوا بها.

فأحمد لمَّا قال الشرك فسَّره باعتبار المنتهى، فهذا يوقِعه فيما هو عظيم عياذًا بالله.

لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك: ولذلك الإنسان يجب عليه أمران، ومخالفتهما سبب الهلاك، كما بيَّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

-أما الأمر الأول: وهو أنه إذا جاء الحق فلا بد أن يقبله، وإلا كان حاله بعد ذلك رد الحق، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فلما لم يؤمنوا بالحق ويأخذوا الحق أول مرة صار هذا حالهم: أن الله قلَّب أفئدتهم وأبصارهم.

- وأما الأمر الثاني: أن يأتيك واجب الوقت ولست مستعدًا، فيُخذَّل المرء ويثبَّط عن الواجب، ويصير هذا حاله عياذًا بالله، كما قال الله ﷻ في سورة التوبة: ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣].

لمَّا قعد عن الأمر أول مرة ولم ينهض للاستجابة لمَّا جاءه واجب الوقت صار ديدنه وحاله أنه قاعد أبدًا عما يُرضي الله ﷻ، نسأل الله العافية.

(المتن)

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: **«أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلّون ما حرم الله، فتحلونه؟»**، فقلت: بلى، قال: **«فتلك: عبادتهم»**، رواه أحمد، والترمذي وحسنه.

(الشرح)

وكذلك الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيحة.

عدي بن حاتم صحابي جليل، وأبوه هو حاتم الطائي، وكان يوصف بالكرم مات في الجاهلية، جاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان مطاعًا في قومه، وكان على النصرانية، فسمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في اليهود والنصارى: ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾:

يعني مشاركين لله في التشريع، فظن عدي أن الربوبية معناها السجود والركوع والصدقة والذكر والصيام وغير ذلك، فقال: إنا لسنا نعبدهم، يعني لا نصلي لأحبارنا ولا لرُهباننا، ولا نسجد لهم، إلى غير ذلك من الأمور، فبيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن العبادة أشمل من ذلك، وأن الطاعة أشمل من ذلك:

فالطاعة يدخل فيها كذلك: من أطاع أحدًا في تحليل ما حرَّم الله، أو تحريم ما أحل الله، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه»**، وهذه طاعة، **«ويحلّون ما حرم الله، فتحلونه؟»**، فقلت: بلى، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فتلك: عبادتهم»**، فمن أطاع أحدًا فيما حرم وحلل على خلاف الشرع: فقد شابه اليهود والنصارى، ولكن على التفصيل الذي ذكرناه: إن اعتقد جواز ذلك وحله كان كافرًا كُفرًا أكبر.

التكفيريون والخوارج يستدلون بهذه الآية: يقولون: العلة واحدة، والسلف كانوا يُنزِلون الآيات التي نزلت في اليهود والنصارى والكفار في المسلمين، لأن العلة واحدة، يقول: فنحن نكفِّرهم للمساواة في العلة.

يقال: يرد عليكم بأمور: أما الأمر الأول:

فماذا تقولون في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علي بن أبي طالب لمَّا دخل عليه وعلى زوجه فاطمة، وقال: **«ألا تصليان؟»**، يعني صلاة الليل، فاعتذر علي رضي الله عنه بأنه ما

منعه إلا القدر، قال: أرواحنا بيد الله، فخرج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يضرب على فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

هذه الآية في سياق الكلام عن مَن؟ عن الكفار، اقرأ الآية من أولها، فالشاهد أن هذه الآية في الحديث عن الكفار، فهل لـمَّا ذكرها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتراضًا على قول علي كفَّره بذلك؟

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

إذًا هذه الآية في سياق الكلام عن الكفار، ومع ذلك استشهد بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اعتراضه على علي بن أبي طالب، هل كفَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًا بهذا الاستشهاد؟

إذًا السلف والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا كان يستدل بهذه الآيات إنما كان يستدل بها من باب الزجر أولًا، وكذلك السلف الصالح لـمَّا أنزلوا الآيات التي نزلت في المشركين كقول الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

يقولون: هذه الآية في أهل البدع، مع أنها في المشركين، ما أرادوا تكفيرهم بذلك، وإنما أرادوا أنهم وقعوا فيما وقع فيه المشركون، فجزاؤهم سيكون كجزاء هؤلاء من باب اسوداد الوجوه وليس من باب الخلود في النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، هذه نزلت في الكافرين، ومع ذلك كل من تكلم عن الحزبية وحذَّر منها يستدل بهذه الآية، من أجل المشابهة وليس من أجل التكفير.

فلـو اسـتدلوا بهـذه الآيـة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبـة: ٣١]، نقـول: إن اعتقـدوا ذلـك فهـم كفـار، وإن لم يعتقـدوا فهـم شـابهوهم ووقعوا في الكفر الأصغر.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

(الشرح)

فالعبادة: هي التعبد لهم بالطاعة هنا في تحليل في حرم الله وتحريم ما أحل الله.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): هـذا أمـر آخـر، مـن تكلـم في مسـألة التشـريع العـام مـن أهـل العلـم يُنزِلون هذه الآيات على الإطلاق، ولا يعيِّنون شخصًا في إنزال هذه الآيات.

ولذلك كان من بديع ردود الشيخ محمد عمر بازمول حفظه الله، لما قيل له: إن محمد بن إبراهيم يكفِّر بالقوانين الوضعية، فهل تقولون: إنه من الخوارج؟

فقال الشيخ: محمد بن إبراهيم وإن قال ذلك فقد قال قولًا مطلقًا، ما أنزله على واحد من هؤلاء الحكَّام اليوم.

وأما أنتم فتُنزلون هذه الآية وهذا الحكم على كل واحد من هؤلاء الحكام بعينه، دون اعتبـار لوجـود شرط أو انتفـاء مـانعٍ، فشـابهتم الخـوارج أيضًـا، وخـرج هـو مـن مشابهة الخوارج، وإنما فِعله كفعل السلف في إنزال الآيات وإطلاق هذه الآيات.

وكـان برهـامي قـديمًا يقـول: أباهـل عـلى أن الحكـم بغـير مـا أنـزل الله مـن الكفـر الأكبر، كان له فيديو يقول فيه: على قولكم وكان يرد على من يسميهم بالمداخلة،

يقول: على قولكم الشيخ ابن إبراهيم من الخوارج، وعلى قولكم: الشيخ ابن عثيمين ظل فترة من الخوارج ثم تاب، يقول هذا الكلام.

فنقول: إن هؤلاء حتى وإن تكلموا في هذه المسألة فتكلموا فيها من باب الإطلاق، ما أنزلوها في أحد بعينه، وما أنزل هؤلاء هذا الحكم على واحد بعينه بسبب تحكيمه غير ما أنزل الله وإنما بسبب رده لسنة من السُنن أو استهزائه بشريعة من الشرائع صراحة، فإنهم يراسلونهم أولا للمناصحة، يرسلون لهم من ينصحهم من العلماً، وهذا حال السلف:

لا يفرحون بتكفير الناس، وإنما يفرحون بهدايتهم.

(المتن)

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

(الشرح)

فإذا كان لا يُقبل من هؤلاء السادات أن يُترك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقولهم، فكيف بمن هو دونهم؟ فهو من باب أولى.

(المتن)

الخامسة: تغيّر الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

(الشرح)

يقول: إن الأمر تغير والأحوال تغيرت، فصارت عبادة الرُهبان هؤلاء الذين انقطعوا للعبادة صارت عبادتهم وطاعتهم في مخالفة الشرع من أفضل الأعمال، ويسمون ذلك بالولاية.

وعبادة الأحبار يقصد هاهنا التعصب، لأنه يعني بالأحبار العلماء، يقصد التعصب لهم على خلاف قول الله ورسوله.

فبعض الناس يتعصب لهؤلاء ويعدون ذلك من أفضل الأعمال والقُربات، يظن بلك أن يدافع عن شيخه، حتى ولو أدى ذلك إلى رد الدليل.

قال: ثم تغيَّرت الحال، أي هذا كان في الابتداء، إلى مَن عُبد من ليس من الصالحين، فصرنا نسمع عن أحد هؤلاء الذين يُعبدون ويُنذر لهم، ويُدعون من دون الله: أنه كان تاركًا لصلاة الجمعة، أو أنه كان يمشي عُريانًا بين الناس، أو أنه كان يقف فوق بيته ويبول على الرائح والغادي.

كما يذكرون في حال البدوي وغيره ، فعُبد غير الصالحين، وعُبد بالمعنى الثاني: قديمًا كانوا يعبدون العلماء ويتعصبون لهم، والآن يتعصَّبون للجُهَّال.

قال: وعُبد بالمعنى الثاني مَن هو من الجاهلين.

المعنى الثاني كان في الرهبان ثم في الأحبار، ثم بعد ذلك صار في غير الصالحين وفي الجُهَّال.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): هذا الأثر لا يوجد في كتاب من الكُتب المسنَدة التي وصلت إلينا، موجود بمعناه، بلفظ قريب منه، أما بهذا اللفظ فلا يوجد في شيء من الكتب المسندة.

ولذلك قالوا، وهذا ما رجحه بعضهم: أنه مذكور بسنده بلفظه في كتاب طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإمام أحمد، وهذا الكتاب مفقود، وأشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه موجود بسنده بلفظه في كتاب طاعة الرسول للإمام أحمد.

ولذلك مَن يقبله على هذا اللفظ يرجع في قبوله لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه ثابت بهذا اللفظ.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): كل هؤلاء يصدق عليهم أنهم أطاعوا المعظَّمين، نحن قلنا: نص على العلماء والأمراء لأنهم أكثر الناس تعظيمًا، ويدخل فيهم كل معظَّم من الرهبان العباد الزهاد.

فلو عظَّمهم أُناس حتى خالفوه في شرع الله تألهًا، يظنون أن ذلك من الولاية وأن ذلك من أفضل القربات فهم داخلون في الآية وفي التبويب بلا شك، نسأل الله لهم الهداية.

(المتن)

قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾، الآيات.

(الشرح)

هذا الباب وهو الباب الثامن والثلاثون هو في نفس معنى الباب السابق، لأن الباب السابق وهذا الباب يتكلمان عن مقتضيات التوحيد ولوازمه.

أنت رجل موحِّد، هذا يقتضي منك ماذا ؟

يقتضي أن تُفرد الله ﷻ بالحكم، اعتقادًا وعملًا، فهذا من لوازم شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فمن أراد التحاكم إلى غير الكتاب والسُنة فما حكمه؟ هذه المسألة كذلك فيها تفصيل لأن الخوارج كذلك يستدلون بهذه الآية:

أن ينطوي قلبه على الرضا بالتحاكم إلى غير الشرع، ، على الرضا بالتحاكم إلى غير الشرع: فيقبل ذلك ويحبه، وهذا شرك أكبر.

الثاني: ألا يرضاه العبد ولا يحبه، ولكنه موافق لشهوته أو شُبهته فهذا شرك أصغر.

والثالث: أن يضطر إلى ذلك وأن يُكره عليه استيفاءً لحقه، فهذا لا إثم عليه إن كان قلبه مطمئنًا، ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وفي هذه الآية التي معنا يُنكر الله ﷻ على مَن يدَّعي الإيمان بالله ورسوله ﷺ يقول: أنا مؤمن بالله ورسوله، ثم هو يريد التحاكم إلى الطاغوت،

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، والله ﷻ أمرنا بالكفر بالطاغوت، بل لا يكون الإيمان إلا بالكفر به.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال الله ﷻ: ﴿وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ □ إلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [النساء: ٦٥].

فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، والطاغوت فلعوت، وهو من الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحد في متبوع أو معبود أو مطاع.

فمجاوزة الحد في هؤلاء الثلاثة هو من التحاكم إلى الطاغوت.

﴿وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾، لأن الله قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلًا بَعِيدًا﴾، فلما تركوا هدي الله ﷻ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأرادوا التحاكم إلى الطاغوت نسيهم الله ﷻ وتركهم إلى الشيطان، فكان الضلال بما كسبت أيديهم، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

ولذلك قال الله ﷻ في الآية التي بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾، لماذا؟

لأنهم يكرهون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ولا خير في هذه الحياة الدنيا ما لم نتحاكم إلى الكتاب والسنة، فالهدي والهدى في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وما خربت بلاد المسلمين إلا بسبب الخلل في هذا الجانب، وما سُلِّط عليها مَن سُلِّط إلا بسبب الخلل في هذا الجانب، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حديث ابن عمر المشهور: «ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيَّروا مما فيه إلا جعل الله بأسهم بينهم»، وهذا وعيد من الله ﷻ.

حديث خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن، الخامسة قال هكذا: «ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيَّروا مما فيه إلا جعل الله بأسهم بينهم».

ولذلك تجد حاليًا أغلب بلاد المسلمين فِرقًا وشِيعًا، تجدهم متناحرين، هذا يقتل هذا، وهذا يمكر بهذا شيعا وأحزاباً، والعدو في مأمن بسبب الخلل في هذا الجانب.

(المتن)

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ .

(الشرح)

وهذا كذلك في سياق الكلام على المنافقين في ثلاث عشرة آية في صدر سورة البقرة.

فالمنافق يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، ويتحاكم لغير شرع الله تعالى، وإذا كان الله ﷻ قال لَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ، فهذه تدل على العموم، لأن الفعل المضارع في سياق النهي يدل على العموم، لأن المصدر كامن فيه.

فإذا كانت تدل على العموم فالتحاكم إلى غير الشرع من أعظم المفاسد في الأرض، وهذا وجه الدلالة في هذه الآية: إذا كان الله ﷻ نهى عن الإفساد في الأرض عمومًا، فالتحاكم إلى غير الشرع من أعظم الفساد والإفساد في الأرض.

ولذلك كانت الحدود وكانت الشريعة كلها رحمة وكلها مصلحة للعباد، وإن ظهرت فيها بعض المفاسد فهذه المفسدة لا تقارَن بجانب المصلحة.

تُقطع يد السارق لكي يكف ملايين من الناس عن السرقة، يُرجم لكي يكف الملايين من الناس عن الزنى، فالمصالح عظيمة جدًا، ثم إن هذه الأمور تطهير لهذا الذي اقترف الذنب نفسه.

فالتحاكم إلى غير الشرع من أعظم المفاسد.

وكذلك في هذه الآية: زخرفة أهل الأهواء لأقوالهم: أنهم دائمًا يضعون هذه الشعارات العظيمة، إنما نحن مصلحون، نحمل الخير لكل الناس، شعارات براقة، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١]، والإصلاح لا يكون إلا بالشريعة.

(المتن)

وقوله: ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

(الشرح)

وهذه كالآية التي سبقتها، وأعظم الفساد كذلك: أن يتحاكم الناس إلى غير الشرع، ولا صلاح للأرض إلا بالعبادة والتوحيد.

فمن يبتغي الإصلاح في خلاف الشرع فهو مخذول، خاصة إذا كان من العرب، فالعرب لا يصلحون إلا بدين، كما قال ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المقدمة: العرب لا يصلحون إلا بدين.

المسلمون ينبغي أن يكون بصرهم وبصيرتهم ناظرة إلى ما أعد الله ﷻ لهم في الآخرة، مع الأخذ بأسباب الفلاح الدنيوية التي لا تتعارض مع الشرع، ولذا قال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(المتن)

وقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

(الشرح)

وهذا استفهام إنكاري من الله ﷻ، فلا حكم أحسن من حُكم الله، ولا أعدل من حكم الله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، فالله ﷻ أحكم الحاكمين، وأعلم بمصالح العباد، وهو أرحم بنا من الأم بولدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُشرِّع لنا إلا ما فيه الخير.

والخوارج في مثل هذا الموضع بالذات: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

يستدلون بكلام لابن كثير ذكره عند تفسير هذه الآية، ويقولون: اقرأ ما قاله ابن كثير عند هذه الآية: والإنسان متى أحل الحرام المجمع عليه وحرم الحرام المجمع عليه فهو كافر بإجماع المسلمين.

ويذكر ابن كثير عند هذه الآية تحاكم التتار إلى الياسق، ، وكذلك يستدلون بكلام مشابه له لابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهؤلاء مخذولون.

لماذا؟

لأننا نقول لهم: أنتم ما علمتم حال الياسق، وما علمتم حال التتار مع ياسقهم هذا، التتار كانوا يتدينون بالتحاكم إليه، يعتبرون ذلك دينًا.

ما الياسق؟ كتاب جمعه لهم جنكيز خان من اليهودية والنصرانية والإسلام، وكانوا يعتقدون أن التحاكم للياسق كالتحاكم إلى أحد المذاهب الأربعة، فهو دين عندهم، فهل هو كذلك عند حكّام اليوم؟

ما هو كذلك عند حكام اليوم، ما يعتبر واحد منهم -فيما نعلم- القوانين الوضعية بمنزلة الدين الذي يجب التحاكم إليه، وإلا فقد يكون واحد منهم قد وقع في الكفر الأكبر عياذًا بالله، يعتقد أن هذا دين، وأن هذا مما يجوز ان يُحكَم به.

ولذلك أنا نقل لكم نقلين مما يبين حال التتار مع الياسق، حتى إذا سمعت بعد ذلك أحد يأتي بكلام ابن كثير رددته لهذا الكلام.

يقول المقريزي في الخُطط: ثم كان الذي عليه جنكيز خان في التدين وجرى عليه أعقابه، يعني من جاء بعده من نسله، وجرى عليه أعقابه بعده الجري على منهاج ياسه، المقصود بياسه -الذي هو الياسق-، التي قررها وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه، ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين.....

إذًا هم كانوا يعتقدون هذا دينًا.

وقال ابن تيمية في الفتاوى في حال التتار مع الياسق: يَجْعَلُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ كَدِينِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا طُرُقٌ إلَى اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرَجِّحُ دِينَ الْيَهُودِ أَوْ دِينَ النَّصَارَى وَمِنْهُمْ مَنْ يُرَجِّحُ دِينَ الْمُسْلِمِينَ.

فهذا حال هؤلاء مع الياسق، فلا يقاس حال هؤلاء مع هؤلاء. نحن لا ندافع عن أحد ولكن نقول: ما ينبغي لنا أن نقع فيما وقع فيه الخوارج.

أنتم تقولون بالقياس، وتدَّعون أنكم من أهل الأصول والعلم فيقال: هل العلة واحدة؟ يعني هذه الآية التي يستدلون بها من: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤]، نزلت في من؟ في اليهود، ماذا فعل اليهود؟

كما في الصحيحين: بدَّلوا ثم قالوا: هذا حكم الله في التوراة؟

هذا هو التبديل.

الذي يصنع اليوم يقول: هذا حكم الله في الكتاب والسُنة؟ لا يقول هذا حكم الله ﷻ في الكتاب والسُنة، هو يعترف أن هذا يخالف حكم الله ﷻ.

فلا يستدل بكلام ابن تيمية ولا بكلام ابن كثير لأنه هذا كان في التدين، ثم إنهما رحمهما الله ذكرا لو أكملت الكلام أن من فعل ذلك مستحلًا.

ولذلك الخوارج يذكرون كلام ابن تيمية ولا يُكملونه، يبترون كلام ابن تيمية، لأن ابن تيمية ذكر في فتواه في أكثر من موضع أن يكفر إن فعل ذلك مستحلًا، والاستحلال عمل قلبي، لا يمكن لك أن تطلع عليه إلا أن يُصرِّح هو به.

(المتن)

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»، قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

(الشرح)

وهذا الحديث مما اختلف أهل العلم في تصحيحه وتضعيفه، وممن تكلم عليه وأفاض في ذلك: الحافظ ابن رجب الحافظ ابن رجب في كتابه جامع العلوم والحِكم، وحكم عليه بالضعف، وكذلك الشيخ الألباني في أكثر من موضع.

والحديث مع ذلك معناه صحيح، كما قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد.

وفي هذا الحديث أنه ينبغي أن يكون ما يهواه المرء تبعًا لِما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني أن يكون هواه تابعاً لِما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أن يتخذ هواه إلهًا له، يجعله قائدًا له، لا يهوى شيئًا إلا ركبه، بل يجعل قضاء الله ورسوله وحكمه مقدمًا، كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن اتِّباع الهوى كما يقول ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، لأن اتِّباع الهوى هو الذي ينشأ عنه الشرك والبدعة والمعصية، وهذه نجاسات القلب الثلاثة.

(المتن)

وقال الشعبي.

(الشرح)

يعني في بيان سبب نزول الآية التي ترجم بها المصنف وهي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠].

(المتن)

كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة.

وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾.

(الشرح)

هذا الأثر رواه كما قال إسحاق في تفسيره، وهو صحيح ولكنه مرسل عن الشعبي، والمرسل من قسم الضعيف، ولكن كثرة الروايات لهذا الأثر تدل على أن له أصلًا، وأنه المعنى المراد من هذه الآية.

وأهل العلم يتساهلون في الأسانيد في التفاسير ما لا يتساهلون في الأحكام.

ولذلك من الخطأ قول من يقول: ينبغي أن نُصفِّي كُتب التفسير من الآثار الضعيفة، ويريد أن يحاكم التفاسير إلى ما يحاكم به حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيصنع صحيح تفسير ابن كثير مثلًا، ويخرج كل الآثار الواردة في تفسير ابن كثير وكأنه أعلم من ابن كثير العالم الفذ.

والتعامل مع التفسير لا يكون كالتعامل مع حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما بيَّن العلماء، لأن تفسير الآية والتعامل مع تفسير الآية له أصول، حتى إن العلماء قالوا:

لو كان هناك أثر عن بني إسرائيل وهذا الأثر لا يُنظر إليه من جهة إسناده فقط ولا من جهة قائله هل هو من الصحابة أو من التابعين أو غير ذلك، ولكن يُنظر إلى موافقته للمعنى:

فإن وافق المعنى ولم يخالفه أُخذ بهذا الأثر حتى ولو كان ضعيفًا، لأن هذا الأثر مما توارد العلماء على نقله، كل مَن ألَّف في التفسير ينقل هذا الأثر، مع أنه لو وضع كتابًا في حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعرض لهذه الأحاديث بالنقد والتفصيح والتضعيف ولا يتعرض لهذه الآثار.

دل ذلك على أن التعامل مع آثار التفسير ليست كالتعامل مع السُنَّة، وهذا ما نبَّه عليه أكثر من عالم كالشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله.

فهذا الأثر وإن كان مرسلًا إلا أنه لا يخالف الآية ولا يخالف معنى الآية.

في هذا الأثر يبين أن المنافق أشد كراهية لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى، لأن اليهودي أراد التحاكم إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما المنافق فما أراد التحاكم إلى شرع الله ﷻ، لأن قلبه منطوٍ على بُغض هذا الدين.

فالمنافقون أشد عداوة وخطرًا لهذه الأمة من اليهود والنصارى.

قال: لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، يقال: الرِشوة والرُشوة والرَشوة، فهي مثلثة الراء، وهو مال مدفوع للتوصل إلى شيء بغير حق.

فقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم لا يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾.

(المتن)

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما

القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

(الشرح)

وهذا محمول كما قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله على أن عمر من غيرته لم يملك نفسه، لأن هذا لم يرض بحكم الله ورسوله، ثم أقرَّ، سأله في ذلك؟ قال: نعم، فقتله ردة، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَن بدَّل دينه فاقتلوه»، أما إسناد الأثر فلا يصح.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ .

الثالثة: تفسير آية الأعراف ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ .

الرابعة: تفسير: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ .

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

(الشرح)

فمن كان مؤمنًا إيمانًا صادقًا فهذا يحمله على تحكيم الشريعة، والرضا بالشريعة وحكمها، بخلاف من كان إيمانه إيمانًا كاذبًا.

(المتن)

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

(المتن)

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.

(الشرح)

وهذا الباب ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان التلازم بين هذه المسألة أعني الإيمان بالأسماء والصفات، فلله ﷻ أسماء حسنى وصفات عُليا مُثلى، وبين توحيد الإلهية، أي توحيد الله ﷻ بإفراده بالعبادة، فإن توحيد الإثبات والمعرفة من براهين توحيد الإلهية.

ولذلك كثيرًا ما يأتي في القرآن ذكر أن الله تعالى هو الذي خلق وهو الذي رزق السمع والبصر وغير ذلك، ثم يدلّل بذلك على أنه هو المستحق وحده للعبادة، وهذا في توحيد الربوبية، يذكر توحيد الربوبية أولًا، ثم يدلِّل به على توحيد الإلهية﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

فكذلك توحيد الأسماء والصفات، فهو أحد فرعي توحيد الإثبات والمعرفة، فتوحيد الإثبات والمعرفة ينقسم إلى توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فإذا كان يُستدل بتوحيد الربوبية على إفراد الله ﷻ بالعبادة، فكذلك يستدل بتوحيد الأسماء والصفات على إفراد الله ﷻ بالعبادة.

فالله ﷻ له الأسماء الحسنى، التي لا منتهى لحسنها، لا وجه نقص فيها، وكذلك له الصفات العُلا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيستدل بكمال أسمائه وصفاته على استحقاقه لتوحيد الإلهية.

ولذلك تجد مَن عنده خَلل في هذا الباب أعني في باب الأسماء والصفات لا بد أن يتبع ذلك خَللٌ في توحيد الإلهية.

فلو نظرت في حال الذين ألحدوا أو أَوَّلوا هذا الباب لا بد أن تجد عندهم شركيات في هذا الباب، فهؤلاء الذين فسَّروا كلمة التوحيد لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أي لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا خالق لهذا الكون إلا الله، وهذا تفسير خطأ.

وكذلك الذين تعرَّضوا لأسماء الله وصفاته بالتعطيل والتأويل، فقالوا: الله ﷻ لا يرضى ولا يغضب ولا يفرح ولا يأتي يوم القيامة، وإنما الذي يأتي أمرُهُ، وكذلك قالوا: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر. فعطَّلوا صفات الله ﷻ، وعطَّلوا مضمون أسمائه.

لو نظرت في حال هؤلاء من الجهمية على اختلاف فرقهم، لوجدت بعضهم واقعين في الشرك من الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والطواف حول القبور وتجويز التوسل بها كما هو مشاهَد معلوم.

ومن هنا ظهر التلازم بين الأسماء والصفات وبين توحيد الإلهية، لا تجد إنسانًا يُثبت الأسماء والصفات على مراد الله وفهم سلف هذه الأمة ويقع في الشرك، وإنما الذي يقع في الشرك الذي يخالف في هذا الباب.

فمن هنا ظهر التلازم بين الأسماء والصفات كما كان التلازم بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية.

فقال: **باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.**

ومَن هاهنا إما أن تكون موصولة، فيكون معنى الباب: باب الذي يجحد شيئًا من الأسماء والصفات، ما حكمه؟

وإما أن تكون شرطية، وجواب الشرط محذوف، فباب مَن جحد شيئًا من الأسماء والصفات فهو مشرك، كما سيأتي بيانه.

والجحد في اللغة بمعنى الإنكار، ولا يكون الجحد إلا بعد معرفة بالقلب، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

جحدوا بها لأن الله ﷻ قال على لسان موسى يخاطِب فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

لقد علمتَ: أي أنت تعلم من نفسك أن الذي يستحق العبادة هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي له ملك السماوات والأرض، فالجحد لا يكون إلا عن علم.

وجحد الأسماء والصفات قسمان:

- إما أن يكون جحد تكذيب، وهذا كفر بالله، يعني يقول: ليس لله أسماء، فليس من أسمائه لا الرحمن ولا الرحيم، ولا السميع ولا البصير ولا غير ذلك، فهذا كُفر بالله ﷻ لأنه تكذيب بالقرآن والسُنة، لأن القرآن والسُنة مستفيضان بذكر أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته.
- والنوع الثاني: وهو جحد التأويل، لا يُنكر الأسماء والصفات صراحة، وإنما يؤِّلها، فيقول: عين الله بمعنى الرعاية، ويد الله بمعنى القدرة أو بمعنى النعمة، فيقول: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، أي تحت رعايتي وحفظي، وتجري بأعيينا كذلك بحفظنا ورعايتنا، ولا يُثبت لله عينًا.

وكذلك في قول الله ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، يعني بقدرتي، فهذا ليس جحد إنكار، لأنه لم يُنكر هذا اللفظ، وإنما أوَّله وحرَّفه، فهذا التأويل إن كان له مسوِّغ في اللغة فهو بدعة ولا يكفر صاحبه.

ولذلك أهل العلم لم يكفِّروا الأشاعرة الذين يؤولون الصفات، لماذا؟ لأنهم زعموا التنزيه أولًا، قالوا: أننا ما نؤل الصفات إلا من أجل تنزيه الله ﷻ عن مشابهة المخلوقين، فعندهم شُبهة.

والأمر الثاني: لأن تأويلهم له وجه في اللغة، هل اليد تأتي في اللغة بمعنى القدرة؟ نعم.

هل اليد تأتي في اللغة بمعنى النعمة؟ نعم.

العين تأتي بمعنى الحفظ والرعاية؟ نعم.

فلما وقعوا في الشُبهة وأتوا بتأويل له وجه في العربية وقعوا في البدعة ولم يصلوا إلى درجة الكُفر.

لماذا نقول: أنهم وقعوا في البدعة؟

نقول: لأن هذا التأويل وإن كان له وجه في اللغة، إلا أنه غير مستساغ هاهنا، لماذا؟

لأنه لا يستحيل أن نحمل ظواهر الأسماء والصفات على ظاهرها.

ما المانع أن تقول: أن الله ﷻ له يد؟ وأنه له سمع وبصر وله عين، ولكن لا تُشبه عين المخلوقين، ولا يُشبه السمع سمع المخلوقين، و هذا القيد في سائر الصفات، والقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخَر، ألا تُثبت لله ﷻ الحياة؟

يقول: بلى أُثبت لله الحياة.

ألا تُثبت للمخلوق الحياة؟

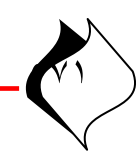
يقول: أُثبت للمخلوق الحياة.

تقول له: ولماذا لا تُثبت لله اليد كما تُثبت للمخلوق اليد؟

يقول: لأن يد الله ليست كَيَدِ المخلوق، هذا يلزم منه المماثلة.

فيقال: كذلك أنت أثبتَّ الحياة، فانفي الحياة عن الله ﷻ لأن التشابه في الاسم على قولك يستلزم التشابه بين المسمى، فيقول: لا، حياة الله تفارِق حياة المخلوق.

يقال له: كذلك ويد الله تفارق يد المخلوق.



بل يد المخلوقين يختلف بعضها عن بعض، هل يدي كيدك؟ هل يدك كيد النملة؟ كيد الفيل؟ لا.

إذا كان المخلوق يده تختلف كل واحدٍ عن الآخَر، فما بالك بالخالق عن المخلوق؟

ولذلك أهل السُنَّة وضعوا قاعدة: أن الفرق بين الصفة والصفة كالفرق بين الذات والذات.

الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فإن كان تأويله له وجه في اللغة فقد وقع في بدعة ولكنه لا يكفر.

وإن لم يكن له مسوِّغ ولا وجه في اللغة كفر بذلك، كتأويلات الباطنية، وتأويلات الشيعة الرافضة.

لَمَّا يأتي الشيعة على قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة: ٦٧]، يقولون: عائشة، هل هذا له وجه في اللغة؟ له وجه في الشرع؟ لا وجه في اللغة ولا في الشرع ولا وجه في العقل.

الجبت والطاغوت، يفسِّران الجبت والطاغوت بمن؟ بأبي بكر وعمر.

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩]، الحسن والحسين، ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٠]، علي وفاطمة، هذا تأويل لا وجه له في الشرع لا بالإشارة ولا بالمعنى ولا بالنص ولا بأي شيء، فهذا التأويل كُفر وتقوُّل على الله ﷻ، ومثله كذلك تأويلات الباطنية وأهل التخييل لنصوص المعاد والدار الآخرة.

إذًا باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات إن جحد جحد كُفرٍ أو جحد تأويل لم يكن له مسوِّغ فهذا يكفر، وإن كان له مسوغ في اللغة فلا يكفر وإنما وقع في البدعة.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾.

(الشرح)

لم يكونوا ينكرون اسم الله الرحمن، بل كانوا يعرفون أن الله من أسمائه الرحمن، وإنما كان إنكارهم مكابرة، لأنهم ثبت عنهم أنهم يسمون بعبد الرحمن، كما جاء في سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة ذات قَرد، فالذي استاق إبل الصدقة وقتل الراعي كان يسمى بعبد الرحمن الفزاري، وكان مشركًا، فكانوا يسمون بهذه الأسماء.

والشيخ المعلمي اليماني له رسالة في بيان معنى هذه بالآية: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾، وفي بيان قولهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما قال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، في صُلح الحديبية، قالوا: والله ما ندري ما الرحمن، ولكن اكتب باسمك اللَّهم، فأثبت أنهم ما كانوا ينكرون اسم الله الرحمن لأنهم يعرفون هذا الاسم، إنما كانوا ينكرونه مكابرة.

فقال: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾، يعني يجحدون هذا الاسم بعد معرفتهم به.

(المتن)

وفي صحيح البخاري قال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّبَ الله ورسولُه؟

(الشرح)

علي ﷺ يقول: حدثوا الناس بما يعرفون: وهذه قاعدة عظيمة جدًا، ثم بيَّن العلة من ذلك: قال: أتريدون أن يُكذَّب الله ورسولهُ؟

هناك أناس يُحدِّثون بكل ما يسمعون، لا يفرِّق في حديثه بين طالب علم أو عالم أو عامي، لا يفرِّق بين من عنده شُبهة، وبين المعاند والمكابر وغير ذلك، كلما وقف مع إنسان حدثه بما عنده.

وربما يكون حديثه فتنة لهذا الرجل، ذلك أن بعض العلم لا يصلح لكل أحدٍ، فهذا الرجل العامي عنده عقيدة على الفطرة، يقرأ الآية ويُثبِت ما فيها، فإذا كلمته مثلًا في هذا الباب في باب الأسماء والصفات بدقيق المسائل التي ما ينبغي أن يُكلم فيها إلا العلماء وطلبة العلم، وقلت: إن هذا من نشر العلم، ربما صار ذلك فتنة له في هذا الباب.

ولكن علِّمه بما يناسب فطرته، وبما يناسب إدراكه، وهذه قاعدة عامة في سائر العلوم وفي التعليم.

يعني لا ينبغي لإنسان يبدأ في طلب العلم أن يبدأ بكبار المسائل، وهو لا يُحسن قراءة الفاتحة، وكلما وقف مع إنسان تكلم في النوازل، هذا سيكون سببًا في نُفرة الناس وفي تضليلهم.

وإنما على كلِّ إنسان أن يلزم قدره في العلم وفي الكلام، وكذلك يراعي مَن أمامه ممن يحدِّثهم، فإذا تكلمت مع العامي لا يكون كلامك ككلامك مع طالب العلم، لا يكون كلامك ككلامك مع العالم في عرض الكلام.

إذا أفتيت عاميًا لا تكون فتواك كالفتوى لطالب العلم كالفتوى لغيره، العامي لا يريد إلا أن يسمع حلال حرام جائز، لا يحتاج إلى أن تقول له: ولكن هذه المسألة فيها خلاف، والقول الأول في المسألة كذا، والقول الثاني كذا، ولكن القول الأول كذا،

هو يريد منك إجابة واحدة، يسألك ما حكم الوضوء من لحوم الإبل؟ تقول: يجب الوضوء، انتهى الأمر.

إذا طلب منك الدليل فأعطه الدليل، إذا قال لك: ولكني سمعت من يقول كذا وكذا؟ تدرَّج معه.

ولكن بعض الناس يريد أن يبين أنه ملم بالمسألة، فإذا تكلم مع عامي أو مع طالب علم يأتي بجميع جوانب المسألة وهو لا يحتاج لكل هذه الأمور، ربما كان ذلك فتنة لهذا السائل.

فكذلك في هذا الباب في باب الأسماء والصفات: أن من أسباب جحد أسماء الله وصفاته أن يُحدِّث المرء الناسَ بما لا يعقلونه من هذا الباب.

فإنسان قد يكون عنده إيمان مجمل، لا يُحسن الكلام أو النظر في هذه المسائل الدقيقة، فيكون ذلك سببًا في جحد الأسماء والصفات.

وفي مقدمة مسلم عندنا كذلك أثر ابن مسعود، ماذا يقول: ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

فعلي هاهنا يقول: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسولهُ؟

فهذا المحدَّث لن يُكذِّب الله ورسوله صراحة، ولكن طريقة من عرض عليه المسألة ستؤدي إلى تكذيب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه رأى رجلًا انتفض . لما سمع حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات، استنكارًا لذلك، فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهِه، انتهى.

(الشرح)

قال في الحاشية: فَرَق: تُضبط على وجهين: المذكور أعلاه فَرَق، ومعناه: ما فزع هؤلاء وأضرابه من أحاديث الصفات، أي يفزعون من أحاديث الصفات.

واستنكارهم لها: والمراد الإنكار عليه.

والثاني: ما فرَّق هؤلاء، ومعناه: ما فرَّق هؤلاء بين الحق والباطل ولا عرفوا ذلك.

إذًا ما في المعنى الأول تكون استفهامية، وفي المعنى الثانية تكون نافية، ينفي عنهم أنهم فرَّقوا بين الحق والباطل.

ففي كل مسألة أو في كل آية أو حديث تسمع فيها اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته ليكن عندك قاعدة، هذه القاعدة هي: أن الله ﷻ له صفات تليق به، وأن المخلوق له صفات تليق به، ولا يحملك ذلك على جحد الأسماء والصفات.

أنا أذكر لك فرقًا في صفة ما، صفة العلم، ما الفرق بين علم الله وعلم المخلوق؟

الله ﷻ وصف نفسه بأنه العليم، ووصف كذلك المخلوق بأنه عليم، ما الفرق بين علمي وعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

أولًا: بما يسبق وما يلحق علمي يسبقه جهل، ويتبعه نسيان.

الإنسان بعدما يكبر لا بد أن ينسى، وعلم الله لا يسبقه جهل ولا يتبعه نسيان.

علم المخلوق محدود، أنا لا أعرف ما الذي يدور خلف هذه الأسطوانة، ، وعلم الله ﷻ محيط بكل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك لو نظرت في هذا المكان في هذا المسجد كم من العوالم في هذا المسجد من الإنس والجن والذرات التي لا تُرى بالعين المجردة والميكروبات وغير ذلك؟

كم من العوالم في هذا المسجد، والله ﷻ يعلم ذلك كله لا تخفى عليه خافية.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وما هذه موصولة، ضع تحتها كل ما في البر والبحر، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

كم شجرة في هذا العالم؟ كم ورقة عليها؟ كل ورقة تسقط من هذه الشجرة يعلمها الله ﷻ، ويعلم إذا سقطت، كم مرة تقلبت في الهواء؟ وإذا وارها التراب إلى ما تصير؟ ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، كل هذه عمومات يعلمها الله ﷻ.

أين علمنا من علم الله حتى نقول علمنا يماثل أو يشابه علم الله، ومن ثم ننفي العلم عن الله ونقول: عليم بلا علم؟

وكذلك في العين: عين الله ﷻ هل تُشبه وتماثل عيننا؟ لا تُشبه عيننا ولا تماثل عيننا.

سمعه وسع الأصوات كلها كما قالت عائشة رضي الله عنها، تجلس مع النبي ﷺ ومع خولة في حجرة ضيقة عائشة تسمع بعض الحديث ويخفى عليها بعضه، ومع ذلك ينزل القرآن من فوق سبع سماوات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

حين يَبين لك الفرق بين سمع الخالق وسمع المخلوق، ﴿قَدْ سَمِعَ﴾، وقد هذه تفيد التحقيق، سمع جاءت بالفعل الماضي، ﴿قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾ [المجادلة: ١]، هذا يفيد أن السمع لم يكن في هذه المسألة فقط، بل سمعه دائم للأصوات جميعها، ثم جاء في آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، والجملة الإسمية تدل على الثبوت.

أما أنت أحيانًا تسمع وأحيانًا تذهب إلى الطبيب لعدم السمع، لو تكلم أكثر من رجل أمامك لا تستطيع أن تميز بين هذه الأصوات.

انظر إلى هؤلاء الذين يكونون فوق عرفة، كم من الخلق يكونون هناك؟ بكم لسان يدعون الله ﷻ؟ بكم حاجة يدعون الله ﷻ؟

هل اجتمعوا على دعاء واحد؟ لسانهم واحد؟ هذا الهندي يدعو بلغته، والإنجليزي يدعو بلغته، والفرنسي يدعو بلغته، والعربي يدعو بلغته، ومع ذلك يسمع الله ﷻ هذه الدعوات ويجيبها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا تختلف عليه الأصوات ولا الحاجات سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلِم ينتفض هذا الرجل وأمثاله عند سماع وصف لله ﷻ كسمع وبصر وفَرَحٍ وغضب وغير ذلك؟، وصفه يفارِق وصف المخلوقين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهذه قاعدة عامة أعملها إذا سمعت اسمًا من أسماء الله وصفة من صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أقول لك: قد سمع القرآن من هو أخشى لله وأتقى منك من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ومع ذلك سلَّموا وأقروا وأَمرُّوا هذه الأسماء والصفات دون أن يؤولوها أو يحرِّكوها، فما بال هؤلاء يحرفون ويؤولون الأسماء ؟

هل هم أتقى لله من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين؟

هل هم أعلم بالله من الصحابة؟

هل هم أعلم بالله من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟

ألم يكن الله قادرًا أن يخبر عن القدرة بالقدرة لا باليد؟ وعن النعمة بالنعمة لا باليد؟

وعن الحفظ والرعاية بالحفظ والرعاية لا بالعين؟

لماذا أخبر بهذه الصفات؟

لأنه يريد إثبات ذلك لنفسه، ومَن أعلم بالله من نفسه ومن نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟

تسمعهم يقولون: إن مذهب أهل السُنَّة والجماعة هو مذهب أبي الحسن الأشعري، والصحابة كانوا على مذهب أبي الحسن الأشعري؟!! مَن الذي جاء أولًا؟

فإذا سمعتم آية فيها ذكر لأسماء الله وصفاته فأمرُوها وآمنوا بمعناها.

أما الكيف فلا يعلمه إلا الله ﷻ.

وعندنا قاعدة وضعها لنا الإمام مالك، نضع مكان الاستواء كل اسم وصفة:

الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، أي بهذا الكيف، والسؤال عنه بدعة.

العين معلومة، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن هذا الكيف بدعة.

ضع مكان هذه الصفة كل صفة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولذلك العلماء جعلوا قول مالك الذي وفقه الله ﷻ للنُطق به وقبله نطق به ربيعة الرأي شيخه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلوه قاعدة عامة مطردة.

فابن عباس ماذا يقول في أحد هؤلاء الذين انتفضوا عند سماع ذلك؟

يقول: يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه، يعني لا تعقله عقولهم وهم أهل الزيغ، هذا معنى يهلكون عند متشابهه، فيظنون أن الصفات من المتشابه الذي لا يُعلم معناه، أو لا بد أن يُؤل، لأن المعطِّلة على قسمين: إما مفوِّضة، وإما مؤلة.

مفوضة: أي يفوِّضون المعنى، يعني يقرأ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، ما معناها؟ يقول: لا أدري.

﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ما معناها؟ يقول: لا أدري، اقرأها فقط، هذا هو التفويض.

يقولون: إن القرآن يخاطبنا بما لا نفهمه، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

ويزعمون أن الصحابة كانوا كذلك، انظر إلى الكذب، يزعمون أن الصحابة كانوا يسمعون هذه الآيات ولا يعلمون معناها، هذا صنف.

الصنف الثاني: وهم المؤولة، أو بوصف أدق: المحرِّفة، فيقولون: لا نُثبت لله لا سمعًا ولا بصرًا ولا عينًا، نؤولها فنقول: العين بمعنى الحفظ والرعاية، واليد بمعنى القُدرة، ويضع الجبار قدمه على النار فتقول: قط قط، قد امتلأت، كما في الصحيح، يقولون: الرِجل يعني الجماعة من الناس.

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، يقولون: الله لا يأتي، وإنما الذي جاء أمره.

ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، يقولون: لا لا ينزل، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عن ربه إنه ينزل، وأنت تقول لا ينزل؟

أنت أعلم بربك من نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

يقولون: الذي ينزل الملك أو الرحمة أو غير ذلك.

ائتوني بحديث واحد من الأحاديث المتواترة في النزول أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال أن الذي ينزل هو الرحمة أو الملك، لا تجد، من أين جاءوا بهذا الكلام، فنسأل الله السلامة والعافية.

(المتن)

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر: "الرحمن" أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾.

(الشرح)

ذكر بعض الشراح أن سبب إنكارهم أنهم زعموا أن تعدد الاسم يدل على تعدد المسمى، فلو سمينا الله بالرحمن والسميع والبصير وغير ذلك، فتعدد الوصف يدل على تعدد الموصوف.

إذًا عندنا آلهة متعددة، فأنكروا هذا الاسم، كما فعلت المعتزلة، المعتزلة ما جردت الأسماء من الصفات إلا من أجل هذا الزعم، أنهم قالوا: لو أثبتنا الصفات المتعددة فهذا يدل على تعدد المسمى، وهذا كلام باطل.

لماذا هو كلام باطل؟

لأن الله ﷻ قال عن الوحيد، كما يقول الإمام أحمد في الرد على الجهمية والزنادقة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٤]، انظر بكم وصف وصفه؟:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٤]، أربعة أم واحد؟ واحد، فتعدد الوصف لا يدل على تعدد الموصوف.

عندما تقول: محمد هذا كريم شجاع مقدام جواد، إلى غير ذلك، هل هذا يدل على تعدد الموصوف؟

فقولهم لا ينصره لا لغة ولا شرع، ولذلك أهل البدع من أجهل الناس باللغة، فضلًا عن الشرع.

فقريش لمَّا سمعت ذلك جحدوا اسم الرحمن، قلنا: بعد معرفتهم أن الله ﷻ متصف بالرحمة، وأن من أسمائه الرحمن.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

(الشرح)

فهذا يدل على ذهاب الإيمان، عدم هنا بمعنى ذهاب وانتفاء الإيمان، فالذي لا يؤمن بشيء من الأسماء والصفات فهذا ليس بمؤمن.

(المتن)

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

(الشرح)

المنكِر لا يُنكر ذلك صراحة، ولكن تحديثه بمثل هذه الأمور يؤدي إلى الإنكار، لأنك حدثته بما لا يدركه عقله.

(المتن)

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك، وأنه هلك.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

(الشرح)

هذا الباب الأربعون والأبواب التي بعده الحاجة إليها عظيمة، خاصة في هذه الأزمان التي كثر فيها نسبة النعم لغير الله لغير بارئها المنعم بها على عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فتجد بعض الناس يُنعم الله ﷻ عليه بالنعمة ثم هو يقول: لولا فلان ما كانت هذه النعمة، وهذا قد يقدح في توحيد العبد أصلِه أو كماله، فلما كان الأمر بهذه

الصورة احتاج الناس إلى أن يجاهدوا أنفسهم حتى تُقر ألسنتهم بعد قلوبهم بنسبة النعمة إلى الله ﷻ.

وهذا من تمام شُكر النعمة، فشكر النعمة قائم على أركان ثلاثة:

- الركن الأول: الاعتراف بالقلبِ أن المُنعِم هو الله ﷻ.
- الركن الثاني: أن يتحدث بها ذاكرًا بلسانه أن النعمة سببها الله ﷻ.
- الركن الثالث: أن يستعين بها على طاعة الله، فإذا رزقه الله الصحة استعان بها على طاعة الله، مالًا استعان به على طاعة الله، ولدًا صالحًا، زوجة صالحة، يستعين بهذه النعم على طاعة الله.

ولذلك كان سيد الاستغفار من أفضل الأدعية، لأنك لو نظرت فيه تجد فيه اعترافًا بالنعمة، أن المُنعم هو الله، واعترافًا بالتقصير في شُكر هذه النعمة، لأن نِعم الله لا تُحصى، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اللّٰهم أنت ربي، لَا إِلَهَ إِلَّا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك عليَّ»**، ما معنى أبوء؟

أي اعترف لك بنعمتك عليَّ، **«وأبوء بذنبي»**، وهو التقصير في شكر هذه النعمة.

فهذه أركان شُكر النعمة، فالإنسان ينبغي له أن ينسب شُكر النعمة إلى الله ﷻ، إلى مسبِّبها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن أنكر نِعم الله ﷻ بقلبه ولسانه فهذا كافر ليس معه من الدين شيء، الذي يُنكر النعمة بقلبه ولسانه، هذا كافر، يجحد نعمة الله ﷻ، يقول: أُوتيته كابرًا عن كابر، أُوتيته على علم عندي، عياذًا بالله هذا كافر بالله.

ومن أقر بقلبه أن النِّعم كلها من الله ﷻ، ثم هو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها لنفسه أو لعمله أو لغيره من المخلوقين: فهذا يجب عليه أن يتوب وأن يجاهِد نفسه، فإن الإيمان لا يكمل ولا يتحقق إلا بإضافة النعمة إلى الله ﷻ.

لأن النعم كلها من الله، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ومن هذه تفيد النص في العموم، كل نعمة من الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فالنِّعم كلها من الله ﷻ، وهذا يستلزم منك ماذا؟ أن تنسبها إلى الله ﷻ بقلبك ولسانك، فإن كان الأمر بخلاف ذلك وقعت فيما يقدح في توحيدك، ويؤدي إلى نقصانه.

إلا إن كان الأمر من باب الخبر لا من باب النسبة ونسيان المسبِّب؛ لأن النبي ﷺ ثبت عنه أنه قال: «ما نفعني مالٌ ما نفعني مال أبي بكر»، هل النبي ﷺ نسي المسبب الذي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعلَّق بالسبب؟

لا فالنبي ﷺ يقول ذلك من باب الخبر فقط، لم يتعلق قلبه بهذا السبب، فإن كان الأمر من باب الخبر فهذا جائز.

وأما إن كان من باب النظر إلى السبب دون ذكر المسبب والمنعم الذي هو الله ﷻ فهذا هو الذي فيه الخطر.

قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، يعرفون نعمت الله أي يدركونها بوصولها إليهم.

الإنسان كيف يعرف النعمة؟

بوصول النعمة إليه، وتلبُّسه بهذه النعمة، وتمتُّعه بها، ثم بعد ذلك ينكرونها، فالإنكار هنا معناه: أن يضيفوها للسبب دون المسبب، وهذا على أنواع كما سيأتي.

(المتن)

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي.

(الشرح)

فينسب الأمر للسبب وينسى المسبب قدرًا وشرعًا، مَن الذي أثبت لك هذا الميراث في الشرع في الكتاب والسُنة؟

من الذي أنزل آيات المواريث؟

الله ﷻ.

من الذي أجرى لك هذا المال بموت فلان؟ فله الفضل شرعًا وقدرًا، فينسى هذا الفضل، وينسب الأمر إلى نفسه، يقول: هذا مالي ورثته عن آبائي.

أما إن كان لمجرد الإخبار: فلا شيء في ذلك.

يعني قيل له: من أين لك هذا المال؟ قال: ورثته عن آبائي، شك الناس هل سرقه؟ هل أخذه من باب حرام؟ فقال: ورثته عن آبائي، فهذا لا شيء فيه.

وقوله: هو قول الرجل، لا يعني أن المرأة لا تدخل في ذلك، المرأة والرجل سواءً.

يعني لو قالت المرأة هذا الكلام فهي كالرجل.

(المتن)

وقال عون بن عبد الله: يقولون.

(الشرح)

أي في تفسير هذه الآية، وهذا كله من باب التفسير بضرب المثل، وهو معروف عند السلف، أنهم أحيانًا يفسرون الآية بضرب المثل.

(المتن)

فيقولون: لولا فلان لم يكن كذا.

(الشرح)

لولا الطبيب الفلاني لم يُشف ولدي، فهذا كذلك إن كان من باب الإخبار فلا شيء فيه.

إن كان من باب النظر إلى السبب دون المسبب الذي أجرى الشفاء على يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا من الشرك الأصغر.

إن كان جحدًا لفضل الله ﷻ فهذا من الشرك الأكبر.

(المتن)

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

(الشرح)

أي هذه النعمة بشفاعة الآلهة الباطلة، وهذا القول أخبث الأقوال، يعني الذي يصل إلى هذا الحد هو من المشركين، لأنه أضاف النعمة إلى الآلهة والأصنام الباطلة.

(المتن)

وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «إن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، الحديث، وقد تقدم، وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به.

(الشرح)

الله ﷻ ضرب له مثلًا في سورة الزمر، مثَّله الله ﷻ بالعبد والسيد، هذا العبد الذي يُنعم الله عليه، ثم هو بعد ذلك يضيف النعمة إلى غيره، يُسدي النعمة إلى غيره، فيتنازعه شركاء متشاكسون.

أما العبد الموحد فلا يصرف عبادته وشُكره للنعمة إلا إلى خالقه وربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالله ﷻ في الكتاب والسُنة يذم من يضيف إنعامه إلى غيره، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخُذل.

فيتعلق به في حصول نفع أو اندفاع مكروه، لأن الواجب على المسلم أن يعلق قلبه بالله، وما العباد إلا أسباب سخرهم الله ليُجري النعم على أيديهم.

فلا يحمل ذلك المرء على نسيان المسبب والمُنعم، والمسبب والمُنعم من باب الإخبار عن الله ﷻ، لا التسمية فتنبه.

(المتن)

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير.

(الشرح)

يقولون: كانت الريح طيبة، يعني السفينة إذا وصلت آمنة، ما سبب وصولها آمنة؟ يقولون: كانت الريح طيبة، فجعلت السفينة تجري جريًا حسنًا، أو كان الملاح وهو الذي يُجري السفينة في الماء المالح، ولذلك سُمي حاذقًا.

فكذلك ينسون المسبب سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، هذا كله مما ينبغي أن تُطهر منه الألسنة.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

(الشرح)

قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، فجمعوا بين المعرفة والإنكار، والإنسان قد يجتمع فيه بعض الصفات وأضدادها، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، فيجتمع عنده إيمان وشرك أصغر.

وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب»**، فيكون عنده إيمان ونفاق، أعني نفاقًا أصغر.

يكون طائعًا لله عَزَّ وَجَلَّ بصلاة وصيام وغير ذلك عاصيًا له بفعل المعاصي.

فكذلك هاهنا يعرفون نعمة الله بقلوبهم ثم هم ينكرونها بألسنتهم بنسبتها إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

(الشرح)

وهذا الباب كذلك كالباب الذي قبله، أراد المصنف به أن يبين أن من الشرك الأصغر ما يقع في الألفاظ كالحلف بغير الله، والتشريك بين الله وخلقه في الألفاظ، يقولون: لولا الله وفلان، وهذا بالله وبك، ولولا الدواء الفلاني مثلًا لهلكت، فهذا كذلك من الشرك الأصغر:

يحلفون بغير الله أو يُشرِّكون بين الله ﷻ وغيره من الخلق، والواجب إضافة هذه الأمور وإضافة وقوعها إلى الله ﷻ.

ومرد هذه الأسباب إلى إرادة الله ﷻ، فالواجب في مثل هذه الأمور في نسبة الفضل: أن يذكر الله أولًا، ثم يذكر السبب بما يدل على التراخي، فيقول: لولا الله ثم فلان، كما سيأتي في الأحاديث، ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره، كما قال السِعدي.

لأن ثم هذه تفيد التراخي، فإذا ذكرت الله ﷻ فهذا يحملك على تذكر القضاء والقدر وأن الأمر كله بيد الله ﷻ، ثم تفيد التراخي فتعلم أن هذا السبب من قضاء الله وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فقال في هذا الباب: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، ما النِّد؟ الشبيه والنظير في العبادة، هذا الذي يسمى بالند.

فينهى الله ﷻ في هذه الآية عن جعل نِدٍ شبيه لله ونظير تُصرف له العبادة، وهذا هو تفسير الآية بالمعنى.

وأما تفسيرها بالمراد، يعني ما المراد من هذا النهي؟ فهو ما ذكره ابن عباس بعد ذلك.

(المتن)

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: الأنداد: هو الشرك.

(الشرح)

يعني يريد أن يقول: أراد الله ﷻ النهي عن الشرك، ففسَّر الآية بالمراد منها لا بمعناها، لأن المعنى أن الند هو الشبيه والنظير، كما قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فابن عباس فسر الآية بالمراد، قال:

(المتن)

الأنداء: هي الشرك، وهو أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل.

(الشرح)

فهذا هو الشرك الخفي، ووالله لو تأمَّل المرء في هذا الوصف الذي ذكره من لا ينطق عن الهوى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلم خطورة الرياء وخطورة الشرك الخفي، نسأل الله ﷻ أن يسلِّمنا وأن ينجينا منه.

يقول: هو أخفى من دبيب النمل، هل يستطيع أحد أن يسمع دبيب النمل؟

قرِّب أذنيك من نملة على سجادة هل تسمع دبيبها؟ لن تسمع.

ائت بنملة وضعها على صخرة كبيرة وقرِّب أذنيك منها هل تستطيع أن تسمعها؟

فالأمر خفي جدًا، والشرك الخفي الذي هو الرياء أخفى من دبيب النملة، على صفاة سوداء، على صخرة سوداء، لماذا قال على صخرة سوداء؟

حتى لا تُرى، لأنها لو صارت على صخرة بيضاء ربما أثَّر وقع أقدامها على هذه الصخرة، أما على الصخرة السوداء فهذا مما لا تراه العيون في ظلمة الليل، هذا كله يدل على شدة خفاء هذا الشرك.

ولذلك علَّمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخفاء هذا الباب أن نقول: **«اللَّهم إنا نعوذ بك أن نُشرك بك ونحن نعلم، ونستغفرك لِمَا لا نعلم»**.

من الذي سأله عن ذلك؟ أبو بكر الصديق رضي الله عنه لمَّا سمع حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصف الشرك الخفي، فسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الذي يخلصني من ذلك؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قل: **«اللَّهم إنا نعوذ بك أن نُشرك بك ونحن نعلم، ونستغفرك لِمَا لا نعلم»**.

(المتن)

وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان.

(الشرح)

فهذا فيه حلف بغير الله وتشريك، وفيه محظوران:

أنه قال: وحياتك يا فلانة، وذكر الفلانة والله أعلم من باب أن المرء إذا أحب امرأة وعشقها فهذا لا يمنعه من أن يحلف بحياتها، فهذا فيه حلف بغير الله.

وأن فيه تشريكا لأنه قال: والله وحياتك، فعطف الحلف بحياتها على الحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجوز الحلف إلا بالله عز وجل أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته، والتشريك لا يجوز.

(المتن)

وحياتي.

(الشرح)

هذا كذلك، لأن هذه الواو تسمى بواو القسم، وهذه تدل على تعظيم المقسَم به على وجه لا يجوز هٰهنا، لأن الحلف لا يجوز إلا بالله عز وجل.

أما الله عز وجل فله أن يُقسِم بما شاء، أما المخلوق فلا يُقسم إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته.

وكفارة ذلك: أن يقول المرء: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، يعني إن نسي. وحلف بغير الله كفارة ذلك أن يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، كما بيّن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص.

(الشرح)

وفي بعض النُسخ: لولا كليبة هذا بالتصغير.

يقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، فهذا كذلك فيه النظر إلى السبب دون المسبب سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

(المتن)

ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص.

(الشرح)

لأن البط إذا رأى اللصوص يصرخ والإوز كذلك، فيدل على اللصوص، ويوقِظ أهل البيت، فهذا كذلك نظر إلى السبب دون المسبب.

والسلف كانوا يتكلمون بما عندهم، وبما هو واقع أمامهم، وتجد لذلك أمثلة في وقتنا الحاضر كأن يقول قائل لولا جهاز الإنذار لسُرِقت السيارة، ولولا الكاميرات لم تُكتشف السرقة.

(المتن)

وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان.

(الشرح)

فالواو الأصل فيها أنها تفيد التشريك والتسوية، فسوَّى بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق.

وإنما الذي ينبغي أن يقول: ما شاء الله ثم شئت، أو ما شاء الله وحده، ومشيئة العبد تندرج تحت مشيئة الرب سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فإذا قال: ما شاء الله ثم شئت، فقولنا:

ما شاء الله نظرٌ إلى المشيئة العامة التي لا تتخلف عنها مشيئة، ثم شئت: فهذا فيه بيان أن مشيئة المخلوق لا تخرج عن مشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ .

(المتن)

لا تجعل فيها فلانًا هذا كله به شرك، رواه ابن أبي حاتم.

(الشرح)

ما معنى قوله: هذا كله به شرك؟

أنه من الشرك الأصغر، وهذا من معهود استعمال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والصحابة.

أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا قال في أمر هو به شرك، أو قال الصحابة: فإنهم يقصدون الشرك الأصغر.

ولذلك لمَّا تكلموا في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٤]، جاء في تفسيرها: هي به شرك، فسرها الرواية الأخرى: ليس الكفر الذي تذهبون إليه، يعني الكفر الأكبر.

وجاء عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**صنفان في الناس هما بهم شرك: النياحة والطعن في الأنساب**»، فهذا من معهود الشرع يدل على أن الشرك هاهنا شرك أصغر.

قال: وقول الرجل: لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلانًا.

أي لا تجعل فيها فلانًا فقل: لولا الله وحده، لا تجعل فيها أحدًا معه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ .

(المتن)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

(الشرح)

والصحيح أنه عن ابن عمر كما نبَّه على ذلك الشيخ سليمان في التيسير، وصححه الألباني في الصحيحة، واحتج به شيخ الإسلام ابن تيمية.

ابن عمر رضي الله عنهما يقول: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

لأن الحلف تأكيد الشيء بذكر معظَّم بالباء أو التاء أو الواو، وهو شرك أكبر إن اعتقد مساواة المخلوق بالله، وإلا فهو أصغر.

وقوله: «من حلف»: هذه تفيد العموم، فيشمل كل محلوف به غير الله، فيدخل فيه حتى الحلف بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز الحلف بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا بالكعبة، ولا بغير ذلك، كفارة ذلك: أن يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

(المتن)

وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا.

(الشرح)

وهذا رواه عبد الرزاق، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواته رواة الصحيح، وصححه الألباني في الإرواء، وبعضهم يضعِّفه.

ابن مسعود يقول: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلى من أحلف بغيره صادقًا.

والحلف بالله كاذبًا يسمى باليمين الغموس، ومع ذلك ابن مسعود يقول: هذا أحب عندي من أن أحلف بغير الله صادقًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنما رجح ابن مسعود الحلف بالله كاذبًا على الحلف بغير الله صادقًا: لأن الحلف بالله توحيد، والحلف بغيره شرك، وإن قُدِّر الصدق في الحلف بغيره، حتى لو كان صادقًا في الحلف بغيره.

فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، لأنه في الحلف الكاذب سيكون موحدًا مع المعصية، وفي الحلف الصادق سيكون مشركًا مع الصدق، يقول: فحسنة

التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك، خاصة أن بعض العلماء قال: أن الشرك بجميع أنواعه لا يُغفر، حتى الشرك الأصغر.

يعني إذا وافى العبد ربه يوم القيامة لا يغفر الله شركه الأصغر، لا يدخل تحت المشيئة، وإنما لا بد أن يعذب بقدر ذنبه، ثم بعد ذلك يخرج من النار، بخلاف الكبائر، كما ذهب إليه بعض العلماء.

(المتن)

وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»**، رواه أبو داود بسند صحيح.

(الشرح)

الشاهد: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نهى، والنهي للتحريم، فدل على أن هذا الأمر محرم، لا تقولوا: ما شاء الله وشاء، لأن الواو تقتضي التسوية، فقائل ذلك يسوي بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق.

ولكن قولوا: وهذا من محاسن الشرع أنْ إذا أغلق بابًا فتح بابًا آخر، ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، هاهنا لا تقولوا: ما شاء الله وفلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان.

فالشريعة إذا سدت بابًا فتحت بابًا آخر.

بلال رضي الله عنه لمَّا باع التمر الجديد بالتمر الرديء، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ له: **«عين الربا»**، هو بدَّل هذا بهذا، ثم أرشده النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للطريقة الصحيحة، قال: **«بع هذا أولًا، ثم اشتر به»**، أي بما معك من المال جديدًا.

فالشريعة إذا أغلقت بابًا فتحت بابًا آخر.

(المتن)

وجاء عن إبراهيم النخعي، أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

(الشرح)

وهذا كسابقه.

هل المخلوق يُستعاذ به؟ يقال: أعوذ بالله ثم بك، هل المخلوق يُستعاذ به؟

نعم فيما يقدر عليه، أن يكون حيًا، قادرًا، حاضرًا.

أن يكون حيًا، فلا تجوز الاستغاثة بالميت.

حاضرًا: فلا يجوز أن تكون هنا وتستغيث بالنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو تستغيث بإنسان آخر حي في بلد آخر، لأنك بهذا أضفيت بعض صفات الربوبية عليه، لأن الذي وسع سمعه الأصوات كلها مَن؟ الله ﷻ.

وأن يكون قادرًا على فعل هذا الأمر، ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ [القصص: ١٥]، لـمَّا ذكر الله ﷻ هذه الاستغاثة دل على أنها جائزة، يجوز لك أن تستغيث وأن تستعين بالمخلوق بهذه الضوابط التي ذكرناها.

وقول إبراهيم: أنه يُكره، فالكراهة هنا بمعنى التحريم، الكراهة في لسان السلف بمعنى التحريم وليس الكراهة التنزيهية كما أشار إلى ذلك الشاطبي وابن القيم رحمهما الله.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر.

(الشرح)

آية واحدة ذُكرت في هذا الباب، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ومع ذلك ابن عباس أدخل فيها الشرك الأصغر.

لماذا أدخل فيها الشرك الأصغر؟

لأحد سببين:

- إما للعموم الذي في الآية من جهة اللفظ، ففي الآية عموم من جهة اللفظ، وبالتالي يدخل فيها الأصغر والأكبر، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وأندادًا هذه نكرة في سياق النهي، فتعم كل ند صَغُر أو كبر.
- وإما للعموم المعنوي، يعني يُقاس الشرك الأصغر على الشرك الأكبر في قُبحه والنهي عنه، كما بيَّن ذلك الشاطبي في كتابه الاعتصام.

ولذلك السلف كما قلنا في الدرس الماضي: كانوا يُدخلون أهل البدع في الآيات التي نزلت في الكفار والمشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، نزلت في المشركين، ومع ذلك يُستدل بها على تحريم الأحزاب، وتحريم الفِرَق.

إما أنهم يدخلون من جهة العموم اللفظي إن الذين فرَّقوا دينهم، وهؤلاء فرَّقوا دينهم، وإن كانت الآية نزلت في المشركين.

أو لأنهم شابهوهم، فهنا العموم من جهة المعنى، والعموم المعنوي يُقصد به القياس، نفي الفارق بين هذا وذاك في العلة.

(المتن)

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا، فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

(الشرح)

فثُم تؤذِن بنزول المعطوف رتبة عن المعطوف عليه.

(المتن)

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.

(الشرح)

أي ما جاء من الوعيد، لأن ذلك يدل على قلة تعظيم هذا الشخص لربه تبارك وتعالى، يُحلف له بالله، ثم هو لا يقنع ولا يرضى بهذا الحلف.

فأراد المصنف بهذه الترجمة أن يُكمِل ما تقدم من تعظيم الله وتحقيق توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا الباب والأبواب التي قبله وبعده إنما هي في إكمال توحيد الله تبارك وتعالى.

في الأبواب التي سبقت هذا الباب تكلم في حكم من حلف بغير الله، فهذا كذلك يدل على قلة تعظيم الله ﷻ، فاستبدل الحلف بالحلفِ بغيره.

وقلنا: إن هذا من الشرك، لأن الحلف في أصله يعني التعظيم.

وأما في الباب الذي معنا اليوم فذكر فيه ما يدل على تعظيم الحلف بالله تبارك وتعالى، فالذي يُحلف له بالله ينبغي أن يُعظِّم ذلك وأن يرضى وأن يقنع بهذا الحلف.

والمرء ينبغي له كما بينا مرارًا ألا يحلف إلا بالله، أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته فيقول: والله، والرحمن، أو ورب العزة، فيحلف باسم من أسمائه أو صفة من صفاته.

أما أن يحلف بالمخلوق فهذا لا يجوز، والله ﷻ له أن يحلف وأن يُقسم بما شاء، بخلاف المخلوق.

ولذلك جاء في القرآن: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، وهذه الواو تسمى بواو القسم، ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١]، ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]، وكل هذه أقسام من الله ﷻ.

المخلوق لا يجوز له أن يقسم لا بالكعبة، ولا بأي مخلوق من الخلق حتى لو كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا حُلف للمرء بالله فعليه أن يرضى.

فالأصل في ترجمة هذا الباب أن تكون موافقة لحديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالحديث الذي في الباب يقول فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ومَن حُلف له بالله فليرضى»**، ومع ذلك عدل عنه المصنف وذكر القناعة. لم يذكر الرضا وإنما ذكر القناعة.

كان الأصل أن يقول في الترجمة: باب ما جاء فيمن لم يرض بالحلف بالله، وأن يوافق حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لماذا عدل؟ وهذا من فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال بعض الشراح: لأن القناعة هي باب الرضا وسبيله، فالقناعة ابتداءً، ثم بعد ذلك يكون الرضا، فإذا نفى الأدنى وهي القناعة فهذا يستلزم الأعلى وهو الرضا.

الرضا درجة أعلى من القناعة، إنسان قد يقتنع ولا يرضى، الرضا درجة أعلى، فإذا نفى الأدنى دل ذلك على نفي الأعلى.

(المتن)

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»**، رواه ابن ماجه بسند حسن.

(الشرح)

وصحح إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة، وكذلك صححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيح ابن ماجة.

في هذا الحديث يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تحلفوا بآبائكم»، وهذا نهي من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنهي يقتضي التحريم، وهذا الأمر كان معتادًا عند أهل الجاهلية أنهم كانوا يحلفون بآبائهم تعظيمًا لهم، فنهاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وبيَّن ذلك أنه لا يجوز أن تحلف إلا بالله.

ثم قال: «من حلف بالله فليصدق»، فالأصل في المسلم أنه إذا حلف لا يحلف إلا على أمر صِدق، فإنه لو كذب ثم حلف على هذا الكذب فهذا يسمى باليمين الغموس، لأنه يغمس صاحبه في النار.

وفي الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أُذن لي أن أحدِّث عن ملك على هيئة ديك، رأسه مثنية تحت العرش، ورجلاه في الأرض، والملائكة خلقها عظيم».

يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أن هذا الملك خلقه الله ﷻ على صورة ديك، رأسه مثنية تحت العرش، ورجلاه قد وصلت إلى الأرض، ما عبادة هذا الملك؟ يقول: سبحانك ما أعظمك، فيرد الله ﷻ قائلًا: ما علم ذلك مَن حلف بي كاذبًا.

يعني لا يعلم عظمة الله ﷻ من يحلف بالله ﷻ كاذبًا، يكذب وهو يعلم أنه كاذب، ثم بعد ذلك يعقد الأيمان على هذا الكذب.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن حلف بالله فليصدُق، ومن حُلف له بالله فليرض»، فالمرء إذا حُلف له بالله يجب عليه أن يرضى.

قيل: إن ذلك عام في جميع الأمور؛ أنه إن حُلف لك في كل أمرٍ سواءٌ كان أمام القاضي أو كان من جارك أو من صديقك أو من أخيك، حلف لك بالله فعليك أن ترضى.

وقيل: إن ذلك إنما هو إذا توجَّه اليمين إليه، توجه اليمين لأحد المتخاصمين.

هناك خصم لي أمام القاضي، فحلف هذا الخصم: والله ما أخذت هذا الجهاز، فحلف لي بالله، فالواجب عليَّ أن أرضى بهذا القَسَم وبهذا الحلف.

وقيل: إنه يُفرَّق بين مَن ظاهره الصدق وظاهره الكذب.

فلو أنك تعلم أن هذا الإنسان لا يصدق إلا نادرًا، والأصل فيه الكذب، فلا يجب عليك أن ترضى بقسمه وحلفه إذا حلف لك، لماذا؟ لأنك تعلم أنه لا يتورع عن الكذب وعن الحلف على هذا الكذب.

ولذلك في المثل عندنا يقولون: قالوا للحرامي: احلف، قال: جاءك الفرج، لأن الأصل عنده الكذب، فإن كان الأصل عنده الكذب وهذا مجرب عليه، فلا يجب عليك أن ترضى بهذا الحلف.

لماذا؟ لأنك تعلم أنه كاذب.

أما إن كان صادقًا، وهذا تعلمه منه، أو إن غلب على ظنك أن هذا الرجل صادق، فيجب عليك أن ترضى بهذا الحلف.

ثم بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزاء مَن لم يرض بالحلف بالله، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن لم يرض**»: يعني من لم يرض بهذا القسم العظيم، قال: «**فليس من الله**»، وهذا وعيد شديد، يدل على أن عدم الرضا بالحلف بالله كبيرة من الكبائر.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

(الشرح)

قلنا: هذا في حالة أن يعلم صدق هذا الذي حلف أو غلب على ظنه.

(المتن)

الثالثة: وعيد من لم يرض.

(المتن)

باب قول: ما شاء الله وشئت.

(الشرح)

أراد المصنف رحمه الله بيان حكم هذا القول؛ أن يقول الإنسان: ما شاء الله وشئت.

والذي يظهر والله أعلم أنّ هذه الترجمة بهذا العنوان داخلة في الترجمة التي قبلها، وهي قول الله ﷻ: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

إنسان قال لك: هل تريد مني أن أفعل كذا؟ قلت: ما شاء الله وشئت، أو إن شاء الله وشئت، فجمعت بين مشيئة الله ومشيئة العبد بالواو التي تقتضي المشاركة.

فما حكم هذا القول؟

إن كان القائل يعتقد أن المخلوق مساوٍ لله ﷻ في مشيئته، فهذا كفر أكبر عياذًا بالله.

وإن اعتقد غير ذلك: يعني اعتقد أن مشيئة الله أعلى من مشيئة العبد، ولكنه وقع في هذا التشريك بالواو: فهذا شرك أصغر.

(المتن)

عن قتيلة.

(الشرح)

وهي قُتيلة بنت صيفي الأنصارية، صحابية مهاجرة.

(المتن)

قالت: إن يهوديًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة.

(الشرح)

هـذا الأمـر كـان جاريًـا عـلى ألسـنة العـرب قبـل أن ينـزل النهـي، اعتـادوه في جاهليتهم، يحلفـون بالآباء والكعبة لأنهم يُعظِّمونهم بالإضافة لقولهم: ما شاء الله وشئت.

(المتن)

فـأمرهم النبـي صـلى الله عليـه وسـلم إذا أرادوا أن يحلفـوا أن يقولـوا: **«ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت»**، رواه النسائي وصححه.

(الشرح)

فبدلاً من أن تقول: والكعبة قل: ورب الكعبة، وبدلاً من أن تقول: والنبي قل: ورب النبي، وهكذا.

وأن يقولـوا: مـا شـاء الله ثـم شـئت، وهـذا رواه النسـائي وصـححه، وصـححه الألباني كذلك في الصحيحة.

فهذا الحديث فيه فوائد:

- هـذا اليهـودي جـاء إلى النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقـال لـه: إنكـم تشرـكون تقولـون: كذا، فهل قَبل منه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحق أم لم يقبل؟

قَبل منه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحق، ولم يقل له: أنت يهودي لن أقبل الحق الذي معك، ولذا فينبغي للإنسان أن يقبل الحق ممن جاء به كائنًا مَن كان، حتى لو كان عدوًا له، واليهود أشد الناس عداءً للذين آمنوا، ومع ذلك قَبِل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه الحق.

ولـمَّا جاء الشيطان أبا هريرة كما في حديث الصدقة عند البخاري وغيره: وأمسكه في المرة الثالثة علَّمه أن يقول قبل أن ينام: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فـلا يـزال عليـك مـن الله حـافظ حتـى تصـبح، فلـما أخـبر أبـو هريـرة النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا قال؟

قال: «صدقك وهو كذوب»، يعني هذا القول الذي جاء به هو قول حق، ولكن الأصل في الشيطان أنه يكذب.

- وفيه كذلك: أنه لَا يجوز الحلف بالكعبة أو غير ذلك.

ومَن نسي وأخطأ ماذا يقول؟ ما كفارة ذلك؟

يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وإذا ذُكِّر فيجب عليه أن يقبل هذا التذكير.

لأن بعض الناس تقول له قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، يقول: محمد رسول الله.

قل: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، كفارة لهذا الخطأ وهذا الذي وقعت فيه، يقول: محمد رسول الله.

الإنسان إن أخطأ ونسي. إن تذكر قال: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وإن ذكَّره غيره عليه كذلك أن يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله.

- وهذا فيه رد كذلك على العلمانيين والملاحدة الذين يقولون: إن عبادة الحج عبادة وثنية، لأنك تُعظِّم حجرًا، وتُقبِّل حجر، وتطوف حول البيت الكعبة، وتسعى بين حجرين بين الصفا والمروة، يقولون: هذه العبادة كلها وثنية.

نقول: في هذا الحديث رد عليهم، لأن المسلمين لو كانوا يعظِّمون الأحجار لَمَا نهاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يقولوا: والكعبة، والحلف تعظيم، ومع ذلك نهاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

ثم يرد عليهم كذلك أنهم لمَّا بنوا الكعبة ما أدخلوا فيها شيئًا من الربا ومن الأموال المحرمة التي كانوا يتكسبونها في الجاهلية، ولذلك قصرت بهم النفقة عن إكمال الكعبة.

ولذلك تجد حِجر إبراهيم، هذا الحِجر لا يجوز لك أن تطوف من داخله، الطواف لا يكتمل إذا طُفت من داخله، لأنه من الكعبة.

لماذا عجزت قريش عن إكمال الكعبة؟ لأن النفقة قصرت بهم، ما أرادوا أن يُدخِلوا في الكعبة إلا كل طيب حلال، فلم يكونوا يعبدونها، ولم يكونوا يتخذونها وثنًا، وعندنا أثر عمر رضي الله عنه في ذلك.

● وفي هذا الحديث أيضًا: تغيير الشيء إلى شيء قريب، يعني لو غيَّرت أمرًا لشخص تُغيِّره إلى شيء قريب، يسهل عليه أن يفعله.

كانوا يقولون: والكعبة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم: قولوا: ورب الكعبة، فإذا وجدت إنسانًا يقول: والنبي، فقل له: قل: ورب النبي، هذا أسهل أن يجري على لسانه، ومن ثَّم يتدرج به الأمر إلى أن يحلف بالله تبارك وتعالى.

● وفيه كذلك: أن الشرع إذا أغلق بابًا فتح بابًا آخر، إذا أغلق بابًا محرمًا أو لا يجوز: فتح بابًا آخر، نهاهم عن أن يقولوا والكعبة، وقال لهم قولوا: ورب الكعبة، نهاهم عن أن يقولوا: ما شاء الله وشئت، قولوا: ما شاء الله ثم شئت، أو قولوا: ما شاء الله وحده.

وفي القرآن: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤].

ولكن هاهنا إشكال: وهو: كيف لم ينبه على الشرك إلا اليهودي؟ لأن الحلف بغير الله شرك أصغر، ومع ذلك ما نبه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بعد أن ذكر له اليهوديُّ هذا الأمر.

والجواب عن ذلك من وجهين:

- أما الوجه الأول: فالله عز وجل أراد ابتلاء اليهود بذلك؛ فاليهود يقعون في الشرك الأكبر، ومع ذلك يُنكرون الشرك الأصغر، فكأن الله عز وجل أراد ابتلاءهم بذلك.

ولذلك لمَّا جاء اليهودي الحبر إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال: يا محمد، إن الله يضع السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، أي يوم القيامة، والثرى على إصبع، ضحك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تعجُبًا من قول هذا الحبر.

أتُقر بكل ذلك ثم تقول: عزير ابن الله؟! وتشركون بالله تبارك وتعالى؟

ولذلك قرأ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧].

فانظر إلى هذا اليهودي جاء ينكر على المسلمين الشرك الأصغر ويغفل أو يتغافل عن شرك أكبر هم واقعون فيه.

- وأما الجواب الثاني: فهو كما بعض العلماء: إن الألفاظ المخالفة للشرع والتي فيها شرك أصغر تدرج فيها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مراعيًا للأهم فالمهم، بخلاف الشرك الأكبر، فلم يكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسكت على شرك أكبر مطلقًا، وإنما الشرك الأصغر خاصة في شرك الألفاظ: فهذا كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتدرج فيه بحسب المصلحة وبحسب ما يصل إليه، وكان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مثل هذه الألفاظ لا يتقدم بين يدي الله ﷻ، كما هو حاله في سائر الأوامر والنواهي والأحكام، لا يُشرِّع أمرًا إلا إذا نزل له الوحي ببيان هذا الحكم.

أما الشرك الأكبر فهو واضح جلي لكل أحد، مستقبح في الفِطر والعقول والشرائع.

(المتن)

وله أيضًا.

(الشرح)

أي للنسائي.

(المتن)

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت، فقال: **«أجعلتني لله ندًا؟، ما شاء الله وحده»**.

(الشرح)

ففي هذا الحديث أيضًا كسابقه أنه لا يجوز أن يُعظَّم شخص بأن يساوَى بالله ﷻ في المشيئة، ولو كان النبي ﷺ هو هذا الشخص، فكيف بمن هو دون النبي ﷺ؟ كما سيأتي من مسائل هذا الباب من قول البوصيري للبدوي، وكذلك من قول بعضهم يخاطب البدوي صاحب القبر المعروف عندنا.

يقول له:

إني أتيتك من بلاد قد نأت　　أطوي المهابة عاشقًا ولهَانَا

بتنا بساحتِك التي وفدت لها　　عربٌ وعجمٌ إنسُها والجانا

بتنا بساحتك: أي بات عند قبر البدوي يذبح ويُشرك بالله ﷻ ويطوف حول القبر، يقول: عرب وعجم، بات هناك العرب والعجم، إنسها والجانَ: كذلك الإنس والجان.

ويقول بعضهم: إني أتيت يا أبا الفتيان　　من خطبٍ أهاج القلب من حسرات

ما لي سواك أرتجي في كشف الضر　　إن خفت من وثباتي.

يقول: ما لي سواك أرتجي في كشف الضُر: لا يرتجي كشف الضُر إلا من صاحب القبر، إلا من البدوي عياذًا بالله.

والنبي ﷺ وهو النبي يقول له الرجل: ما شاء الله وشئت، يقول له النبي ﷺ: **«أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده»**.

ما حكم هذه الجملة: ما شاء الله وشئت؟

قلنا: إنها قد تكون من الشرك الأصغر ، وقد تكون من الشرك الأكبر.

كيف يعدل المرء عنها؟ كيف يصحح هذه اللفظة؟

عنده أمران: أمر جائز، وأمر فيه الكمال، وهو من تحقيق كمال الإيمان:

- أما الأمر الجائز: فأن يقول: ما شاء الله ثم شئت، فيأتي بثم التي تفيد التراخي، ليبين أن مشيئة العبد لا تنفك عن مشيئة الله ﷻ ولا تساوي مشيئة الله ﷻ.
- وأما وجه الكمال: أن يقول كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما شاء الله وحده»**، فالأمر أولًا وآخرًا يرجع إلى مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالبصير يختار لنفسه أعلى المراتب في مقام التوحيد والإخلاص، وأعلى المراتب في مقام التوحيد والإخلاص أن تقول: ما شاء الله وحده.

(المتن)

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها.

(الشرح)

وهو الطفيل بن عبد الله بن صخبرة، صحابي ليس له إلا هذا الحديث، وهو الذي يسمى في المصطلح بالوحدان، يعني له حديث واحد في كتب السُنَّة، وهو أخو عائشة رضي الله عنها لأمها.

(المتن)

قال: رأيت كأني أتيت على نفرٍ من اليهود، فقلت: إنكم لأنتم القوم.

(الشرح)

وهذا أسلوب مدح.

(المتن)

إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم.

(الشرح)

يعني المسلمين.

(المتن)

لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مررت بنفر من النصارى.

(الشرح)

هذا أيضًا في الرؤيا.

(المتن)

فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت.

(الشرح)

أي كلما قابل رجلًا أخبره.

(المتن)

قال: ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل أخبرت بها أحدًا؟**»، قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد؛ فإن طفيلًا رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده**».

(الشرح)

وهذا الحديث رواه أحمد وابن أبي شيبة، وهو حديث صحيح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صححه الألباني كذلك في السلسلة الصحيحة.

هذا الحديث كسابقه، فاليهود يقعون في الشرك الأكبر، والنصارى كذلك ويعارِضون المسلمين بما وقعوا فيه من الشرك الأصغر.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل أخبرتَ بها أحدًا؟**»، إنما سأله لأنه لو كان ما أخبر أحدًا لنهاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إخبار أحدٍ إذا كان الأمر مقتصرًا عليه، وإن كان أخبر بها غيره فعلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبين حكم هذا الأمر.

قال: فحمد الله وأثنى عليه، وهذا فيه تقديم حمد الله والثناء عليه في الخُطب، الإنسان إذا خطب يقول: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، يقدِّم بين يدي كلامه خطبة الحاجة: من الحمد لله، والثناء عليه، وهذا في سائر خُطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك بيَّن العلماء أنه ليس من السُنَّة أن يبدأ الخطيب خطبة العيد بالتكبير، أول ما يبدأ خطبة العيد يقول: الله أكبر الله أكبر، هذا ليس من هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما بيَّن ذلك ابن القيم في زاد المعاد.

فكانت خُطبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبدأ بحمد الله والثناء عليه.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها»**، جاء عند أحمد أنه قال: **«كان يمنعني الحياء»** أن أمنعكم من قول كذا وكذا، فأي حياء هذا الذي كان يمنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إنكار هذه الكلمة؟

هل حياؤه من أن ينكر الباطل؟ حاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي كان إذا أمر بأمرٍ كان أول المُؤتمَرين، وإذا نهى كان أول المنتَهين، وإذا وعظ كان أول الموعوظين، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال الشاطبي في الاعتصام.

وإنما الحياء الذي كان يمنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن ينهى عن هذه الكلمة: حياؤه من الله ﷻ من أن يتقدم بحكم بين يديه.

قلنا: لأن شِرك الألفاظ أو أن الخطأ في الألفاظ كان النهي فيه يأتي بالتدريج، بخلاف الشرك الأكبر.

قال: **«فلا تقولوا»**: وهذا فيه نهي للتحريم، ولكن قولوا، إذًا لمَّا نهاهم عن شيء بيَّن لهم المخرج.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

(الشرح)

من أين أخذها؟ من فِعل اليهود والنصارى، فهموا أن هذا القول شرك أصغر، لماذا؟ لأنه وافق هواهم، ما هواهم؟

أن يعترضوا على المسلمين، وأن يجدوا نقيصة عند المسلمين، فلما وافق هواهم فهموا وأنكروا، ولما كان التوحيد مما يخالف هواهم ما فهموه وأعرضوا عنه، ولذلك وصفهم الله ﷻ بأنهم لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها. هل ليس عندهم قلب، ولا أُذن ولا سمع ولا بصر؟ عندهم، كيف يعيش؟

إنما لا يفقهون بها المراد من هذه النصوص، أعرضوا عنها.

وأما إن وافقت هواهم فإنهم يفهمونها خير الفهم، وكذلك كل مخالف للحق إذا وجد الدليل يوافق هواه تجد عنده فهمًا ثاقبًا صحيحًا لهذا الدليل إذا وافق هواه.

وأما إن خالف هواه فربما لا يقرأه أصلًا، لا أقول لا يتدبره، بل لا يقرأه أصلًا، لا يحب أن يقرأه وأن ينظر فيه.

ولذلك مما هو مأثور عن الجعد بن درهم أو الجهم بن صفوان –وبئس الأثر– أنه كان ينكر علو الله ﷻ على خلقه وينكر الاستواء، فكان يقول في قول الله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، يقول: لوددت أني حككتها من المصحف، يتمنى أن يحذفها وأن يزيلها من المصحف، لماذا؟

لأنه لا يريد أن يقرأ ما يخالف هواه ومعتقده الفاسد.

فكانوا لا يقرؤون هذه النصوص، وإذا قرؤوها لا يعيرونها اهتمامًا أو يردونها.

ودخلت امرأة الجهم ذات يوم، وكانت مثله على ضلاله، دخلت على زوج مكي بن إبراهيم شيخ البخاري، فوجدتها تقرأ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وكانت امرأة الجهم امرأة صاحبة أسنان بارزة.

فلما سمعت زوجة مكي بن إبراهيم تقرأ هذه الآية: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، قالت: هذا العرش من الذي نجَّره؟

قالت: الذي نجَّره هو من نجَّر أسنانكِ.

فإما أن يستهزئوا بهذه النصوص أو يردوها.

وانظر إلى اليهود والنصارى ماذا فعلوا في هذا الحديث؟ ينكرون على أمة الإسلام هذه الألفاظ التي هي من قبيل الشرك الأصغر ويتغافلون عمَّا هم واقعون فيه، ولا شك أن هذا من باب الهوى.

وهذا الحديث قلنا: فيه أن الحق يُقبل من أي أحد ولا يُرد لأن صاحبه من الضُلَّال.

ولذلك كانت القاعدة عند أهل السُنَّة: قبول الحق من أي أحد كائنًا مَن كان، وأن البدعة لا تُرد ببدعة مثلها، لأنك لو رددت عليه وقلت له: ما قصدوا ذلك وإنما قصدوا كذا وكذا وتأولت لقولهم لرددت البدعة والمخالفة بمخالفة أخرى.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتأول لقول المسلمين الخاطئ، وإنما قَبل الحق كما سبق بيانه.

(المتن)

الثالثة: قوله صلى الله عليه وسلم: «أجعلتني لله ندًا؟».

(الشرح)

وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

فكيف بمن قال:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حدوث الحادث العمم

والبيتين بعده.

(الشرح)

من الذي قال ذلك: البوصيري، نظم قصيدة تُسمى بالبُردة في مدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي قصيدة مليئة بالشركيات.

مما قاله في هذه القصيدة:

يا أكرم الخلق: كلام جميل، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكرم الخلق.

ما لي من ألوذ به: يعني لا يوجد لي أحد ألوذ به وألتجئ إليه.

سواك عند حدوث الحادث العمم: يعني الحادث العظيم.

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها   ومن علومك علمَ اللوح والقلم

من جود النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدنيا، هذه الدنيا وخلق الدنيا من فيض وجود النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضرتها، ما عكس الدنيا؟ الآخرة، الدنيا والآخرة.

ومن علومك: ومن هذه تبعيضية، يعني من بعض علومك علم اللوح والقلم، اللوح المحفوظ هذا فيه ما قدَّره الله ﷻ قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، مقادير الخلائق في هذا اللوح المحفوظ، ومن علومك علم اللوح والقلم، فماذا ترك هذا الرجل لله ﷻ؟

ما ترك شيئًا لله، يخاطب بذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس: ٤٩]، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«أجعلتني لله ندًا؟»**.

ولذلك قال بعض العلماء: والله يقولون كلامًا لو سمعه أبو جهل لاستهزأ بهم ولأنكره عليهم لشدة غلوهم.

ولذلك فارق مشركو الزمان مشركي الجاهلية في عدة أمور:

من هذه الأمور: أن مشركي الجاهلية كانوا يشركون بالله في الرخاء فقط، أما إذا ركبوا البحر دعوا الله مخلصين له الدين.

في الشدة يلجأ إلى الله ﷻ.

نحن الآن عندنا القبوريون في الشدة قبل الرخاء يلجئون إلى الولي، بل إذا أصابته شدة يقول: إن ذلك بسبب أنني لم أذهب إلى المولد، أو لم أذبح في هذا العام، أو لم أفعل كذا وكذا عياذًا بالله.

ثم إن مشركي الجاهلية لو نظرت في أصنامهم لوجدتها أصنامًا لمعظمين عندهم:

فمنهم من كان يلت السويق للحجيج، رجل صالح، كان يصنع الطعام للحجيج، الذي هو اللات، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، هؤلاء كانوا قومًا صالحين عُبدوا.

مشركو الزمان في هذه الأيام يعبدون ويشركون بكل أحد، يعني البدوي هذا لا تجد له ترجمة مسندة تبين لك حقيقته، وقيل إنه كان عميلًا للكفار، وقيل: أنه كان يسير في الطريق عُريانًا، ويخطب على المنبر عريانًا، عياذًا بالله، وغير ذلك من الأمور.

يعني كان فاسقًا ومع ذلك يعظمونه، ومولد البدوي يُعقد مرتين في السنة، مرة في شهر يناير، ومرة أخرى في شهر أكتوبر، لا ندري هل وُلد مرتين أم ماذا؟

ملايين يشدون الرحال لهذا المولد عياذًا بالله، والنبي ﷺ يقول: **«أجعلتني لله ندًا؟»**.

ولذلك كان ﷺ إذا استشعر أن الغُلو قد يتسرَّب لقلب أصحابه يقول: **«أشهد أني عبدٌ»**، ويقول: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم»**، ﷺ.

(المتن)

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يمنعني كذا وكذا».

(الشرح)

فلو كان من الشرك الأكبر لما سكت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

(الشرح)

الإنسان إذا رأى رؤيا صالحة فهذه بُشرى الله ﷻ لهذا العبد، وإذا تقارب الزمان لا تكاد تُخطئ رؤيا المرء كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يعني عند اقتراب الساعة وظهور الفتن رؤيا الرجل الصالح لا تكاد تُخطئ، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن هذا من البشريات ومن التثبيت.

فالرؤيا الصالحة من أقسام الوحي، كيف هي من أقسام الوحي؟

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة».

كم كانت بِعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ما مدة الرسالة؟ ثلاثة وعشرين عاماً.

اضرب ثلاثة وعشرين في اثنين يساوي ستة وأربعين، فإذًا كانت بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة وأربعين جزءًا في الثلاثة وعشرين، قبل هذه الثلاث وعشرين كانت هناك ستة أشهر كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى الرؤيا الصالحة، لم يكن جبريل قد نزل عليه، إنما كانت هي رؤيا صالحة، يراها مثل فَلَق الصبح واضحة بينة، تتحقق رؤياه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا معنى الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا.

من رأى رؤيا صالحة أو رأى رؤيا يكرهها ماذا يصنع؟

بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا رأيت رؤيا صالحة لا تُحدِّث بها إلا مَن تحب، لأنك لو حدَّثت بها شخصًا يكرهك لربما حسدك على هذه الرؤيا.

وكذلك لأنك لو حدَّثت شخصًا تحبه لعلك تجد عنده تفسيرًا يزيدك اطمئنانًا، يُفسِّر لك هذه الرؤيا ويبشِّرك أنها رؤيا خير.

وأما مَن رأى رؤيا يكرهها فلا يُحدِّث بها أحدًا، لأنها من الشيطان، ولينفث عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شر ما رأى.

(المتن)

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.

(الشرح)

الرؤيا قد تكون سببًا لتشريع بعض الأحكام، وهذا بالنسبة للأنبياء، لأن بعض الصوفية الأن يقولون: حدثني قلبي عن ربي، ويقولون: أنتم تأخذون علمكم ميتاً عن ميت عن ميت، يريدون أننا نأخذ هذا العلم عن سعيد بن المسيب، وهو ميت، عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو ميت، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قد مات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما نحن -هكذا يقولون-: فنأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت، فيقولون: حدثني قلبي عن ربي، وهذا كذب، ولذلك يسمون علمهم بالعلم اللدُنِّي، ويتشبهون في ذلك بالخضر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لأنهم يقولون: إن الخضر كان وليًا وليس نبيًا، والصحيح أن الخضر كان نبيًا، لأن قتله للغلام لا يكون من قِبَل الولي مطلقًا، كيف عرف الخضر أن هذا الغلام إن كَبُر فإنه يُرهِق والديه طغيانًا وكُفرًا؟ هذا لا يستطيعه أي ولي، إنما هذا وحي من الله.

ثم كيف يكون الولي أعلى مقاماً وعلمًا من النبي؟ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قطع كل هذه المسافة من أجل أن يتعلم منه، وموسى من أُولى العزم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يقال: إنه تعلم من الولي؟

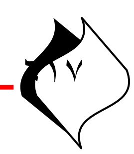
ولـذلك فالصـحيح أن الخضرـ وهـذا قـول الجمهـور: أنـه نبـي، وأنـه مـات، لأن الصوفية كذلك يقولون: إن الخضرـ حي، وإنه يحضرـ حضراتهم وموالدهم، وأحيانًا يسلمون عليه، ويزعمون أنهم يرونه.

والصحيح أنه مات، لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجلس مع أصحابه، فقال: **«ما من نفس منفوسة إلا ولا يبقى منها أحدٌ بعد مائة عام»**، أو كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا حديث عام، ولو كان الخضر حيًا لاستثناه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك في غزوة بدر، ماذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

«اللّٰهم إن تَهلِك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبدًا»، ولو كان الخضرـ حيًا لكان مؤمنًا بالله ﷻ، لخرج من هذا العموم، ولذلك الخضر مات وليس بحي.

أما هذا الذي يتمثل لهم فهو الشيطان.



(المتن)

باب من سب الدهر فقد آذى الله.

(الشرح)

وهذا أراد به المصنف كذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين أن من جملة الأشياء التي تضعف التوحيد وتنافي كماله أن يسب المرء الدهر أي الزمن، وسبه شتمه، كأن يقول: لعن الله هذا اليوم، قاتل الله هذه الساعة، يسُبُ يومه، يومًا بعينه، أو يسبُ الدهر عمومًا، فهذا كذلك مما لا يجوز، وهو محرم.

وأما وصف اليوم بالشدة، أو بأنه يوم حار، أو بارد: فلا يدخل في هذا النهي.

ولذلك قال لوط عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ هَـٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧]، وقال يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٌ شِدَادٌ ﴾ [يوسف: ٤٨]، فوصف السنة بالشدة أو أنه حار أو بارد فلا يدخل في هذا الباب.

وبمثله كذلك من سبَّ الريح أو لعنها: فكل هذا لا يجوز، لأنه سبَّ مَا لا يستحق السبَّ. لماذا يسُب الزمن؟ ولماذا يسبُ الدهر؟ وسبُه انتقاص وسبُ لله تبارك وتعالى، لأن الذي يُقلِّب الرياح ويقلب الليل والنهار هو الله ﷻ.

ولذلك نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن ذلك.

(السؤال): هذا يوم نحس هل يجوز؟

(الجواب): لا، هذا يوم نحس هذا سب، لأنه ليس وصفًا لهذا اليوم.

(السؤال): يوم لم تطلع له شمس هل يجوز؟

(الجواب): لو أراد بذلك حقيقة الأمر؛ لم تطلع فيه شمس فهذا لا شيء فيه.

لكن لو أراد سبَّ هذا اليوم ، يريد التنقص كذلك وسب هذا اليوم، فلا يجوز.

وهذا الأمر كان واقعًا في الجاهلية بكثرة، وهو في هذه الأيام يقع من الفُسَّاق والحمقى وقليلي الدين إذا جرت الأمور على غير مرادهم.

ذهب إلى مكان معين مثلًا ولم تُقض حاجته: يسُبُ هذا اليوم.

هل الدهر أو الزمن كان سببًا في مثل هذه الأمور؟ أم أن الله ﷻ هو الذي يدبِّر كل هذه الأمور ويصرِّفها؟

الله ﷻ هو الذي يدبِّر كل هذه ذلك ويصرِّفه.

ولذلك مَن سبَّ الدهر فقد سبَّ الله تبارك وتعالى لأنه هو الذي يقلِّب الليل والنهار.

فمن فعل ذلك فقد آذى الله ﷻ.

هل الله ﷻ يؤذَى بذلك؟

الأذية هاهنا المقصود بها التنقص، لا أن الأذية تصل إلى الله ﷻ، فلا يستطيع أحدٌ أن يؤذي الله ﷻ، وإنما الأذية هاهنا المقصود بها التنقص، يتنقَّص الله ﷻ ولا يقدره حق قدره.

النبي ﷺ قال: **«فقد آذى الله»**: نُثبت الأذية لكن على المعنى المراد، أذية المخلوق يعني وصول الضرر للمخلوق.

أما أذية الخالق فالخالق لا يصل إليه الضرر، وإنما الأذية يُقصد بها التنقص.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

(الشرح)

هذا قول جماعة أنكروا المعاد وأنكروا القيامة، وقالوا: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، الإنسان يولَد ويعيش ما شاء الله أن يعيش، ثم بعد ذلك يموت ولا يوجد لا حساب ولا جزاء، وهذا سفه في العقول قبل أن يكون مخالفًا للشرائع، وهذا لأن هذا خلاف الحكمة.

عندنا في التعليم المدرسي الطالب يذاكر ثم آخر العام يُمتحن، لأنه لا بد من جزاء ومن ثواب وعقاب، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني لا يؤمر ولا يُنهى.

فكانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، فمن فعل ذلك فقد شابه هؤلاء، لأنه نسب للدهر ما لا دخل له فيه.

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي ظنًا فاسدًا.

(المتن)

في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: «**يؤذيني ابن آدم**».

(الشرح)

علمنا معنى الأذية، أجمل النبي ﷺ ثم فصَّل بعد ذلك.

(المتن)

قال: «**يؤذيني ابن آدم، يسُب الدهر، وأنا الدهر**».

(الشرح)

ما معنى وأنا الدهر؟ هل الدهر من أسماء الله ﷻ؟

لا، الدهر ليس من أسماء الله ﷻ، ولذلك خطَّأ العلماء ابن حزم فيما ذهب إليه من كون الدهر اسماً لله تعالى.

فليس من أسماء الله ﷻ لأمور:

- أولًا: لأن السياق يأباه، سياق الحديث ونص الحديث يأباه؛ فالنبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: أنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»، فأراد النبي ﷺ أن يبلِّغ عن ربه أنه هو المصرف المدبِّر لشئون الليل والنهار.



▪ الأمر الثاني: أن الأصل في أسماء الله أنها حُسنى، ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، واسم الدهر لا يحمل وصفًا حسنًا، لأنه اسم جامد غير مشتق.

الأسماء الحسنى كلها أسماء مشتقة تتضمن صفات، الرحمن يتضمن صفة الرحمة، الغفور صفة المغفرة، السميع صفة السمع، ماذا عن الدهر؟ هو اسم جامد، ولذلك الصحيح أنه ليس من أسماء الله تبارك وتعالى، لأنه لا وصف فيه.

ما المراد بقوله: «**وأنا الدهر**»؟ أي أقلب الليل والنهار.

ولذلك جاء عند البخاري: «**بيدي الأمر أُقلب الليل والنهار**».

(الشرح)

وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**».

(الشرح)

وجاء بهذه الرواية لأن النهي فيها أصرح، في الحديث الأول: قال: «**يؤذيني ابن آدم يسبُ الدهر**»، وفي هذه الرواية قال: «**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**».

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى لله.

(الشرح)

يعني سماه أذى، قلنا: أذية الله أي تنقُصه، ولكن لا يلزم من ذلك أن يصل الضرر إلى الله ﷻ، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

(المتن)

الثالثة: التأمل في قوله: «**فإن الله هو الدهر**».

(الشرح)

يريد أنك إن تأمَّلت المعنى وصلت إلى المراد، لا يعني أن الدهر من أسماء الله، وإنما يقلِّب الليل والنهار.

(المتن)

الرابعة: أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده بقلبه.

(الشرح)

قال الشيخ ابن عثيمين: لعله أراد أنه قد يكون مؤذيًا لله ولو لم يقصد ذلك، لأنه بهذا سب، سواءٌ قصد أو لم يقصد هو سابٌ للدهر، هو يعلم أنه سب الدهر، وإنما المراد أنه قد يكون مؤذيًا لله من غير قصد، لأن هذا الإنسان الذي يلعن اليوم أو يلعن الشهر أو يلعن كذا، هل قصد أن يسُب الله؟

ما قصد ذلك، وهو سابٌ لله ولو لم يقصد ذلك.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): يوم نحس في لسان الناس اليوم هذا من السب، وارجع إلى التفسير في قول الله ﷻ: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

قد يكون عُرف اللغة بخلاف العرف السائد في هذه الأيام، يعني الذي يقول في هذه الأيام: أيام نحس يقصد التنقص، ولكن ارجع إلى تفسير هذه الآية.

هذا تفسير الطبري قوله في أيام نحسات: اختلف أهل التأويل في تأويل النحسات، فقال بعضهم: عني بها المتتابعات.

ذكر من قال ذلك: ابن عباس، قوله: أيام متتابعات أنزل الله فيهن العذاب.

وقال آخرون: عني بذلك المشائيم، وذكر من قال ذلك: عن مجاهد، قوله: ﴿أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ قال: مشائيم، والله كانت مشئومات على القوم، وكذلك عن قتادة.

وعن السديّ قال: أيام مشئومات عليهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: أيام ذات شر.

وقال آخرون: النحسات: الشداد

إذًا في نفس المعنى.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال عنى بها: أيام مشائيم ذات نحوس، لأن ذلك هو المعروف من معنى النحس في كلام العرب.

إنما نحن نقولها الآن من باب السبِّ، فهي في الآية أشبه بالسبع الشداد والأيام العصيبة، أما من يقولها الآن يقولها من باب السب.

قلنا: لأن العبرة بالمعاني والمقاصد، ماذا قصد بذلك؟ قصد السب.

وعندنا ابن السُبكي لمَّا قال للكلب: اخسأ، كلب ابن كلب، فنهاه أبوه عن ذلك، فقال: أليس كلب ابن كلب؟ فقال: ما أردتَ التسمية، وإنما أردت السب، فاللفظ واحد، وهذا يريد السب وهذا يريد الإخبار.

فالراجح أنها لا تجوز.

(المتن)

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه.

(الشرح)

مقصد الباب هو بيان حكم التسمي بـ: قاضي القُضاة، أو ملك الملوك، أو سلطان السلاطين، أو غيرها من الإطلاقات الواقعة على الألسنة في أزمنة معينة، وإن اختلفت لغة التعبير عنها.

(المتن)

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إن أخنع اسم عند الله: رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»**.

(الشرح)

النهي جاء عن قولنا: ملك الأملاك، وهو في ترجمة الباب قال: قاضي القضاة، لماذا عدل عن لفظ الحديث لهذا اللفظ؟

ملك الأملاك أعلى فكان الأولى أن ينهى عن الأعلى، فلماذا عدل عن ذلك؟

لوقوعه في زمانه ولانتشاره، ففي زمان المصنف كانوا يسمون رئيس القضاة: بقاضي القضاة، فترجم بما يناسب الواقع الذي عنده الآن.

قال: **باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه.**

جاء نهي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صيانة وحماية لجناب التوحيد، لأن هذه الألفاظ تنافي كمال التوحيد، ففيه شائبة شرك، الذي يسمى إنسانًا قاضي القُضاة، حاكم الحكَّام، سيد السادات، سلطان السلاطين، هذا فيه جرأة وسوء أدب، لماذا؟

لأن هذه الألفاظ تحمل تعظيمًا وكمالًا ما ينبغي أن يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها.

قال: «إن أخنع اسم عند الله»: أخنع يعني أوضع وأذل، والذِّلة لا تكون إلا بفعل المحرم، فقوله: إن أخنع دليل على التحريم، وإن لم يذكر التحريم بلفظه أو بلا الناهية.

قال: «إن أخنع اسم عند الله: رجل تسمى»، سواءً سمى نفسه أو سماه الناس ورضي بذلك، رجل تسمى ملك الأملاك.

ثم قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا مالك إلا الله»، فقوله: لا مالك إلا الله كذلك دليل على تحريم هذه التسمية.

(المتن)

قال سفيان.

(الشرح)

يعني ابن عيينة.

(المتن)

مثل شاهان شاه.

(الشرح)

وشاهان شاه باللغة الفارسية بمعنى ملك الملوك كذلك.

لماذا جاء المصنف بقول سفيان رَحِمَهُ اللهُ بعد حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

أراد بذلك أن يبين أن العبرة بالمعنى وإن كان بلغة أخرى.

لو أن شخصاً سمَّى إنسانًا بالإنجليزية King of all the kings، فهذا لا يجوز، فأراد سفيان رَحِمَهُ اللهُ أن يبين أن العبرة بالمعنى لا باللفظ، قالها بالعربية بالفارسية بالألمانية، طالما أنها تحمل نفس المعنى فهذا يصدق عليه أنه منهي عنه.

لماذا؟ لأن الأحكام تناط بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني.

(المتن)

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه».

(الشرح)

والغيظ شدة الغضب، أي يغضب عليه ربه جدًا يوم القيامة، فهو خبيث مغضوب عليه من الله يوم القيامة.

وقوله: أغيظ وأخبث دليل على شدة تحريم هذه التسمية، سواءً قلنا: سمَّى بها نفسه، أو سماه بها غيره.

هو الذي يقال له: ملك الأملاك.

لو قُيدت وقيل: قاضي قضاة مصر؟ أو الرياض؟ ؟ أو غير ذلك؟

فهذا التقييد لا شيء فيه، والأولى تركه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

(الشرح)

لأنه لا يوجد أحد يقول: ملك الأملاك أو قاضي القضاة ويقصد بذلك أن يساويه بالله ﷻ، لا يقول بهذا مسلم، ومع ذلك جاء التغليظ والتشديد.

(المتن)

الرابعة: التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه وتعالى.

(الشرح)

لأن النبي ﷺ قال في نهاية الحديث: **«لا مالك إلا الله»**.

(المتن)

باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك.

(الشرح)

هذا الباب كالأبواب التي قبله في وجوب التأدب مع الله ﷻ في توحيد الربوبية والألوهية وكذلك في الأسماء والصفات.

ففي الباب الذي قبله: نبَّه على حكم التسمي بقاضي القضاة أو شاهٍ شاه أو ملك الملوك أو غير ذلك.

وهذه التسميات التي كانت في الباب الذي سبق إنما هي ادِّعاء ليس لصاحبها منه شيء، ولذلك كانت أخنع الأسماء كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإما أن يسمي نفسه بذلك وليس أهلًا له، أو أن يسميه الناس بذلك.

وأما هذا الباب الذي معنا فراجع إلى شيء أو صفة تقوم بهذا الشخص فيسمى بها لهذه العلة، فبيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مقتضى الدليل حكم ذلك.

ومن ذلك: أن يتسمى بعض الناس مثلًا بأبي الحكم، لحكمه بين الناس، والله ﷻ من أسمائه الحَكَم، فما حكم ذلك؟ هذا ما أراد أن يبينه المصنف ها هنا.

فقال: **باب احترام أسماء الله تعالى.**

والمراد بالاحترام: تعظيم هذه الأسماء، لأن تعظيمها من تعظيم الله ﷻ، تعظيم الأسماء الحسنى من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن كان شيء يخالف هذا التعظيم وجب تغييره.

وأسماء الله هي التي سمَّى بها نفسه أو سماه بها نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعلى هذا مدار التسمية: أن يسمي الله ﷻ نفسه أو أن يسميه نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس لنا أن نخترع أسماءً لله ﷻ، فهذه الأسماء على قسمين:

- القسم الأول: أن تكون من قبيل الأسماء التي لا يتسمى بها إلا الله ﷻ، أسماء لا يَشرَكَهُ فيها أحد: كاسمه الرحمن، والخالق، ورب العالمين، فهذه الأسماء لا يشاركه فيها أحد.
- والقسم الثاني: وهي أسماء يُسمى بها ربنا تبارك وتعالى ويسمى بها العبد كذلك، كاسمه الرحيم والسميع والعليم، ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ١، ٢]، وَوُصِفَ النبي ﷺ في القرآن بأنه رؤوف رحيم.

وجاء كذلك وصف الخلق بالعلم، وباسم العليم، والله ﷻ من أسمائه الرحيم ومن أسمائه الرؤوف، ومن أسمائه العليم.

فهذه التسمية بالنسبة للمخلوق لو لوحِظ فيها كمال الصفة: أعني كمال توفر الصفة في هذا المخلوق ولم تكن تسمية وعلمًا محضًا على الشخص: مُنع التسمي بها: كالعزيز، ، فالعزة كلها لله ﷻ بجميع أنواعها على وجه الكمال.

فلو لوحِظت صفة العزة بكمالها في مخلوق نُهي عن أن يتسمى بذلك، ووجب عليه أن يُغيِّر هذا الاسم.

وكذلك الحَكَم كما سيأتي في حديث الباب، لماذا سموه بالحكم؟ لأنه كان يقضي بين الناس، يحكم بينهم، فسموه بأبي الحكم، على مقتضى هذه الصفة، لُوحِظت الصفة، فلما أشعر ذلك أنهم سموه بذلك لملاحظتهم الصفة، نهاه النبي ﷺ عن ذلك.

وأما لو لُوحِظ أصل الصفة فقط فهذا يجوز: ففرق بين مطلق الصفة والصفة المُطلقة، يعني لماذا يسمى هذا الشخص بالعزيز؟

لأن عنده أصل الصفة التي هي العزة، وليس عنده كمال الصفة، فجاز أن يُطلِق الله ﷻ عليه في القرآن أنه العزيز.

وكذلك الإنسان عنده أصل صفة العلم وأصل صفة السمع.

أما لو لُوحِظ كمال الصفة من إحاطة سمعه بكل مَن حوله أو علمه بكل من حوله: فهذا يُمنع، ولا بد أن تُغيَّر أو يُغيَّر هذا الاسم.

فقال: **باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك:**

لأن هذا من تعظيم شعائر الله ﷻ.

(المتن)

عن أبي شريح.

(الشرح)

وهو شريح بن هاني، أسلم يوم الفتح.

أنه كان يكنى أبا الحكم.

(الشرح)

والكُنية: ما صُدِّر بأبٍ أو أم.

(المتن)

عن أبي شُريح أنه كان يُكنى بأبي الحكم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **«إن الله هو الحكم، وإليه الحكم»**.

(الشرح)

وهذا فيه إثبات اسم الله الحَكَم.

قال: **«وإليه الحكم»**: فهو الذي يحكم بين عباده سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قدرًا وشرعًا.

أما قدرًا: ففيما يقدره من جزاءات ومن ابتلاءات ومن فصل بين العباد.

وأما شرعًا: ففيما أنزله من الوحي، فيحكم به بين الناس.

ولذلك من الناس مَن يمتثل لهذا الوحي ومنهم من لا يمتثل، لأن هذا من قبيل الحكم الشرعي الذي يحبه الله ويرضاه.

فلما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، كأن أبا شريح شعر من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ينكر عليه هذه التسمية فذكر علتها.

(المتن)

فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كِلا الفريقين.

(الشرح)

إذًا لماذا كانت هذه التسمية؟ لملاحظة الصفة التي قامت بأبي شريح، ولم تكن عَلَمًا محضًا عليه.

فقالي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن ذكر أبو شريح العلة التي أبان من أجلها أنهم لاحظوا الصفة، ومن ثم سموه بهذه التسمية.

(المتن)

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أحسن هذا؟».

(الشرح)

ما الذي أراده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستحسانه؟

هل استحسن التسمية؟ أم أنه استحسن أنه يفصل بينهم ويُصلح بين قومه؟

الثاني، استحسن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقوم به لا التسمية، ولذلك أنكر عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره أن يُغيِّر هذا الاسم.

(المتن)

قال: «فمالك من الولد؟»، قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن أكبرهم؟»، قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح»، رواه أبو داود وغيره.

(الشرح)

وهو حديث صحيح.

فأنت ترى في هذا الحديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيَّر الاسم لأمرين:

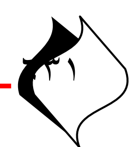
- أما الأمر الأول: فلأن الله هو الحكم، فلو قيل: أبا الحكم، فكأنما قيل أبا الله، وهذا مما يُشعِر بهذه الإضافة، كما قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولذلك غيَّره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وأما الثاني: فلأن هذا الاسم لُوحظت فيه الصفة، فصار علمًا ووصفًا مطابقًا لاسم الله ﷻ، لأن أسماء الله ﷻ أعلام وأوصاف، كل اسم يتضمن صفة ولا بُد، وكذلك أسماء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأسماء الله ﷻ أعلام وأوصاف، فيهما كمال الاسم وكمال الصفة، فلما لُوحِظت الصفة مع التسمية في اسم أبي شُريح كأنه طابق بذلك اسم الله ﷻ، فنهاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك وأمره بتغييره، وهذا كله من تمام الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «فمن أكبرهم؟»: فيه أن الكُنية إنما تكون بأكبر الأسماء حتى لو كانت أُنثى، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فما لك من الولد؟»: والولد يُطلق على الذكر والأنثى، كما قال الله ﷻ في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

ويبدو أنه ليس له إلا الذكور، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قال له: «فما لك من الولد؟»، وهو رجل عربي يفهم معنى الولد، ذكر ذكورًا.

وفيه كذلك: أن من أغلق بابًا محرمًا عليه أن يفتح بابًا آخر إن أمكن ذلك، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نهاه قال له: «أنت أبو شريح».



(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

(الشرح)

حتى مع عدم القصد فلا يعني هذا جواز الأمر، بل لا بد من تغيير ذلك، ولذلك النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ غيَّر الاسم، مع أن أبا شريح لم يلاحظ هذه الصفة.

وهذا يُرد به على هؤلاء الذين يتشبهون بالنساء في أمور فإذا نُهوا عن ذلك قالوا: لم نقصد مشابهة النساء، بما يلبسونه في أيديهم أو في رقابهم أو كحلق اللحية أو كغير ذلك:

فعندما يقال لهم:إن هذا فيه تشبهًا بالنساء، يقولون: لم نقصد التشبه بالنساء.

مجرد الصورة نهى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنها ولو لم يقصد الفرق.

(المتن)

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

(المتن)

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

(الشرح)

هذا باب مهمٌ جدًا، لكثرة ما يقع فيه الناس في هذه الأيام؛ خاصة الشباب.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

وَ**مَن** هاهنا إما أن تكون موصولة، ومن ثَمَّ لم يُفصح المؤلف عن حكم ذلك، فقال: باب الذي هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول، ما حكمه؟

وإما أن تكون شرطية وأخفى جواب الشرط، فقال: باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول فقد كفر، كما هو ظاهر من الآيات.

أراد المصنف بهذه الترجمة وبهذا الباب أن يبين أن مَن كمل توحيد الله ﷻ في قلبه فليس له إلا أن يوافق التوحيد في اعتقاده وفي كلامه وفي جوارحه، وأن الاستهزاء لا يقارِن مطاوعة القلب لتوحيد الله ﷻ.

فلا بد أن يطرد أحدهما الآخر، فلا يجتمع في قلب عبد توحيد الله ﷻ مع الاستهزاء بشيء فيه ذِكر الله أو ذكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو القرآن، لا بد أن يطرد أحدهما الآخَر.

فأصل التوحيد لا يجامع الاستهزاء، لأن الاستهزاء معارضة والتوحيد موافقة.

الاستهزاء معارضة: فالأبعد ما استهزأ إلا من أجل أنه يعترض على هذا التوحيد، ولذا بدا منه هذا الاستهزاء، وأما التوحيد فهو موافقة العبد لمراد ربه تبارك وتعالى.

قال: باب من هزل بشيء فيه ذكر الله: مع أن الآية التي ذكرها المصنف هي في الاستهزاء، قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ

﴿وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، فالآية جاءت في الاستهزاء، والترجمة جاءت في الهزل، لماذا؟

لأنه أكثر شيوعًا في الناس، فهم يتسارعون فيه ويتهاونون به ما لا يكون في الاستهزاء.

كثير من الناس ما يصيبهم الهزل، ولو قلت للواحد منهم: أنت تستهزئ بالقرآن والسُنة وبالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: لا أستهزئ، إنما كنت أفعل ذلك على سبيل المرح أو المزاح أو الدعابة، لأن الهزل هو المزاح بخفة، ولذلك عبَّر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة.

ولأنهم قالوا كما في الآية: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: فهم اعتبروا أنهم ما أرادوا حقيقة الاستهزاء، وإنما مجرد الهزل.

وهذا الفعل الذي صدر من هؤلاء منافٍ تمامًا للتوحيد، وهو كُفر بالإجماع ولو لم يقصد الاستهزاء، أعني الفعل الذي يجعل كتاب الله عَجَّلَ وسُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو القرآن عُرضة للمزاح والتنكيت وغير ذلك، وهذا يقع فيه بعض الشباب:

فتراه يذكر نكتة عن الله أو عن رسوله أو عن القرآن فهذا كُفر بإجماع المسلمين ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء.

فلو قال: ما أردت الاستهزاء بالقرآن والسُنة وإنما كنت أخوض وألعب: فهذا كُفر بالإجماع، وقصده غير معتبر.

بل هو أشد من الكفر المجرد، لأنه كُفر وزيادة، الذي يكفر كفرًا مجردًا لا يؤمن بالله ولا بكتابه ولا برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا كفره كُفر مجرد، أما هذا كفر بالكتاب وكذلك استهزئ به.

ومثله مَن يهزأ بشعيرة من شعائر الدين: كالذي يهزأ باللحية أو بالنقاب أو بالثياب القصيرة، فهذا كذلك كُفر بالله، ولكن هذه المسألة فيها تفصيل:

ففرق بين أن يهزأ بلحية شخص بعينه أو ثياب شخص بعينه، وأن يهزأ بها لكونها من شعائر الدين:

تجد إنسانًا مثلًا لا يهتم بلحيته، لا يقوم بترجيلها ولا العناية بها من الادِّهان وغير ذلك، ويدَّعي أن ذلك من الإسلام، وأنه من السُنَّة أن تتركها هكذا دون عناية، وكذلك يطيل شعره، ويدَّعي أنه موافق لسُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ثم هو لا يهتم به ولا يعتني به.

فلو أن رجلًا استهزأ به على هذه الحالة لا يقال: إن هذا كُفر، لأنه ما أراد الاستهزاء باللحية كشعيرة من شعائر الدين، وإنما أراد الاستهزاء بهذه الصورة، فهذا محرم ولا يكفر صاحبه.

أما الذي يكفر فهو الذي يستهزأ بهذا الأمر كشعيرة من شعائر الدين.

وكذلك الذي يسُب دين الشخص: إنسان سبَّ دين الشخص، فهذا كذلك فيه تفصيل.

هذا بخلاف الذي يسُب دين الإسلام أو يسب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

بعض من يسبُون دين الشخص إنما يسبونه لمعاملة سيئة، فالسب عاد لهذا الخُلق وهذه المعاملة وليس لدين الإسلام، الذي يكفر هو الذي يسُب دين الإسلام ويسب الله ويسُب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك فهذا القول من أنكر ما يقع فيه الساب وأخبثه، أما وجد غير لفظة الدين ليسبها؟!

هل الساب أو المستهزئ له توبة؟

إنسان هزل بكتاب الله أو بسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فأمسك القرآن فمزَّقه، أو ألقاه في الحُش، أو سبَّ دين الله عَزَّ وَجَلَّ هل له توبة أم ليس له توبة؟

هذا اختلف فيه أهل العلم، والصحيح أن له توبة، لعموم الأدلة، ولا نُخرج أحدًا من هذه الأدلة إلا بدليل، ولا دليل يُخرِج هؤلاء.

فإذا كان الله ﷻ قال في الكفار: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فهذه آية عامة يدخل فيها ضمنًا هذا الذي كان مسلمًا ثم جاء بناقض من نواقض الإسلام.

وأما سابُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن العلماء من قال: هذا يُقتل يقتله الإمام أو من ينوب منابه ويقوم مقامه، هذا يُقتل وإن أعلن توبته، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول.

الذي يسب دين الله ﷻ أو يسب الله ﷻ هذا إن تاب تُقبل توبته، لأن الله ﷻ بيّن أنه عفو، وأنه يغفر الزلات، وأنه يعفو عن عباده إن تابوا.

فحق الله ﷻ الله ﷻ بيّن فيه أنه يغفر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله حقان:

حق شخصي وحق شرعي:

الحق الشرعي: أنه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي يسُب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبَّه لكونه رسولًا، فهذا حق شرعي.

وحق شخصي: أنه سبَّ شخص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن قلنا إن الحق الشرعي تُسقطه الآيات الدالة على أن الله ﷻ يقبل التوبة عن عباده، بقي حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشخصي.

فإن قيل: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أسقط بعض حقه في حياته: فيقال: وما أدرانا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سيسقط حق هذا الرجل، بدليل أن النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُسقط حق بعض الناس كابن خَطَل، وككعب بن الأشرف، وغير هؤلاء، لم يُسقِط النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقه عندهم.

فالذي يسُب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقتَل على أي حال، وإن تاب وحسنت توبته: هذا بينه وبين الله ﷻ مراعاة لجناب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: **باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.**

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

(الشرح)

سبب نزول الآية في الأثر الذي بعدها.

(المتن)

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة – رضي الله عنهم: دخل حديث بعضهم في بعض.

(الشرح)

يقصد أن هذا الحديث مجموع من روايات هؤلاء وأقوالهم، فأدخل كلامهم في بعض وجعله حديثًا واحدًا كحديث الإفك، هكذا فعل الزُهري محمد بن شهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال:

(المتن)

دخل حديث بعضهم في بعض، أنه قال رجل في غزوة تبوك.

(الشرح)

وهذه الغزوة كانت في السنة التاسعة من هجرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

ما رأينا مثل قرائنًا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القرّاء، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب – فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ما يتلفت إليه وما يزيده عليه.

(الشرح)

أي ما يزيد عن هذه الكلمات ولا يلتفت إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام منافقون وليسوا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذلك لأمرين:

- أما الأمر الأول: لأن السورة في المنافقين، سورة براءة في المنافقين، ولذلك كثر فيها: ومنهم، ومنهم، ومنهم، حتى كاد الله ﷻ أن يسمي هؤلاء بأسمائهم.
- وأما الأمر الثاني: فلسياق الآيات، فما سبق هذه الآيات وما لحقها إنما هو في الكلام عن المنافقين.

ولذلك يُخطئ من يقول: إن هؤلاء كانوا من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم ارتدوا، لم يكونوا أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا يقول هذا الكلام من قام في قلبه إيمان بالله ورسوله، وتعظيم للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه رضي الله عنهم، وإنما لا يقول ذلك إلا المنافقون.

ولذلك الذي يطعن في أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الزمان يُشبه هؤلاء، فمن طعن في جميعهم كفر، ومن طعن في واحد منهم بتهمة برأه منها القرآن كفر، كالطعن في عائشة رضي الله عنها.

فالذي يطعن فيها بما برأها منه القرآن هذا يكفر كما يفعل مَن يفعل من الروافض.

والذي يطعن في بعضهم لهوىً أو لعصبية فهذا فاسق تُرد شهادته، كمن يطعن في علي أو في معاوية، أو في عمرو بن العاص رضي الله عنهم.

هؤلاء المنافقون كانوا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، فقالوا: ما رأينا مثل قرائنًا هؤلاء، والرؤية هاهنا إما أن تكون رؤية بصرية أو رؤية علمية قلبية، وهي رؤية كاذبة خاطئة على كل حال.

قالوا: أرغب بطونًا، يعني أوسع بطونًا لا يكفون عن الطعام والشراب، ولا أكذب ألسنًا، يعني لا يقولون الصدق، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القرّاء.

والقُراء في عُرف كلام السلف لفظ يُقصد به العلماء العاملون العالمون، وليس هو كالمعنى الدارج عندنا من أن القراء هم قُراء القرآن الكريم وإن كانوا من أجهل الناس.

لا بل القراء هم العلماء العالمون العاملون.

فقال له عوف بن مالك: كذبت، يعني أخبرت بخلاف الواقع، فإن أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانوا من أزهد الخلق، وكانوا من أصدق الناس حديثًا، وكانوا من أشجع الناس عند اللقاء، رضي الله عنهم.

وفي التاريخ والسير من البطولات ما يتعجَّب المرء منه عند سماعه.

قال عوف: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما قال عوف بن مالك عنه إنه منافق: لأن القرينة التي حكم بها عليهم قوية، فلا يطيل إنسان مسلم لسانه في أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذه الطريقة، لأن الذي يطيل لسانه في أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذه الطريقة إنما أراد الطعن في الشريعة والطعن في النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وكثير من الناس يريد الطعن في النبي ولكنه لا يجرؤ على ذلك خشية الناس فيطعن في أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليقال رجل سوء، الصحب سوء فصاحبهم الذي رباهم سوء صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال: فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، وهذا فيه سعة علم الله ﷻ لأن الوحي نزل على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل أن يأتي عوف بن مالك بالخبر.

فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعني لما علم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علم جاء ليعتذر، وقد ارتحل وركب ناقته، يعني رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب.

أي نتحدث الحديث الذي فيه الترويح عن النفس لأجل السفر، الإنسان إذا كان في سفر فإنه يبحث عن حديث مع أصحابه يتحدث فيه لأجل أن يطوي هذا السفر وأن يقضي فيه هذا السفر، وهذا من المباح، ولكن لا يكون هذا بالاستهزاء بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحبه.

فقال: إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والنِّسعة هي حزام الرحل، الحزام الذي يكون على بطن الناقة يُربط به الرحل، هذا الرجل تعلق به والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسير في طريقه لا يلتفت إليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: كأني أنظر إليه متعلقًا: قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكأن إذا دخلت على مشتق فهي للتوقع، وإذا دخلت على جامد فهي للتشبيه.

كأن إذا دخلت على مشتق فهي للتوقع، أقول: كأني مقبوض، كأني ناجح، هذا مشتق، توقع النجاح، وتوقع الموت، أو غير ذلك لأنها دخلت على مشتق.

وإذا دخلت على جامد فهي للتشبيه: كأني خالد، فإني أُشبِّه نفسي بخالد، أقصد خالد هذا الرجل وليس اسم الفاعل.

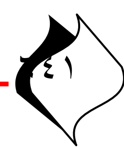
قال: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن الحجارة تنكب رجليه، يعني تضرب رجليه، ومع ذلك لا يشعر بها، الحجارة تضرب في رجليه لأنه تعلق بنسعة الناقة، وليس له همٌّ إلا أن يُبرِّأ ساحته، لا يشعر بهذا النكب الذي تصيب به الحجارة قدمه.

قال: وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب - فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، ما يتلفت إليه وما يزيده عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة: أن من هزل بهذا فهو كافر.



الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

(الشرح)

يقصد سواءً كان منافقًا كحال هؤلاء أو غير منافق ثم استهزأ، فإن كان منافقًا فقد زاد كُفرًا على كُفره، وإن كان غير منافق فقد خرج من الإسلام إلى الكفر.

(المتن)

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله.

(الشرح)

وهذه أخذها من ماذا؟ من ذهاب عوف بن مالك إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، لأن الأصل في النميمة نقل الكلام، النميمة: نقل الكلام إلى الغير على وجه الإفساد، وعوف ما أراد الإفساد، إنما أراد الإصلاح، لأن هذا من النُصح لله ولرسوله، ولكتاب الله ﷻ.

لأن هذا من تعظيم الشعائر واحترامها، ولن يكون حفظ الشريعة إلا بذلك، إلا بالأخذ على يد المفسدين ومنعهم من هذا الذي يقومون به.

(المتن)

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغِلظة على أعداء الله.

(الشرح)

لماذا لم يعف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن هؤلاء؟ وهو الذي سماه الله ﷻ بالرؤوف الرحيم؟ وبيَّن أنه أرسله رحمة للعالمين؟ ومع ذلك ما عفا عنهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

لأن العفو الذي يحبه الله هو ما كان يؤدي إلى الإصلاح لا إلى الإفساد، وأما العفو الذي يترتب عليه الفساد فهذا لا يجوز بل يحرم.

هل يجوز العفو عن المجرمين المفسدين في الأرض قطَّاع الطريق، ويقال: إن هذا عفو يحبه الله ورسوله؟

لا يجوز العفو عن هؤلاء بأي مسمى كان، لأن هذا يؤدي إلى الإفساد، إنما العفو عن إنسان بريء، أو إنسان نادم تائب إلى الله ﷻ، فهذا مما يحبه الله ورسوله.

حدث شجار بين عائلتين، والعائلة المظلومة عفت عن العائلة الظالمة، هذا عفو يحبه الله ورسوله، إن كان لا يؤدي إلى زيادة عتو هذه العائلة الظالمة، بل علمت ما عندها من الظلم وندمت، وأخذت العهد على نفسها ألا تفعل ذلك مرة ثانية، فالعفو هاهنا مما يحبه الله ورسوله.

أما أن نعلم أن هذه العائلة وإن عفونا عنها فإنها لن تزداد إلا طغيانًا وظُلمًا، فالعفو عنها لا يجوز، ولذلك لم يعف النبي ﷺ عن هؤلاء، مع أنه رؤوف رحيم ﷺ، والله ﷻ جعله رحمة مهداة.

والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السلسلة الصحيحة ذكر أن بعضهم ضبط وصف النبي ﷺ في الحديث بأنه رحمة مِهداة، يعني هو سبيل إلى الهداية ﷺ، آلة الهداية وأداة الهداية ﷺ، بكسر الميم.

فالفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله:

فهناك عفو يحبه الله ورسوله، وعفو لا يحبه الله ورسوله.

(المتن)

الخامسة: أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل.

(الشرح)

لأن هؤلاء اعتذروا وبيّنوا خطأهم ومع ذلك لم يقبل النبي ﷺ عُذرهم.

وهذا الباب فيه خطورة اللسان والكلمة:

فالإنسان قد يقول كلمة تُوبِقُ دنياه وأُخراه، فهذا يبين لنا خطورة الكلمة، والعاقل دائمًا لسانه خلف قلبه، بخلاف غير العاقل السفيه لسانه أمام قلبه، يُخرج الكلمة ثم يتفكر فيها بعد ذلك.

أما العاقل فهو الذي يتفكر في الكلمة قبل أن تخرج، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيَّن لنا حال بعض بني إسرائيل، هذا الذي قال لأخيه العاصي: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخلك الجنة، فقبضه الله ﷻ، وقال: غفرتُ له وأدخلته الجنة، وأدخلتك النار، قال: من ذا الذي يتألَّى علي، مع أنه قال كلمة واحدة، وكان عابدًا زاهدًا طائعًا لله ﷻ. الإنسان ينبغي عليه أن يتفكر فيما يقول.

(المتن)

باب في قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

(الشرح)

الباب الثامن والأربعون في بيان وجوب تعظيم الله في الألفاظ وفي نسبة النِّعم إلى خالقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي شُكرها عليه.

فالمرء بالنسبة لباب النعم يجب عليه أن يعترف وأن يقر بقلبه أن النعمة من الله ﷻ، وأن يثني على الله ﷻ بلسانه، وأن يستعمل النعمة في مرضاته.

أما أن ينسب النعمة إلى نفسه أو إلى عمله، يقول: أنا رجل عصامي، وإنما صنعتُ ذلك من كدي وجُهدي، أو بعلمي، أو بغير ذلك، وينسى نسبة الفضل إلى الله ﷻ فهذا من المخالفة التي تقدح في التوحيد.

بل قد تؤدي للمهالك وسلب نعمة العبد، كما في الحديث الذي سيذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فالإنسان عليه أن يتحرز في هذا الباب في هذه الألفاظ، والمصنف إنما أكثر من الأبواب المتعلقة بباب الألفاظ وأسماء الله وصفاته لكثرة الخطر فيها وتهاون الناس فيها، وعلاقة ذلك بحماية جناب التوحيد من كل قادحٍ يقدح في أصله أو كماله .

فقال: **باب في قول الله تعالى:** ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

الأصل في الإنسان أنه ظلوم جهول، كما قال الله ﷻ في آخر سورة الأحزاب، والأصل فيه كذلك أنه ظلوم كفَّار جاحد لنعمة الله كما في سورة إبراهيم، ما لم يُخرجه من ذلك إيمانه بالله ﷻ وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال عن جنس الإنسان: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ﴾: هذه الرحمة وهذه النعمة لم تكن مملوكة له ابتداءً، وإنما كان ممنوعًا منها ابتداءً ثم أعطاه الله ﷻ إياها، وهذا فيه الاستشعارُ بلذة هذه النعمة.

ويتضح بالمثال: فليس الذي اغتنى بعد فقر كالذي نشأ ووجد نفسه على هذه الصورة، فالذي يغتني بعد فقر وجِد وكدٍ يشعر بلذة هذا النعيم أكثر من الآخَر.

وبعض الشباب قبل أن يُوظَّفوا وأن يحصلوا على وظائف بمرتبات طيبة، أو يُبارك لهم في تجاراتهم كانوا يعملون أعمالًا شاقة، فلما رزقهم الله ﷻ هذه النعم وهذه الأعمال شعروا بهذه اللذة، لماذا؟ لأن الله ﷻ أعطاهم إياها بعد فقدها.

فالله ﷻ يقول هاهنا: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء﴾، فهذا مما يجعله يستشعر هذه النعمة، وأنه يجب عليه أن ينسبها إلى الله تعالى.

قال: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، وهذا كفر بنعمة الله ﷻ أن ينسب الفضل إلى نفسه أو إلى غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد يكون شركًا أكبر، وقد يكون شركًا أصغر، كما سبق في أبواب كثيرة، فالنعمة كلها من الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

(المتن)

قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به.

(الشرح)

يقول: هذا بكسبي وكدي، وأنا محقوق به أي مستحق له، فكأنه يمن بذلك على الله ﷻ، أن الله ما أعطاه ذلك إلا من أجل استحقاقه له.

(المتن)

وقال ابن عباس: يريد من عندي.

(الشرح)

أي هذا من تصرفي وليس من عند الله، وهذا أشد من الأول، لأن الأول بيَّن أن الله ﷻ أعطاه ذلك لاستحقاقه، وأما هذا فلم يجعل لله ﷻ منه شيئًا، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، كما قال قارون.

(المتن)

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾، قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب.

(الشرح)

يعني لا فضل لأحد عليَّ، فهذا أنكر فضل الله ﷻ، وهذا قد يقع من بعض الناس لِمَا يرى في نفسه من ذكاء وحنكة في التجارة فتخرج منه هذه الألفاظ: أنه إنما رُزق ذلك من أجل فطنته وذكائه وحُسن تعامله مع التجار وغير ذلك: فهذا لا يجوز، وإنما يُنسب الفضل لصاحب الفضل أولاً وآخراً؛ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

(المتن)

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل.

(الشرح)

وهذا كقول مَن؟ الذي قال: وأنا محقوق به، أي مستحق له، فهذا فيه إدلال منه على الله ﷻ، يَمُن على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فهو مستحق لذلك ولذلك أعطاه الله ﷻ إياه.

(المتن)

وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

(الشرح)

والسلف رحمهم الله يذكرون في الآية الواحدة أقوالًا يظنها الجاهل بمنهج السلف أنها من باب التعارض، أنها تتعارض، وأنها من باب الاختلاف الذي لا يمكن الجمع بينه، وهذا غير صحيح، لماذا؟

لأن هذا من اختلاف التنوع، فيأتي مَن لا علم له بمثل هذه الآيات من الظلاميين ممن ذهبت عقولهم في الضلالة يقول: قال مجاهد كذا وكذا، قال ابن عباس: كذا، نصدِّق مَن؟

يقول: يا جماعة اتركوا هذا الكلام كله، وهذه الكتب الصفراء وعلينا أن نفهم القرآن فهمًا جديدًا، وما أراد هؤلاء إلا الطعن في القرآن والطعن في شريعة الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لماذا؟

لأن سلفنا الصالحين لمَّا فسروا الآية على هذا التفسير إنما فسَّروها بأوجه لا تتعارض، بل تتكامل.

ولذلك لو نظرت في التفاسير الميسرة، لو جئت بكتاب من كتب التفاسير الميسرة تجد المفسر يجمع بين هذه الأقوال في عبارة واحدة.

فيأتي بهذه الأقوال جميعًا ويضعها في عبارة واحدة ، لماذا؟ لأنه يعلم أن هذه الأقوال تتكامل ولا تتنافر.

(المتن)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى».

(الشرح)

وهذه قصة ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بني إسرائيل، والمقصود من القصص الذي يذكره الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العبرة والعظة.

وقد تكون القصة من باب التشريع، قد يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن قصة لنبي من أنبياء بني إسرائيل من باب التشريع، إن لم يكن في شرعنا ما يخالف لذلك.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»، ثم تلا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، جاءت في قصة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فاستدل بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالقصص القرآني عن الأمم السابقة قد يكون من باب الوعظ والإرشاد، ومن باب العبرة، ومن باب التشريع، ومن باب تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «رحم الله أخي موسى، لقد أُوذي أكثر مما أُوذيت»

(المتن)

يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرصَ، وأقرعَ، وأعمى».

(الشرح)

على النصب، لأنها بدل من اسم إنَّ، ثم هي ممنوعة من الصرف لأنها على وزن أفعل الذي مؤنثه فعلاء، فيمتنع تنوينها.

(المتن)

«فأراد الله أن يبتليهم».

(المتن)

وجه الإتيان بالفاء هاهنا: أنه حذف خبر إن، إن ثلاثة من بني إسرائيل أنعم الله عليهم، فأراد الله أن يبتليهم.

والإرادة هاهنا إرادة كونية، وفي بعض الروايات عند البخاري: «بدا الله أن يبتليهم»، هل يُستدل بهذه اللفظة على جواز البداء على الله ﷻ؟

ما معنى البداء؟ أي ظهور العلم بعد خفائه، أراد الله ﷻ شيئًا ثم ظهر له خلاف ذلك فغيَّره، وهذا يقوله من ينكر النسخ في الشرع.

هناك أقوام يُنكرون النسخ، يقولون: لا نسخ في الشرع، لماذا؟ لأن النسخ معناه البداء، الله ﷻ نسخ أمرًا، إذًا ظهر له حُسنه أو قُبحه أو المصلحة في ذلك بعد أن لم تكن، ومن ثَمَّ ينكرون النسخ، وهذا الكلام كلام باطل، وقد ردَّ عليه العلماء.

وذلك لأن اعتبار هذا القول قادح في كمال الله وكمال أسمائه وصفاته، وهذا أولاً، وثانياً لأن كثير من مباحث الشريعة ومسائلها، ومن ذلك مسألة النسخ الذي هو الرفع الإلهي لحكم سابق بحكم لاحق على وجه لولاه لكان ثابتاً تدل حِكم وغايات عظيمة، خاصة النسخ من الأثقل إلى الأخف، وكذلك الأمور التي ظهر فيها تدرج الشرع، كما هو الحال في الخمر والجهاد، وكذلك الصيام.

فالذي ينظر في هذه الأمور من جهة النسخ يعلم مدى حكمة الله ﷻ في التدرج في التشريع للخلق.

ثم إن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بدا لله»: ليس هو البداء الذي يوهِم النقص، فبدا هنا أي ظهر لله ﷻ أن يبتليهم آنذاك ليترتب على ذلك الجزاء، ولا يظلم ربك أحداً؛ فلا يحكم الله في عباده على مقتضى علمه السابق فيهم من غير فِعلٍ منهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ فهذا من باب الإخبار عنه سبحانه على المعنى الذي بيناه.

(المتن)

«بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به».

(الشرح)

البرص داء يصيب الجلد، يؤدي إلى بياضه، ونُفرة الناس منه نسأل الله العافية.

(المتن)

«قال: فمسحه».

(الشرح)

أي الملك.

(المتن)

قال: «فذهب عنه قذره، وأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر»، شك إسحاق، «فأعطي ناقة عشراء».

(الشرح)

أي حاملاً.

(المتن)

«وقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأقرع، فقال أي شيء أحب إليك قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعرًا حسنًا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، أو الإبل، فأعطي بقرة حاملًا، قال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري؛ فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والدًا؛ فأنتج هذان وولَّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته».

(الشرح)

جاءه الملك في صورة الأبرص، أي ببرصه وهيئته التي قذره الناس بها.

(المتن)

«فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك».

(الشرح)

رجل مسكين، وهذا وصف للصورة التي جاءه بها.

قد انقطعت بي الحبال أي الأسباب.

فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك: وهذا فيه التوحيد، وسبق أن قلنا: لا يجوز لك أن تقول: لا بلاغ لي اليوم إلا بالله وبك، لأن هذا يقتضي التشريك، وهذا مَلك قد كمُل توحيده.

(المتن)

«أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال».

(الشرح)

وهذا فيه سؤال بصفة من صفات الله ﷻ، فهو الذي أعطى هذه المذكورات.

(المتن)

«أسألك بعيرًا أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا، فأعطاك الله عز وجل المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيّرك الله إلى ما كنت».

(الشرح)

هو يعلم أنه كاذب، وإنما قال له: إن كنت كاذبًا هذا من باب التنزل معه، مع القطع أنه يعلم أنه كاذب.

قال: إن كنت كاذبًا صيَّرك الله إلى ما كنت: إما أن يكون دعاءً وإما ان يكون خبرًا عن الله ﷻ.

(المتن)

«قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيّرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: كنت أعمى فردّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»، أخرجاه.

(الشرح)

رضي الله عنك أي عن هذا الأعمى، وسخط عن صاحبيه.

فرضي الله ﷻ عنه لهذا الفعل، لماذا؟ لأنه نسب النعمة إلى الله ﷻ.

فسبب رضا الله ﷻ عن الأعمى: اعترافه بنعمة الله، لأنه قال: قد كنت أعمى، ثم نسب هذه النعمة إلى الله ﷻ، فقال: فردَّ الله إليَّ بصري.

وسبب سُخط الله ﷻ عن الأبرص والأقرع: أنهم جحدوا نعمة الله ﷻ ونسبوا النعمة إلى أنفسهم، قال: ورثت هذا كابرًا عن كابر، وقالوا: الحقوق كثيرة، فلم يعترفوا بهذه النعمة التي أنعم الله ﷻ عليهم بها.

فهذا فيه أن الإنسان لا ينبغي له أن يجحد نعمة الله، وأن يشكر الله ﷻ على هذه النعمة، وإنما عليه أن يعترف بذلك، فهذا من مقتضى التوحيد.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

(الشرح)

على ما جاء عن السلف.

(المتن)

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

(الشرح)

هذا الباب جاء به المصنف لبيان حكم التعبيد لغير الله، وأنه من الشرك، تعبيد الأسماء لغير الله، بأن تقول: عبد النبي، عبد الحسين، أمة الزهراء، عبد الزهراء، عبد الرسول، فهذا من الشرك.

وهو على قسمين كذلك: إن قصد حقيقة التعبيد من التأليه والذُل والخضوع فهذا شرك أكبر.

إن قصد حقيقة التعبيد أي إن قال: عبد النبي، وأراد بذلك الخضوع والعبادة والتأليه للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو عبد الرسول، أو عبد المسيح.

وإن قصد مجرد التسمية لتمييز المرء عن غيره، يعني سماه هذا مجرد التسمية لأنه يميزه بذلك عن غيره، فقيل: هذا شرك أصغر.

وقيل: فيه نوع تشريك.

ما الفرق بين الشرك الأصغر ونوع التشريك؟

نوع التشريك فيه صورة الشرك لا حقيقته، يعني هو شابه فِعل المشركين في فِعالهم وما أراد حقيقة ذلك، ولا يجوز.

وهذه الآية التي ذكرها اختلف فيها السلف والخلف فيمن عُني بالضمائر الواردة فيها:

هل هي في آدم وحواء؟ أم في المشركين من أبنائهم؟

فجمهور المفسرين على أنها في آدم وحواء، أي قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، صح ذلك عن سمرة بن جندب الصحابي موقوفًا، وعن ابن عباس من طُرق كثيرة يشد بعضها بعضًا.

وهذا لا يقال بالرأي، خاصة في حق نبي من الأنبياء، فله حكم الرفع.

ولذلك قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد: من خالف هذا التفسير فقد وقع في تفسير مبتدع.

أي من قال: هذه الآية ليست في آدم وحواء هذا خالف السلف، فكأنه ابتدع في تفسير هذه الآية، قلنا: هذا قول جمهور المفسرين من السلف والخلف.

والقول الثاني: أنها فيمن جاء بعد آدم وحواء من أولادهم من المشركين، يعني ليست في آدم وحواء، وإنما هي في المشركين، لأن الله ﷻ قال: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠، ١٩١].

فالآية في الشرك الأكبر، وآدم وحواء لم يُشركا الشرك الأكبر، هذا أولًا.

وممن نصر هذا القول جدًا الشيخ ابن عثيمين، نصره من سبعة أوجه في القول المفيد، وردَّ على من قال إنها في آدم وحواء.

ومن ضمن هذه الوجوه التي ذكرها: أن آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا ذكر الله ﷻ توبته ذكرها في الأكل من الشجرة، و لو كان أشرك في التسمية لكان أولى أن تُذكر توبته.

وفي حديث الشفاعة كذلك ذكر أنه أكل من الشجرة، والتوبة من الشرك أعظم من مجرد الأكل من الشجرة، لأن الأكل من الشجرة معصية.

وممن نصر هذا القول كذلك ابن حزم وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في روضة المحبين، قال: لا يُلتفت إلى ما قيل فيه عن آدم وحواء.

وأما من قال إنها نزلت في آدم وحواء: فدليلهم الذين أظهروه أنهم ما أثبتوا الشرك لآدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا لحواء. قالوا كما سيأتي في الأثر: إنما أطاعه في التسمية فهم أطاعوا في التسمية، مجرد التسمية، سمياه عبد الحارث، فلما كانت عندهم المحبة للولد أطاعاه في التسمية ولم يطيعاه طاعة عبادة.

فهذه معصية تساوي معصية الأكل من الشجرة، فهي من صغائر الذنوب، فآدم لم يشرك لا الشرك الأكبر ولا الشرك الأصغر، ولكن هذا فيه كما قلنا: هذا فيه نوع تشريك.

ما نوع التشريك؟ أن يشابه الشرك ولم يرد حقيقته، وإنما الصورة فقط تُشبه الشرك، لأن التعبيد لا يكون إلا لله.

ذكروا أن الحارث هذا اسم إبليس ولا يصح ذلك مسنداً، فقال لهما: سمياه عبد الحارث، فأطاعه من أجل استبقاء الولد، وليس من أجل التعبيد لإبليس، فكان فيه نوع تشريك وهو معصية، كالأكل من الشجرة، هذا أولًا.

والأمر الثاني: قالوا: ينبغي أن ننظر إلى أصل القصة لا إلى تفاصيلها، وهذا أمر معمول به في التفسير، وهذا نبَّه عليه غير واحد من أهل العلم.

لا أنهم يردُون الإسرائيليات التي وردت عند المفسرين بالإطلاق، فابن جرير يذكر الإسرائيليات، وابن كثير يذكر الإسرائيليات.

هل كلها تُرد؟ ذهب بعض المتأخرين هذا المذهب لأنهم نظروا إلى تفاصيل هذه الإسرائيليات، وهذا ليس منهجًا صحيحًا، وإنما يؤخذ من هذه الإسرائيليات أصل القصة بما لا يخالف معنى الآية، أما غير ذلك فإنه يُرد.

وهذا ثابت عن أحد أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وثابت عن ابن عباس من طُرق كثيرة، فلو رجحنا هذا التفسير أعني تفسير ابن عباس وسمرة، فهو على هذه الصورة التي ذكرناها أنه وقع في نوع تشريك في مجرد الصورة، لا في الشرك الأصغر ولا في الشرك الأكبر.

ولو رجحنا قول ابن عثيمين ومن قبله ابن كثير وابن القيم وابن حزم، فعلة ذلك ما ذكرناه عنهم.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): كلامنا هٰهنا ليس في باب الترجيح القاطع، وإنما في إخراج قول ابن عباس وسمرة على وجه لا يقدح لا فيهم ولا في آدم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، هذا ما أردناه.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): لماذا؟

ليس فيه قطع لآدم على الصورة التي ذكرناها، إنما أرادوا الصورة فقط استبقاءً للولد، أطاعوه كما أطاعوه في الأكل من الشجرة.

وقلنا: هذه التفاصيل الواردة في الإسرائيليات لا نلتفت إليها.

(المتن)

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله.

(الشرح)

كل اسم مُعبَّد لغير الله، تقول: عبد قيس، عبد مناف، عبد المطلب، عبد الرسول، عبد النبي، عبد المسيح، كل هذه من الأمور المحرمة.

(المتن)

كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب.

(الشرح)

لماذا استثنى ابن حزم عبد المطلب؟ لأن الذي يسمي بذلك أراد اسم جد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني أراد الموافقة في الصورة، ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: أنا ابن عبد المطلب أن النبي لا كذب، فقالوا: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولها، فدل ذلك على الجواز، ولكن الصحيح أن ذلك أيضًا لا يجوز.

لأن عبد المطلب لم يكن تسمية، واسم عبد المطلب شيبة، وإنما لمَّا جاء به المطلب من عند أخواله من بني النجار ورآه الناس وقد أثَّر عليه السفر فظنوا أنه عبدٌ له، فقالوا: عبد المطلب، فغلب عليه هذا الوصف، وإنما اسمه شيبة.

فحتى عبد المطلب لا يجوز التسمية به.

(المتن)

وعن ابن عباس رضي الله عنه في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت.

(الشرح)

لما تغشاها أي جامعها، لكن يكثر في القرآن والسنة ذِكر الكنايات لما قد يُستقبح ذِكره.

(المتن)

لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة.

(الشرح)

هذه التفاصيل لا نظر إليها، هم يعلمون أنه كان سببًا في الإخراج، فالتفاصيل هذه كلها لا نظر إليها إذا اعتمدنا تفسير ابن عباس ومن معه من جمهور المفسرين.

(المتن)

إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل.

(الشرح)

والأيل ذكر الأوعال، الوعل حيوان يُشبه الظبي ولكن له قرنان عظيمان.

(المتن)

قال: أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن ،يخوفهما، سّمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما فأدركهما حُب الولد.

(الشرح)

هذه هي العلة علة الطاعة.

(المتن)

فأدركهما حُب الولد، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى: ﴿ جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا ﴾، رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

(الشرح)

شركاء في طاعته: أطاعوه في التسمية ولم يشركوا في العبادة، وسيأتي في المسألة الخامسة الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

(المتن)

قال: وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا ﴾ قال: أشفقا ألا يكون إنسانًا، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

(الشرح)

لكن الثابت عن الحسن أنه قال: إن ذلك لم يكن في آدم وحواء.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبّد لغير الله.

(الشرح)

قلنا: هذا بالإجماع.

(المتن)

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

(الشرح)

وهذا على تفسير ابن عباس ومن قال بقوله: أنه كان مشابهة في التسمية فقط استبقاءً للولد.

(المتن)

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

(الشرح)

أن هبة الله: مصدر مضاف فهو عامل، والبنت مفعول، أن هبة الله للرجل البنت: أي أن يهب الله الرجل البنتَ السوية الخالية من العيوب من النعم، مع أن التفسير جاء في الذكر، وإنما قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما ذكر البنت ردًا على مَن كان يرى البنت نقمة.

لا إشكال في الولد، وإنما ذكر البنت لبيان أن الكل نعمة من الله ﷻ.

(المتن)

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

(الشرح)

وهذا مأخوذ من قول قتادة: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): ليس كل طاعة عبادة للشخص، قد تطيع الشخص وأنت مكره على ذلك، فهذه ليست عبادة، وقد تطيعه في المعروف فتصير عبادة لله تعالى لا له.

طاعة ولاة الأمور في المعروف عبادة لهم؟ لا، ليست عبادة لهم.

ولذلك فرَّق السلف بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة على مقتضى. قول قتادة:

فالطاعة المضافة لله تساوي العبادة.

الطاعة لله هي كالعبادة لله.

وأما الطاعة لغيره فتفارقها، طاعة غير الله تفارق العبادة، فنحن نطيع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا نعبده، ونطيع الملوك أو الرؤساء في غير المعصية ولا نعبدهم.

فشرك الطاعة لا يقتضي محبة ولا تعظيمًا، بخلاف شرك العبادة.

شرك الطاعة هو درجات: منه ما هو معصية، ومنه ما هو شرك أصغر، ومنه ما هو شرك أكبر.

فعل المعصية على سببين:

السبب الأول: طاعة للشيطان، من يفعل المعصية يفعلها طاعة للشيطان، وهي معصية، وقد تكون شركًا أصغر، وقد تكون شركًا أكبر.

أو بسبب الهوى، إنسان يفعل المعصية لا لطاعة الشيطان وإنما بسبب الهوى القائم في نفسه.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(الشرح)

الباب كما هو واضح من ترجمته يتعلق بمبحث توحيد الأسماء والصفات. وأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية مترابطة.

والخَلل في واحد منها لَا بد أن يؤدي إلى الخَلل في الآخر، وذكرنا أمثلة قبل ذلك في هذه المسألة.

من كان عنده خلل في توحيد الربوبية أو في توحيد الأسماء والصفات أثَّر ذلك ولا بد في توحيد الألوهية.

فإن حُسن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات سبيل سوي إلى معرفة أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

وهذا المبحث، أعني مبحث الأسماء والصفات فيه مسائل يجب على كل مسلم أن يتعلمها، لأنه بتعلمها تكمل معرفته بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمرء كلما كان بربه أعرف كان له أعبد، ومَن عرف الله بأسمائه وصفاته أحبه لا محالة.

ولا يستطيع المرء أن يعبد ربه إلا إذا عرفه من خلال أسمائه وصفاته.

ولذلك كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر الأسماء والصفات في كتاب الله أكثر من ذكر الجنة وما فيها من الطعام والشراب والنعيم.

وكذلك الآيات والسور التي خُلِّصت للكلام عن الله و أسمائه وصفاته أعظم قدرًا وأجرًا من غيرها، فلا تتساوى سورة الإخلاص في القدر والأجر والمعاني

العظيمة مع سورة المسد، فالأولى خُلِّصت للكلام عن ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأما الأُخرى فهي حديث عن رجل عادى النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعادى دعوته حتى أهلكه الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن أراد أن يعبد ربه حق العبادة فعليه أن يدرس هذا الباب وأن يتقنه.

أبو القاسم التيمي قِوام السُنَّة رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه المحجة يقول كلامًا ما معناه، لو أن واحدًا منا أراد أن يعامل رجلًا أو أن يتزوج ابنته فإنه لا يُقدِم على ذلك إلا بعد أن يسأل عن اسمه واسم أبيه ونسبه، لا يُقبل على التعامل معه إلا بعد أن يعرف كل ما يحمله على معاملته.

يقول: والله الذي خلقنا ورزقنا ونرجو رحمته، ونخشى عذابه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هو أحق بهذه المعرفة.

فهذا الباب باب عظيم، وفيه مسائل ينبغي أن نتعلمها.

من هذه المسائل:

- أن نعلم أن أسماء الله أعلام وأوصاف، فليست أسماءً مجردة كأسمائنا، فأسماؤنا ما هي إلا أعلام محضة سمَّانا آباؤنا بهذه الأسماء من أجل التمييز، ومن أجل أن يميزك من أخيك.

وأما أسماء الله عَزَّوَجَلَّ فهي أعلام وأوصاف، فكل اسم من أسمائه يتضمن صفة ويتضمن الكمال في هذه الصفة.

ولذلك كانت أسماؤه كلها حُسنى.

- والمسألة الثانية: أن أسماء الله مترادفة من وجه متباينة من وجه:

ما وجه ترادفها؟ باعتبار دلالتها على الله، فكل الأسماء الحسنى تدل عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فهي من هذه الجهة مترادفة.

ومتباينة باعتبار ماذا؟ أن كل اسم من هذه الأسماء يتضمن معنى وصفة ليست في الاسم الآخَر، فهي مترادفة من جهة ومتباينة من جهة أخرى.

- والمسألة الثالثة: أن أسماء الله توقيفية لا توفيقية:

أسماء الله توقيفية أي أنها موقوفة على النص، على كتاب الله وسُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك لا يجوز لنا أن نُسمي الله بما لم يُسم به نفسه، وبما لم يسمه به نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك وضع العلماء قواعد لنعرف بها أسماء الله وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليس من أسمائه كما هو مشتهر عند الناس: النافع، وليس من أسمائه: الضار، فهذه ليست من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن كان يُخبر بها عن الله، فالذي ينفع ويضر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما أن نُسمي الله باسم النافع أو باسم الضار فهذا لم يرد لا في كتاب الله ولا في سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وكذلك أسماء الله غير محصورة بعدد معين.

ودليل ذلك: ما جاء في سُنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله في حديث عبد الله بن مسعود في حديث الكرب: **«اللَّهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**.

هذا هو الشاهد: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسماءً استأثر بها فلم يُطلِع عليها أحدًا، فهذا يدل على أن أسماء الله غير محصورة.

وكذلك قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه: **«لا أُحصي ثناءً عليك»**، والثناء يكون بأسماء الله وصفاته.

وأفضل مَن يُثني على ربه: نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك لـمَّا قال: لا أُحصي ثناءً عليك، أي لا أستطيع أن آتي بالثناء الكامل من كل وجه عليك، دل ذلك على استئثار الله ﷻ بأسماء لا يعرفها أحد من الخلق.

وكذلك كما في حديث الشفاعة من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله ﷻ يقول له: **«يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تُشفَّع، يقول: فيفتح الله عليَّ بمحامد يُعلِّمنيها»**، أي يُعلِّم النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه المحامد في هذا الموقف.

فالله يُحمد بأسمائه وصفاته، فأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير محصورة في عدد معين.

وأما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مَن أحصاها دخل الجنة»**، فهذا لا يدل على حصر أسماء الله في هذا العدد، وإنما ذلك بمثابة قول الرجل: إن لي مائة درهم أعددتها للصدقة كما قال الخطابي في شرحه على سنن أبي داوود.

فهذا لا يعني أنه لا يملك غير هذه المائة، فربنا علَّمنا تسعة وتسعين اسمًا من أسمائه من أحصاها دخل الجنة، هذا هو المقصود بهذا العدد.

والمقصود بالإحصاء في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من أحصاها دخل الجنة»**: ليس مجرد ترديدها كما يقوم به بعض الناس، أو أن يجعلها في أُغنية أو غير ذلك، ويظن بذلك أنه يعبد الله ﷻ، فهذا أولًا من البدع، ثم هو ليس من معنى الإحصاء في شيء.

معنى من أحصاها دخل الجنة: أي من عرفها لفظًا ومعنى، عرف أن الله من أسمائه الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام، وعرف معاني هذه الأسماء، وعرف معنى الرحمن ومعنى الرحيم، ومعنى القدوس، ومعنى السلام، هذا أولًا.

ثم بعد ذلك دعا الله ﷻ بهذه الأسماء ؛ فإن كان يرجو الرحمة من الله ﷻ دعاه باسمه الرحيم، وإن كان يرجو الرزق من الله ﷻ دعاه باسمه الرزاق، وهكذا.

الأمر الثالث: التعبد بمقتضاها بما تدل عليه هذه الأسماء، فإن فعل ذنبًا أو إن كان في ضائقة فهو يعلم أن الله رحيم، وأن الله غفور، وأن فَرَجَهُ قريب، فهذا هو التعبد بمقتضى هذه الأسماء.

▪ القاعدة الأخيرة من هذه القواعد: أن اسم الله ﷻ إن كان متعديًا فيلزم للإيمان به ثلاثة أمور:

ما معنى متعدٍ؟ أي يتعدى لخلقه، له أثر في خلقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كصفة الرحمة وصفة الحكمة، وصفة الخلق، فهذه صفات تعدت لمخلوقات الله ﷻ، ومن أسمائه الرحيم، والحكيم والخالق.

فما الذي يجب عليك؟

- أن تؤمن بكون الاسم من أسماء الله الحسنى،
- وأن تُثبت الصفة: فالرحمن والرحيم يتضمنان صفة الرحمة.
- وأن تُثبت أثر هذه الصفة في خلقه، فرحمة الله ﷻ وسعت كل شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأما إن كان الاسم لازمًا لا يتعدى لغيره؛ كاسم الله الحي، فحياته تختص به سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالواجب عند الإيمان بمثل ذلك الاسم أن نُثبت الاسم وما يتضمنه من صفة.

قال: **باب قول الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** [الأعراف: ١٨٠].

ولله الأسماء الحسنى: وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. فالأسماء الحسنى إنما هي لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ، أعني: الأسماء البالغة في حسن غايته لا تكون إلا لله، لا منتهى لحسنها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، يفُك لنا إشكالًا تكلم فيه بعض من تكلم، هل أسماء الله هي الله؟ أم هي غيره؟ أم ماذا؟

فمن الناس من قال: أسماء الله غير الله، وهما فريقان:

- أما الفريق الأول: فهم المعتزلة، قالوا: إن أسماء الله غيره، يُدلِّلون على أن أسمائه مخلوقة بشبهات عقلية فاسدة، وأنها لا تتضمن الصفات التي دلت عليها.

- وأما الفريق الثاني: فبعض من ينتسب لأهل السُّنَّة، وأراد بذلك أن أسماء الله غيره، فليس الرحمن الألف واللام والراء والحاء والميم هي الله، فهذه الأسماء تتضمن حروفًا فليست هي الذات أي ذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهناك فريق آخر قال: أسماء الله هي الله، وهؤلاء تُعقِّب عليهم:

وهل هذه الألفاظ هي الله بهذه الحروف؟

والخروج والسلامة من ذلك أن يتقيد المرء دائمًا بما جاء في القرآن والسُّنة، فالعصمة فيهما.

فالله ﷻ ما قال عن أسمائه هي هو أو هي غيره، وإنما قال: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولذلك نحن نقول:

إن الصحيح: أن أسماء الله لله، فلا نقول هي هو، ولا نقول: هي غيره، لأن الله قال: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فأسماؤه له.

وكذلك نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا»**، فقال: إن أسمائه له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلا نقول: أسماء الله هي الله ولا أسماء الله هي غيره، وإنما نقول: أسماؤه له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فالمرء ينبغي له أن يدعو الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العُليا، وكلما كان العبد عارفًا بآداب الدعاء كانت الإجابة أرجى، فللدعاء آداب ينبغي للمرء أن يتعلمها، ويأتي على رأس ذلك أن يدعو الله بأسمائه وصفاته. والدعاء نوعان:

أما الأول: فهو دعاء المسألة، ودعاء الحاجة، أي أن لك حاجة عند الله، تسأل الله الولد أو الرزق أو الفلاح أو الجنة، أو غير ذلك من الأمور.

فتقدِّم هذه الأسماء بين يدي حاجتك، وهذا كثير في أدعية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

تأمل دعاء سيد الاستغفار، أو هذا الدعاء الذي ذكرناه دعاء الكرب، ترى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدِّم بين يدي حاجته بالثناء على الله ﷻ بما هو أهله.

تقول: اللّهم يا رزاق ارزقني، اللّهم يا رحيم ارحمني، يا غفور اغفر لي، فهذا يسمى بدعاء المسألة.

والدعاء الثاني وهو دعاء العبادة: أن تعبد الله ﷻ بهذه الأسماء أي أن تُثني بها عليه بما هو أهله، وهذا يتضمن دعاء المسألة، لأنك لو لم تسأل الله ﷻ واكتفيت بالثناء فهو يعلم حاجتك، وترى ذلك بوضوح في دعاء الكرب:

ابن عباس في الصحيح يقول: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعاء الكرب، سماه دعاءً. ماذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الدعاء:

يقول: **«لَا إِلَهَ إِلَّا الله العليم الحليم، لَا إِلَهَ إِلَّا الله رب العرش العظيم، لَا إِلَهَ إِلَّا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم»**، أين الدعاء بتفريج الكرب؟

لا يوجد في هذا الدعاء سؤال الله ﷻ تفريج الكرب، فهذا يسمى بدعاء العبادة وهو متضمن دعاء المسألة.

وأمية بن أبي الصلت له بيتان مشهوران:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤك إن شيمتك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرُضه الثناء

كان يقول هذين البيتين في مدح عبد الله بن جُدعان، لأنه كان موصوفًا بالكرم .

يقول: إذا أثنى عليك المرء يومًا لا يطلب حاجته، وإنما يكفيه أن يتعرض بالثناء عليك وأنت تعلم حاجته، ومن ثم تُلبِّي له هذه الحاجة، والله ﷻ من باب أولى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فله المثل الأعلى.

فعلى المسلم أن يدعو الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

قال: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ما معنى ذروا؟ أي اتركوا وامضوا فيما أنتم فيه من عبادة الله ﷻ، واتركوا هؤلاء الذين يُلحِدون في أسمائه.

والإلحاد مأخوذ من اللحد، وهذه المادة اللام والحاء والدال أصل واحد يدل على الميل، لحد بمعنى مال، وألحد كذلك.

ومنه اللحد، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللحد لنا، والشَّق لغيرنا»، يعني صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحد القبور، وهو أن يجعل في آخرها جزءًا في أسفل التربة في شقها الأيمن أو الأيسر ثم يضع فيه الميت، ثم بعد ذلك يضع عليه التراب.

فقال: «اللحد لنا، والشق لغيرنا»: يعني شق الأرض هكذا بشكل مستقيم هذا لغيرنا، ولكن هذا غير معمول به عندنا؟

نحن نعمل بالشق، مع أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «الشق لغيرنا»، نعمل بالشق لأن تربتنا لا تتحمل اللحد، لأنها تربة رملية، ولا كراهة في ذلك.

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحه على صحيح مسلم: أجمع العلماء على جواز ذلك وعدم كراهته.

أما إن كان هناك لحد فهو أفضل، أما الكراهة فمنتفية.

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، إذًا هذا معنى اللحد في اللغة بمعنى الميل.

وأما اللحد في الاصطلاح، يعني في هذا الباب باب الأسماء والصفات: فهو الميل والانحراف بها عمَّا يجب لها، وهو على صور:

▪ أما الصورة الأولى: أن يُنكر اسمًا من أسماء الله، أن يقول أن الله ليس من أسمائه الغفور ولا الرحيم، أن ينكر اسمًا من أسمائه.

أو ما دلت عليه من الصفات، يقول: هو سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قُدرة، فيسمي الله بأسماء مجردة خالية من الصفات، كما تفعل الجهمية والمعتزلة.

▪ أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه، وهذا من الإلحاد في أسماء الله، كما تفعل النصارى: يسمون الله أبًا لعيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيقولون: الأب والابن والروح القُدس، فيسمون الله بالآب.

وكما يفعل الفلاسفة يسمون الله بالعلة الفاعلة، يعني الذي فاض عنه الكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس من أسمائه لا العلة، ولا من أسمائه الآب، لأن الأسماء توقيفية.

▪ أن يشتق منها أسماءً للأصنام، وهذا من الإلحاد، فيسمي اللات من اسمه الإله، والعُزَّى من اسمه العزيز، ومناة من اسمه المنان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا كذلك من الإلحاد في أسماء الله.

▪ وكذلك أن يجعلها دالة على المماثلة، فيجعل المعاني الثابتة لله فيها للمخلوق، فإذا كان اسم الله العزيز تضمن كمال العزة جعل ذلك للمخلوق، فجعل الاسم وكمال الصفة للمخلوق، والله ﷻ يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فهذا كله من الإلحاد في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله في هذه الآية: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهذا من الوعيد، فالذي يُلحد في أسماء الله ﷻ له وعيد شديد، قال: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ما قال سيجزون النار أو سيجزون كذا وكذا، إنما قال: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فعبَّر عن الجزاء بما هو مطابق لأعمالهم، وهذا فيه كمال عدل الله، لا زيادة ولا نقصان، لا يظلم ربك أحدًا، ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وفي آية أخرى قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت: ٤٠]، وهذا كذلك وعيد من الله ﷻ وتهديد بهذا الذي يُلحد في آيات الله الكونية والشرعية.

(المتن)

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾: يشركون.

(الشرح)

فلما جعلوها دالة على المماثلة كان هذا شركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

وعنه.

(الشرح)

أي عن ابن عباس.

(المتن)

سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز.

(الشرح)

وهذا شرك كذلك لأنهم جعلوا مسمى هذه الأسماء مشاركة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، جعلوا هذه الأصنام مشاركة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(المتن)

وعن الأعمش.

(الشرح)

وهو سليمان بن مهران، ثقة ثبت.

(المتن)

يُدخلون فيها ما ليس منها.

(الشرح)

والأصل أن أسماء الله توقيفية.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

(الشرح)

لأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(المتن)

الثانية: كونها حسنى.

(الشرح)

فأسماء الله بلغت في الحُسن أكمله على الوجه الذي لا يكون إلا لله وهذا مقتضى التأخير والتقديم، والحسنى مؤنث الأحسن، فأسماؤه حسنى.

ولذلك من الأفضل إذا أردت أن تُعبِّر عن اسم من أسماء الله من الأفضل ألا تقول لفظ الجلالة، إنما قل: الاسم الحسن، أو الاسم الأحسن.

تقول -مثلاً- : وذكر الله الاسم الأحسن الرحيم في هذه الآية بدلًا من الجبار، لأن الآية تقتضي ذلك، فإن ما قبل هذا الاسم يدل على ..

تقول: اسم الله الأحسن، لأن الله ﷻ سماها بالأسماء الحُسنى، أما لفظ الجلالة فهذا لم يكن في لسان السلف، ولا في تفاسير السلف، وإنما هذا مما ورد على ألسنة المتأخرين.

(المتن)

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

(الشرح)

قال: ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والفاء هذه فاء السببية، تبين سبب دعائه بها أنها أسماء حُسنى.

والأمر للوجوب.

(المتن)

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

(الشرح)

ويريد بالترك هنا ترك سبيلهم ومتابعة السبيل القويم، وليس ترك دعوتهم أو الرد عليهم، وإنما يريد أن تترك سبيل هؤلاء وأن تسير في الطريق القويم.

(المتن)

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

(المتن)

باب لا يقال: السلام على الله.

(الشرح)

كان الصحابة يقولون في صلاتهم: السلام على الله، السلام على عباده، السلام على فلان، على جبريل، على ميكائيل، فنهاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فهذا أيضًا من المخالفة في الألفاظ التي تؤثر في توحيد العبد.

ولذلك جاء المصنف بهذه الترجمة.

قال ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد مبينًا لماذا نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا القول:

لمَّا كان حقيقة لفظ السلام السلامة والبراءة والخلاص والنجاة من الشرور والعيوب.

فإذا قال المسلم: السلام عليكم، قال: فهو دعاءٌ للمسلَّم عليه، عندما تقول لأخيك المسلم: السلام عليك، فأنت تدعو له، وطلب له أن يسلم من الشر كله.

ولمَّا كان اللهُ هو المطلوبَ منه لا المطلوبَ له، الله ﷻ هو الذي يُطلَب منه أن يسلِّم عباده من الشرور، لا يُطلَب له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: لما كان الله هو المطلوبَ منه لا المطلوب له، وهو المدعُو لا المدعُوَ له، وهو الغني له ما في السماوات والأرض، وهو السالم من كل نقص وعيب، وكل سلامة ورحمة له ومنه، وهو مالكها ومُعطيها.

لمَّا كانت كل هذه الأمور قال: استحال أن يسلَّم عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل هو المسلِّم على عباده، فهو السلام ومنه السلام لا إله غيره ولا رب سواه.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».

فعندما تقول: السلام على الله، كأنك تدعو الله أن يسلمَ هو من النقائص والعيوب، والله ﷻ هو الذي يسلِّم عباده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو السلام السالم من النقائص والعيوب، فلا يحتاج لهذا الدعاء منك.

ولذلك جاء نهي النبي ﷺ في هذا الباب.

فمناسبة هذا الباب أن توحيد الأسماء والصفات عمدته أن أسماء الله كلها حسنى وأن صفاته كلها عُليا، فهي سالمة من كل نقص وعيب فله المثل الأعلى أي الوصف الأكمل.

(المتن)

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة.

(الشرح)

وهذا في بداية الأمر.

(المتن)

قال: كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده.

(الشرح)

يعني يطلبون سلامة الله بدعائهم له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(المتن)

السلام على فلان.

(الشرح)

جاء في روايات: على جبريل وميكائيل.

(المتن)

فقال النبي ﷺ: **«لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام»**.

(الشرح)

فنهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا للتحريم، الأصل في النهي أنه للتحريم، فيحرم على المرء أن يقول: السلام على الله.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تقولوا: السلام على الله»**: واقتصاره على النهي عن السلام على الله فيه دليل على جواز السلام على غير الله من الخلق.

ولذلك أنت تقول: السلام على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي الرواية الأخرى توضيح لهذا المُبهم السلام على فلان وفلان أي على جبريل وعلى ميكائيل، ففيه جواز السلام على المخلوق، أن تدعو بالسلام للملائكة وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: **«لا تقولوا السلام على الله، فإن»**: وهذه تعليلية، يُعلِّل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا النهي، وهذا من حُسن تعليمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن هذا مما يؤدي إلى اطمئنان الصدر بهذا التشريع السامي، تشريع الله عَزَّ وَجَلَّ.

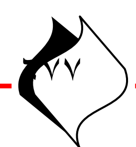
فأحكام الله مُعلَّلة ولها حِكم عظيمة، قال: **«فإن الله هو السلام»**.

أما باقي الخلق فيجوز لك أن تُسلم عليهم، أنت إذا مررت على أخيك المسلم تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهذا السلام اختلف العلماء في معناه:

- فمنهم من قال: إنها بمعنى السلامة، فهذا دعاء منك له بالسلامة من العيوب والنقصان.
- ومنهم من قال: إن المقصود هو اسم الله السلام، فعندما تقول: السلام عليكم، يعني نزلت بركة هذا الاسم عليكم.

واختير هذا الاسم لمناسبته للمعنى، لأنه هو الذي يسلِّم عباده من المعايب والنقائص سواءً في الدنيا أو فيما يتعلق بالدين.

- ومنهم من قال: أن السلام بمعنى التسليم، كالكلام بمعنى التكليم، فأنت عندما تقول: السلام عليك، أي تُسلِّم عليهم وتحييهم، فهي تحية.



(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

(الشرح)

أن السلام تحية، وهذه تحية عظيمة، يُفرِّط فيها بعض المسلمين يقول: صباح الخير، مساء الخير، وقد يقولون ذلك بغير لغة العرب، ولا أجر له في ذلك، وإنما الأجر في تحية الإسلام، السلام عليكم لك عشر حسنات.

السلام عليكم ورحمة الله عشرون حسنة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثلاثون حسنة، كما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فإذا قيل لك: السلام عليك رُدَّ بقولك: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فهذا الرد أحسن من السلام، ويُكتب لك الأجر العظيم بهذه الألفاظ القليلة المباركة.

أما صباح الخير، ومساء الخير، هذه ليست من تحية المسلمين، وإنما هذه قد تُستعمل في تحية غير المسلمين، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غير المسلمين قال: «لا تبدؤوهم بالسلام»، يعني لا تبدأ النصراني بقولك: السلام عليك، ولكن إن قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم.

ومنهم من قال: قل: وعليكم السلام، إن تأكَّدت أنه يقول: السلام لا السام يعني الموت.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن أن نبدأهم بقولنا: السلام عليكم، ولم ينهنا عن غيرها.

ولذلك قال بعض العلماء: يجوز لك أن تبدأ النصراني بقولك: صباح الخير أو مساء الخير خاصة إذا كانت هناك مصلحة شرعية في ذلك، هذا جائز، أما السلام فلا نبدأ هؤلاء بالسلام، كما بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): بعض المسلمين يقع في ذلك، ولذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أفشوا السلام بينكم، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**، سلِّموا على الناس وعلى العوام.

كثير من الناس بحق وبغير حق يقول: أصحاب اللحى لا يُسلِّمون إلا على مَن يعرفونه، لحية تُسلِّم على لِحية، لا يُسلم على العوام.

هذا يقوله بعض الناس بحق، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«وإن منكم منفِّرين»**، بعض الإخوة لا يُسلم إلا على من يعرفه.

وهناك من يتهمك بغير بينة، هو يضمر لك في نفسه ما يُضمر، قد تكون في طريقك وبالك مشغول بشيء ولا تتعمد ترك السلام عليه، ومع ذلك يتهمك أنك تركت السلام عليه، مع أن ذلك ليس من عادتك.

فهذه التحية لها أثر عظيم في قلوب الناس، والله هذه تُذيب الجبال العظيمة مما يكون في قلوب بعض الناس، السلام على العوام خاصة، لا أتكلم عن أهل البدع ولا من ينابذون هذه الدعوة بالعداء: فهؤلاء هجرهم واجب، إنما أتكلم عن العوام، مَن لا دخل لهم في أمور الفتن والشبهات والصد عن سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهؤلاء يجب أن تُسلِّم عليهم حفظًا لدعوتك ونشرًا لهذه السُنَّة.

لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا بذلك، وقد كان ابن عمر ينزل إلى السوق أحيانًا من أجل السلام، لا حاجة له في النزول، وإنما ينزل إلى السوق من أجل السلام، حتى يسلم على الناس.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا تقوم الساعة حتى لا يسلم المرء إلا على مَن يعرف»**، هذا من علامات الساعة أن يسلم المرء على من يعرف فقط.

والمقولة الخطأ: كثرة السلام يُقلل المعرفة، وهذا خلاف الشرع، بل كثرة السلام تزيد المعرفة وتقويها وتوطِّد أواصر المحبة بين المسلمين.

والصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا فرَّق بينهم جدار أو شجرة ماذا يصنعون؟ سلَّم بعضهم على بعض؛ لمعرفتهم بأهمية السلام، فسلِّم على الناس وارفع صوتك بهذا السلام.

بعض الناس يقول: أنا أُسلِّم وهو لم يسمعني، لا بل ارفع صوتك، وهذه من الأمور التي ينبغي أن ينبه عليها، فبعض الناس سلامهم إشارة كإشارة أهل الكتاب، يشير لك بيده دون كلام، أو برأسه وهذا كله مخالف لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

(الشرح)

فقولها يَحرم للعلة المذكورة.

(المتن)

الرابعة: العلة في ذلك.

(الشرح)

لأن الله هو السلام، السالم من كل آفة ونقص سبحانه.

(المتن)

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

(الشرح)

ما التحية التي تصلح لله؟ التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

فأنت تقول: التحيات لله، جمع تحية، والمراد تعظيمه سبحانه، واللام للاستحقاق، والألف واللام في التحيات للاستغراق، أما السلام فلا يسلم به على الله عز وجل.

(المتن)

باب قول: اللّٰهم اغفر لي إن شئت.

(الشرح)

ما حكم هذا القول أن يقول المرء: اللّٰهم اغفر لي إن شئت، اللّٰهم ارحمني إن شئت؟

هذا لا يجوز، وهو حرام، لنهي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كما في هذا الحديث الذي ذكره مما يبين حكم هذه الترجمة، قال: **«لا يقل أحدكم: اللّٰهم اغفر لي إن شئت، اللّٰهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له»**.

«لا يقل أحدكم: اللّٰهم اغفر لي إن شئت»، لماذا نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن هذا القول؟ لعدة محاذير:

- أما الأول: فلأنه يدل على فتور الرغبة وقلة الاهتمام بالمطلوب، وقلة الاكتراث بالذنوب وبرحمة الله، وكل هذا مضاد للتوحيد.

يدل على فتور الرغبة، إنسان يسأل حاجته ربه بلا رغبة شديدة، يقول: اللّٰهم اغفر لي إن شئت، ويدل على قلة الاهتمام بالمطلوب، وهذا خلاف أدب الدعاء، فالإنسان ينبغي له أن يُلح في الدعاء، وان يرى الله منه إقبالاً عليه؛ إذ الدعاء بمنزلة السيف في اليد، يكون أثره بحسب قوة الساعد، أي إقبال القلب على الربِّ تعالى.

- وأما الأمر الثاني: فلأنه يُشعر بأن الله له مُكره يستطيع منعه من فِعل هذا الشيء، لأن الدعاء بهذه الصورة يُشعر العبد أن الله له مُكرِه ﷻ، فكأنك تقول: أنا لا أُكرهك على ذلك، إن أردت أن تغفر لي اغفر لي.

- وأما المحظور الثالث: فلأن فيه ما يُشعر أن الداعي يرى هذا الأمر عظيمًا على الله، فقد لا يشاؤه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لكونه عظيمًا عليه، والله لا يَعظُم عليه شيء، ولذلك جاء النهي عن أن تقول: اللّٰهم اغفر لي إن شئت.

يعني الشيء بالشيء يُذكر، ولله المثل الأعلى: معك حقيبة ثقيلة جدًا، فأقول: يا فلان احمل هذه الحقيبة إن شئت، قد تؤثر على ظهره أو لا يستطيع فلذلك قلت: إن شئت، فقولك: اللّٰهم اغفر لي إن شئت هذا يُشعِر أو تستشعر منه أن هذا الأمر قد يكون عظيمًا على الله ﷻ.

ومن ثَمَّ نهاك النبي ﷺ عن ذاك، نهاك عن أن تدعو الله ﷻ قارنًا دعاءك بالمشيئة، تُعلِّقه على ذلك.

- وكذلك لأنه يُوهِمُ الكبر والتكبر، فكل ما سبق يدل على النقص

(المتن)

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يقولنَّ».

(الشرح)

وهذا تحريم، أكَّده النبي ﷺ.

(المتن)

«لا يقولنَّ أحدكم: اللّٰهم اغفر لي إن شئت، اللّٰهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة».

(الشرح)

ما معنى ليعزم المسألة؟

أي ليؤكد هذا السؤال، فيكون سؤاله سؤال محتاج ذليل متضرع إلى الله ﷻ، لا سؤال مستغنٍ مستكبر.

ولذلك قال: «ليعزم المسألة، فإن الله لا مُكرِه له».

(الشرح)

وإن هذه تعليلية، فلا أحد يُكره الله ﷻ على فِعل شيء أو تركه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

ولمسلم: «وليعظم الرغبة».

(الشرح)

يعني يسأل حاجته وإن كانت عظيمة جدًا وهو على يقين أن الله يُعطي العظائم لجوده وإحسانه.

فالله ﷻ لا يتعاظمه شيء، يمينه ملآى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ملأى لا يغيضها شيء، سحَّاء الليل والنهار، وبيده الأخرى الميزان يرفع القسط ويخفض، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرأيت ما أنفق منذ خلق الله السموات والأرض؟ فإنه لم ينقص مما في يديه شيئاً.

(المتن)

قال: «وليُعظِّم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

(الشرح)

أي لا يعسُر عليه شيء، فليس شيء عند الله عظيم يعجز عنهُ.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

(الشرح)

ما المقصود بالاستثناء؟

أي تعليقه على المشيئة، أو على عِلم الله، إنسان يقول: اللّٰهم اغفر لي إن كنت تعلم أني أهل لذلك، هذا أيضًا من الاستثناء.

والعلماء فرَّقوا بين نوعين من الدعاء:

- إذا كان المرء يسأل الله ﷻ الخير المحض الذي لا شر فيه، فإنه يعزم المسألة، ولا يُعلِّق ذلك على علم الله ولا على مشيئته، يعني أنت تسأل الله الجنة والرحمة والمغفرة، هذه لا شر فيها، هي خير محض، فتقول: اللّٰهم اغفر لي،

اللّٰهم ارحمني، اللّٰهم أدخلني الجنة، لا تُعلِّق ذلك على مشيئة، لا يكون الدعاء معلَّقًا.

- وأما إن كان الدعاء أو إن كان الأمر الذي يسأله المرء لا يعلم عاقبته من خير أو شر من أمور الدنيا فإنه يعلِّق ذلك على علم الله، فبعض الناس يقول: اللّٰهم ارزقني الولد، اللّٰهم ارزقني الولد، وقد يكون هذا الولد سببًا في هلاكه بعد ذلك ودخوله النار عياذًا بالله:

يأكل من أجله المال الحرام، ويكد في عمله حتى يترك الصلاة، ويرتشي ليؤمن مستقبله، يكون ولده مجبنة مبخلة، إلى أن يكون هذا الولد سببًا في القعود عن الطاعات والوقوع في المحرمات، فلا يعلم عاقبة ذلك إلا الله، ولذلك مثل هذا الدعاء يُعلَّق على علم الله بالخير في هذا الأمر.

ودليل ذلك: حديث عمار بن ياسر عند النسائي وهذا حديث عظيم ينبغي للمسلم أن يحفظه ليعلم فقه الدعاء وليدعوا الله ﷻ به.

عمار بن ياسر ﷻ صلى ذات يوم فأوجز، فسأله بعض مَن كان معه، قالوا له: صليت فأوجزت، فقال: أما على ذلك أي تقولون: إني أوجزت، فقد دعوت في صلاتي بدعوات سمعتهن من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فلما انصرف قال له السائب بن يزيد الصحابي الجليل.

الذي يروي هذا الحديث عطاء بن السائب عن أبيه، فقام إليه وسأله عن هذا الدعاء، فقال: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يقول في صلاته: **«اللّٰهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني ما علمت الوفاة خيرًا لي»**.

لم يقل: اللّٰهم أحيني وسكت، وما قال: اللّٰهم توفني وسكت، وإنما قال: ما علمت الحياة خيرًا لي، وما علمت الوفاة خيرًا لي، فإذا سألت ربك الولد أو الرزق أو

الزوجة فقيِّد ذلك بالولد الصالح أو بما فيه خيرٌ لك في الدنيا والآخرة، فهذا مما لا يدخل في الاستثناء المحرم، وأما الخير المحض فلا استثناء فيه ولذلك جاء في حديث عمار هذا: **اللَّهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللَّهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين**" من غير استثناء في جميعها.

ما تقول في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرجل الذي زاره فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طهور إن شاء الله**»؟

هنا يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقولن أحدكم: اللَّهم اغفر لي إن شئت**»، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما زاره قال: «**طهور إن شاء الله**»، فذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشيئة؟

نقول: إن هذا خبرٌ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس دعاءً. النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخبر أن المرض طهور للإنسان من سيئاته وذنوبه، فهذا ليس بدعاء، فلا يدخل في هذه المسألة.

أو أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك من أجل التبرك والتحقيق لا من أجل التعليق، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، فهذه ليس من باب التعليق.

(المتن)

الثانية: بيان العلة في ذلك.

(الشرح)

قلنا: فإن الله لا مُكرِه له.

(المتن)

الثالثة: قوله: «ليعزم المسألة».

الرابعة: إعظام الرغبة.

(الشرح)

الإنسان تعظم رغبته فيما عند الله ﷻ.

(المتن)

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

(الشرح)

النبي ﷺ قال: «فإن الله لا مُكرِه له»، وهذا كما قلنا: من حُسن بيان النبي ﷺ أنه دائمًا يذكر عِلل الأحكام التي يذكرها.

(المتن)

باب لا يقول: عبدي وأمتي.

(الشرح)

أي لا يقول المرء: عبدي وأمتي مخاطبًا من هم في ملكه، وتحت سلطانه.

والمراد بالنهي هاهنا: ألا يتلفظ المرء بهذه الألفاظ، لا يقول: عبدي وأمتي، ولا يقول العبد: ربي، يقصد سيده الذي يُطعمه ويعتني به، لماذا؟

قالوا: لأن التلفظ بهذه الألفاظ يُوهِم المشاركة في الربوبية، يوهم وإن لم يقصد المرء حقيقته، فكان هذا من باب سد الذرائع، ومن باب حماية جناب التوحيد، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك تأدبًا وحماية للتوحيد، بسد الذرائع المفضية إلى الشرك.

فهذا الباب كالذي قبله من الأبواب: فيه تعظيم ربوبية الله، وتعظيم أسمائه وصفاته، وهذا من كمال التوحيد ومن تحقيقه.

فقال المصنف: **باب لا يقول عبدي وأمتي**.

والعبد يقال للغلام، والأمة تقال للجارية.

ولذلك سُئل شيخ الإسلام كما في الفتاوى: ما تقول المرأة إذا دعت الله عَزَّ وَجَلَّ بدعاء الكرب؟

دعاء الكرب فيه: اللَّهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ما تقول المرأة؟

فقال شيخ الإسلام: لا بأس أن تقول المرأة: اللَّهم إني أمتك، لأنها تدعو لنفسها.

(المتن)

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي، وغلامي»**.

(الشرح)

ظاهر النهي هاهنا للتحريم، لأن الأصل في النهي أنه للتحريم، ومع ذلك فالعلماء على أن النهي للكراهة لا للتحريم.

بل نقل بعضهم الإجماع على ذلك.

قال بعض شراح هذا الكتاب وهو شيخنا الشيخ صالح العصيمي حفظه الله قال: والنهي للتحريم، وقد ذكر بعضهم أن التحريم مصروف للكراهة بالإجماع.

قال: وهذا فيه نظر، يعني الإجماع، والصحيح أنه قول الجمهور، أن النهي للكراهة قول الجمهور.

قال: حكاه ابن القيم في الزاد، وابن حجر في الفتح، وهو الصحيح، يعني أن الأصل في النهي هنا: للكراهة لا للتحريم، لوقوع الخبر بذلك في كتاب الله، فيدل على الجواز، من قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

فقال: من عبادكم، فسمى مَن تملكه عبدًا لك، تقول: عبدي، وأضافه الله ﷻ، وإمائكم، فسمى مَن تملكها أمتك، وأضافها إليه.

فالأصل في النهي أنه للكراهة، سدًا لهذا الباب.

متى يكون للتحريم؟

قال: ويكون النهي للتحريم إن لُوحِظ كمال الصفة التي تتضمن الذُل والخضوع، فإن لاحظ العبد فيه كمال العبودية عند إطلاق هذا الاسم فهذا هو المحرم.

قال: فهذا محرم، وأما إن أراد أصل المعنى دون كماله فأراد مجرد الملك فهذا جائز.

قال النبي ﷺ: **«ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**، وهذا يدل على أن هذا هو الأفضل، وإن كان غيره جائزًا.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

(الشرح)

هذا لا يجوز.

(المتن)

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد.

(الشرح)

لماذا نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

(المتن)

وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

(الشرح)

فنسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يرزقنا كمال التوحيد وتحقيقه، وأن يرزقنا متابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نلقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(المتن)

باب لا يُرد من سَأل بالله.

(الشرح)

وهذا الباب كالأبواب التي قبله، فهذه الأبواب كلها كما رأينا في تعظيم الله تعالى، فتعظيم الله ﷻ من تحقيق كمال التوحيد، فمن سأل بالله فقد سأل بعظيم.

لو أن إنسانًا سألك فقال: بالله عليكَ لتفعلنَّ كذا، فإنه بسؤاله بالله سأل بعظيم، ومن استعاذ بالله كذلك فقد استعاذ بعظيم.

والمرء لا يجوز له أن يسأل إلا بالله أو اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، أو أن يتوسل إلى الله ﷻ بعمل صالح يعمله، كما في حديث أصحاب الغار.

والمؤمن الذي حقق التوحيد إذا سُئل بالله وذُكر اسم الله أمامه وَجِل قلبه، لأن الله ﷻ قال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]، وإنما توجَلُ قلوبهم: لعلمهم بما يستحقه ربنا تبارك وتعالى من تعظيم.

لو سألك سائل بالله في أمر تستطيع أن تفعله، فقال لك: بالله عليك لتقضين حاجتي، وأنت تستطيع أن تقضي هذه الحاجة فإن النبي ﷺ نهاك عن أن ترد سؤاله، وأوجب عليك أن تُلبي حاجته.

ومسألة إجابة مَن سأل بالله على أقسام:

لأن السائل قد يسأل شيئًا محرمًا، أو قد يسأل شيئًا لا تستطيع أن تفعله، فهل قول النبي ﷺ: ومن سأل بالله فأعطوه على إطلاقه؟

لا، فصَّل العلماء في ذلك فقالوا: إنما يحرم رد السائل في حالة، وتستحب إجابته في حالة أخرى، وتُباح إجابته كذلك في حالة ثالثة، وتحرم إجابته في حالة رابعة.

إذًا المسألة فيها تفصيل:

منها ما يجب، ومنها ما يُستحب، ومنها ما يباح، ومنها ما يحرم.

متى يحرم عليك أن ترد من سألك بالله؟

▪ إذا سألك في مُعين، لو سأل شخصاً مُعينًا في أمر معين يستطيع أن يجيبه فيه: ففي هذه الحالة يجب عليك أن تجيبه، كما لو قال لك: بالله عليك أعني، أو ارفع عليَّ هذا الحِمل، سألك بالله في أمر معين، في رفع هذا الأمر، وأنت تستطيع أن ترفعه وأن تجيبه: في هذه الحالة يحرم عليك أن ترده، وإن رده فهو آثم.

▪ وأما الصورة الثانية وهي عكس هذه الصورة في الحكم، وهي التي يحرم عليك أن تجيبه، لا يجوز لك أن تجيبه إلى ما سأل، وإن سألك بالله: وهو لو سألك إثمًا، لو سألك شيئًا يوصِّل إلى معصية، كأن يسألك نقودًا وأنت توقِن أنه سيشتري بهذه النقود خمرًا، ففي هذه الحالة مع أنه سألك بالله إلا أنه يحرم عليك أن تجيبه.

▪ وأما الصورة التي يُستحب فيها الإجابة: فهو أنه إن سأل غير معين، يعني سأل جماعة من الناس واقفين أن يعينوه في أمر ما، كأن يأتي سائل إلى جماعة من الناس يقول: بالله عليكم أعينوني، فيستحب لك أن تبادر إلى إعانته.

▪ وأما الصورة التي يُباح فيها أن تجيبه: فهو إن علمت من حاله أنه لا يستحق ما سأله، سألك مالًا وأنت تعلم أنه غني لا يحتاج إلى هذا المال، أو سألك منفعة وأنت تعلم أنه يستطيع أن يستغني عن هذه المنفعة وأنه لا يحتاجها:

ففي هذه الحالة يباح لك أن تُجيبه.

والأصل في المسلم: أنه يُكره له أن يسأل غيره، لِمَا في ذلك من إذلال النفس، والخضوع للغير.

ولذلك لمَّا بايع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بايعهم على ألا يسألوا الناس شيئًا، فكان الواحد منهم إذا سقطت عصاه لا يسأل أحدًا أن يناوله إياها، بل ينزل عن راحلته ليأخذها . لا يقول لصاحبه ناولني هذه العصا، وهذا رواه أبو داوود والنسائي وابن ماجة، وصححه الألباني.

فهذا فيه إعزاز النفس، انظر إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا بايع لا يبايع إلا على أمور عظيمة، بايع أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا.

قال: **بابٌ لا يُرد مَن سأل بالله.**

(المتن)

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من استعاذ بالله فأعيذوه»**.

(الشرح)

مَن استعاذ بالله: أي قال: أعوذ بالله منكَ.

(المتن)

قال: **«من استعاذ بالله فأعيذوه»**، فمن لجأ بالله واستعاذ به منك فيجب عليك أن تُعيذه، لماذا؟ لأنه استعاذ بعظيم.

ولذلك لمَّا دخل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على المرأة الجونية، فلما اقترب منها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قالت: أعوذ بالله منكَ، فابتعد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنها، وقال: **«لقد استعذتِ بمعَاذ، الحقي بأهلك»**، فلما قالت: أعوذ بالله منك، عظَّم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ استعاذتها بالله ﷻ.

فقال: **«من استعاذ بالله فأعيذوه»**، فهذا أمر، والأصل في الأمر أنه للوجوب.

(المتن)

«ومن سأل بالله فأعطوه».

(الشرح)

على التفصيل الذي ذكرناه.

(المتن)

«ومن دعاكم فأجيبوه».

(الشرح)

وظاهر الحديث: وجوب الإجابة في كل دعوة، فمن دعاك إلى عُرس، ومَن دعاك إلى وليمة، مَن دعاك إلى عقيقة، فيجب عليك أن تجيبه، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فأجيبوه»، والأمر للوجوب.

والجمهور على اختصاص ذلك بوليمة العُرس.

وأما في غيرها فهو مستحب.

لماذا خصوا وليمة العُرس؟ قالوا: لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في وليمة العرس خاصة: «ومن لم يجب الداعي فقد عصى الله ورسوله».

فلما رتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الإثم على عدم إجابة الدعوة دل ذلك على وجوبها.

والعلماء وضعوا شروطًا للإجابة:

- الشرط الأول: ألا يكون الداعي ممن يُهجَر، كأن يكون فاجرًا، مجاهرًا بمعصيته، أو مبتدعًا داعيًا إلى بدعته، فهذا لا يجب عليك أن تجيبه، وإنما الواجب عليك أن تهجره.
- والشرط الثاني: ألا يكون في مكان الدعوة منكر لا تستطيع أن تُغيِّره، هو دعاك إلى عُرس، وأنت تعلم أن هذا العُرس يكون فيه ما يكون من الأغاني وشرب الخمر والمعصية والاختلاط وغير ذلك.

فإن استطعت أن تذهب وأن تُغيِّر فهذا خير، وإن علمت أنك لن تستطيع أن تُغيِّر فلا يجوز لك أن تذهب وأن تجيب هذه الدعوة.

- الشرط الثالث: أن يكون هذا الذي دعاك مسلمًا، لأن هذا من حق المسلم على المسلم.

- الشرط الرابع: ألا يتضمن ذلك إسقاط واجب، يعني دعاك في وقت صلاة فريضة لطعام مثلًا، هل يجوز لك أن تجيبه؟ لا يجوز لك أن تجيبه، لماذا؟ لأن هذا سيترتب عليه إسقاط واجب وهو ترك صلاة الجماعة.
- كذلك ألا يترتب عليه ضرر للمُجيب، دعاك وإجابة الدعوة تستلزم منك أن تسافر وأن تترك أولادك وأهلك: فهنا لا يجب عليك أن تُجيب هذه الدعوة، لِمَا قد يترتب على ذلك من الضرر للمجيب.

فقول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ومن دعاكم فأجيبوه»، هذا كذلك يقيده نصوص وضوابط شرعية أخرى وليس على إطلاقه.

أما بالنسبة لغير المسلم فإن كان من باب تأليف القلوب فيُجوز، إنما لا يصل إلى درجة الوجوب، لأن هذا مختص بالمسلم، ولذلك النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «حق المسلم على المسلم»، وبيَّن من حقوق المسلم: زيارته إذا مرض، وكذلك تشييع جنازته، وهذا لا يجب في حق غير المسلم.

(المتن)

قال: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى ترون أنكم قد كافأتموه»، رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

(الشرح)

إذًا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه»: الأمر الأول والثاني فيه تعظيم المسئول به والمستعاذ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والأمر الثالث: «ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى ترون أنكم قد كافأتموه»: فهذا كذلك فيه تحقيق التوحيد.

من أي وجه؟ أنك إن لم تكافئه على هذا المعروف ظل قلبك حاملًا له بعض ما قد يميل به قلبك إليه من جميل ويد له عليك.

فأنت بمكافئتك له تُفرِغ قلبك مما سوى الله، ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى ترون أنكم قد كافأتموه»**، حتى تروا، وهذا يدل على كثرة هذه الدعوة، تدعوا له كثيرًا، وخير دعوة أن تقول: جزاك الله خيرًا، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أن من قال لأخيه على معروف: جزاك الله خيرًا فقد أجزل له في الثناء، أي أعظم له في الثناء، وهذا من المكافئة.

قال: **«ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى ترون أنكم قد كافأتموه»**، وهذا كذلك قد يكون في رجل في منزلة لا تستطيع أن تكافئه بمثل ما كافأك به أو ما أعطاك إياه، كأن يكون رئيسك في العمل، أو وزيرًا أو غير ذلك، أو صاحب جاه، فمنَّ عليك بعطاء كثير لا تستطيع أن ترد له هذا العطاء، فعليك أن تدعو له، وأن تقول له: جزاك الله خيرًا، كما بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

(الشرح)

أي على من صنع لك معروفًا، فصنيعة فعيلة أي مفعوله، وهي كلُّ ما عُمِلَ من خيرٍ أَو إِحسان

(المتن)

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«حتى ترون أنكم قد كافأتموه»**.

(المتن)

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.

(الشرح)

الباب الذي مضى قال: باب لا يُرد مَن سأل بالله، وهذا الباب قال: باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة.

ما الفرق بين هذا الباب والباب الذي قبله؟

الباب الأول: موجَّه للمسئول، وهذا الباب موجَّه للسائل.

الباب الأول قال: باب لا يُرد مَن سأل بالله، هذ موجَّه لك أنت إذا سُئلت، وهذا الباب قال: باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، موجه للسائل، ألا يسأل بوجه الله إلا الجنة، أو ما وصَّل إلى الجنة، فهذا هو الفرق بين هذه الترجمة والترجمة التي قبلها.

ففي الأولى كانت الترجمة موجهة للمسئول، وفي هذه وُجِّهت للسائل، فالسائل عليه أن يحترم الله وصفاته، وألا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله، وألا يسأل بوجه الله إلا ما هو عظيم، وأعظم النعم الجنة؛ إذا فيها رؤية الله تعالى.

فلا يجوز له أن يسأل بوجه الله إلا الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل.

فإذا قال: اللّهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تثبتني على دينك، يجوز أو لا يجوز؟ يجوز، لأن الثبات على الدين موصِّل إلى الجنة.

يقول:اللّهم إني أسألك بوجهك الجنة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بوجهك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل.

والله ﷻ لمَّا أنزل قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وفي هذه يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعوذ بوجهك»، فأجابه الله ﷻ في اثنتين ولم يجبه في الثالثة وهي: أن يذيق بعضنا بأس بعض، أن يجعل بأس هذه الأمة بينها شديداً.

ولذلك كانت الفُرقة بين الأمة، فاختلفت الأمة إلى أحزاب وشيعٍ، وهذا من تقدير الله الكوني القدري لوقوع المخالفة الشرعية من العباد ولا يظلم ربك أحداً، وهذا يُرد بتقديره الشرعي أن نتجنب التحزب والفُرقة، وأن نعتصم بكتاب الله، وبسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشاهد: أنه لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة أو ما قرب إليها من قول أو عمل، فلا يجوز لك أن تسأل الله بوجه في أمر حقير من أمور الدنيا، كان يقول القائل: اللّهم إني أسألك بوجهك أن تمن عليَّ بالمال الكثير، هذا لا يجوز، وإنما يُسأل الله ﷻ بوجهه فيما هو عظيم.

فلا يُسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة وما يوصِّل إليها من قول أو عمل.

فقال: باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، وهذا نفي، فمن أين أخذنا التحريم؟

قال: لا يُسأل، هذا نفي فمن أين أخذنا التحريم؟

العلماء يقولون: أن النهي إذا جاء بصيغة النفي فهو متضمن النهي وزيادة، هو أبلغ من النهي.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إذا كُنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث**.

ما إعراب الفعل "يتناجى"؟

الجواب: فعلٌ مضارعٌ مرفوع، وعلامة رفعه الضمة المقدرة منع من ظهورها التعذر.

أليست "لا" ناهية؟

نعم ليست كذلك ،بل هي نافية ، فهي خبرٌ بمعنى الطلب ، وهذا أبلغ في النهي ، لأن حاصله نفيُ تصور وقوع ذلك من المسلم ، وتجدُ هذا كثيرا في القرآن ،وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم

كمثل قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾

وقوله صلى الله عليه وسلم " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن.... " الحديث، وكذلك " لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد... " الحديث .

وكذلك " لا يخطبُ الرجل على خطبة أخيه، ولا يسومُ على سوم أخيه، ولا تنكحُ المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا تسألُ المرأة طلاق أختها لتكتفئ صحفتها ولتنكح، فإنما لها ما كتب الله لها " .

قال الزركشي في البرهان:

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ "مُسْلِمٍ" فِي بَابِ تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ وَلَا يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ "، هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ ولا يسوم بالواو ولا يَخْطُبُ بِالرَّفْعِ وَكِلَاهُمَا لَفْظُهُ لَفْظُ الْخَبَرِ وَالْمُرَادُ بِهِ النَّهْيُ وَهُوَ أَبْلَغُ فِي النَّهْيِ لِأَنَّ خَبَرَ الشَّارِعِ لَا يُتَصَوَّرُ وُقُوعُ خِلَافِهِ وَالنَّهْيُ قَدْ يَقَعُ مُخَالَفَتُهُ فَكَأَنَّ الْمَعْنَى عَامِلُوا هَذَا النَّهْيَ مُعَامَلَةَ خَبَرِ الْحَتْمِ ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَلَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا " يَجُوزُ فِي تَسْأَلُ الرَّفْعُ وَالْكَسْرُ- وَالْأَوَّلُ عَلَى الْخَبَرِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ النَّهْيُ وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِقَوْلِهِ قَبْلَهُ: " لَا يَخْطُبُ وَلَا يَسُومُ " وَالثَّانِي عَلَى النَّهْيِ الْحَقِيقِيِّ.

قالوا: إذا عبَّر الشرع عن النهي بصيغة النفي فهذا معناه: أنه لا يتصور من المؤمن، فوقع على صورة النفي لعدم تصوره من المؤمن.

فهنا لا يتصور من مؤمن محقق للإيمان أن يسأل بوجه الله غير الجنة.

إذًا عُبِّر بالنهي عن النفي فهو متضمن للنهي وزيادة، ومعناه: أن هذا لا يتصور من مؤمن أن يقع فيه.

(المتن)

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»**، رواه أبو داود.

(الشرح)

وهذا الحديث اختلف العلماء في تصحيحه وتضعيفه، والكثير منهم على ضعفه، ولكن له شواهد كثيرة ترتقي به إلى درجة الاحتجاج:

فمنها: ما جاء عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الطبراني في الدعاء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، أنه قال: **«ملعون مَن سأل بوجه الله»**، يقصد مَن سأل بوجه الله شيئًا من الدنيا.

انظر إلى الوعيد، قال: **«ملعون»**، وإلا فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل بوجه الله فالمراد سأله شيئاً من حطام الدنيا، قال: **«أعوذ بوجهك»**، **«وملعون مَن سُئل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجرًا»**، أي أمرًا منكرًا.

«وملعون مَن سُئل بوجه الله ثم منع سائله»، أي لم يُجب سائله، مع أنه خالف النهي، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أن تسأل بوجه الله شيئًا من أمور الدنيا، ومع ذلك لو سألك سائل بوجه الله واجب عليك أن تجيبه على التفصيل الذي ذكرناه.

«وملعون مَن سُئل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجرًا»، أي أمرًا منكرًا.

وكذلك صح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة مرفوعًا قال: **«ألا أخبركم بشر البرية؟»**، أي شر الخلق، **«ألا أخبركم بشر البرية؟»**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«الذي يسأل الناس بوجه الله ولا يُعطى»**، وهذا صححه الألباني في صحيح الترغيب.

فهنا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»**، وهذا فيه إثبات الوجه لله، فالله ﷻ له وجه، وله سمع، وله بصر، ولا يُؤول الوجه بالذات، بل وجه يليق بجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والنصوص متكاثرة في إثبات الوجه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فذو صفة للوجه.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلت الآية التي ذكرناها قال: **«أعوذ بوجهك»**.

فالحديث الأول قلنا: رواه الطبراني في الدعاء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

وكذلك حديث آخر: ما جاء عند أحمد وأبي داوود، وصححه الألباني من حديث ابن عباس مرفوعًا: **«مَن سألكم بوجه الله فأجيبوه»**.

فمن سألك بالله أو بصفة من صفاته، أو أقسم عليك بالله أو بصفة من صفاته أو استعاذ بالله فواجب عليك أن تجيبه.

وقد مر معنا في حديث الأقرع والأبرص والأعمى: أن الملك لـمَّا جاءهم كان يقول لهم: أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

(المتن)

باب ما جاء في الّلو.

(الشرح)

أي قول الإنسان: لو حدث كذا لكان كذا، ما حكم استخدام هذه الكلمة؟ هل يجوز للمسلم أن يستخدمها أم لا؟

هذه المسألة فيها تفصيل، ولذا لم يقطع المصنف بحكمها في ترجمة الباب.

وهذه الكلمة تُستخدم على وجهين:

وجه مذموم.

ووجه جائز أو محمود، قد يُذم مستخدمها، أو قد يباح له أو يُحمد على ذلك.

فأما الوجه المذموم: فهو إذا فتحت على صاحبها باب الندم والسُخط والحُزن الذي ليس فيه نفع.

وقع ما كُتب في قدر الله وما كان في علمه السابق، فيقول الإنسان: لو فعلت كذا لكان كذا، فتقع منه هذه الكلمة على وجه السُخط والحُزن مما قد يفتح عليه باب الوسواس، وبصورة لا تؤدي إلى استدراك ما فات: فهنا لا يجوز، لأنه يؤدي إلى الاعتراض على قدر الله تبارك وتعالى.

لأن الأمور كلها بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وكل أمر يقع للعبد فإنما يقع على مقتضى حكمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فهو الذي يضع الأمور في نصابها.

إذًا الوجه الأول: لو وقعت على وجه يؤدي إلى الندم والتحسر بشكل لن يعيد ما فات، أو أدت إلى الاعتراض على قدر الله تبارك وتعالى: فهذا مما يُذم.

وأما المحمود أو الجائز: كأن يقولها العبد متمنيًا فِعل الخير في المستقبل، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجته: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت: ما سُقت الهدي ولا أهللت بعمرة»**.

وكذلك في حديث الأربعة: **«إنما الدنيا لأربعة نفر»**، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحدهم أنه قال: **«لو أن لي مثل مال فلان»**، هذا الذي أُعطي علمًا ولم يعط مالًا، قال: **«لو أن لي مثل مال فلان لعملت بعمله»**، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فهما في الأجر سواء»**.

وكقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«رحم الله أخي موسى، لو صبر لقص الله علينا من نبئهما»**، في قصة موسى مع الخضر. لـمَّا عارض موسى الخضر في ثلاثة أمور، فقال له الخضر: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«رحم الله أخي موسى، لو صبر لقص الله علينا من نبئهما»**، وهذا من أجل تمني الخير.

إذًا قد تقع على وجه جائز أو ممدوح محمود.

وأما إذا تمنى الشر في المستقبل فهو مذموم كذلك.

قال: **باب ما جاء في اللو.**

والأصل أن لو حرف، ولكن دخلت عليها اللام، والتي هي من علامات الاسم؛ لأن المقصود اللفظ، كما دخلت الكاف على الفعل في قول ابن مالك: كلامُنا لفظ مفيد كـ (استقم).

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

(الشرح)

فقال الله ﷻ رادًا عليهم: ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فهذا القول إنما صدر من المنافقين في غزوة أُحد، يعترضون على الشرع وعلى القدر:

أما على الشرع: فيعترضون على إخراج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم في هذه الغزوة، ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، يقولون: لو كان الأمر بأيدينا، لو كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابعًا لنا: ﴿ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾.

ونحن نعلم أنه قُتل سبعون من المسلمين، بل من خِيرة المسلمين في غزوة أُحد، فالمنافقون يقولون: لو كان الأمر لنا، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابعًا لنا ما قُتلنا هاهنا، قالوها اعتراضًا على الشرع.

وقالوها اعتراضًا على القدر، لأنهم يقولون: إن القدر سبب ذلك، ولو كان بأيدينا الأمر في تغيير هذا القدر ما قُتلنا هاهنا.

إذًا صارت لو هاهنا مذمومة.

(المتن)

وقوله: ﴿ الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾.

(الشرح)

قال تعالى: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، فهذه كذلك نزلت في المنافقين في نفس الغزوة.

والفرق بين هذه الآية والآية التي قبلها: أن الآية الثانية تبين أن المنافقين جمعوا بين أمرين:

أما الأمر الأول: فهو الاعتراض على القدر، قالوا: لو أطاعونا ما قُتلوا، ولكن لمَّا كان الأمر ليس بأيدينا، فكان هذا القتل.

وأما الأمر الثاني: فهو الجُبن عن تنفيذ شرع الله وهو الجهاد، ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ﴾، إذًا هؤلاء لم يجاهدوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جبنوا عن الجهاد، فذمتهم الآية في أمرين:

الأمر الأول: في اعتراضهم على القدر وعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأمر الثاني: في جُبنهم عن الجهاد مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فرد الله ﷻ عليهم قائلًا: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

فإذا جاء أمر الله لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فالإنسان لا يستطيع أن يفر من قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): الأولى: كانت في المنافقين الذين كانوا في الغزوة.

والثانية كانت فيمن تخلَّف عن الغزو، وكلاهما اعترض على الشرع وعلى قدر الله، واستخدم هذه الكلمة استخدامًا مذمومًا.

(المتن)

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**.

(الشرح)

وهذا رواه مسلم، فقوله: في الصحيح: أي في صحيح مسلم.

وأول هذا الحديث: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير**».

فقوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»، هذا فيه إثبات المحبة لله ﷻ، فالله يُحِب ويُحَب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال النبي ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبه الله ورسولُه**»، فالله يُحِب.

وأعظم الشأن أن يحبك الله ﷻ، فليس الشأن أن تُحِب، ولكن الشأن أن تُحَب، فإن الله إذا أحب عبدًا نادى في السماء: يا جبريل إني أحب فلانًا فأُحبه، ثم جبريل ينادي في أهل السماء: ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض فلانًا، نادى: يا جبريل إني أُبغض فلانًا فأبغضه، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يُبغض فلانًا فأبغضوه، نسأل الله العافية.

فهذا فيه أولًا: إثبات المحبة لله.

وثانيًا: فيه أن المحبة تتفاضل، فليست محبة الله للأنبياء والمرسلين كمحبته لمن دونهم، وليست محبة الله لنبينا ﷺ كمحبته لغيره من الأنبياء والمرسلين، فأحب الخلق إلى الله نبينا ﷺ.

والمحبة تتفاضل بتفاضل التوحيد في قلب العبد المؤمن، فكلما كان العبد أكمل توحيدًا كان أحب إلى الله من غيره، نسأل الله أن يرزقنا كمال التوحيد.

لأن النبي ﷺ قال: «**أحب**»، وقال: «**خير**»، وخير أصلها أخير، أفعل التفضيل، وأحب يعني أكثر محبة إلى الله ﷻ.

قال: «**من المؤمن الضعيف**»، والمراد بالقوة والضعف هاهنا: قوة الإيمان، فهي المقصودة أولًا، قوة إيمان العبد.

وهذا فيه أن الإيمان يزيد وينقص، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: المؤمن القوي والمؤمن الضعيف، فالمؤمن القوي دليل على زيادة الإيمان، والمؤمن الضعيف دليل على نقصان الإيمان.

وقد تواترت النصوص على إثبات زيادة الإيمان ونقصانه، خلافًا لمن قال بعدم الزيادة والنقصان من أهل البدع كالمعتزلة والخوارج والأشاعرة فلا يقولون بذلك.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وفي كلٍ خير»، فيه دليل على أن المؤمن مهما ضعف إيمانه ففيه خير، فهو خير من غيره من غير المسلمين.

لأن بعض المسلمين يقول: فلان النصراني هذا خير من فلان المسلم، لمعاملة عامله بها، يقول: هذا النصراني خير من كثير من المسلمين، نقول: هذا كلام باطل، يكفي أن هذا معه توحيد، هذا لا يشرك بالله وهذا الآخر مشركٌ بالله، فلو جاء بملء الأرض ذهبًا، وأعمالًا صالحة لا يُقبل منه، ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وفي كل خير»: هذا يسمى بأسلوب الاحتراز، وهو من الإطناب، حتى لا يتوهمن إنسان أن المؤمن الضعيف لا خير فيه، كما قال الله ﷻ بعد أن ذكر مَن آمن بعد الفتح ومن آمن قبل الفتح، قال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد: ١٠]، حتى لا يظنن إنسان أن مَن آمن بعد الفتح ليس له الجنة.

وهذا فيه رد على الذين يقدحون في الصحابة الذين آمنوا عام الفتح: كأبي سفيان ومعاوية وغيرهم من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(السؤال): غير مسموع.

(الجواب): فيها كذلك: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد: ١٠]، وكما أتى في كثير من أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «فيسألهم ربهم وهو أعلم»، حتى لا

يقعن في قلب مسلم أو في قلب إنسان أن الله يسأل استزادة في علم أو طلبًا للعلم، فهذا من فقه الاحتراز، وهو كثير في الكتاب والسُنة.

ثم قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن»**.

فالأصل في الإنسان أن يحرص على ما ينفعه، ما ينفعه ابتداءً في أمر الآخرة، فيُقدِّم هذا على أمر الدنيا، وفي كل هذا يستعين بالله ﷻ، **«إذا استعنت فاستعن بالله»**، ولا يركن إلى الأسباب، لأن من ركن إلى الأسباب وقع في الشرك، ومن تركها قُدح في عقله.

قال: **«ولا تعجزن»**:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور.

الأصل في المؤمن أنه لا يعجز عن مأمور، يستعن بالله ويبادر في فعل هذا المأمور، وأنه لا يجزع من مقدور.

وقع ما وقع من البلاء والمصاب فعليه ألا يجزع وألا يعترض على القدر، وإنما يؤمن بقضاء الله وقدره، فمن لم يؤمن بقضاء الله وقدره لم يهنأ عيشه، كما قال السلف.

فالمرء إذا علم أن المصيبة من قدر الله، وأنه لا يُقدِّر إلا لحكمة اطمأن قلبه، وعلم أن الله لا يقدِّر له إلا كل خير.

قال: **«وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا»**: وهذا هو موطن الشاهد، لو أصابك مكروه من مصيبة أو بلية لا تقل: لو أني فعلت كذا، لأن هذا يفتح باب الشيطان.

ولذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»**، ولكن ما الذي ينبغي أن يقوله المسلم ؟ ينبغي أن يقول: **« قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**، فكل شيء يقع بقضاء الله وقدره.

لا ينفع في رد قضاء الله حيلة من الحيل، الله ﷻ إذا أراد شيئًا لا بد أن يقع وأن يكون، فإذا وقع فللمسلم أن يحتج بالقدر على المصيبة والبلية، ليطمئن قلبه وليهنأ عيشه، ولا يجوز له أن يحتج به على المعصية.

لا يجوز لإنسان واقع في معصية يقول: هذا قضاء الله وقدره، لأن الذي قدَّر ذلك كونًا وقدرًا هو الذي أنزل إليك الكتب وأرسل إليك الرسل لتهجر هذه المعصية وتبتعد عنها.

ولذلك الذي خلق المسيح الدجال هو الذي قال لك: إذا سمعت بالمسيح الدجال فانأ عنه، أوحى لنبيه ﷺ أن يقول لك: انأ عن المسيح الدجال واقرأ عليه فواتح سورة الكهف، لأن قضاء الله وقدره يعارَض بالشرع.

وهذا ما إذا كان هذا المقدر مما لا ينبغي للمسلم أن يقع فيه كالمعصية، أما المصيبة والبلية فإذا وقعت يقول المسلم: قدَّر الله وما شاء فعل.

قال: **«ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**.

فهذا الحديث فيه أن المرء يدور بين أمرين:

إما أن يكون مأمورًا بأمر يفعله، فعليه أن يحرص عليه وأن يستعين بالله.

وإما أن يصاب بمصيبة أو بلية من غير فعله: فعليه أن يصبر وألا يجزع، لأن عدم الصبر والجزع من الاعتراض على قضاء الله وقدره.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: لو، إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

(الشرح)

أي يفتح باب الوسوسة.

(المتن)

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

(الشرح)

وهو أن يقول: قدَّر الله وما شاء فعل، فالشرع إذا أغلق بابًا فتح بابًا آخر.

(المتن)

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

(الشرح)

لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ولا تعجزن»**، فالأصل في النهي أنه للتحريم.

(المتن)

باب النهي عن سب الريح.

(الشرح)

وهذا كالباب الذي تقدم في النهي عن سبِّ الدهر، فالذي يسُبُ الريح يسُبُ مسببها ومنشئها وخالقها، لأن الريح لا ذنب لها، فالذي يسُب الريح يسُب مَن أوجدها وسببها وهو الله تعالى.

فأهل التوحيد لا يقع هذا منهم، لأنهم يعلمون أن كل ما يجري في هذا الكون إنما هو من تصريف الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولا يفعل ذلك إلا مَن ضَعُف إيمانه وَقَلَّ تعظيم الله في قلبه.

وسب الريح أي شتمها.

(المتن)

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تسبوا الريح**».

(الشرح)

وهذا نهي، قلنا: إنه يقتضي التحريم، ثم أرشدنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلى ما ينبغي أن نفعله إذا هاجت الريح.

قال: «**فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللّٰهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به**»، صححه الترمذي.

(الشرح)

فأرشدنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلى ما ينبغي أن يقال، وهذا الحديث رواه أحمد وعبد بن حميد، والترمذي، وصححه.

واختلف العلماء على وقفه ورفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعضهم قال: هو من قول أُبي رضي الله عنه، وبعضهم قال: بل هو مرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سواءً قلنا هو مرفوع أو هو موقوف، فهذا مما لا يقال بالرأي، فله حكم الرفع.

فإذا رأيت من الريح ما تكره فقل: «اللّهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به»، وهذا فيه أن الريح مأمورة، لأنها من خلق الله.

قال الله ﷻ عن الريح في قوم عاد: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فالريح مأمورة مطيعة لله ﷻ كالسماوات والأرض قال لهما ائتيا طوعًا أو كرهًا، قالتا أتينا طائعين.

قال عمَّا خلقه ﷻ: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الطعام يسبح، وكان الصحابة يسمعون تسبيح تسبيح الطعام في يد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالريح مأمورة، فتقول: «اللّهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به»، فإن قلت ذلك لا يصيبك شيء مما فيها بإذن الله إن قلت ذلك موقِنًا بخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به»، إذًا لماذا نهى عن سبِّ الريح؟ لأن الريح لا ذنب لها، فمن سب الشمس لحرها، من سبَّ الشتاء سبَّ المطر أو سب الريح أو سب الرعد أو سب أي شيء يكون من تصريف الله في خلقه، إنما يتوجه سبه إلى مسببها وخالقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا لا يتصور في إنسان ذاق طعم التوحيد وعظُم قدر الله في قلبه.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

(الشرح)

وقضاء الله كله خير، فِعل الله كل خير، وإنما مفعولاته هي التي فيها الخير والشر.

وهذا معنى قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«والشر ليس إليك»**، فالشر لا يكون من فِعل الله أبدًا، وإنما الشر في مفعولاته فيما خلقه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

خلق الحيات والثعابين، وخلق أهل الشر من الكفار والمشركين، وخلق المسيح الدجال، وخلق يأجوج ومأجوج، وهذه المخلوقات والكائنات بها شر، ولكنه ليس شرا محضاً، لماذا؟

لأن الله الذي خلق إبليس أمرك أن تعصيه، فجعل خلق إبليس ابتلاءً لك، فإن عصيت إبليس دخلت الجنة وأحبك الله، وارتفعت منزلتك عند الله ﷻ، وكنت من أولياء الله وعباده الصالحين، فما خلق الله شيئًا فيه شرٌ محض، وإنما فيه شر من جانب وخير من جانب آخر.

وأما فِعل الله فلا شر فيه مطلقًا.

(المتن)

باب قول الله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

(الشرح)

قال ابن قاسم في حاشيته على هذا الباب: أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة : باب قول الله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾، التنبيه على وجوب إحسان الظن بالله، فهذا من واجبات التوحيد.

فالأصل في المسلم أن يُسلِّم لحكمة الله وقدره السابق، طالما أنه يعبد الله على مقتضى شرعه.

الأصل في المسلم أن يسلم لحكمة الله، لأنه يعلم أن الله حكيم عليم قدير، وأن الله قدَّر كل شيء، وهذا التقدير مرده للعلم الشامل والحكمة البالغة والمشيئة النافذة ، فلا يجوز له أن يعترض على قضاء الله، وأن يُسيء الظن بربه.

الآن المسلمون في أضعف حالٍ لهم، يُقتَّلون ويُذبَّحون ويُشرَّدون وهم من أكثر أهل الأرض إهانة في هذا الزمان، فلا يجوز لمسلم أن يسيء ظنه بربه، وأن يظن أن الله يرفع المشركين على المؤمنين أبدًا، وإنما يُحسِّن ظنه بربه، ويعلم أن الله ما يفعل ذلك إلا لحكمة والله لا يعجل بعجلة أحد، ومن ذلك أن يعود المسلمون إلى دينهم.

وكذلك الحال بالنسبة له هو كفرد مسلم: إذا كان يعمل على مقتضى شرع الله، ثم أصابه مكروه، فيعلم أن الله لا يُقدِّر له إلا كل خير، «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير»، كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

هذا من توحيد العبد لربه الذي تعلمه وانعقد عليه قلبه: يعلم أن الله موصوف بصفات الكمال، وأن فِعاله لا تكون إلا على الوجه الذي لا نقص فيه، فالله لا يفعل إلا لحكمة، سواءً علمنا هذه الحكمة أم لم نعلمها، وصلت إلينا هذه الحكمة عن طريق الشرع أو ظهرت دلائلها فبها ونعمة. إذا لم تصل إلينا نُسلِّم لأمر الله ونعلم أنه لا يقضي إلا كل خير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأن من أسمائه الحكيم.

فقال: **باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾**، ما ظن الجاهلية؟

أجمع ما قيل فيه: قول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: ظن الجاهلية ظن غير ما يليق بالله. وظن الجاهلية قسمان:

- منه ما يتعلق بأصل الإيمان، ظن فاسد يتعلق بأصل الإيمان، كأن يظن أن الله بحاجة لولد، كما هو حال النصارى، أو أن الله بحاجة لشفعاء ليقبل الأعمال، كما هو حال المشركين، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فهذا ظن فاسد متعلق بأصل الإيمان، فهذا كُفر.
- والقسم الثاني: ما يتعلق بكمال الإيمان الواجب، كمن يظن أن الله ﷻ يؤخِّر نصر أوليائه مع استحقاقهم له، فهذا سوء ظن بالله، وهذا يقدح في كمال إيمانه الواجب.

فقال: **باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾**:

وأول هذه الآيات في أهل الإيمان، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وهذه الطائفة هم أهل الإيمان، الجازمون بأن الله ينصر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُظهر دينه على الدين كله.

ثم قال: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فهؤلاء لا يغشاهم النُعاس، لِمَا أصابهم من القلق والجزع والخوف، وهم المنافقون المكذِّبون بالقدر، ولذلك يظنون بالله غير الحق.

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي لو أن الأمر كان لهم، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابعًا لهم لَمَا أصابهم القتل، فأكذبهم الله تعالى في هذا الظن، لأن هذا الظن كما قلنا: ظن الجاهلية، لا ظن أهل الإيمان.

فالأصل في ظن أهل الإيمان أنه مبني على اليقين والاعتقاد الجازم في صِدق موعود الله، والظن يأتي في القرآن بمعنى اليقين، قال الله ﷻ عن أهل الإيمان: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي يوقنون ويقطعون.

وأما أهل النفاق فإنه لَمَّا وقع ما وقع في غزوة أُحد كما جاء في السير: قيل لعبد الله بن أبي بن سلول: قُتل بنو خزرج، فقال: هل لنا من الأمر من شيء؟ يعني لو كان لنا من الأمر شيء وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابعًا لنا لَمَا أصابنا هذا القتل، فقال الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فلا يكون إلا ما سبق في قضاء الله وقدره وجرى في كتابه.

وأما ما أصاب المسلمين يوم أُحد من القتل والأذى، وما أصاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنما كان تمحيصًا للمؤمنين .

لو استمر نصر الله ﷻ للمؤمنين على ما فيهم من التقصير في الواجبات والوقوع في المعاصي، فما النتيجة؟

الأمر الأول: قد لا تقع توبة ولا ندم على ما فات من ذنب وتقصير.

والأمر الثاني: قد يترتب على ذلك إعجاب بالنفس، ويزول من قلوب المؤمنين التواضع والخضوع لله تبارك وتعالى.

المؤمن إذا ابتلاه الله بسبب ما يقع فيه من الذنوب والمعاصي فإنه ينكسر، ورُبَّ معصية أورثت ذُلًا وانكسارًا، ورُبَّ طاعة أورثت عُجبًا واستكبارًا، رُبَّ معصية تكون سببًا في دخول صاحبها الجنة، لا يزال خائفًا من الله ﷻ حتى تكون سببًا في دخوله الجنة، ورُبَّ طاعة لا يزال الكِبْرُ والعُجب يتعاظم في قلب صاحبها حتى تُهلكه عياذًا بالله فيكون من أهل النار.

ألم يقل الرجل لأخيه من بني إسرائيل: والله لا يغفر الله لك؟ قالها بسبب ماذا؟ بسبب إعجابه بطاعته، فقال الله ﷻ له: أحبطتُ عملك وأدخلتك النار، عياذًا بالله.

فالله ﷻ إذا ابتلى المؤمنين ، فإنما يكون ذلك من باب التمحيص والرجوع إلى الله ﷻ.

(المتن)

وقوله تعالى: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ .

(الشرح)

هذه الآية كالتي قبلها هي كذلك في المنافقين والمشركين، يظنون بالله ظن السوء، ما ظن السوء؟ يظنون أن أمر النبي ﷺ سيضمحل وأن دعوته ستنتهي، فقال الله ﷻ: ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ، فالسَوء محيط بهم من كل جانب كما تُحيط الدائرة بما في جوفها.

بل قال: ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ٦]، وهذا فيه إثبات الغضب لله ﷻ.

﴿ وَلَعَنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٦]: فيه إثبات اللعن لله ﷻ.

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦].

(المتن)

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن يظهره الله على الدين كله، وهذا هو الظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه.

(الشرح)

إذًا ما ظن السوء وظن الجاهلية؟

ظن غير ما يليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(المتن)

وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

(الشرح)

إذًا ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ فسَّر ظن الجاهلية بأمور ثلاثة: إما أن يكون من باب إنكار القدر، أو من باب إنكار الحكمة، أو من باب إنكار نُصرة الله لدينه، فهذا كله من ظن الجاهلية.

(المتن)

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق.

(الشرح)

يُديل: أي يجعل الدولة والغلبة لهم، يجعل الدولة والغلبة لأهل الباطل على أهل الحق.

فمن ظن أن الله يديل الباطل على الحق، يجعل الباطل يعلو الحق، إدالة مستمرة ومستقرة يضمحل معها الحق.

(المتن)

أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدَّره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة.

(الشرح)

كما هو قول نُفاة الحكمة والتعليل.

الذين يقولون: إن الله يفعل لا لحكمة، وهذا كلام باطل،

ولذلك كان هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، أما أهل السُنَّة فيقولون: إن الله يفعل لحكمة، سواءً علمنا هذه الحكمة أو لم نعلمها.

(المتن)

بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم.

(الشرح)

أكثر الناس، وهذا لا يقوله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جُزافًا، فكثير من الناس إذا أصابه مكروه ظن بالله ظن السوء، واعترض على قضاء الله وقدره، ولا يصبر الصبر الذي أمر به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بل لا يصبر إلا صبر البهائم.

(المتن)

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك.

(الشرح)

ثم بيَّن طريق النجاة.

(المتن)

لا يسلم من ذلك: إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته.

(الشرح)

أي أثر.

(المتن)

حكمته وحمده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(الشرح)

فالله له الأسماء الحُسنى والصفات العُلى.

(المتن)

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا.

(الشرح)

أي بهذا الباب باب حُسن الظن بالله.

ولذلك قال الشاعر:

فلا تظنن بربك ظن سوءٍ فإن الله أولى بالجميل

فليعتنِ اللبيب: واللبيب فعيل، وهو ذو اللُب أي العاقل الفطن.

(المتن)

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر.

وفتش نفسك: هل أنت سالم؟ فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة، وإلا فإني لا إخالك ناجيًا.

(الشرح)

فسلِّم لأمر الله إن كنت مؤمنًا بأقداره واغنم بها كنت راجيًا

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيًا

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

(الشرح)

سوء الظن بالله، يكون في القدر، ويكون في حكمة الله، ويكون فيما يتعلق بنفس الشخص أو بغيره.

(المتن)

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

(المتن)

باب ما جاء في منكري القدر.

(الشرح)

أي ما جاء فيه من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد، فإن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولا يصح إيمان العبد إلا إذا آمن بالقدر خيره وشره.

وهذا الباب جاء به المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الباب السابق للعلاقة بينهما، فإنكار القدر من سوء الظن بالله تعالى.

فالباب السابق كان في ظن المنافقين والمشركين وهو ظن الجاهلية، وإنكار القدر من سوء الظن بالله، فهذا الباب كالتفصيل للباب الذي قبله.

وأما مناسبة هذا الباب لهذا الكتاب كتاب التوحيد: أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولا يتم إيمان العبد إلا به، فلو آمن المرء بالله وملائكته وكُتبه ورُسله واليوم الآخِر، ولم يؤمن بهذا الركن ما صح إيمانه، ولهذا جاء بهذا الباب.

والقدر لغة: ترجع مادته إلى القاف والدال والراء، قَدَر، وهي كما قال ابن فارس: أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء ونهايته.

ويُطلق القدر على الحكم وعلى القضاء وعلى الطاقة وعلى التضييق.

وأما القدر شرعًا: أن يؤمن المرء بتقدير الله الأشياء في الأزل، وبعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنها ستقع في أوقاتٍ معلومة على صفات معلومة.

هذا معنى القدر شرعًا: تقدير الله الأشياء في الأزل، وعلمه أنها ستقع في أزمان معلومة على صفة معلومة، والإيمان بكتابته سبحانه لِمَا قدَّره أزلًا، والإيمان بمشيئته، وكذلك الإيمان بوقوع ما قدَّره.

فمراتب القدر أربعة:

أن تؤمن بأن الله عَلِم، فكتب، فشاء، فخلق.

علم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكتب «قال للقلم: اكتب»، قال: «وما أكتب؟»، قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

ثم شاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يخلق هذه الأشياء الموجودة على مقتضى كتابته في اللوح المحفوظ.

فأركان القدر أربعة: العِلم، والكِتابة، والمشيئة، والخلق.

والدليل على أن الإيمان بالقدر وارد في كتاب الله وفي سُنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: يستدل بهذه الآية أئمة السُنَّة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها.

أي قبل خلقها.

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائنا لا محالة، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وترجع أهمية الإيمان بالقدر لأمور، مَن أحكمها، وعلم أسرارها ودقائقها هنئ بالعيش في الدنيا والآخرة.

وكثير من الخَلل الواقع بين المسلمين مرجعه لعدم إحكام وإتقان هذا الباب دون إفراط أو تفريط:

فهذا الباب يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأسماء الله وصفاته وفِعاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- فالإيمان به إيمان بالله وأسمائه وصفاته، ولذلك قد يسأل سائل: لماذا لم يرد هذا الركن صراحة في القرآن الكريم؟

كل آية وردت في كتاب الله فيها ذِكر الإيمان بالأركان الخمسة دون السادس، لماذا لم يُذكر الإيمان بالقدر صراحة مع هذه الأركان الخمسة؟

السبب في ذلك: أن القضاء والقدر يرجع إلى صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فهو من باب الإيمان بأسماء الله وصفاته، لأنك لو نظرت في مراتب القدر:

العلم، صفة من صفات الله.

الكتابة: صفة من صفات الله.

المشيئة: صفة من صفات الله.

الخلق: صفة من صفات الله.

لا يخرج عن الإيمان بصفات الله وفِعاله، فهو داخل في هذا الباب.

فالذي يؤمن بالقضاء والقدر حق الإيمان آمن بصفات الله وبربوبيته، آمن بعلمه وقدرته ومشيئته وإرادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذا يفسِّر لنا عدم ذكر الإيمان بالقضاء والقدر صراحة في القرآن، وإن ورد ذلك صراحة في السُنَّة، كما في حديث جبريل عليه السلام.

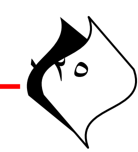
أول من تكلم في القضاء والقدر وأنكره: مَعبد الجُهني كما في أول حديث في صحيح مسلم، ثم انتشر بعد ذلك القولُ بنفي قدر الله السابق على يد المعتزلة، فهم الذين تولوا ذلك.

وكانوا أول الأمر ينكرون عِلم الله السابق، وهؤلاء غُلاة القدرية الذين يقولون: أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، وهذه الطائفة انقرضت.

وأما طائفة المعتزلة التي ما زالت موجودة فهم ينكرون خلق الله لأفعال العباد كما سيأتي معنا.

قال: باب ما جاء في منكري القدر، والمراد هٰهنا التنبيه على أهمية الإيمان بالقضاء والقدر.

(المتن)



وقال ابن عمر رضي الله عنهما: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قَبِلَه الله منه حتى يؤمن بالقدر.

(الشرح)

وهذا فيه بيان أن مَن لم يؤمن بالقضاء والقدر فهو كافر خارج عن الإسلام.

والدليل في هذا الحديث: أن ابن عمر رضي الله عنهما منع أن تُقبل منهم النفقات، ولو أنفقوا مثل أُحد ذهبًا، والنفقات والصدقات تُرد على الكافرين، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، فبيَّن العلة في ردِّ هذه النفقات عليهم أنهم كفروا، فكذلك منكر القدر كافرٌ بالله ورسوله مُكذِّب بالقرآن.

وقول ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، فيه إثبات اليد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: **«الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**، رواه مسلم.

(الشرح)

فبيَّن أركان الإيمان، ذكرها جملة متوالية، ثم أعاد الفعل ليؤكد على أهمية الإيمان بهذا الركن.

قال: **«أن تؤمن بالله»**، لم يقل وتؤمن بملائكته، وتؤمن بكتبه، وتؤمن برسله، وإنما قال: **«الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر»**، سلك كل هذه الأركان في جملة واحدة، ثم جاء بجملة جديدة عطفها على الجملة الأولى، قال: **«وتؤمن بالقدر خيره وشره»**، وهذا فيه دليل على أهمية الإيمان بهذا الركن.

قال: **«وتؤمن بالقدر خيره وشره»**: هل القدر فيه خير وشر؟

نقول: هنا أطلق القدر وأراد المقدور، فالمقدور هي مفعولات الله التي أوجدها بخلقه، كالذنوب والمعاصي والطاعات والإنس والجن، كإبليس، كيأجوج ومأجوج، كالثعابين، كالحيات، كالحشرات، فهذه فيها خيرٌ وشر، فالمخلوقات مقدورات الله تبارك وتعالى فيها خير وشر.

أما فِعل الله نفسه فكله خير، لأن خلق الله لهذه المخلوقات الضارة التي فيها شر وقع لحكمة منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دعاء الليل في صلاته: «**والشر ليس إليك**»، أي لا يُنسب الشر إليه ولا يُوصَف فِعل الله بالشر، ففِعل الله كله خير محض، وأما الشر ففي ماذا؟ في مفعولاته، فيما خلقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكل هذا يجري على مقتضى حكمته.

فالقدر فِعل الله لا شر فيه، أما مقدوره وما خلقه فهو الذي فيه الخير والشر.

(المتن)

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، يا بني سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**».

(الشرح)

هذا حديث عظيم رواه أحمد وابن أبي شيبة، وصححه الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ، وكذلك غيره من أهل العلم.

عبادة بن الصامت ﷺ يقول لابنه: يا بني، وهذا فيه نصيحة الأب لابنه، وأعظم النصيحة أن تكون في الدين، أن ينصح الوالد ولده في الدين، وأن يهتم بقلب ولده، وتربيته، وأن يحرص على أن يكون مع الرُفقة الصالحة في المجالس الصالحة.

ومما يؤسف له أن بعض الآباء يحرص دائمًا على صحة ولده البدنية لا الصحة القلبية، فتراه دائمًا يسأل عن طعامه وشرابه وتعليمه ومذاكرته وغير ذلك، ولا يسأل عن صلاته وعبادته وقراءته للقرآن وحفظه له، لا يسأل عن ذلك إلا عَرَضًا أو لا يسأل مطلقًا.

بينما السلف يتفقَّدون أولادهم فيما يُصلح قلوبهم.

فهنا عبادة يقول: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وهذا فيه أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان الذي لا يصح إيمان العبد إلا بتحقيقه، وفيه أن للإيمان طعامًا كما أن للمحسوسات طعمًا، فأنت إذا أكلت الطعام وجدت طعمًا.

كذلك الإيمان بالقضاء والقدر له طعم لا يشعر به إلا أهل الإيمان الكامل.

ولذلك قال من قال من السلف: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا ألذ ما فيها، قيل له: وما ألذ ما فيها؟ قال: الأُنس بالله.

وقال كذلك بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ما هذا الذي هو فيه؟ لذة الإيمان، وذوق طعم الإيمان، فالإيمان له طعم، نسأل الله ﷻ أن يذيقنا ذلك، وأن يثبِّت قلوبنا على الإيمان.

وقال بعضهم كذلك: إنه لتمر بي الأوقات أقول: لو كان أهل الجنة على مثل ما نحن فيه، لكفى بها نعمة، أو كما قال.

يريد لو كان نعيم الجنة هو مجرد هذه الحلاوة التي يجدها المرء إذا ذاق طعم الإيمان فكفى بها نعمة.

وهذه النعمة إنما تحصل للمرء كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ورسولًا.

فهنا يقول عبادة لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم: فعلَّق وجدان هذا الطعم على أمر ما، ما هذا الأمر؟ حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، فقدرك الذي قدَّره الله لا بد أن يلحق به، شئت أم أبيت.

وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولذلك لا يقولن الإنسان: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، وإنما يأخذ بالأسباب: فإن حصل مراده فبها ونعمت، فهذا الذي قدَّره الله، وإن لم يحصل مراده فكذلك هو الذي قدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا بد أن يقع المقدور.

ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وهذا فيه دليل على أن من أفتى بفتوى أو بثَّ علمًا بين الناس، أعني العلم الشرعي لا بد أن يكون عليه بُرهان ودليل من الكتاب أو السُنَّة.

فعبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا قال ذلك أيَّد ذلك ودلل عليه بما سمعه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»**.

يقول عبادة: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب»**، ومعنى الجملة: أي وقت أن خلق الله القلم قال له: اكتب، فهذا الحديث ليس فيه أن أول شيء خلقه الله هو القلم، على ضبط أولَ بالفتح، فهنا ظرف، فقال: **«إن أول»**، أي وقت أن خلق الله القلم قال: اكتب، فقال القلم: وما أكتب؟

«قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة».

السؤال الآن: هل جرى القلم بما أراد الله تبارك وتعالى وكتب؟

نعم، جرى بما أراد الله تبارك وتعالى وكتب، كتب كل شيء في الذِكر، أي في اللوح المحفوظ، كتب كل ذلك.

كم كتب هذا القلم؟

لو أخذنا فردًا منا، وأردنا أن نُحصي أعماله من أول ما خلقه الله، منذ أن خُلق ماذا صنع، بكى، ومشى، كم مشى؟ وكم بكى؟ وكم تكلم؟ وكم سكت؟ وكم نام؟ وكم غدا؟ وكم راح؟ وكم فعل؟ وكم..؟ وهذا في مخلوق واحد فقط، القلم كتب كل ما تفعله المخلوقات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكم كتب القلم؟

كتب أمورًا عظيمة لا يحصيها إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هل أخطأ القلم؟

الواحد منا لو كتب جوابًا أو كتب كتابًا، كم يمحو هذا، ويعدِّل هذا؟ هل نفد ما في القلم من أجل الكتابة؟ ما نفد، وهذا كله يدل على عِظم هذا المخلوق الذي هو القلم، وعِظم المخلوق يدل على عِظم الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فقال: **«اكتب مقادير كل شيء»**، وكل من ألفاظ العموم، فكل ما يدخل تحت هذه اللفظة (شيء) مما هو في هذا الكون مكتوب في اللوح المحفوظ، فكتب كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا ركن من أركان الإيمان بالقدر، ومرتبة من مراتب الإيمان بالقدر، وهي مرتبة الكتابة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وتدبر هذا القول: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، إنَّ توكيد، **ذلك**: هذه قد تدل على عِظم هذا المكتوب، ومع ذلك قال: يسير.

على الله يسير أصلها يسير على الله، كل هذه مؤكدات تدل على عِظم المكتوب، وعلى يُسر هذه الكتابة على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ثم قال: يا بني سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وهذا تبرؤ من النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من منكري القدر، هم كفار، تبرأ منه النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

(الشرح)

وهذا الرواية بعض أهل العلم ضبط أول بالضم، فذكرها هكذا وهو الشيخ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في السلسلة الصحيحة صحح حديثًا عن عبُادة ﷺ أو رواية قال فيها النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أولُ ما خلق الله القلم»، فأولُ ها هنا مبتدأ.

وعلى مقتضى هذه الرواية قال الشيخ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ: وهذه الرواية تفصل النزاع في هل العرش خُلق أولًا أم القلم؟

فالنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «أولُ ما خلق الله القلم»: فهذا فيه دليل على أن القلم هو أول المخلوقات.

وجمهور أهل العلم على أن العرش أول المخلوقات، هو أول ما أخبرنا الله تبارك وتعالى به من المخلوقات.

بل جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبري في تفسيره، والدارمي في الرد على الجهمية قال ابن عباس: إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، فكان أولَ ما خلق اللهُ القلم.

وهذا أثر صحيح لا يقال بالرأي، جمع فيه ابن عباس بين خلق العرش وخلق القلم، فجعل الذي خُلق ابتداءً هو العرش، ثم بعد ذلك القلم، فقال: إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، فكان أولَ ما خلق اللهُ القلم، فأمره وكتب ما هو كائن، وإنما يجري الناس على أمر قد فُرغ منه.

وإنما يأخذ المرء بالأسباب، وينظر فيما أعطاه الله من الاختيار والإرادة، وفيما أنزله الله في الكتاب وبيَّنه على يد نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى هذا القول نقول: إن قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرواية التي صححها الشيخ الألباني: أولُ ما خلق الله القلم: نقول: هذه أولية نسبية، وليست أولية مطلقة، فهي أولية باعتبار ما بعد العرش، فأول المخلوقات بعد العرش هو القلم.

ولذلك قال ابن القيم في نونيته رَحِمَهُ اللهُ:

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبلُ لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان

والحق أن العرش قبلُ: أي قبل خلق القلم، لماذا؟ قال: لأنه كان قبل الكتابة كان ذا أركانٍ، كان موجودًا، بدليل قول ابن عباس: إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئًا، فكان أولَ ما خلق اللهُ القلم، فكتب القلم كل شيء، وكل شيء في هذا الكون يجري على مقتضى تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

(الشرح)

وهذا فيه دليل على أن منكر قضاء الله وقدره من أهل النار، ويستحق الإحراق بنار جهنم عياذًا بالله.

(المتن)

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار.

(الشرح)

ابن الديلمي وهو تابعي ثقة، قال: أتيت أبي بن كعب، وهو الصحابي الجليل، فقلت: في نفسي شيء من القدر، ولعل هذا الشيء الذي وقع في نفسه من شك أو غيره حدث بعد فتنة القدر، وبعد أن خرج من خرج يُنكر قدر الله تبارك وتعالى.

فالفتن تُحرك المستقر من الأصول والمبادئ عند الناس، هذه طبيعة الفتن، أنها تحرك المستقر من الأصول، ولذلك حذَّر السلف من الفتن ومن التعرض لها، لماذا؟

لأنه كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا»، بسبب الفتن، كما قال حذيفة رضي الله عنهم، ينكر ما كان معروفًا عنده، ويصبح من كان منكرًا عنده معروفًا، وهذا تجده عند بعض الناس في أوقات الفتن.

الفتن خطَّافة والقلوب ضعيفة، ولذلك وجدنا من بعض السلف في أوقات الفتن أمورًا عجيبة، بعضهم ذُكر عنه أنه لمَّا هاجت الفتنة في وقت من الأوقات أغلق باب داره، وظل في داره وما ترك في بيته إلا فتحة كالنافذة يُقدَّم له منها الطعام، لا يخرج لا لصلاة ولا لمخالطة الناس، لأنه يخشى على قلبه.

حتى إذا انجلت الفتنة خرج، لا يقول: أنا لها، ويتصدر لها، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن المؤمن في أوقات الفتن ينبغي له أن ينأى عنها، فقال: «**إذا سمعتم بالدجال فانأوا عنه**»، ابتعدوا عنه.

أنت معك من العلم ما معك تستطيع أن تواجهه، وتقول له: أنت الدجال، وأنت كذا وأنت كذا، ولكن ما معه من الفتن والشُبهات قد يجعلك تؤمن به عياذًا بالله.

فالمرء عليه دائمًا أن يتجنب الفتن.

إذا وجد في قلبه شيئًا يُحرك ما هو ثابت عنده، دائمًا كان يسمع العلماء يقولون: يجوز، ووجد من يقول: إن هذا لا يجوز، أو وجد من يجوِّز أمرًا كانوا دائمًا يتكلمون في حرمته، ماذا يصنع؟ يذهب إلى العلماء الثقات، كما فعل ابن الديلمي.

ماذا صنع؟ لـمَّا وجد في نفسه ما وجد ذهب إلى أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فيه أن الإنسان كما أنه إن مرض بدنه ذهب إلى أطباء الأبدان، فمن باب أولى إن وجد أمرًا في قلبه أن يذهب إلى أطباء القلوب الذين هم العلماء.

قال: فأتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أُحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار.

(المتن)

فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه.

(الشرح)

وهذا القول فيه أمور:

أولًا: أن عقيدة السلف واحدة، وإن اختلفت أماكنهم فكلامهم واحد ومعتقدهم واحد، لماذا؟ لأن المشرب واحد؛ قال الله، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دائمًا يقدِّمون الدليل.

فابن الديلمي ما ذكر في هذه الرواية أنه أتاهم مجتمعين، وإنما الأصل أنه أتى كل واحد في مكانه، فجاء إلى ابن مسعود بعد أن أتى أُبي بن كعب فسأله، فقال له نفس الكلام، أي قال له: لو مت على غير ذلك لكنت من أهل النار.

وأتى حذيفة بن اليمان فقال له نفس الكلام، وأتى زيد بن ثابت فقال له نفس الكلام.

وانظر مَن أتى، أتى عبد الله بن مسعود الذي قال فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن أراد أن يقرأ القرآن غضًا طريًا فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**، فهو من أهل القرآن.

وأتى زيد بن ثابت وهو سيد من سادات القرآن، بل هو الذي جمع القرآن في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وجاء إلى حذيفة بن اليمان وهو خبير الفتن.

فجاء إلى اثنين من أئمة القرآن، وإلى رجل خبير بالفتن، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا سُئل كما في بعض روايات حديث حذيفة عن المخرج من الفتن، قال: **«عليكم بكتاب الله، عليكم بكتاب الله، عليكم بكتاب الله»**، فلما شعر بشيء في قلبه جاء لأهل العلم من أهل القرآن، وأهل القرآن قديمًا كانوا يجمعون بين حفظ القرآن وفهمه، أي كانوا علماء عاملين.

ثم جاء إلى حذيفة بن اليمان وهو خبير الفتن وصاحب سر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فيه دليل على أن هذا التابعي الجليل لم يذهب إلى هؤلاء هكذا، وإنما انتقى بعض أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك في حديث معبد الجُهني في إنكاره للقدر لمَّا خرج حميد بن عبد الرحمن وصاحبه للسؤال عن هذه الفتنة فتنة القدر في بعض الروايات، جاء في الرواية أنهما

تمنيا أن يوفَّقا إلى بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل العلم والفضل، فسألا الله أن يقابلا إما ابن عمر أو أبا سعيد الخدري في بعض الروايات.

فمعنى ذلك أنهما ذهبا إلى أُناس من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأعيانهم، فهذا فيه دليل على أن المرء إذا وقعت الفتنة عليه أن يبحث عن العلماء الثقات المعروفين بمتابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وباقتفاء هدي السلف الصالح دائمًا.

فقال: فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

(الشرح)

كما في حديث ابن عمر.

(المتن)

الرابعة: الإخبار بأن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

(الشرح)

فالإنسان إذا كانت عنده شُبهة لا يذهب يقرأ في الكتب، وإنما يسأل العلماء، فالعلماء يختصرون له الطريق، ويبيِّنون له الوجه الصحيح في كل مسألة من المسائل.

(المتن)

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل الشبهة، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط.

(الشرح)

وكذلك في أثر ابن الديلمي من الممكن أن نقول: إن المؤمن في وقت الفتن له أن يسأل أكثر من عالم للتثبت، لا من باب الأخذ بالرُخص، وإنما يسأل أكثر من عالم تثبيتاً لنفسه وغيره.

سأل أُبي بن كعب، وسأل عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فلما تواطأ قولهم على هذا الذي ورد في هذا الأثر، أدى ذلك إلى رسوخ الإيمان بهذا الركن في قلبه.

فأنت عندما تسأل أكثر من عالم في أوقات الفتن في مسألة من المسائل، ثم تجد فتوى المتقدمين على هذا القول، فهذا مما يجعل الأمر راسخًا في قلبك، وإن خالفه من خالفه ممن جاء بعدهم.

ما مراتب الإيمان بالقدر؟

العلم، أن تؤمن بعلم الله السابق، وأنه أحاط بكل شيء علمًا.

والكتابة: كتب كل شيء في الذِكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمشيئة.

والخلق، فهو خالق كل شيء سبحانه.

خالف في ذلك فِرقتان: الفرقة الأولى: أساءت استخدام النصوص التي فيها أن الله خالق كل شيء، وهم الجبرية، فقالوا: الله ﷻ يقول: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فقالوا: معنى ذلك أن المعاصي من خلق الله، فللإنسان أن يفعل المعصية محتجًا بقدر الله السابق، وله أن يترك الطاعة محتجًا بقدر الله السابق، وشابهوا في ذلك المشركين.

ماذا قال المشركون؟ قال الله تعالى مبينًا حال المشركين: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فشابهوا المشركين في الاحتجاج بالقدر، قالوا: لو شاء الله ما أشركنا، فطالما كتب علينا الإشراك، وشركهم مكتوب في اللوح المحفوظ، فهذا عُذر لنا بين يدي الله.

وشابهوا في ذلك إبليس، لأن إبليس قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر: ٣٩]، فاحتج بما قدَّره الله عليه من الغواية.

حتى قال بعضهم مُثبتًا الاحتجاج بالقدر على فِعل المعاصي، وهذا تجده عند بعض الناس، تقول له: تعالى صل، يقول لك: لو أراد الله هدايتي لهداني، يقولها بسوء أدب.

يقول لك: لو ربنا عاوز يهديني سيهديني، والعِوز يعني الحاجة، والله لا يحتاج، وإنما الذي يُثبت لله ﷻ الإرادة.

فيقول: لو أراد الله هدايتي لهداني، ولسانه حاله كلسان حال القائل:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

يقولون: هكذا نحن مع القدر، كالذي رُبطت أطرافه ثم أُلقي في الماء، وقيل له: إياك إياك أن تبتل بالماء.

فاحتجت الجبرية بقدر الله السابق على فِعل المعصية.

احتجوا ببعض النصوص وتركوا بعض النصوص، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [التكوير: ٢٩]، فقال: وما تشاءون، فأثبت للعبد مشيئة، والعبد له مشيئة

وإرادة، بدليل أنني أستطيع أن أرفع هذا الهاتف وأن أضعه، أستطيع أن أتكلم وأن أسكت، أن أذهب وأن أجيء، أن أنام وأن أقوم، أن أتزوج أو أن أترك الزواج.

أضع يدي في الماء البارد ولا أضعه في الماء الساخن، لأنني أعرف ضرر ذلك، فالإنسان له مشيئة وله إرادة.

أضف إلى ذلك: أن الله أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وأقام الحُجة، وهداك النجدين، بدليل أنك تعرف الخير من الشر. وبدليل أنك تسعى لمصالحك الدنيوية، الإنسان إذا جاع ماذا يصنع؟ يبحث عن الطعام، إذا عطش يبحث عن الماء.

هل وجدتم إنسانًا يقول: إن شاء الله سيرزقني الله بالأولاد ولو لم أتزوج؟

أم أنه يبحث عن الزوجة، ويسعى في تحصيل المال.

يقول: والله أنا مقبل على الزواج ومحتاج لبعض المال، فإذا كانت المسألة في أمر دنيوي، أخذ بالأسباب، فهو في الطاعة جبري، وفي غيرها قدري.

لماذا لا يأخذ هذا الإنسان كل شيء مكتوب في الذِكر، ويقول: لو أراد الله زواجي لزوجني، ولو أراد أن يرزقني بالولد لرزقني من غير زواج، لو قال ذلك: لقيل له: إنك مجنون.

بل وصل الحال ببعضهم كما يذكر ابن القيم في طريق الهجرتين: أنه دخل ذات يوم على زوجته، ووجد معها رجلًا، فهم أن يقتله، فزجرته، وبيَّنت له أن كل شيء كتبه الله ﷻ، أليس هذا مكتوباً؟ فقال لها: جزاكِ الله خيرًا، كدت أن أهلِك.

فانظر إلى جهل هؤلاء، ولا حُجة لهم، لأن الله أعطاك إرادة ومشيئة وعزيمة واختيارًا، وأنزل لك الشرع المبين، فهذه فرقة ضالة تسمى بفرقة الجبرية.

وفرقة أخرى فِرقة المعتزلة قالوا: لو أننا أثبتنا خلق الله لأفعال العباد لاتَّهمْنا الله بالظلم!!

قالوا: لأنكم تقولون إن الله هو الذي خلق المعاصي، وإن العبد لا يفعل شيئًا إلا بمشيئة الله، فلو فعل العبد المعصية ثم عاقبه الله على هذه المعصية، لكان الله ظالمًا، إذ هو الذي أقدره على فعلها، ثم بعد ذلك يُعاقِبه، فجعلوا في كون الله ما يجري بغير إرادته وخلقه، والله يقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

واستدلوا ببعض النصوص التي فيها إثبات المشيئة للعبد، وتركوا النصوص الأخرى التي فيها أن هذه المشيئة تندرج تحت مشيئة الله.

وهؤلاء يُرد عليهم أيضًا بالنصوص المثبتة لمشيئة الله التامة الشاملة، ولخلق الله لكل ما يصدق عليه أنه مخلوق، وأن الله وإن خلق المعصية والذنب فقد خلق في العبد الإرادة والاختيار والمشيئة التي بها يستطيع أن يفرِّق بين الخير والشر.

من المناظرات الطيبة: ما جرى بين القاضي عبد الجبار المعتزلي وأبي إسحاق الإسفراييني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

دخل عبد الجبار فوجد أبا إسحاق عند الصاحب بن عباد، فقال عبد الجبار: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، لأنه لا يُثبت خلق الله لفعل العبد، والعبد يفعل المعصية.

فيقول: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، فقال أبو إسحاق، وأهل السُنَّة أذكياء، يفهمون إلى ما يرمي هؤلاء.

فقال عبد الجبار: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، فقال أبو إسحاق: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فلا يقع في ملك الله إلا ما شاء، وإلا كان ضعيفًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أيريد ربنا أن يُعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيُعصى ربنا قهرًا ؟

فقال عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهُدى وقضى علىَّ بالردى؟ أحسن إلىَّ أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء، لأن الأصل أن الهُدى بيد الله يختص به من يشاء من عباده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال: فانصرف الحاضرون وهم يقولون: ليس عن هذا جواب، فنصره الله تبارك وتعالى بالحُجة والبُرهان، وقطع حُجة هذا وكلامه.

الشاهد: أن أهل السُنَّة يقولون: كل شيء بخلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا ليس عُذرًا لفعل المعاصي ولا لترك الواجبات، فالله جعل فيك مشيئة وإرادة واختيارًا وتمييزًا، وما تركك هكذا، وإنما أنزل إليك الكتب وأرسل إليك الرسل، فقامت حُجته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على خلقه.

(المتن)

باب ما جاء في المصورين.

(الشرح)

أي ما جاء فيهم من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد، وإنما جاء هذا الوعيد لأن فاعل ذلك يضاهي خلق الله، الذين يصورون التماثيل أو الصور، هؤلاء يضاهئون خلق الله، ويشابهونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بل إن هذا الفعل هو منشأ الوثنية، فعبادة الأصنام أول ما بدأت بالأصنام كما في قوم نوح، وقبل قوم نوح ظل الناس عشرة قرون على التوحيد، حتى حدث ما حدث في قوم نوح من اتخاذ الأصنام ليعبدوها.

وما دخل الشرك على الأمم قبلنا إلا من هذا الباب، فكل القرون التي كانت قبلنا وقعت في الشرك بسبب هذا الباب.

أصحاب العجل من قوم موسى ماذا صنعوا؟

النصارى ماذا صنعوا؟ صنعوا التماثيل لمعبوداتهم.

بل العرب المشركون قبل مبعث النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان عندهم ثلاثمائة وستون صنمًا حول الكعبة، جعلوا لكل يوم صنمًا، هذا بالإضافة إلى أصنامهم المعظمة: كالات ومناة والعُزى، فهذا الباب باب خطير جدًا.

إذًا هذه هي علة النهي الأولى: أن هذا مدخل عظيم إلى الوثنية وعبادة الأصنام.

وأما الأمر الثاني: فهو أن في التصوير مضاهاة لخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيصير المصور بهذا الفعل مشاركًا لله في خلقه وإبداعه:

إن قصد بفعله هذا أنه يضاهي خلق الله، وأنه يخلق كخلق الله هذا كُفر، وإن لم يقصد ذلك فقد وقع في المحرم، فهو ممنوع على أي وجه.

والأحاديث المذكورة في هذا الباب عامة في جميع أنواع التصوير: سواءً صوَّر ذوات أرواح، أو غير ذلك.

أي سواءً كانت الصورة لجماد، لشجر، لسماء لإنسان أو لحيوان، فالأحاديث عامة.

ولكن جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما استثناء الشجر وما لا روح فيه، فهذا لا يدخل في حرمة التصوير.

فلو أن إنسانًا صوَّر شجرة، أو رسم السحاب، أو رسم بحرًا من البحار، فهذا لا يدخل في المنهي عنه، إذ المنهي عنه ذوات الأرواح.

قال: **باب ما جاء في المصورين.**

ويريد هاهنا باب حكم فعل المصورين، لا حكم ذواتهم، فإن ذات المصور لا حكم لها مراد هنا.

الله ﷻ لمَّا قال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]، ماذا يقصد؟ لمس الميتة؟ أم أكل الميتة؟ أكل الميتة، فكان التحريم للأكل وللانتفاع بها.

فكذلك لمَّا قال هنا: باب ما جاء في المصورين: لم يقصد ذات المصور، وإنما باب ما جاء في حكم فِعل المصورين الذي هو التصوير.

لماذا عدل عن بيان حكم الفعل إلى ذكر الذات؟

لأن الذي جاء في الحديث هو ذكر المصورين، فترجم بذلك اتِّباعًا للفظ الحديث.

(المتن)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»**، أخرجاه.

(الشرح)

وهذا الحديث فيه وعيد شديد على التصوير ؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر عن ربه أنه قال: «ومن أظلم»، وهذا التركيب في معهود استعمال القرآن والسُنة يدل على أن هذا الفعل من أكبر الكبائر، وأنه من أشد المحرمات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فمعنى ذلك أن هذا التركيب في معهود استعمال القرآن والسُنة يدل على الحرمة الشديدة لهذا الفعل، وأنه من أكبر الكبائر، ومعناه: لا أحد أظلم من هذا الشخص.

قال: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»: فقوله: يخلق فيه دليل على أن المصور ضاهى فِعل الله تبارك وتعالى، قال: «يخلق كخلقي»:

قلنا: إن قصد المضاهاة كفر، إن لم يقصد فالفعل محرم وهو كبيرة من الكبائر، فهو حرام على كل حال.

ثم قال الله ﷻ تقريعًا لهم وذمًا وإظهارًا لعجزهم: «فليخلقوا ذرة»: أي نملة، وهذا تعجيز لهم، لأنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا ذرة ولا ما هو دون الذرة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فلا يستطيع واحد من هؤلاء أن يخلق لا ذبابة ولا الذرة، وهذا دليل على عجزهم.

«وليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»: وكل هذا يدل على حرمة هذا الفعل.

(المتن)

ولهما عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**».

(الشرح)

وهذا وعيد آخر قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»، قلنا: المضاهاة بمعنى المشابهة، والذي يضاهي بخلق الله هو المصور، فهذا فيه تحريم الفعل تحريمًا شديدًا، إذ بيَّن الحكم، وهو كون الواقع في ذلك أشد الناس عذاباً، وعلة ذلك الحكم وهي المضاهاة. .

(المتن)

ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**كل مصور في النار، يُجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم**».

(الشرح)

وهذا الباب يدخل في مبحث أصولي، وهو الصيغ التي تدل على التحريم.

فالمعروف في لغة العرب: لا تفعل، أما في الشرع فهناك أمور كثيرة: منها ما جاء في هذا الباب، ترتب العقوبة على الفعل.

والتحريم درجات، كما هو ظاهر النصوص، لأن العقوبة ليست متساوية، فلو قال الله: ومن أظلم، أو قال رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أشد الناس عذابًا، أو قال: كل مصور في النار، فهذه كلها قرائن تدل على شدة حرمة هذا الفعل، والوعيد بالنار لا يكون إلا على كبيرة.

فلا يقال: إن التصوير من الصغائر، بل هو من أكبر الكبائر.

(المتن)

ولهما عنه مرفوعًا: «**من صوّر صورة في الدنيا كُلّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ**».

(الشرح)

«من صور صورة في الدنيا»: وهذا يشمل أي صورة، حتى لو صغرت، لأن صورة نكرة في سياق الشرط فتعم كل صورة، **«كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»**.

وهذا تكليف لبيان عجزهم وحُرمة الفعل.

الصورة التي هي نتاج صناعة التماثيل والرسم باليد، لم يختلف فيها أهل العلم إلا ما كان من بعض من شذَّ في عصرنا الحاضر.

فقام الإجماع على تحريم ذلك: أن المرء إذا صنع تمثالًا، أو صوَّر صورة بيده عن طريق الألوان الزيتية أو غير ذلك أو القلم الرصاص فهذا يحرم بشدة، بل هو كبيرة من أكبر الكبائر إن كان لذات روح.

وأما الذي اختلفوا فيه: فهو تصوير الفيديو والصور الفوتوغرافية، هذا الذي اختلفوا فيه:

فبعض أهل العلم مال لعدم جوازه، لأنه يندرج تحت عموم هذه الأدلة، فكل هذا يسمى تصويرًا.

لكن هل معنى ذلك أنه لا يجوز أن نلتقط هذه الصور من أجل البطاقة أو جواز السفر أو غير ذلك؟

نقول: الضرورة تقدَّر بقدرها.

ولذلك العلماء الذين حرموا هذه الأمور أجازوا أمورًا بعينها، فقالوا: إن التصوير يخرج عن الحرمة في حالتين:

أما الحالة الأولى: فهي حالة الضرورة: فالمحرم إذا اضطر إليه المرء صار مباحًا، كأكل الميتة.

فالأصل في أكل الميتة أنه حرام، ومع ذلك لو كنت في صحراء وانقطعت بك السُبل، ولم يكن معك زاد، ووجدت ميتة: فيجوز لك أن تأكل منها، بل يجب عليك أن تأكل منك إن خشيت على نفسك الهلكة.

فعند الضرورة يباح ما كان محذورًا، والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، فإذا كانت هذه الصور للهوية أو للبطاقة أو لجواز السفر فهذه ضرورة فلا مانع من التقاطها.

بل أحيانًا لا تُحفظ الحقوق إلا بذلك.

والحالة الثانية: وهي حالة الحاجة، وهي أقل من الضرورة، كالتصوير الواقع في بيان ما يُحتاج إليه من العلم في الطب وغيره، فهذه حاجة.

وكذلك عند جماعة من العلماء ما ينتفع به الناس من العلم الشرعي، فأول ما أجاز الناس هذا التصوير أجازوه في باب الطب من أجل العلاج والكشف عن أمراض الناس، ثم إن جماعة من أهل العلم أجازوه كذلك في نقل العلم الشرعي، خاصة في حق مَن يُحتاج إلى علمهم ككبار العلماء، وكصورة لن يستطيع المرء أن يتعرف عليها إلا من خلال التصوير، كصفة الصلاة أو صفة الحج، أو غير ذلك، فلا بأس في ذلك.

ولا يدخل في ذلك تعليق الصور في المنازل، حتى لو قلنا إن التصوير الفوتوغرافي حلال، لأنه ليس مضاهاة لخلق الله كما يقول به من يقول من أهل العلم.

بعض أهل العلم يقول: التصوير الفوتوغرافي لا يدخل في الحرمة، لأنه كالمرآة، أنت عندما تقف أمام المرآة ما الذي يحدث؟ تنطبع صورتك في المرآة، الكاميرا ماذا تصنع؟ تلتقط صورتك كما هي، أنت ما صنعت شيئًا بيدك، فما كان منك مضاهاة لخلق الله.

فنقول: من قال ذلك لم يُدخل في الجواز هذه الصور التي تُعلَّق في البيوت، فتجد بعض الناس قد علَّق صورة لأبيه أو لجده أو لعالم من العلماء، أو للاعب . فنقول: هذا لا يجوز، ولا يندرج تحت فتوى بعض أهل العلم بجواز التصوير الفوتوغرافي، لأن هذا يمنع دخول الملائكة البيت.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الملائكة لا تدخل بيتًا في كلب أو صورة»:

فالصور التذكارية، أو الصور التي تُعلق على الجدران، أو التي يُحتفظ بها لا تدخل في هذا الباب، فلا يجوز الاحتفاظ بها.

من كان عنده صورة تمثال، ماذا يصنع ليخرج من هذا التحريم؟ يقطع الرأس، لأن ابن عباس قال: الصورة الرأس، فإذا قُطعت الرأس فلا صورة، كما جاء في الحديث الذي بعده.

وكأن المصنف يقول: كيف تخرج من هذا الأمر إذا ابتليت به؟

(المتن)

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي عليّ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته.

(الشرح)

هذا الحديث فيه رد على الرافضة الذين يعظِّمون عليًا رضي الله عنه حتى يرفعوه إلى درجة الألوهية، فيه رد عليهم في تعظيمهم للقبور، فأكثر الناس تعظيمًا للقبور الرافضة: يسجدون إليها، ويطوفون حولها، ماذا صنع علي رضي الله عنه؟

بعث أبا الهياج إلى القبور لتسويتها، وإلى التماثيل لطمسها، ثم بيَّن أن ذلك سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:

ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وهذا فيه أن ذلك من فعل ولاة الأمور، حتى لا تحدث الفتنة، فلو كان عندنا مثلًا تمثال من التماثيل على

مشارف المدينة، فهذه التماثيل محرمة، صورة فرس أو أحد القادة في مداخل البلد أو غير ذلك، فلا يجوز لإنسان أن يذهب هكذا ليطمسها أو ليهدمها، لأن هذا قد يترتب عليه فتن عظيمة، إلا إذا اجتمع الناس على ذلك.

ماذا قال علي ﷺ: ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته، ومعنى مشرفًا أي عاليًا إلا سويته بمحازاة باقي القبور أو بالأرض، فقد كان قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يرتفع عن الأرض إلا بمقدار شِبر.

وكذلك لو ذهبت إلى البقيع في المدينة لوجدت كل القبور كذلك، فهذه هي السُنَّة في القبور، فالإنسان إذا وجد قبر أبيه أو قبر عمه أو قبر أحد من عائلته، فالواجب عليه أن ينصح العائلة أو أن ينصح أقاربه، وأن يقول لهم: هذا لا يجوز، وهو خلاف السنة.

قال: ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي عليّ: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، أي غطيتها أو قطعت الرأس.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في السنن الكبرى قال: ن قطع الرأس من الصورة لا يجعلها صورة.

وقوله: ألا تدع صورة إلا طمستها: هذا فيه كذلك تحريم التصوير.

وقوله: ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته: أي أن تجعله بمساواة الأرض أو باقي القبور، لأن هذا وسيلة للشرك، فالقبر إذا بُني عُظِّم.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله لقوله: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»**.

(الشرح)

قلنا: هذه بعض العِلل.

(المتن)

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: «**فليخلقوا ذرة أو شعيرة**».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

(الشرح)

هذا ثابت عن ابن عباس، وكذلك ثابت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد جاء في السُنن من حديث جبريل عليه السلام أنه قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**فمر برأس التمثال يُقطع فيصير كهيئة الشجرة**»، وهذا صححه الألباني.

(المتن)

باب ما جاء في كثرة الحلف.

(الشرح)

أي ما جاء فيه من النهي والوعيد، لأن كثرة الحلف تدل على ضعف تعظيم الله في قلب الحالف، ولذلك نهى الله تبارك وتعالى عن ذلك، نهى عن أن نجعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عُرضة لأيماننا، فهذا يخالف تعظيم الله ﷻ، وتعظيم الله من تمام التوحيد، وكثرة الحلف لا تجامع كمال التوحيد.

فلا ينبغي لمسلم آمن بالله وأسمائه وصفاته أن يجعل اللهَ عُرضة لأيمانه، فإذا تكلم تكلم بالحلف، وإذا باع باع بالحلف، وإذا اشترى اشترى بالحلف.

فهذه الأمور منهي عنها، لماذا؟

أولًا: لأن هذا يؤدي إلى عدم المبالاة والتساهل في الأمر، فكثير الحلف لا يبالي بهذا الأصل وهو أصل تعظيم الله تبارك وتعالى، والكتاب في كثير من الأبواب بُني على هذا الأصل؛ على تعظيم الله بالجَنان وباللسان، وكذلك بالجوارح والأركان.

كما أن من كثر حلفه ظن الناس فيه الكذب غالبًا، يعتقدون أنه ما أكثر من الحلف إلا لعدم صدقه، وهذه حقيقة.

ثم إن الذي يُكثر الحلف لا بد أن يقع في الكذب، ولذلك نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سيأتي عن كثيرة الحلف.

قال: **باب ما جاء في كثرة الحلف.**

والحلف هو القسم بالله، أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته بأحد حروف القسم: بالباء أو التاء أو الواو.

ويكون الغرض من هذا القسم غالبًا: التوكيد.

فالـذي جـاء فيـه هـذا الوعيـد هـو كثـرة الحلـف لا مطلـق الحلـف، لأن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحلف حينًا، وأما النهي ففي كثرة الحلف.

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ ﴾.

(الشرح)

وحفظ اليمين كما قال الشراح: يكون في ابتداء اليمين وفي وسطه وفي نهايته.

﴿ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ ﴾، لأن قوله تعالى: أيمانكم هذا جمع يمين، وهو جمع مضاف فيعم، يعم حفظ اليمين في ابتدائه فلا يُكثر المرء من الحلف، وفي وسطه فإذا حلف لا يحنث إلا لخير، كما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا هو منهي عن الحلف ابتداءً وعن كثرة الحلف، وهذا من حفظ اليمين.

وهو كذلك مأمور إذا حلف ألا يحنث في هذا الحلف، وهذا في وسطه، إلا إذا كان في خير، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفِّر عن يمينه وليأتي الذي هو خير».

فالأصل أن المسلم لا يحنث في حلفه.

وفي منتهاه كذلك في حفظ اليمين أنه إن حنث فواجب عليه أن يُخرج الكفارة، كما بيَّن الله تبارك وتعالى.

وكذلك من حفظ اليمين ألا يحلف إلا بالله، فلا يجوز له أن يحلف بمخلوق كائنًا مَن كان، فكل هذا من حفظ الأيمان التي أمر الله تبارك وتعالى بها في هذه الآية.

لأن هذا يدل على تعظيم الله تبارك وتعالى في قلب العبد المؤمن.

(المتن)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»، أخرجاه.

(الشرح)

كثرة الحلف هذه مَنفَقَة للسلعة، وهذا ما يسعى له التاجر، فإنه لا يحلف إلا من أجل ترويج سلعته، فالذي يكثر حلفه تكثر سلعته، وتروج على الناس، ولكن لا بركة فيها.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ممحقة للبركة»**، وتجد هذا خاصة عند التجار فهم أكثر الناس حلفًا، بالله وبغير الله.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن التجار هم الفجار»**، لماذا؟ لأنهم كثيرًا ما يكذبون من أجل ترويج السلعة، وكثيرًا ما يحلفون، ولذلك كان التاجر الصدوق مع النبيين والصدِّيقين والشهداء كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالذي قال: **«إن التجار هم الفجار»**، هو الذي قال: **«التاجر الصدوق مع النبيين والصدِّيقين والشهداء»**، وهذا يدل على نُدرة هذا الصنف بين الناس.

فمن عقوبة كثرة الحلف في الدنيا: أنه ممحق للبركة.

(المتن)

عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»**.

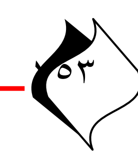
(الشرح)

هذا يدل على أن هذه الفِعال كبيرة من الكبائر، بل هي من أكبر الكبائر، وذلك لترتب عقوبات شديدة عليها.

(المتن)

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائلٌ مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»**، رواه الطبراني بسند صحيح.

(الشرح)



فهؤلاء الثلاثة بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله لا يكلمهم يوم القيامة، وهذه عقوبة ما بعدها عقوبة، والمقصود بالتكليم هاهنا: يكلمهم تكليمَ رحمة وتكليم تنعم لا تكليم حساب، لأن هؤلاء مسلمون وليسوا بكفار، والمسلم وإن كان عاصيًا يرى الله تبارك وتعالى يوم القيامة ويكلمه الله ﷻ ويقرِّره بذنوبه كما جاء في الأحاديث.

فلا يكلم الله تبارك وتعالى هؤلاء التكليم الذي ينتظره العبد المؤمن كما ينتظر رؤية الله تبارك وتعالى في الجنة.

وهذا الحديث فيه إثبات الكلام لله، فالله تبارك وتعالى يتكلم كلامًا حقيقيًا بصوت وحرف كما بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنفي تكليم الله تبارك وتعالى لهم فيه إثبات تكليمه لغيرهم، ولا يزكيهم أي لا يُعدِّلهم، ولا يشهد لهم بالإيمان يوم القيامة، وقد لا يدخلون الجنة ابتداءً، فهم متوعَّدون بالعذاب، ولهم عذاب أليم.

مَن هم؟ أشيمط زانٍ، وأُشيمط تصغير أشمط، وهو الكبير في السن.

«وعائل مستكبر»: والعائل هو الفقير، أي فقير ويتكبر في نفس الوقت.

«ورجل جعل الله بضاعته»، أي ما روَّج بضاعته إلا عن طريق الحلف بالله، بل بالحلف الكذب، كما جاء في رواية أحمد في الحديث السابق في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الحلف الكاذبة مَنفَقةٌ للسلعة»**.

وفي هذا الحديث: **«ورجل جعل اللهَ بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه»**

فهؤلاء الثلاثة متوعدون بهذا الوعيد، وهذا الحديث أخذ منه العلماء قاعدة: إذا ضعف الداعي وتم الفعل عَظُم الإثم.

إذا ضعف الداعي: إذا كان الداعي لفعل المعصية ضعيفًا، ومع ذلك وقعت المعصية صار الإثم عظيماً.

لأنك لو نظرت في هذا الحديث وجدت الزاني رجلًا كبير السن، لا شهوة له أو ضعيف الشهوة، ومع ذلك يقع في الزنى، وفي بعض الأحاديث الأخرى: **«وملك كذاب»**: لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم!!

المِلِك صاحبُ السلطان لا يحتاج إلى الكذب، لماذا يكذب؟ قد يكذب الضعيف ، وأما الملك فداعي الكذب عنده ضعيفٌ أو منعدم.

«وعائل مستكبر»: ما حاجة الفقير لأن يتكبر؟ هو من أحوج الناس إلى التواضع حتى يعطف الناس عليه، ومع ذلك يتكبر.

«ورجل جعل اللهَ بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»، فلما ضعفت الحاجة إلى الفعل، وتم الفعل عَظُم الوزر.

وضدها إذا كان الداعي قويًا، وتم الترك عظم الأجر.

فإذا كان الداعي لفعل المعصية قويًا، ومع ذلك تركه المؤمن لما قام في قلبه من خشية الله والإيمان به عظم أجره.

ودليل هذه القاعدة: قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **«إمام عادل»**، فالإمام بسلطانه يسهل عليه أن يظلم وأن يأخذ أموال الناس بالباطل، فإذا ترك كل ذلك وصار عادلًا أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

«ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»، واعتبر بحال يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعته هذه المرأة الجميلة، وهو عبد، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وهو غريب، وهي الداعية، وغلّقت الأبواب، وفعلت كل الأمور التي تيسِّر هذه الفاحشة، فلمَّا فعلت ما فعلت، فقال يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ

رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، عظم أجره وخلَّد الله ذكره في كتاب يُتلى إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

لماذا؟ لأن الداعي عظيم، ومع ذلك تم الترك، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

الشاهد في هذا الحديث: أن من جعل اللهَ تبارك وتعالى عُرضة ليمينه لا يكلمه الله ولا يُزكِّيه وله عذاب أليم يوم القيامة.

(المتن)

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

(الشرح)

هذا لفظ الحديث الصحيح، أما خير القرون قرني، فلا يصح مع شُهرته بين الناس، فكثير من الناس إذا ذكر هذا الحديث يقول: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «خير القرون قرني»، وهذا لا يثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

إنما الثابت: «خير أمتي قرني»، أو «خير الناس قرني»، والمقصود بالأمة هاهنا: أمة الإجابة لا أمة الدعوة، فأمة الإجابة هم الذين استجابوا لله ولرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهؤلاء هم الذين فيهم الخير.

وخير أمتي قرني: وهذه الخيرية بإطلاق، منذ أن خلق الله آدم خير قرنٍ هو القرن الذي بُعث فيه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فلم يكن قرن على وجه الدنيا فيه هذه الخيرية التي كانت في هذا القرن.

ومصداق ذلك ما جاء عند البخاري في كتاب المناقب في باب صفة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «بُعثت من خير قرون بني آدم»، أو «في خير قرون بني آدم»، فأفضل قرن على الإطلاق هو القرن الذي بُعث فيه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وسبب خيرية هؤلاء الذين كانوا في هذا القرن: أنهم فعلوا ما لم يفعله غيرهم من الجهاد في سبيل الله والهجرة في سبيل الله، ومن نُصرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»: أي الثلاثة القرون الفاضلة، وهي قرون السلف الصالح، قرون الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين وأتباع التابعين.

(المتن)

قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟

(الشرح)

اليقين أنه ذكر مرتين، فهذه القرون الثلاثة هي القرون المفضَّلة القرون الخيرية.

ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(المتن)

«ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون».

(الشرح)

أي يسعون إلى الشهادة دون أن يطلب منهم أحد، فإما أنهم يشهدون بغير علم، فشهادتهم زور، ولذلك ذمهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإما أنهم يتساهلون في الشهادة، والشهادة أمرها عظيم.

(المتن)

«ويخونون ولا يؤتمنون».

(الشرح)

فيأتي بعد هذه القرون قوم تكثر فيهم الخيانة، وتَقِل فيهم الأمانة.

(المتن)

«وينذرون ولا يوفون».

(الشرح)

يوجِبون أشياء عليهم ثم لا يوفون بها نذروا لله تبارك وتعالى.

(المتن)

«ويظهر فيهم السِّمَن».

(الشرح)

أي كثرة اللحم، وهذا ليس فيه ذم لكل سمين بدين، وإنما الذم لمن سعى في ذلك.

من جعل حياته كلها من أجل الطعام والشراب هذا هو الذي جاء فيه الذم، أما من ابتلاه الله بكثرة اللحم فلا يدخل في هذا الحديث.

(المتن)

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

(الشرح)

قال العلماء: معنى هذا الحديث: أي لقلة الوثوق في كلامهم لا يشهدون إلا بيمين، يأتي على الناس زمان لا تُقبل شهادة الرجل إلا إذا أقسم، وهذا لقلة الأمانة عند الناس، فإذا أراد أن يشهد قيل له: عليك بالحلف أولًا.

وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثم يجيء قوم»: هذا يدل على أن هذا لم يكن فيمن كان قبلهم، فالأصل فيمن كان قبلهم أنهم كانوا أهل أمانة وثقة.

«فيجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه»: إما أن يشهد، ثم إذا شهد قيل له: عليك أن تحلف على هذه الشهادة.

وإما أن يُقسم أولًا ثم بعد ذلك يشهد، كما يقال في المحاكم عندنا: احلف بالله أنك ستقول الحق، فأخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الصنف الذي يكون من بعده.

(المتن)

قال إبراهيم.

(الشرح)

إبراهيم بن يزيد النخعي التابعي الكوفي الثقة.

(المتن)

قال: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

(الشرح)

كانوا يضربوننا أي الآباء والسلف الصالح من المؤدِّبين، على شهادة الزور، فإذا شهد الصغير شهادة زور فإنه كان يُضرب على ذلك، وهذا يدل على اهتمام السلف بتربية الأولاد.

والعهد أي على عدم الوفاء بالعهد، فإذا كان الصغير قد عاهد عهدًا ولم يف بهذا العهد فإنه كان يُضرب على ذلك.

قال: ونحن صغار، فهذا حال السلف، كانوا يربون أولادهم على تعظيم الله وتعظيم سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على تعظيم شعائر الله.

ومما يذكرون في ذلك: قصة حدثت مع عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أن أباه عبد العزيز بن مروان جعل له مؤدِّبًا، يؤدِّبه ويعلمه تعاليم الإسلام، فتأخر عمر ذات يوم عن صلاة الجماعة، وهو صغير، فأرسل هذا المؤدب إليه، وقال له: ما الذي أخَّرك عن صلاة الجماعة، قال: كنت أُرجِّل رأسي.

فغضب منه المؤدب، وكتب إلى أبيه، فقال له أبوه رَحِمَهُ اللَّهُ: بلغ من ترجيلك شعرك أن منعك عن صلاة الجماعة، والله ما كلمتك حتى تحلق شعرك، و ما كلَّمه حتى حلق شعره، وهذا يدل على تأديب السلف لأولادهم.

كانوا يُربون أولادهم على محبة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعلى تعظيم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

(الشرح)

قلنا: شاهد ذلك في حديث سلمان ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زانٍ، وعائل مستكبر، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»**، أي جعل اللهَ بضاعته كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا قلَّ الداعي وتم الفعل عظم الوزر.

(المتن)

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

(الشرح)

الأصل أن لا يحلف المرء إلا إذا كان لدفع تُهمة فإنه يحلف وإن لم يُستحلف، إذا كان المراد من الحلف أن يدفع التُهمة عن نفسه فإنه يحلف ولو لم يُستحلف.

أو لتأكيد أمر عظيم من أمور الدين خاصة، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لـمَّا سرقت المرأة المخزومية، وطلبوا من أسامة رضي الله عنه أن يشفع عند رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يعلمون أنه الحِب ابن الحِب أسامة بن زيد رضي الله عنهما، فشفع لها عند النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سرقت، لقطعت يدها»**.

فحلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجل دفع هذه التُهمة، أي أن يقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفاعة أحد في حد من حدود الله.

(المتن)

السادسة: ثناؤه صلى الله عليه وسلم على القرون الثلاثة، أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

(الشرح)

وهذا الضرب ضرب تأديب لا تكسير، فالأصل في الضرب أن يكون ضرب تأديب، ويكون ممن له ولاية عليه، لا من أي أحد، ولا يكون إلا عند استحقاق الصغير لهذا الضرب.

واجعل الضرب آخر العلاج، لأن الصغير لو تعوَّد على الضرب ما استطعت أن تُقيمه بعد ذلك.

(المتن)

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه.

(الشرح)

والمراد بالذِمة: أي عهد اللهِ، وعهد رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي التزمته، كما تلتزم بِدَينٍ في ذمتك، فالناس يعاملونك على مقتضى إيمانك بالله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا عقدت عقدًا أو بِعتَ أو اشتريت أو نكحت على مقتضى ذمة الله وعهده فلا يجوز لك أن تنقض هذا العهد لأسباب ستأتي، فقال: **باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

والمراد من هذه الترجمة كما قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يراد بها البُعد والحذر من التعرض للأحوال التي يُخشى فيها نقض العهود، والإخلال بها، بعدما يُجعل للأعداء المعاهِدين ذمة الله وذمة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المسلم قد يعقد عقدًا مع رجل نصراني أو يهودي، هو يعاملك على مقتضى ما عندك من الأمانة والإيمان بالله ورسوله، وعلى مقتضى ما عندك من الإسلام، فمتى تم نقض هذا العهد أدَّى ذلك:

إلى عدم تعظيم الله تبارك وتعالى، وإلى تهوين هذا الدين في نظر هذا الذي عاهدك، وأدى إلى تزهيد الكفار في هذا الدين، لأن الوفاء بالعهود من الأمور التي تُدخل غير المسلم في هذا الدين.

وكم من العهود وفَّى بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع غير المسلمين حتى ولو كانوا مشركين؟!

عقد عقدًا مع قريش في صُلح الحديبية ووفَّى بالعقد في نفس المجلس، وجاءه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفةُ بن اليمان وأبوه في غزوة بدر، وأرادا المشاركة مع النبي

صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الغزوة، فلما علم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنهما أعطيا العهد لقريش ألا يقاتلا مع النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ردَّهما رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو عهد مع المشركين.

فهذا يدل على تعظيم الأخذ والإعطاء بذمة الله وذمة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتعظيم عقد العهود بذمة الله وذمة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه ما ينبغي لمسلم أن يخفر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ذمته، فهذا من كمال توحيد العبد.

فقال: **باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.**

(المتن)

وقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

(الشرح)

الإيفاء: هو إعطاء الشيء تامًا.

وعهد الله: أي بعهدكم الله ألا تنقضوا عهودكم، فأنتم لَمَّا عقدتم هذه العقود وعاهدتم هذه العهود عقدتموها على مقتضى ذمة الله وعهد الله، فالواجب أن توفُوا بهذه العهود.

وأكَّد ذلك بقوله: ﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾، فهذه جملة حالية تبين قُبح نقض العهود، ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

فكل هذه التوكيدات في الآية تدل على أن نقض العهود كبيرة من الكبائر.

(المتن)

عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا.

(الشرح)

كان إذا أمَّر أميرًا، أي في الجهاد في الغزو، على جيش أو سرية، والسرية جزء من الجيش.

أوصاه بتقوى الله: وتقوى الله: هي امتثال المأمور واجتناب المحظور.

وعرَّفها طلق بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ التابعي الجليل: أن تعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقيل: إن هذا أفضل ما عُرِّفت به التقوى من أقوال السلف.

(المتن)

فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لهذا الأمير: «اغزوا بسم الله».

(الشرح)

إما أن يراد: استعن بالله في غزوك، وإما أن يراد: أنك إن بدأت القتال فقل: بسم الله، ولا بأس من الجمع بينهما: أن يستعين الغازي في سبيل الله بالله، مع بدء جهاده بقوله: بسم الله.

(المتن)

قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله».

(الشرح)

وهذا فيه بيان القصد في الغزو، فالذي يقاتل أو يجاهد رياءً أو سمعة أو من أجل الدنيا: فهذا ما جاهد في سبيل الله.

ولذلك الجهاد في سبيل الله لا بد فيه من شرطين لأنه عبادة، فهو كسائر العبادات، لا بد فيه من الإخلاص والمتابعة:

أما الإخلاص فقال: «في سبيل الله».

وأما المتابعة: فلقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد».

ولذلك سأل عبد الله بن مسعود أبا موسى الأشعري، فقال له: أرأيت رجلًا يخرج يجاهد في سبيل الله، فضرب فقتل أيدخل الجنة؟ فقال أبو موسى: أجل، فقال ابن مسعود: لا، ولكن إذا خرج في سبيل الله فأصاب مراد الله.

كيف يعلم المرء أنه أصاب مراد الله؟ إذا تابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تكفي النية، وإنا لا نتهم أحدًا في نيته، وإنما لا بد من الشرط الثاني، وهو متابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالجهاد له شروط بيَّنها العلماء.

(المتن)

قال: «**في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله**».

(الشرح)

فهذا فيه علة القتال، فالمسلمون لا يقاتلون إلا من أجل إعلاء كلمة الإسلام، لا يقاتلون من أجل دنيا ولا مال ولا سبايا ولا غير ذلك، وهذا فيه رد على المستشرقين وأذنابهم من العقلانيين الذين يتهمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن كان معه بأنهم ما قاتلوا إلا من أجل الدنيا، ومن أجل السبايا والمال وغير ذلك.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث يقول: «**قاتلوا مَن كفر بالله**»: ومَن هذه موصولة، وهي وما بعدها في قوة المشتق، يعني قاتلوا الكافر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله**».

لم يقل حتى يعطيني الأموال، حتى يتركوا الأراضي، حتى ...

وسيأتي في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبين أنهم إن أسلموا فلهم ما للمسلمين، هذا هو المطلوب منهم.

ليس المطلوب أن يأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموالهم ونساءهم وجواريهم كما يدندن حول ذلك المستشرقون وأذنابهم ممن يسمون بالتنويريين في هذه الأيام كإسلام

بحيري، أو إبراهيم عيسى، أو مصطفى راشد، وغير ذلك من هذه الأسماء المنكرة، نسأل الله تبارك وتعالى أن يعاملهم بعدله.

(المتن)

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا»**.

(الشرح)

والغلول هو أخذ شيء من الغنيمة قبل القِسمة، نهاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وفيه وعيد شديد جاء في أكثر من حديث.

قال: **«ولا تغدروا»**: أي لا تخونوا، فالغدر هو الخيانة، فإن عاهدنا أقوامًا ولو كانوا محاربين فلا يجوز لنا أن نخالف هذا العهد لأننا عاهدناهم على مقتضى ذمة الله وذمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجب الوفاء بهذا العهد.

إلا إذا خشينا الغدر والخيانة، فإننا ننبذ إليهم هذا العهد، أي نُعلمهم أننا سننقض العهد معهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فانبذ إليهم أي أعلمهم أنك ستنقض العهد.

(المتن)

قال: **«ولا تمثلوا»**.

(الشرح)

التمثيل: أي تشويه الجسد من قطع أُذن أو رجل أو غير ذلك، وهذا مما نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

«ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُف عنهم».

(الشرح)

وهذا يدل على سماحة الإسلام، وأنه ما شرع الجهاد إلا من أجل غاية واحدة، فإن أجابوا إلى ما أراد الإسلام والمسلمون منهم فينبغي أن تكُف عنهم.

(المتن)

«ثم ادعهم إلى الإسلام فإن هم أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين».

(الشرح)

إما أن يكون المراد هاهنا: المدينة مدينة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإما أن يكون المراد: كل دار تصلح للهجرة، أي بلاد المسلمين، أن يتحولوا إلى أي بلد من بلاد المسلمين.

(المتن)

«ثم ادعهم من التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها: فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى».

(الشرح)

هم مسلمون ولكن كالأعراب، ليس لهم نصيب لا في غنيمة ولا فيء، هذا لمن تحول من هذه الدار إلى دار المهاجرين.

(المتن)

«ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء».

(الشرح)

والغنيمة: ما أُخذ من أموال الكفار في الحرب.

والفيء: ما أُخذ بغير قتال كالجزية والخَراج وما تركوه دون قتال، فكل هذا يدخل في الفيء.

(المتن)

«ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية».

(الشرح)

والجزية: مال مدفوع من غير المسلم عوضًا عن حمايته وإقامته بدارنا.

مال يدفعه غير المسلم، وهو مال قليل جدًا، المسلم يدفع زكاته أضعاف أضعاف هذه الجزية، الزكاة أعظم بكثير من الجزية، الجزية مال قليل.

ولكن لماذا شُرعت الجزية؟ ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، لتظهر عزة الإسلام.

(المتن)

قال: «فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم».

(الشرح)

والجزية في أهل الكتاب، لا تُقبل الجزية من المشركين من الوثنيين، وإنما تُقبل من أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وكذلك تُقبل من المجوس، كما صح ذلك في الأثر، أما المشركون فلا تُقبل منهم الجزية، لأنهم ليسوا بأهل كتاب وعمَّم بعض أهل العلم قبولها..

(المتن)

«فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا».

(الشرح)

إذًا تعرض عليهم الإسلام، والجزية، والقتال.

إن أجابوا للإسلام فبها ونعمت، فلهم ما للمسلمين.

وإلا فالجزية.

وإلا فالقتال.

(المتن)

«فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(الشرح)

فإذا طلبوا منا أن ننزلهم على مقتضى ذمة الله وذمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: لا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، لأنك إن أخفرت هذه الذمة ونقضت العهد، فهذا أهون من أن تخفر ذمة الله وذمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

«وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا»، رواه مسلم.

(الشرح)

وهذا في المسائل الاجتهادية.

أما المسائل التي فيها نص فأنزلهم على حكم الله، لأن الله حكم بذلك حكمًا مقطوعًا به، وكذلك رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما إذا كانت المسألة مسألة اجتهادية قد تصيب في الحكم أو تُخطئ فما ينبغي لك أن تقول: إن هذا حكم الله.

ولذلك من الخطأ الذي يقع فيه بعض المفتين: أنه إذا أجاب على سؤال، وهذه الإجابة كانت من قبيل الاجتهاد أن يقول: رأي الدين في هذه المسألة كذا وكذا، لأنه

ربما أخطأ، فما يصيب رأي الدين، ورأي الدين يعني ما جاء في الكتاب وفي سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والتعبير عن ذلك بالرأي خطأ بيّن.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين.

(الشرح)

فأن تجعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين فهذا محرم.

وأما أن تجعل ذمة المسلمين لهم فهذا جائز.

(المتن)

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا.

(الشرح)

فأقل الأمرين خطرًا أن تجعل ذمتك وذمة أصحابك.

(المتن)

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

(الشرح)

وهذا فيه وجوب الغزو بشروطه، فالغزو واجب، والجهاد ذِروة سَنام الإسلام، وهو ماضٍ إلى يوم القيامة مع كل إمامٍ بر وفاجر، كما بيَّن أئمتنا ذلك، ولكن له شروط بيَّنها العلماء: من النية، والمتابعة، ووضوح الراية، وإذن الإمام، والنظر إلى المصلحة والمفسدة.

فالمسلمون إذا كانوا في حالة ضعف فلا يجب عليهم جهاد الطلب، ولا يجب عليهم الجهاد بالسِّنان، وإنما الجهاد بالكلمة.

فالجهاد بالكلمة لا يسقط بحال من الأحوال في زمن من الأزمان.

ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق**»، وهذا الظهور إما أن يكون بالحُجة والبيان، وهذا في كل زمان ومكان، تجد أهل السُنَّة دائمًا ظاهرين بالحُجة والبرهان.

وإما أن يكون الظهور بالسِنان يعني بالسلاح والقوة: وهذا قد يكون في وقت دون وقت وفي مكان دون مكان، كحال المسلمين في هذه الأيام، نسأل الله ﷻ أن يردهم إلى دينهم، وأن يمكِّن لهم دينهم.

(المتن)

الرابعة: قوله: «**قاتلوا من كفر بالله**».

(الشرح)

ففيه بيان علة القتال، المسلمون لا يقاتلون لا من أجل دنيا، ومن أجل مال ولا من غير ذلك ولا من أجل شُهرة.

(المتن)

الخامسة: قوله: «**استعن بالله وقاتلهم**».

(الشرح)

ففيه وجوب الاستعانة لأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها.

(المتن)

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

(الشرح)

وحكم الله مصيب دائمًا، وحكم العلماء فيه الصواب والخطأ، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب**»، وكذلك فأخطأ، فبيَّن أنه يدور بين الصواب والخطأ.

(المتن)

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا.

(الشرح)

بل هو في كل مجتهد من الصحابة وغيرهم: أنه إن وافق حكم الله وكان الدليل ظاهرًا يقول: هذا حكم الله.

ما حكم الزنا؟ حرام، هذا حكم الله.

أما إذا كانت المسألة من مسائل الاجتهاد فلا يقطع أن هذا حكم الله.

(المتن)

باب ما جاء في الإقسام على الله.

(الشرح)

أي ما جاء من الأدلة الدالة على تحريم الحلف على الله، المراد هٰهنا يُقسم على الله لا يُقسم على مخلوق.

لا يقول لمخلوق: والله لتفعلن كذا، وإنما يُقسم على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا محرم إذا كان على جهة الحَجر على الله والقطع بحصول المقسم على حصوله.

هذا يحرم إذا كان بجهة الحجر على الله، ما معنى الحجر على الله؟

أقول لك مثلًا: والله لتفعلن كذا، تقول: لا، أقول: والله لتفعلن كذا، لا بد أن تفعله، شئت أم أبيت لا بد أن تفعله، فأنت تحجر عليَّ وتُلزمني بهذا الفعل.

فإذا فعل المخلوق مع الله كهذا الفعل فهذا محرم، وهذا من أكبر الكبائر ولا يجوز.

أو إذا قطع الحالف بحصول المقسَمِ على حصولِه اغترارًا بحاله، فهذا فيه سوء أدب مع الله تبارك وتعالى وهذا مما ينافي التوحيد، لأن هذا المتألي يجعل له حقًا على الله، لأن هذا تألَّى وأقسم وجعل له حقًا على الله لا بد أن يجيبه لهذا الحق، والله ﷻ لا يوجِب عليه أحدٌ شيئًا، وإنما الأمر كله برحمته وفضله ومنِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعد بأشياء والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خير مَن يفي بوعده.

وأما من أقسم على الله من جهة إحسان الظن بالله: فهذا يجوز.

قام في قلبه من العبودية والذُل والخضوع ما جعله يشعر أن الله يجيب سؤاله، نسأل الله أن يرزقنا من واسع فضله، وأن يرزقنا القبول والإخلاص.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرَّه»**، هل يَبَرَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قسمه حجرًا؟ قصرًا؟ لا ولكن لمنزلة هذا المقسِم ولتمام عبادته ولخضوعه وقيام الإيمان بقلبه.

كما جاء في قصة أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فإن الرُبيِّع ابنة أنس كسرت ثنية جارية، ، فعرضوا الدية، فأبوا، وقالوا: القصاص، وجاءوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقتص لهم من الربيع، قال أنس بن النضر: تُكسر ثنية الربيع؟ والله لا تُكسر ثنية الرُبيع، والله لا تُكسر ثنية الربيِّع، فألقى الله تبارك وتعالى في قلب أهل الجارية ما جعلهم يقبلون بالدية، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبره»**.

فهناك صنف من الناس وصلوا من تمام المحبة والعبودية والذُل لله تبارك وتعالى ما جعلهم يغلب على ظنهم أنهم لو دعوا الله لأجابهم، ولو أقسموا عليه لأبرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي الحديث قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ربَّ أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»**، لا يأبه به أحد، ومع ذلك هو عظيم القدر عند الله تبارك وتعالى، نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء.

إذًا هذه المسألة فيها تفصيل ما بين المنع والجواز.

(المتن)

عن جندب بن عبد الله رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا اغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك»**، رواه مسلم.

(الشرح)

هذا الرجل من بني إسرائيل كما جاء في الرواية الأخرى: **«كان رجلان من بني إسرائيل متواخيين، وكان أحدهما مجتهدًا في العبادة، والآخَر عاصيًا، فكلما مر عليه هذا المجتهد قال له: أقصر، فيقول العاصي: خلِني وربي»**، عنده حُسن ظن بالله، ولكن شهوته تغلبه، **«فمر عليه ذات يوم فقال له: أقصر، فقال: خلِني وربي، أبُعِثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخِلك الجنة، فقبض الله روحهما»**، وأدخل هذا المتألي العابد المجتهد في العبادة أدخله النار وغفر للعاصي.

لماذا؟ لأنه أقسم على الله في أمر لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، لا دخل لمخلوق فيه.

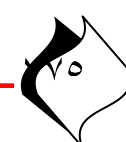
قال: قال رجل، وهذا الرجل كما قلنا: كان رجلًا صالحًا، وكان الآخَر فاسقًا، ومع ذلك كلمة واحدة أوبقت دنياه وأخراه، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه.

كان صالحًا مجتهدًا عابدًا، كلمة واحدة يهوي بها المرء في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب، نسأل الله العافية.

وهذا يبين لنا خطورة اللسان، وأن الإنسان ينبغي له أن يراقب لسانه دائمًا، لأن أكثر ما يُدخل الناس النار اللسان والفرج، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»**، وقال: **«من يضمن لي ما بين لحييه»**، يعني ما بين فكيه، أي اللسان، **«وفخذيه»**، أي الفرج، **«أضمن له الجنة»**، وهذا يدل على أن هذا الأمر أمر عظيم.

ولذلك تقول الأعضاء كل يوم للسان: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإذا اعوججت اعوججنا.

كان ابن مسعود ﷺ يمسك لسانه يخاطبه، يقول: يا لسان قُل خيرًا تغنم، أو اسكت تسلم.



فانظر إلى حال هذا الرجل، ماذا قال؟ قال: «والله لا يغفر الله لفلان»، وهذا يدل على جهل هذا العابد برحمة الله، وجهله بسعة رحمة الله تبارك وتعالى، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فكما أن علمه لا يعزب عنه شيء فرحمته لا يعزب عنها شيء، ولذلك قرن الرحمة بالعلم.

فقال: «والله لا يغفر الله لفلان»، أو قاله على وجه الكِبر، يتكبر على الخلق، والأصل في العابد أن يتواضع للخلق لا أن يتكبر عليهم.

فكلما ازداد المرء عبادة وعلمًا زاد تواضعًا مع الخلق، فقال الله ﷻ: «مَن ذا الذي يتألّى عليّ؟»، وهذا استفهام استنكاري، من ذا الذي يحلف علي ألا أغفر لفلان؟

والله تبارك وتعالى بيده ملكوت السماوات والأرض، وبيده الجنة والنار، مَن ذا الذي يحجر على الله ويُقسم عليه ألا يغفر لفلان؟

فقال: إني قد غفرت له وأحبطت عملك والعياذ بالله.

(المتن)

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته.

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

(الشرح)

والجنة كذلك، لماذا؟ لأن الرجل بمجرد أن قال هذه الكلمة قبض الله روحه فمات.

(المتن)

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

(الشرح)

والجنة كذلك، لماذا؟ لأن هذا العاصي لما قبضه الله تبارك وتعالى غفر له وأدخله الجنة، فالإنسان لا يدري متى يموت، ولا بما يُختم له.

(المتن)

الرابعة: فيه شاهد لقوله «إن الرجل ليتكلم بالكلمة»، الخ..

(الشرح)

أي تهوي به في النار سبعين خريفًا.

(المتن)

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

(الشرح)

فهذا غُفر له بسبب هذا التأنيب، كان أخوه العابد يؤنِّبه، فكان يقول: خلِني وربي، أبُعثت على رقيبًا؟ فكان عنده حُسن ظن بالله، فكان هذا التأنيب مما يكرهه، ومع ذلك كان سببًا في دخوله الجنة ومغفرة الله له.

(المتن)

باب لا يستشفع بالله على خلقه.

(الشرح)

أي أن تطلب من الله أن يشفع عند مخلوق، فالواقع في ذلك عكَس الأمر وقلَبَه ؛ إذ الأصل أن تطلب من المخلوق أن يشفع لك عند الله، لأن المشفوع عنده أعلى مرتبة، فكيف تجعل الأعلى مرتبة في مرتبة أدنى ؟ هذا لا يجوز.

فقال: باب لا يستشفع بالله على خلقه.

قلنا: لماذا جاء بالنفي دون النهي؟

لأن النفي أبلغ من النهي، لا يتصور من مؤمن أن يفعل ذلك ممن قام في قلبه تعظيم الله ﷻ، ثم هو لفظ حديث الباب.

الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله تعالى، لأن الله لا يشفع لأحد عند أحد لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعًا.

ما الشفاعة؟

الشفاعة جعل الفرد شفعًا، ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [الفجر: ٣].

وأما في الاصطلاح: هي التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

التوسط للغير: تتوسط لمخلوق عند آخر من أجل أن تجلب له منفعة، تتوسط له عند رئيسك في العمل حتى يعطيه وظيفة في الشركة مثلًا، أو دفع مضرة، فقد يجازَى في الشركة، فأنت لك مقام ومكانة عند رئيس الشركة، فتتوسط حتى يعفو عنه، فهذه تسمى شفاعة.

(المتن)

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

(الشرح)

والأعرابي واحد الأعراب، وهم سكان البدو، والأعراب اسم جنس جمعي، يُفرَّق بينه وبين مفرده بالياء أو التاء، كما يقال: رومي، فالروم اسم جنس جمعي، وواحده رومي.

ويقال: الشجر، مفرده: شجرة، والأعراب أعرابي.

فجاء أعرابي، والغالب في الأعراب الجفاء، ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من بدا جفا»، من سكن البادية الأصل فيه الجفاء والغِلظة.

ولذلك ستجد في كلامه جفاء وسوء الأدب مع الله تبارك وتعالى.

(المتن)

فقال: يا رسول الله: نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله! سبحان الله!»، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه؛ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه»، وذكر الحديث، رواه أبو داود.

(الشرح)

هذا حديث ضعفه بعض أهل العلم، وصححه آخرون كابن منده، وقواه ابن تيمية في الفتاوى، وحسن إسناده كذلك ابن القيم. الشيخ الألباني رحمه الله ضعَّف سند هذا الحديث، لكنه وإن كان ضعيفًا من جهة السند إلا أنه صحيح من جهة المعنى، ويشهد له كثير من الآيات والأحاديث.

قال: جاء أعرابي، فقال: يا رسول الله: نهكت الأنفس، أي ضعفت، وجاع العيال، وهلكت الأموال، من قلة المطر، ولذا قال: فاستسق لنا ربك، أي اطلب من ربك أن يسقينا.

ولـذلك تُشرع صـلاة الاستسـقاء عنـد قلـة المطـر، ثـم بـيَّن علـة طلبـه مـن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فإنا نستشفع بالله عليك: يعني نجعل الله واسطة بيننا وبينك، وبك على الله، يعني نجعلك واسطة بيننا وبين الله.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«سبحان الله! سبحان الله!»**، وهذا فيه تنزيه الله عـمَّا يليـق بـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإكثـار النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـن قـول سـبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، فيه دليل على أن هذا الأعرابي قال قولًا شديدًا فيه سوء أدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سبحان الله، سبحان الله»**، فما زال يسبح، هذا يدل على إكثاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التسبيح.

حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه؛ أي ظهر أثر ذلك في وجوه أصحابه، غضبوا رضوان الله عليهم.

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«ويحك»**، وهي كلمة تحذير لهذا الأعرابي أو كلمة ترحم يرحمه، ويسأل الله أن يغفر له هذا الزلل.

«أتدري ما الله؟»، تدري ما تقول، هل تعلم مَا الله؟ قال: أتدري ما الله؟ وهذا فيه علة بلاغية.

ولذلك قال العلماء: إنه إن عُبِّر عن العالم بـ(ما) دون (من) فدل ذلك على أنه يراد الوصـف، أتـدري مـا صـفة الله؟ إنـه خـالق السـماوات والأرض ومالكهـا ومصرِّـفها ومدبِّرها، ومَن بيده كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تستشفع به عليَّ وعندي؟ هذا هو الذي أراده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أتجهـل حـق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقـال: **«أتـدري مـا الله؟»**، وهـذا السـؤال والاستفهام للتعظيم، لتعظيم صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **«إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه»**، وذلك لكمال عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فانظر إلى هذه المؤكدات التي ذكرها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد.

هل أنكر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استشفاعه به عند الله؟ لا، أنكر الأولى دون الثانية، دل ذلك على أن الثانية حق، وأنه في حياة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُطلب منه الدعاء، وأن يشفع عند الله ﷻ لأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دعاؤه مستجاب.

وأما بعد موته فهذا لا يجوز.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك.

الثانية: تغيره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

(الشرح)

وهذا يدل على نكارة هذه الكلمة.

(المتن)

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: **«نستشفع بك على الله»**.

(الشرح)

ولذلك الشيخ ابن عثيمين قال: وأخذ العلماء من مثل هذه الأمور والدلائل قاعدة، إذا جاء في النصوص ذكر أشياء وأُنكر بعضها وسُكت عن بعض، دل على أن ما لم يُنكر فهو حق.

(المتن)

الرابعة: التنبيه على تفسير **«سبحان الله»**.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

(الشرح)

قلنا: إن هذا في حال حياته، وأما بعد مماته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلم يكونوا يفعلونه.

وعندنا أثر عمر رضي الله عنه طلب من العباس أن يقوم ويدعو الله تبارك وتعالى وعندهم قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما ذهبوا إلى القبر، وما دعوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره.

(المتن)

باب ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، وسده طرق الشرك.

(الشرح)

والمراد هاهنا: بيان كيف حَمى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمى التوحيد، وسدَّ طُرق الشرك، وهذه الترجمة سبقت قبل ذلك في الباب الحادي والعشرين، فنفس هذه الترجمة جاءت في الباب الحادي والعشرين.

لماذا كرر هذه الترجمة؟

الباب الأول جاء به بعد ذكر بعض الأفعال الشركية، وهذا الباب جاء به بعد ذكر بعض الأقوال الشركية، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بحماية جناب التوحيد في جهة الأفعال وفي جهة الأقوال، وهذا القول قاله العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، ونبَّه عليه.

(المتن)

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقلنا: أنت سيدنا، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا؛ فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»، رواه أبو داود بسند جيد.

(الشرح)

صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في أكثر من موضع.

يقولون للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت سيدنا، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السيد الله تبارك وتعالى»، والسيد: هو الذي كمل في جميع سُؤدده وكرمه وجوده وعظمته وسائر صفاته.

ولذلك لما فسَّر ابن عباس: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]: قال: هو السيد الذي كمل في سؤدده، العظيم الذي كمل في عظمته، الرحيم

الـذي كمـل في رحمتـه، الحكـيم الـذي كمـل في حكمتـه، فكانـت لـه سـائرالكمالات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فقـالوا للنبـي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنـت سـيدنا، مـدحوا النبـي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألـيس النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الخلق؟ **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»**، هو القائل ذلك صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهنا يقول: **«السيد الله»**، ولا يقبل هذا المدح، لماذا لا يقبل هذا المدح؟

صيانة لهذا المقام لمقام التوحيد، لأن الرضا بالمدح، والسعي إليه مدعاة للتعاظم والإعجاب، وهذا ينافي العبودية، ولذلك لما كان النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الناس عبودية، صار يكره أن يُمدح، وإن كان فيه هذا الذي قيل، ولكنه يكره أن يُمدح.

بـل أرشـدنا النبـي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن نحثـو الـتراب في وجـوه المـداحين، قـال: **«احثُو التراب في وجوه المداحين»**.

وسـمع النبـي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجـلًا يمـدح رجـلًا، فقـال لـه النبـي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ويحك قطعت عُنق أخيك»**، لأن هذا المدح يحمله على التعاظم والكِبر، وهذا مما ينافي توحيـد الله تبـارك وتعـالى وتعظـيم التوحيـد في قلـب العبـد، لأن الكبريـاء لله تبـارك وتعالى.

«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، مَن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي».

فقـال النبـي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«السـيد الله»**، هـل معنـى هـذا الكـلام أنـه لا يجـوز أن نسمي الإنسان بالسيد، إنسان اسمه السيد، فهل هذا يجوز؟

إن كـان المقصـود بـاللام هاهنـا الـلام المسـتغرقة ، لمُحـت الصـفة فلـه كـمال السـيادة: فهذا لا يجوز.

وإن كان المقصود بالألف واللام هاهنا العهد فهو سيد قومه، كعزيز مصر، كما جاء في القرآن، أو المقصود أصل الصفة كما سبق في القاضي والحاكم وغير ذلك، أو المقصود أصل الصفة: فهذا مما يجوز.

قال: «السيد هو الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طَولًا: يعني مكانة وجاهًا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم»، أي ما اعتدتم عليه من الخطاب، وهذا فيه تواضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «ولا يستجرينكم الشيطان»، أي لا يحملنكم الشيطان على أن تقولوا ما يخالف تعظيم الله تبارك وتعالى وتوحيده.

(المتن)

وعن أنس رضي الله عنه، أن ناسًا قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا.

(الشرح)

وهذا حق، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الخلق، وهو ابن خير الخلق، ابن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو سيدنا وابن سيدنا، فأفضل الخلق خليل الله نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأتي بعده في المنزلة: خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(المتن)

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان».

(الشرح)

أي لا يميلن بكم إلى الهوى، فيفتح لكم باب شر.

(المتن)

«أنا محمد، عبد الله ورسوله».

(الشرح)

فهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المحمود في السماء والأرض، له المقام المحمود، وأعظم مقام هو المقام الذي نعته الله به؛ العبودية والرسالة.

ولذلك ذكر الله هذا المقام في مواضع شُرِّف فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وكذلك قال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فذكره في أعظم مكان وفي أعظم رسالة وهي الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

قال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل**»، رواه النسائي بسند جيد.

(الشرح)

إذًا هذه الجملة الأخيرة فيها أن الاتِّباع في تمام الامتثال، وليس بالمخالفة بحجة اتِّباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بعض الناس تقول له: ما فعل الصحابة ذلك، ما احتفلوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: ولو، سنحتفل اتِّباعًا وزيادة في محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نقول: هذا ليس من الاتِّباع بل هذا من الابتداع. من أكثر الناس تعظيمًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الصحابة، ولمَّا علم الصحابة كراهة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القيام له لم يكونوا يقومون له إذا دخل عليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشيخ الألباني يذكر عن بعضهم أنه لمَّا ذكر له هذا الحديث، وهذا فيه تمام متابعة الصحابة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم ما كانوا يقومون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا يعلمون من كراهته للقيام، رد عليه هذا القائل يقول: والله لو جاءني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوقفنا على رؤوسنا.

سبحان الله، الصحابة أفضل الناس وأكثر الناس تعظيمًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقومون متابعة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يقول: نقوم له على رؤوسنا، نسأل الله العافية.

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.

(الشرح)

أي ما الذي يجب عليك أن تقوله إذا قال لك شخص ذلك؟

(المتن)

الثالثة: قوله: **«ولا يستجرينكم الشيطان»**، مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: **«ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»**.

(المتن)

باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

(الشرح)

ختم المصنف بهذا الباب هذا الكتاب العظيم، وأراد به بيان عظمة الله تعالى الموجِبة لتوحيده وتقديره، وأراد أن يُعرِّف بالسبب الأعظم في فقد التوحيد، والخَلل في تحقيقه، فما وقع الخلل في تحقيق التوحيد إلا من عدم تعظيم الله وتقديره حق قدره.

لماذا كفر الناس بالله؟ لعدم تعظيمهم له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد أحسن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كعادته في التبويب، فإنه قابل بين فاتحة الكتاب وخاتمته، فابتدئ كتابه بذكر ما يُوجِب وجوب التوحيد، فالتوحيد واجب، وهو الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ذكر هذه الآية في أول باب.

فلما كانت هذه هي الغاية صدَّر بها الكتاب، وختم بذكر موجِب فقد التوحيد، فبدأ الكتاب بذكر موجب وجود التوحيد؛ أنه الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، وختم الكتاب بذكر موجِب فقد التوحيد، وهو عدم تعظيم الله، فرد آخر الكتاب إلى أوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال في هذه الآية: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾: أي ما عظَّموه حق تعظيمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكر دليل التعظيم ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

(المتن)

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار.

(الشرح)

والحبر واحد الأحبار، وهم علماء اليهود.

(المتن)

جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد! إنا نجد.

(الشرح)

أي في التوراة.

(المتن)

أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع.

(الشرح)

وهذا فيه رد على المعطِّلة، فلله أصابع، وله يدان، وله أنامل، وله كف، وهذه اليد تقبض وتبسط، هل نستطيع مع هذه الأوصاف كلها أن نؤول اليد بالنعمة أو القدرة؟

هذه أوصاف يد حقيقية، ولذلك كان من رد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصواعق المرسلة، قال: إن وصف اليد بكل هذه الأوصاف يدل على أنها يد حقيقية، لا يمكن على هذه الصورة أن تؤول اليد بالنعمة أو القدرة.

هذا الحبر يقول: إن لله أصابع، هل يسكت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تمثيل الله بخلقه؟ وتشبيه الله بخلقه من رجل يهودي وهو لا يُقر على باطل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فدل ذلك على أن لله أصابع.

بل ضحك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا فيه زيادة إقرار منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول الله تبارك وتعالى بعد أن يضع هذه المخلوقات على أصابعه:

(المتن)

فيقول: أنا الملك.

(الشرح)

وهذا فيه حصر، فإن الجملة معرفة الطرفين من المبتدأ والخبر، فمعناه: أنه لا ملك إلا هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة.

(المتن)

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله. وفي رواية للبخاري: يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، أخرجاه.

(الشرح)

قد تجد بين بعض هذه الروايات ما ظاهره التعارض، يعني هنا يقول: سائر الخلق على إصبع، فجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، ولسائر الخلق على إصبع.

وفي الرواية التي قبلها: جعل السماوات على إصبع، والأرض على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ولا تعارض بين الروايات:

لأنه كما قال بعض الشراح: إما أن تراد الأصبع بعينها، أو أن يراد جنسها، لا تحديد إصبع بعينه.

(المتن)

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا.

(الشرح)

يعني من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

(الشرح)

وهذه الرواية فيها ذِكر الشمال لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الرواية عند مسلم في المتابعات لا في الأصول، ولذلك حكم بعض العلماء بشذوذ هذه اللفظة وهي قوله بشماله، والصحيح: بيده الأخرى، يأخذ السماوات بيمينه، ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بيده الأخرى.

والآفة في هذه الرواية: عمر بن حمزة، راوي هذه الرواية وهو ضعيف، خالف الثقات.

فالصحيح: أن كِلتا يديه يمين كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم يقول: **«أنا الملك، أين الجبارون؟»**، وهذا الاستفهام للتحدي، لأن الجبارين والمتكبرين يُحشرون يوم القيامة كأمثال الذر، يطؤهم الناس بأقدامهم، أو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

وروي عن ابن عباس، قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن.

(الشرح)

هذا فيه إثبات الكف للرحمن.

(المتن)

إلا كخردلة في يد أحدكم.

(الشرح)

كشيء صغير جدًا.

(المتن)

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما السماوات السبع في الكرسي».

(الشرح)

الذي هو موضع قدم الرحمن، «إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرس».

(الشرح)

والتُرس هو القاع المستدير المتسع من الأرض، أو هو ما يُتَّقى به في الحرب، والمراد المعنى الأول.

فهذه الدراهم لو أُلقيت في هذا التُرس لا تظهر وليس لها قيمة في حجم هذا التُرس، فكذلك حجم السماوات السبع بالنسبة للكُرسي، والعرش لا يقدر قدره إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

(الشرح)

يعني الصحراء.

(المتن)

وعن ابن مسعود قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام.

(الشرح)

أي الماء الذي فوق السماء السابعة.

(المتن)

والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمه عن عاصم عن زر عن عبد الله.

(الشرح)

وهذا مما لا يقال بالرأي، ولا يقبل الاجتهاد، وهو صحيح إلى ابن مسعود، فله حكم الرفع.

فبين كل سماء وسماء مسيرة خمس مائة عام، والماء فوق السماء السابعة، وفوقه الكرسي، وفوقه عرش الرحمن، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

(المتن)

ورواه بنحوه عن المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى، قال: وله طُرق.

(الشرح)

قلنا: هو صحيح.

(المتن)

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكِثف كل سماء خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض،

والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»، أخرجه أبو داود وغيره.

(الشرح)

وهذا الحديث ضعَّفه بعض أهل العلم، وصححه بعضهم، وممن قواه شيخ الإسلام في الحموية، وابن القيم في مختصر الصواعق، قال: رواه أبو داوود بإسناد جيد.

وهذه الأحاديث والله لو أجراها المعطِّلة والمؤولة على حقيقتها وعلى معناها المراد كما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لتغير حالهم ولعظُم قدر الله وقدر توحيد الله تبارك وتعالى في قلوبهم، ولكن نسأل الله العافية، يردون كل هذه النصوص، ولا يذكرونها في كتب الاعتقاد.

لا تجد في كتبهم الكلامية إلا جدلًا وسفسطة، قد لا يفهمها العلماء فضلًا عن العوام، ويقولون: هذا هو التوحيد!!

(المتن)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه صلى الله عليه وسلم لم ينكروها ولم يتأولوها.

(الشرح)

كانت موجودة. كثير من الحقائق التي تدل على صدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى نبوته كانت موجودة وقت مبعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنهم حرَّفوها وبدَّلوها وإلا:

فقل لي بربك، قال الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف، وهي سورة مكية عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لو لم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكتوبًا بوصفه واسمه في التوراة والإنجيل ألم يكن ذلك حجة لقريش ليقولوا: أنت كذاب؟ كان مكتوبًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوراة والإنجيل، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبنائهم.

ولذلك أخبرنا شيخنا الشيخ عادل السيد أن من حيلهم: أنهم جاءوا على كل ذكر لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمه ووضعوا مكانه عبارة أخرى ولكن بشفرة معينة، ما هذه الشفرة؟ كشفها أحد أحبارهم بعد أن أسلم، ما هذه الشفرة؟

جاءوا بهذه العبارات التي فيها ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو وصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لو جئت في اسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الحروف محمد، وحسبتها بطريقة عد الجمل أبجد هوز، تجدها تعطيك رقم اثنين وتسعين، فماذا صنعوا، جاءوا فحذفوا اسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووضعوا مكانه كلمات لو حسبت حروفها لخرجت بنفس العدد.

وجاء شيخنا حفظه الله ببعض الكلمات من التوراة والإنجيل لمَّا حُسبت جاءت بنفس العدد، شفرات وضعوها ليعلموا مكانه في التوراة والإنجيل، فكان اسمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجودًا في التوراة والإنجيل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

(الشرح)

وهذا إقرار من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

المعطلة يقولون: إنما ضحك يستهزئ به، أو لأنه لم يكن مسلمًا فلا حاجة لتنبيهه على خطئه، كلام لا يقبله أي أحد.

النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسمع الباطل يقال على ربنا تبارك وتعالى ويسكت؟ بل يضحك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ وهذا من أعظم صور الإقرار، فالإقرار له صور: النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد يسكت، وقد يضحك، وقد يتكلم بما يدل على إقراره، كما في حديث أبي سعيد الخدري، لما قرأ الفاتحة كرقية، ماذا قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ «اضربوا لي بسهم»، لم يقل: هذا يجوز أو لا يجوز، قال: «اضربوا لي بسهم»، فقوله ذلك دليل على إقراره صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على فِعله، فضحكه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دليل على تصديقه، وابن مسعود يقول تصديقًا لهذا الحبر، وهم يقولون: ضحك مستهزئًا به أو غير ذلك.

(المتن)

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

(الشرح)

قلنا: الصحيح وإن كان في المسألة خلاف بين العلماء: أنها لا تُنعت بالشمال، لأن الأصل في صفات الله التوقيف، أي لا بد أن تأتي من طريق صحيح في كتاب الله أو سُنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(المتن)

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماوات.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشر: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشر: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشر: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشر: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

(الشرح)

فله علو الذات، وعلو القدر والقهر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(المتن)

السابعة عشر: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشر: كِثف كل سماء خمسمائة عام.

التاسعة عشر: أن البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. (الشرح)

وبهذا بحمد الله وفضله ومنه نكون قد انتهينا من هذا الكتاب، نسأل الله أن يرزقنا ما فيه من العلم والعمل، وأن يرزقنا كمال التوحيد ومتابعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى أن نلقاه.

سبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

فهرست كتاب التوحيد

٥٧. قول الله تعالى: { يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء)

٥٨. ما جاء في منكر القدر

٥٩. ما جاء في المصورين

٦٠. ما جاء في كثرة الحلف

٦١. ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

٦٢. ما جاء في الإقسام على الله

٦٣. لا يستشفع بالله على خلقه ...

٦٤. ماجاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسده طرق الشرك.

٦٥. {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة}.